سَاقْ الفَرَسْ

- رواية -

ضياء جبيلي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://www.facebook.com/BookLover8
https://t.me/BookLover8

ساق الفرس

ضياء جبيلي

لوحة الغلاف تصميم أمل الرشيدي

الطبعة الأولى 2019

جميع الحقوق محفوظة لدار الفراشة للنشر والتوزيع ـ الكويت، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أونقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

All rights reserved، is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book، or part thereof، or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information، whether electronic or mechanical، including photocopying، recording، or storage and retrieval، without written permission from the rights holders

دار الفراشة للنشر والتوزيع
DAR AL FARASHA PUBLISHING AND DISTRIBUTION
صاحبه عبد الله السالم ص.ب 153 الرمز البريدي 72252 الكويت
Alfarasha_q8 Alfarashaq8
alfarashapublishing@gmail.com

جميع الاراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولاتعبر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 9789996636790

رواية

ساق الفرس

ضياء جبيلي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كما ينسل نور خائف من فرجة الباب

إلى الظلماء في غرفة

سمعت هتافه المجروح يعبر نحوي الشرفة

ليرفع من سماوة لندن الليل المطل بلونه الكابي

على الطرقات ترقد في دثار الثلج ملتفة.

(من ليالي السهاد/ ليلة في لندن ـ بدر شاكر السياب)

ثم وجد أن رجل الجواد كُسرت، فقتله بمسدسه ليريحه.

(المدرعات الارضية ـ ه، ج، ويلز)

لم تعد صالحة للحياة، كانت تلك الطريقة الوحيدة لإنقاذها من بؤسها.

(إنهم يقتلون الجياد، أليس كذلك؟ ـ هوراس ماكوي)

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لندن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(1)

صباح العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، 2016.

كنت أحضّر رسالتي للماجستير في مكتبة كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، قسم لغات وثقافة الشرق الأدنى والأوسط، جامعة لندن، حين اتصل بي مارك ليعلمني بالخبر المفجع: ماتت شقيقتي، صغيرتي العزيزة عبير، ألقت بنفسها من نافذة غرفتها في الدور الرابع وتهشمت عظامها وتوفيت على الفور.

كان وقع الخبر في نفسي لحظتها عنيفاً ومأساوياً، ارتفع دوّيه إلى رأسي، حتى كاد يفقدني عقلي، قبل أن يقذفه فمي، صرخة هائلة أيقظت النائمين في القبور، كما تصف أمي صراخ المنكوبين. لا أعلم بعدها ماذا حدث، وكيف ومتى خرجت من المكتبة، ووصلت إلى السيارة، هناك، حيث توقفت عيني اليسرى عن الإبصار، ولم أعد أرَ فيها شيئاً، كما لو أن عصباً كان يربطها بزرٍ، ضغط عليه إصبع القدر الطائش فانطفأت، أو ربما تلقت إيعازاً من القلب، بما أنها تقع في الجهة نفسها، فأجفلت لثانيةٍ ثم أظلمت. لم يقلقني الأمر، لماذا عليّ أن أقلق؟ حدّثت نفسي، عبير وماتت، المسكينة انتحرت، ولم يعد ثمة شيء في حياتي يشكل مدعاة للقلق، باستثناء زوجي، فهو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كل ما تبقى لي في هذه البلاد الغريبة، والوحيد الذي كنتُ ما أزال، حتى ذلك الوقت، أوليه ثقتي. لم يقلقني الأمر بقدر ما شغلني، فبينما أنا في الطريق إلى وايت تشابل، في حي تاور هامليتس، عند الطرف الشرقي من لندن حيث أسكن، كنت أغلق عيني اليمنى بيدٍ وأضع اليد الأخرى أمام العين اليسرى لأختبرها. كانت النتيجة صادمة، لم أرَ شيئاً، فقط نقاط بيضاء مثل نمش، أو نيازك صغيرة تومض وتختفي. كانت طريقة بلهاء لاختبار شيء توقف عن العمل، في أوقات حرجة، كتلك التي تتلقى فيها الأخبار السيئة، سقوط أحدهم من خلال نافذة، في الدور الرابع كمثال، بينما تصرف أنت النظر عن ذلك، في محاولة بائسة لمعرفة إن كنت أصبحت نصف أعمى. أحسست بالظلام وهو يلتصق بعيني، مثل مادة هلامية سوداء، طفيلية وباردة. دائماً ما أتخيل الظلمة بهذا الشكل، كتلة من الهلام اللزج، الكريه، تلتصق بفصوص الأعين كالرمد، وتحجب الرؤية تماماً. لقد أربك كل هذا حالة الحزن التي كنت أعيشها، ظننت أني لن أستطيع البكاء بعد الآن، لم أذرف دمعة واحدة، أو حتى أجهش على سبيل التباكي، حتى العين اليمنى، التي من المفترض أنها ما زالت سليمة وبوسعها رؤية الأشياء، لم يخرج منها ما مقداره جناح بعوضة، كأنها تواطأت مع أختها لتضعانني معاً أمام مأزق نفسي دفعني إلى الشك في أصالة حزني، وتقديري لحجم الفاجعة. كنت سأظل أؤنب نفسي لفترة طويلة لو لم أبكِ، لكني بكيت على أي حال، فعلتها بعد أربعة أيام، حين انتهت مراسم الدفن وغادر المعزون. وكأني انتظرت كل هذه الفترة لأتمكن من البكاء، رغم وجود ما كان يدفعني اليه بشدة. يحدث مع البعض أن يُرجئُ أحدهم إظهار حزنه، حتى ينصرف عنه الجميع، ويلفى نفسه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وحيداً في النهاية. حينئذ، يكون بمقدوره إطلاق أول صرخة، يستمرّ صداها بالتردد بين الجدران، قبل عودته إليه، ليصمّ أذنيه بإحساس صادم، يكشف عن عمق الحزن الذي ينتظره في القابل من الأيام. أما ما حدث معي، فهو أني لم أستطع البكاء حقاً.

وبالعودة إلى اليوم الذي غادرتنا فيه عبير، اكتشفت تعرضي إلى صدمة شديدة، بدأت منذ لحظة تلقي الخبر المفجع، واستمرت حتى حين وصولي إلى موقع الحادث، قبالة البناية التي نسكنها. كانت صدمة عنيفة تخللتها أوقات استعدت أثناءها وعيي، في حين بقيت أجهل ما فعلته قبلها في المكتبة، إلى أن أخبرتني صديقتي ناتالي ستيفنسون كل شيء.

قد يُجن أحدنا بشكل مؤقت، وتدخل حواسه في دوامة الفلتان، يكف عن إدراك ما حوله، يفقد فهمه للعالم والأشياء، ويتصرف بطيش، ومن دون وعي بما يفعله من حماقات، أو يرتكبه من عنف. أليس الوعي هو العقل؟ ربما من وجهة نظري على الأقل. حين يفقد الناس وعيهم يصبحوا مجانين، وأعتقد أني أصبحت مجنونة لبعض الوقت، فقدت فيه القدرة على التواصل، مع أداء غريزي وفطري كالبكاء. ومن يعلم، ربما بكيت فعلاً، ربما لم تُطفأ عيني، إنما جزء حيويٌ في داخلي هو من أصبح مظلماً ومهجوراً، قلبي مثلاً، فانعكس تأثيره على عينٍ، في حين ضلّ طريقه إلى العين الأخرى، لكي أرى من خلالها جثة عبير، التي كانت ما تزال في مكانها على الأرض الاسمنتية حين وصلت. كانت ملقاة هناك، في وضع جنيني لم تألفه حوادث إلقاء الناس بأنفسهم من النوافذ والشرفات، ولولا بقعة الدم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الشبيهة بهالة حمراء غامقة حول رأسها، ذكرتني بلوحات القديسين، لبدت كأنها نائمة بشكل طبيعي. طالما رأيتها بهذا الوضع، الشكل الأكثر براءة للأطفال أثناء النوم الشكل الذي تتخذه الأجنة، وتنساه بعد الولادة. لكن يبدو أن عبير، رغم سنواتها التسعة عشر، لم تنسه أبداً، أو حتى تعتاد على الأوضاع الجديدة، فهي، ومنذ أن ولدت، تكوّر جسدها إلى أقصى حد، داسةً يديها بين فخذيها، في مشهد نوستاليجي، تبدو فيه، كأنها مهووسة بفكرة العودة إلى رحمٍ لفظها منذ زمن بعيد. ورغم ذلك، كان المشهد مروّعاً، لم استوعبه حالاً، أو أدرك حتى الآن كم يتطلب من الوقت كي أنساه. كنت بحاجة إلى فترة من الزمن، لأتأكد أن ما حدث يخصني، وأن تلك الجثة المهشمة عائدة إلى شقيقتي. كنت أريد التشكيك بشأن هويتها، وأحث رجال البوليس على تفقد وجهها ومطابقته مع صورتها، مع أنّ شيئاً لا يدعو إلى الارتياب من أنها هي نفسها، عبير، صغيرتي المسكينة عبير. أحسست بثقل ذراعي مارك وهو يحتضنني، خلت للحظات انه يبكي، في وقت كنتُ ما أزال عاجزة عن اعتصار دمعة ضئيلة. حتى وهو يقودني صعوداً إلى الشقة، ثم إلى غرفة النوم، كان صوته، ولا أعرف إن خيّل لي هذا أم كان حقيقة، أقرب للنخير منه إلى البكاء. استمر بمواساتي قائلاً كلاماً لم أعِ منه شيئاً، فقد أصبحت حينها على وشك الإغماء. تركني مع ناتالي التي كانت في إثرنا، وانصرف هو ليتابع سير التحقيق. كنت أرتجف من البرد، ومنهكة إلى حد الإعياء، ورغم ذلك، كان بوسعي سماع الجلبة التي أحدثتها الشرطة، فعلى ما يبدو، وكما اتضح لي فيما بعد، أنهم فتّشوا غرفة عبير. كانت ناتالي، في تلك الأثناء، تؤدي ما وقع على عاتقها من واجبات الصديقة تجاه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

صديقتها المنكوبة. فما عدا المواساة، ومحاولة تصبيري وتهوين الأمر عليَّ، أتذكر أنها ساعدتني على تغيير ثيابي، وناولتني قدحاً من الماء وقرصاً مهدئاً بالكاد ابتلعته، لأغطّ بعدها في نوم عميق، امتد من وقت الظهيرة حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي. لم اجد ناتالي حينما أفقت، فعلى ما يظهر أنها غادرت مساء الأمس، في حين ترك مارك رسالة على وسادته هذا الصباح، يخبرني فيها أنه ذاهب الى مركز الشرطة على طريق بيشوبس كيت.

أول ما فعلته، بعد استيقاظي بدقائق قضيتها في محاولة استيعاب أحداث الأمس، هو اختبار عيني مجدداً، أغمضتها وأبقيت الأخرى مفتوحة، لأرى إن كان بوسعي الرؤية. حدّثت نفسي، في محاولة للتكيف مع عماي إذا ما فشلت المحاولة، واكتشفت أنها ما زالت مُطفأة: إن كان هناك من أثرٍ يذكرني بمأساة عبير، فليكن العمى إذن! الا أنها عادت إلى العمل مجدداً، لم أنجح في إخفاء الارتياح حيال الأمر، وفي الوقت نفسه شعرت بالكآبة، وربما الخوف أيضاً، وكأن العمى المؤقت، حين أصاب عيني، مثّل جزءً من حزني على شقيقتي، وها هو الآن يتلاشى، ويضعني مجدداً في مأزق مع نفسي. ظننت أني مريضة، وأعاني من اضطراب عصبي، يدفعني نحو الشعور بالتقصير في إبداء ما يليق بهذه المناسبة من أقصى درجات الحزن. لم يكن بوسعي، في تلك الاوقات العصيبة، تذكّر ردة فعلي الفورية إزاء ما حدث، هل حقاً بقيت ساكنة طيلة الوقت، ومشغولة بتفقد عيني واختبارها؟ لا يعقل أني لم أبكِ حتى، أو أفعل أياً من الأشياء، التي عادة ما تكون ردة الفعل الطبيعية، لشخص تلقى خبراً صاعقاً مفجعاً،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كأن أصرخ أو أصيح بعلو صوتي: يا إلهي! أنا من سلالة مجبولة على البكاء، ابنة المراثي الضاربة في القِدم، ومواويل الهور الغارقة بالدموع، وصوتي مثل كسرٍ في ناي، لا يجبره عزف الرعاة ولا يواسيه حفيف القصب، فكيف يحدث أن تموت شقيقتي ولا تسقط مني دمعة واحدة؟! لقد تفاقم شعوري بالتقصير في إبداء التعاطف، خصوصاً وأن المتوفاة هي شقيقتي، وفي كثير من الأحيان ابنتي التي لم ألدها. يقال أن الحزن في القلب، نعم يحدث، لكن، لم يكن الأمر معي على هذا النحو. كنت حزينة، لا أشك أبداً في هذا، غير أني، في الآن نفسه، لست من أولئك الذين يضمرون الأحزان في قلوبهم. ورغم ما يشاع عن كوني امرأة صبورة إلى أبعد حدٍ يمكن تصوره، وقد لا أشك في هذ أيضاً، فطالما احتملت من الآلام ما يجعل امرأة أخرى لا تتردد في إنهاء حياتها بيدها، إلا أن كبت مظاهر التفجّع إزاء انتحار شقيقتي لن يكون في النهاية أمراً أحمد نفسي عليه.

وبينما أنا كذلك، وبطريقة أو أخرى، التمع في ذهني تفصيلان آخران من تفاصيل ذلك النهار المشؤوم. فبالإضافة إلى العين المُطفأة، اكتشفت، عندما كانت ناتالي تساعدني على خلع ثيابي في الشقة، أن تلك الثياب كانت مبللة. لا أتذكر إنها كانت تمطر، فما الذي حدث وجعل المياه تغمرني بهذا الشكل؟ كان كل شيء فيّ مبللاً، من رأسي حتى قدميّ. الشيء الآخر هو أني بتّ أتذكر الآن، وبصورة واضحة، حينما كنت في السيارة التي أقلتني من الجامعة إلى وايت تشابل، أن ثمة شعر عالق في أصابع يديّ، لا يسعني الآن نكران أنه عائد لي، فقد كان بلون عسلي من نوع الأصباغ شبه الدائمة، لا يزول

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

إلا بعد غسل الشعر من خمس إلى عشر مرات، وكنت قد صبغت به شعري آخر مرة، قبل الحادثة بيومين، ليس جرياً على عادة النساء في تغيير صبغة الشعر بين فترة وأخرى، بل لأُخفي الشيب الذي غزا رأسي بصورة كارثية تبعث على الإحباط، إذ كان يظهرني أكبر من عمري بسنوات. وها أنا أتساءل مجدداً، ما الذي حدث أيضاً وجعل خصلات من شعري تنتهي إلى يديّ؟ هل بدأ شعري بالتساقط؟ وإذا كان الأمر يجري على هذا النحو وبمثل هذه الكثافة، فهذا يعني تحوّلي إلى صلعاء في غضون أيام، وهو سرّ لم أدركه إلا بعد ساعتين. لكن قبل ذلك، كنت قد تفقدت نفسي في المرآة، فهالني ما رأيت، شعرت بالرعب للحظة وحجبت وجهي بيديّ. كان أشبه بذاك الرعب الذي انتابني قبل عشرة أعوام داخل القاعدة البريطانية، في البصرة، عندما نظرت إلى وجهي بعد إفاقتي من الغيبوبة ولم أعرفه، رغم أن حجم التشوّه الذي طاله كان أكثر بكثير مما رأيته يوم ماتت عبير، إذ اقتصر الأمر هذه المرة على الهالة الزرقاء حول عينيّ، والخدوش التي تبدو كآثار المخالب على خديَّ، وتمزّق شفتي السفلى. كان أمراً غريباً عدم شعوري بكل هذا الخراب قبل تلك اللحظة. ظننت في البداية أني قد أكون واهمة في ما رأيت، بسبب عمى عيني اليسرى المؤقت، وإلا، ما الذي حدث لي يا ترى؟ صدّعت الأسئلة رأسي. حاولت أن أهدأ، أغلب المصدومين لا يشعرون بما يفعلونه بعد اللحظة التي يفلق فيها حجر المصائب رؤوسهم، يبدو أحدهم كالمعتوه، ولا يمكن التكهن بتصرفاته، ولا أحد يلومه على شيء، لكن ليس في بلد مثل انكلترا على أي حال. أنبّت نفسي كثيراً، وتساءلت عما إذا كانت هذه الأشياء ستشغلني عن حزني هي الأخرى، فها أنا أواجه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

صعوبة البكاء من جديد. هناك أموراً كثيرة عليّ القيام بها، فما قيمة أن أعرف ما حدث لي نهار اليوم الماضي، حينما كنت غارقة في أعماق الصدمة؟ أو حتى معرفة سبب العمى في عيني اليسرى والبلل في ثيابي والشعر في يديَّ، والجروح والكدمات في وجهي، أمام أشياء رئيسية أخرى، كمراسم الدفن، واستقبال المعزين، والأهم من كل هذا الاطلاع على تقرير الطب الشرعي بشأن الحادثة. لم أفكر أن أسأل مارك، أثناء ما كان يواسيني نهار أمس، عما حدث لي، ليس لأن الوقت لم يكن مناسباً فحسب، بل سأبدو في حينها مثل سكّير يسأل إذا كان هو من كسر زجاج المرآة، أم أنه تعرض للطعن بسكين، وإلا فيجب على أحدهم كشف السر وراء الدم الذي يلطخ يديه.

كنت لا أزال منهكة، وأعاني من آثار انهيار الأمس. خلت للحظات، حين أردت النهوض، أن عظامي مهشّمة، إلى درجة لن أتمكن بعدها من الوقوف على قدميَّ، وقد زاد النوم لساعات طويلة من بلادتي، كأن الأمر لم يكن مقتصراً على قرص منوّم أعطتني إياه ناتالي، فربما حُقنت بمهدّئ أقوى أجبرني على النوم كل تلك الفترة. كان شعوري في حينها يقترب من شعور المرء بعد خضوعه لعملية جراحية، ثمة طعم مرّ في حلقي، وضيق في التنفس، وغشاوة في العينين، وألم يسري في جميع أنحاء جسدي. بدا من الصعوبة تصديق أمر كهذا، وهو أن عبير لم تعد بيننا. منيت نفسي بالبكاء، ولم استطع، حاولت التغلب على الخواء المستشري في داخلي، وفراغاً ماحقاً أشعرني بغربة فاقت حدود ما انتابني في محنٍ أخرى عشتها من قبل. كنت فاقدة التركيز، شاعرة بفقداني للأمل، وأشياء أخرى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

غامرت من أجلها، الحياة، الحرية، العدالة، وعبير، عبير، السبب الوحيد والمنطقي وراء استمراري بالعيش، رغم كل المآسي التي حصلت لي.

خطر لي الاتصال بصديقتي ناتالي، بعد انجلاء أغلب تأثيرات الصدمة وانقشاع ضبابها، الذي حجب كل شيء تقريباً بشأن ردة فعلي. كانت برفقتي في المكتبة عندما اتصل مارك بي. لم تكن تعلم بعد، حين اتصلت بها، أني أفقت من صدمتي، أحسست أنها تختبرني لتعرف ما إذا كنت لا أزال أفعل «أموراً فظيعة» كما وصفتها، وفاقدة الإحساس بما حولي، بل حتى بنفسي.

قالت بعد أن واستني مجدداً:

«أنا آسفة عزيزتي! هل أنت متأكدة من أنك بخير؟»

«نعم أنا بخير» أجبتها بصوت لا يظهر ما ادعيته للتو، كان صوتاً ظننت لوهلة كأن هناك ما يجعله يخرج مع الدم من أفواه المصابين بالسلّ: «لقد استدعت الشرطة مارك هذا الصباح»

«ارجو ألا يكون هذا مدعاة لقلقك، إنّهُ مجرد اجراء روتيني واظن انه سيتكرر بما أن مارك يسكن معكما في الشقة» ردت ناتالي بنبرة تهوين مبالغ بها: «حسناً.. قلقت بشأنك يا امرأة، ظننت أنك ربما فقدتِ عقلك!»

«ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟» سألتها.

«أوه يا إلهي!» قالت ناتالي وهي تلفظ اسمي كالعادة بشكل مضحك: «هل فعلاً أنك لا تتذكرين شيئاً يا سليمة؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«نعم حقاً، أنا لا أتذكر، ربما عليك أن تشرحي لي بشكل مباشر، هل استطيع رؤيتك اليوم؟»

عادت ناتالي بعدها للتأكد فيما إذا كنت بخير، وأني خرجت من صدمتي فعلاً، وأن بمقدوري الاصغاء، قبل أن تتفوه بأي كلمة. وعندما أكدت لها ذلك، رغم أن العكس هو الصحيح، قالت:

«كنت في الطريق إليك على أي حال، لقد اتصل بي مارك قبل ساعة وطلب مني الذهاب إلى شقتكِ»

أتذكر معاناتي مع الصداع، كان أشبه بوجع الشقيقة أو الصداع النصفي، وكان أمراً طبيعياً، على افتراض أن خللاً ما سبق وأن أصاب عيني اليسرى، بالإضافة إلى أنه كان أول علامات الإصابة بالرشح. بلغ الألم في وقتها حداً كاد يدفعني إلى الجنون. لو كان مارك موجوداً لألح عليّ بمراجعة الطبيب، وكنت سأرفض بالتأكيد، بدعوى عدم رغبتي بالتمدد على سرير جهاز الأشعة المقطعية، حيث يقيدون عليه المرء بالأربطة كما يُفعل مع المعتوهين. لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي يمنعني من الخضوع إلى مثل هذه الفحوصات، إنما يتعلق الأمر بالحالة النفسية، بذكرى أليمة، بحدثٍ أحاول جاهدة ألا أستعيده، لكن من دون فائدة، ففضلاً عن جهاز الكشف بالأشعة المقطعية، تأتي الآن هذه الكتابة لتذكرني به. وعلى أي حال، سأترك الحديث عنه حتى يحين وقته، أما الآن، فلا بد من العودة إلى لقائي بناتالي في الشقة.

فكرت، قبل وصول ناتالي، بالاستحمام وارتداء ثياب تلائم ما اعيشه من حالة حداد. قصدت الخزانة، وما أن فتحتها، حتى تذكرت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ثيابي التي كنت أرتديها يوم انتحار عبير. من المؤكد أنها لم تكن بين الثياب الأخرى، فرحت أبحث عنها بنفسي في أرجاء المنزل، وتحاشيت أثناء ذلك الدخول إلى غرفة عبير، حتى وجدتها ملقاة في سلة الغسيل، قرب الغسالة. بنطلون جينز ستريت، قميص بنفسجي مائل إلى الزرقة، معطف اسود طويل، ما عدا الألبسة الداخلية. تفقدتها جميعاً، شممتها، واستغربت عندما لاحظت أن القميص من دون أزرار، لغز جديد بحاجة إلى حلّ. ومن بوسعه أن يفعل هذا سوى ناتالي التي وصلت بعد ساعة، كنت قد استحممت خلالها، وارتديت ثياباً سود فضفاضة كما تفعل الأمهات في العراق. تحاشيت للمرة العاشرة الدخول إلى غرفة عبير، ابتلعت أقراصاً مهدئة، واتصل بي مارك ليطمئنني أن لا شيء يدعو للقلق وأنه سيعود بعد الظهيرة. فكرتُ في حينها: ماذا لو لم يعد؟ ماذا لو شكّت الشرطة أنّ له يداً في الحادثة؟ هذا ما كان ينقصني لأكون وحيدة وكئيبة بقية عمري، شقيقة منتحرة ترقد في المشرحة ولم تدفن بعد، وزوج معتقل بتهمة القتل العمد، وامرأة وحيدة تفكر بالانتحار.

هل حقاً فكرت بالانتحار؟

ربما فعلت في وقت لاحق، عندما لم يعد هناك ما يستحق الاستمرار في الحياة من أجله. أو هكذا ظننت في وقت كان كل شيء فيه يؤلمني، حتى الهواء المشبع بالضباب، الأصوات، الأضواء، وجرس الباب، لكن ليس في المرة التي ضغطت صديقتي ناتالي على زره في ذلك اليوم الغائم من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2016.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(2)

كانت ناتالي في منتصف الثلاثينيات من عمرها، تتمتع بمواصفات المرأة الانكليزية المثالية، ليست نحيفة، لكنها متوسطة الطول، بثديين ممتلئين، وقامة ذات انحناءات بارزة عند الخصر، مما جعلها من صنف النساء المفضلات. غير أنها لا تبدو، رغم ذلك، مأخوذة بكون هيئتها جاذبة للرجال، وهي على هذا النحو، تملك وجهاً مشرقاً، لا يخلو من الجدية والصرامة إذا ما تطلب الأمر، مع مسحة من الحزن لا تفارق ملامحها، بسبب تعرضها إلى حادثة أليمة، دفعتها إلى الكآبة في فترة من حياتها. كانت امرأة جميلة وطموحة، شجاعة ومناصرة لحقوق المرأة، وحريصة على موازنة الأمور، وتحقيق العدالة والانصاف.

جلسنا في الصالة، كلتانا صامتتان. وباستثناء كلمات الأسف والمواساة التي أغدقتها ناتالي عليَّ عند الباب، لم تكلم إحدانا الأخرى لدقيقتين أو ثلاث أحسست اثناءها بالتوتر. كما لو أن عدم البكاء واستدرار الدموع في حينها كان مدعاة للخجل، بتّ أشعر أن من واجبي فعل شيء. تخيلت كم سيكون المشهد مصطنعاً إذا ما عصرت عينيّ وأصدرت صوتاً يشبه البكاء. ولولا مبادرة ناتالي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بالكلام أخيراً، لبدا الاستمرار بما أنا عليه من سكينة غامضة أشبه بضرب من اللامبالاة، أمام نفسي على الأقل، من دون أن يكون لذلك علاقة بنظرة الآخرين لامرأة تقضي فترة الحداد على شقيقتها، إذ لا يُحدد مقدار حزن الشخص بما يرتديه من ثياب، أو ما يطيله من الشعر في ذقنه، ولا حتى بما يذرفه من دموع كما يحصل في العراق.

«إذن.. أنتِ تجهلين ما حصل بالأمس!» قالت ناتالي.

أومأت لها برأسي، شعرت بالتأنيب حين شعرت أني أشرف على الخوض في حديث عن نفسي، بدلاً من الحديث عن شخص المرحومة، كما يحصل عادة في المآتم وأحزان الفقد، عندما يذكر المعزون محاسن المتوفى، وكم كان طيب القلب، صافي السريرة، قنوع ومثابر ومقبل على الحياة ويحب مساعدة الآخرين. فكرت بالحديث عن عبير، على طريقة أمٍ عراقية تنعى ابنة لها أو شقيقة ماتت بعمر الورد. أقول عمر الورد كناية عن الفتيات اللائي يمتن في عزّ الشباب. أعرف هذه الطريقة جيداً، ولم أنسَ أبداً عويل إحدى نساء الحي على ابنتها التي انتحرت بطريقة بشعة، سكبت على جسدها غالون من النفط الابيض وأشعلته بعود ثقاب، الطريقة الأكثر شيوعاً لانتحار النساء داخل العراق. الانتحار بالنفط الابيض في بلاد النفط الأسود. تجهل الشركات العملاقة المنقِّبة، الكثير بشأن ما تستخرجه من باطن هذه الأرض، وأن استعماله لا يقتصر على تشغيل العالم وإضاءته وإدامة صناعته، بل يمتد إلى أكثر مما ينبغي له فعله، مثل إنهاء النساء الكئيبات واليائسات والمريضات نفسياً، والعدميات، حياتهنّ بما يُستخلص منه: نفط أبيض، بنزين، غاز، ما عدا الحروق

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المميتة، قد يسببها انفجار اسطوانات الغاز والمواقد والتنانير الغازية، كذلك صهاريج الوقود سريع الاشتعال، حينما تفجرها المنظمات الإرهابية وسط الأسواق المكتظة، والحرائق التي تنشب بسبب المدفئات في الشتاء. يذكرني الغاز بسيليفيا بلاث دائماً، رغم أنها لم تقتل نفسها بغاز الطبخ العراقي. حدث ذلك في عام 1963، حين لم يكن العراق يصدر شيئاً من الغاز الطبيعي بعد، واستمر بإهدار هذه الثروة بالحرق، حتى أيامنا هذه. عموماً، لقد أصرت الأم العراقية المنكوبة على معانقة ابنتها المحترقة قبل الدفن، وهي منذ ذلك اليوم تشعر بالغثيان والإعياء، كلما شمّت رائحة شواء في أي مكان، يُغمى عليها لدقائق، وعندما تفيق تتقيأ ثم تبدأ بالعويل.

«هل يمكنكِ إخباري بالأشياء الفظيعة التي فعلتها؟»

سألتها، وبدوت كما لو أني أرجوها أن تعيد لي ذاكرتي. كنت أريد التخلص من هذا الانشغال العرضي بسرعة، وأتفرغ لمصيبتي. عندئذ، قال ناتالي:

«ليكن،، في البداية، وبما أنكِ صديقتي، وأقدّر حزنكِ على شقيقتك، لكن هذا لا يعطيك الحق بممارسة العنف بحق نفسك على هذا النحو!»

«نعم، بالطبع، يبدو أني أفزعتك، أنا آسفة، أنا أيضاً أقدّر خوفكِ وآخذه على محمل الجد» قلت لأستميلها للحديث وقد بدأت أحدس ما هي الامور الفظيعة التي فعلتها في المكتبة: «لكن أرجوك أخبريني ما الذي حدث؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«حسناً!» أجابت ناتالي بعد أن صمتت للحظات، وهي تنظر لي بعاطفة بدت متوافقة مع نبرتها المشفقة وهي تشرح لي ما جرى: «لا بد أنك تعرفين أننا كنا معاً في مكتبة الكلية، كنتِ وقتها منشغلة في تدوين المعلومات من بعض المصادر لاستخدامها في دراستك. وبينما أنتِ كذلك، رن هاتفك الجوال. وجمتِ للحظات وأنتِ تحدقين نحوي بعينين كأنهما تريدان الانزلاق من محجريهما، ثم فجأة، ألقيتِ الهاتف ولطمتِ عينك اليسرى على ما أظن، ثم شفتيك، حسناً، لنرى هنا.. أوه! نعم إنها عينكِ اليسرى كما أرى، يا إلهي! كدتِ تفقئينها، ثم عدتِ للطمها مجدداً، قبل شروعك بلطم وجهكِ أيضاَ. كنتِ تفعلين كل ذلك بقسوة، كمن عزم أمره بالقضاء على نفسه. لم أعرف ماذا أفعل، اضطربت كثيراً، ولم أعِ ما يحدث لحظتها. بمقدوركِ تخيّل المشهد، لتعرفي إلى أي حد يثير حدثاً مفاجئاً كهذا ذهول المرء ورعبه. لم يسبق لي رؤية هذا المشهد من قبل. تحركت أخيراً، كان بيننا طاولة عريضة، اضطررت للصعود فوقها لأصل إليك، كان هناك القليل من الناس في المكتبة، إلا أن أحداً لم يتدخل. أمسكت بيديك وحاولت تهدئتك، ومعرفة سبب العنف الذي ترتكبينه بحق نفسك، لكن من دون جدوى، فقد كنتِ منهارة وفاقدة عقلك تقريباً، ومنهمكة بالعويل وترديد بعض الكلمات لم أفهم منها شيئاً»

«لماذا؟»

«لأنها كانت بالعربية كما أظن»

«أكملي أرجوك!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«كنتِ قد هدأتِ قليلاً، في حين استمر عويلكِ لكن بصوت أخفّ حدة. التقطتُ هاتفك، كان الخط ما يزال مفتوحاً، وثمة متصل على الجانب الآخر ينادي عليك، إنه مارك، تكلمت معه، وأخبرني بالنبأ المفجع، طالباً مني الاعتناء بكِ. أوه، يا إلهي، كم هو محزن وصادم أن يحدث مثل هذا الأمر للفتاة الشابة، أنا آسفة عزيزتي!»

عادت ناتالي إلى التأسف ومواساتي مجدداً، ثم قالت:

«وإلى أن أنهيت المكالمة، كنت أنتِ قد شرعت بنوع آخر من العنف وأذى النفس، رأيتك تخمشين خديكِ بأظفارك حتى نضح منهما الدم. حاولت السيطرة على هيجانك. مما لا شك فيه أنكِ فقدتِ الإحساس بما حولك، كان ذلك حقيقياً، لم يبق عقل في رأسك. وكأن العيش في هذا العالم أصبح آخر همومك. طلبتُ المساعدة، لكن أحداً لم يستجب، باستثناء رجل متوسط العمر، أما الآخرون، فقد وقفوا للتفرج مذهولين، أو خرجوا مسرعين وهواتفهم النقالة على آذانهم، ظننت أن بعضهم ربما اتصل بالشرطة، لأنكِ، حينئذ، تحولتِ إلى كائن غريب الأطوار على وشك ارتكاب جريمة بحق نفسه.»

«أنا آسفة جداً كوني سببت لكِ كل هذا الرعب» قلت لها، ثم رجوتها أن تكمل: «ماذا حدث بعدها؟»

«استطعنا أخيراً، أنا والرجل، السيطرة عليك، لكن أعصابك كانت لا تزال منهارة. حاولنا تهدئتك وفهم الحالة التي انتابتك، ظننتها نوبة من الهيستيريا غير المسيطر عليها، هيستيريا عصبية عنيفة ومخيفة انتابتك فجأة. لعل من غير المستحسن مفاجئتك بهكذا خبر،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وعلى هذا النحو غير المسؤول وغير المراعي أبداً، ترى ماذا أصاب مارك لكي يفعل ما فعله؟ تصرف سيء لا ينم عن شعور بالمسؤولية. أوه! كلا، لم يكن صرعاً، أعرف كيف تكون نوبة الصرع، أعتقد أنك كنتِ منهارة فحسب، نعم، أكاد أجزم أن ما حدث لك بالأمس، في المكتبة، هو نوع من الانهيارات العصبية. آه، يا إلهي، كيف أشرح لك، لقد دخلتِ في حالة من الهلع، وتوقعت اصابتك بالإغماء في أي لحظة. كنت تنظرين حولك بشكل لا يوضح معرفتكِ للمكان الذي أنتِ فيه. بالكاد أسندناك وأوصلناك إلى سيارتي. رحت أقود بتوتر من دون التفوه بكلمة، لم أكن أعرف ماذا أقول، كنتُ مصدومة مثلك بما حدث، وبما فعلتِهِ بنفسك، اسمعكِ ترددين اسم شقيقتك بتفجع. آه، تلك الصغيرة المسكينة، تُرى لماذا حدث كل هذا بحق السماء؟!»

«هل انتهت الأمور الفظيعة عند هذا الحد؟» سألت ناتالي، وأنا أسند مرفقيّ على فخذيّ، وأعصر بأصابعي جانبي رأسي من الفودين، من شدة الصداع.

«ليتها انتهت!» ردت قائلة بعدما سألتني إن كنت بخير: «بل تطورت أكثر، حتى كاد كل شيء أن ينتهي إلى فاجعة أخرى»

«ماذا حدث؟» رفعت رأسي.

«أرى أنكِ متعبة» وضعت ناتالي يدها على كتفي: «هل أنتِ متأكدة من أنك تريدين معرفة المزيد؟»

«نعم.. أكملي من فضلك!» أجبتها.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ليكن.. فبينما نحن في الطريق إلى وايت تشابل، وقد حدث هذا بشكل مفاجئ، شرعتِ بنتف شعركِ على نحو، ظننتُ معه أنك فقدتِ عقلك بالفعل. فكرت بنقلكِ إلى المستشفى بدلاً من البيت، لولا أنك كففتِ أخيراً. غير أن هدوءك لم يستمر طويلاً، فسرعان ما عدتِ لتنهاري ثانية، وهذه المرة كان قميصك هو الضحية، عندما قمتِ بتمزيقه. في الحقيقة أنتِ لم تمزقيه، إنما شققتِه بالطول، من الأعلى للأسفل، وانفرطت أزراره، حتى بان صدرك، حينئذ، بدأتِ بلطمه بكل ما لديك من قوة، وكأنك نويتِ على تهشيم قفصك الصدري. اضطررت للتوقف في المنطقة المحاذية لحدائق إنر تمبل على الضفة الشمالية لنهر التيمز. بدا عليك الغثيان، وكنتِ على وشك التقيؤ. أخرجتكِ من السيارة، وقدتك عبر الشارع إلى الضفة، حيث أمكنكِ هناك إفراغ ما في معدتك، على مقربة من إشارة مرورية، ليس بعيداً عن السور الواطئ الذي يفصل الشاطئ عن الرصيف. بدأتُ أمسّد ظهرك وأحثك على التنفس بعمق، كان صدرك ما يزال مكشوفاً وعرضة للنظر، وكان بإمكان بعض المارة المتواجدين هناك رؤيتك وأنتِ تحاولين التملص مني وإلقاء نفسك في النهر. بدا الأمر كما لو أنه محاولة للانتحار، مما أشاع الذعر في نفوس أولئك المارة، وهم يروني أجهد نفسي في سبيل منعكِ. لكن، هل حقاً كنتِ تريدين إنهاء حياتكِ بهذه الطريقة؟»

صمتت ناتالي لحظات، وهي تحدق بي، لترى إن كنت بخير، وحين اطمأنت إلى أني أصغي إليها باهتمام، رغم تعبي، ووقوعها في سوء الفهم، عادت لتقول:

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لنعد إلى أحداث الأمس. كانت أعصابك متشنجة ولا يبدو أنك تعين ما كنتِ بصدده في تلك الأثناء. كنتِ قوية بما يكفي لجذبي معك، لكني أفلتُ منكِ في النهاية. آه يا إلهي! كان الجو بارداً، والغيوم الرمادية الثقيلة تحجب السماء وتكاد تمطر. رأيتكِ تتخبطين في المياه، وقد ابتعدتِ مسافة متر أو أكثر. كان بائناً أنكِ تغرقين فعلاً، حيث لا يمكن لقدميك ملامسة القاع، ومن جهة أخرى كنتِ تجهلين السباحة. شرعت بطلب النجدة. كنتُ مذعورة وأصرخ، ملوحة بيديّ كالمجنونة. توقعتُ مجيء الشرطة النهرية لإنقاذك، فدائماً ما تجوب قواربهم النهر في هذا الوقت من النهار. كان من سوء الحظ، أو لعل من حسن الحظ، أن شيئاً من هذا لم يحصل، فلو حدث وانتشلك رجال الشرطة النهرية، لاقتادوك بعدها إلى أقرب مصح نفسيّ. آه عزيزتي! لن تصدقي ما حدث وقتها، عندما هب أحد المارة لانتشالك، رجل شاب ذو عضلات كان برفقة صديق له، أظنه من المهاجرين وليس انكليزياً. على الفور ألقى نفسه في إثركِ، في وقتٍ كنتِ على وشك إرسال تلويحتك قبل الغطسة الأخيرة نحو القاع. لكنه كان بطلاً حقيقياً وأخرجكِ من النهر. وبينما هو يجري لك عملية التنفس الاصطناعي، رحت أنا أشكره وأثني عليه من كل قلبي، أردت الحصول على عنوانه أو رقم هاتفه، لتشكريه بنفسك فيما بعد، لكنه ابتعد مسرعاً، غير عابئ بالمباهاة وإطراء المتفرجين. لم أتصل بالإسعاف، لم أرد لك الانتهاء إلى المصح في مثل هذا التوقيت الحرج، حيث عليك التواجد في الشقة. كانت غايتي ايصالك إلى وايت تشابل بأسرع وقت. ساعدتك في النهوض وركوب السيارة، وانطلقت بكِ عبر شارع الملكة فيكتوريا قبل وصول الشرطة. عليَّ

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اخبارك أنهم اتصلوا بي بعد مكالمتك الأخيرة، لا شكّ أن بعض المارة أبلغوا عن الحادث على أنه محاولة انتحار. قلت لهم إنه حادث عرضي، وأننا كنا نجلس على السور، بجوار النهر، قبل أن تنزلقي وتقعي في النهر. احفظي هذا جيداً لكي تقولينه بدورك لهم. اضطررت إلى إعطائهم عنوانك، من المتوقع أن يطرقوا بابكِ في أي لحظة، فكوني مستعدة، ربما سيرتابون في الأمر، خصوصاً وأن حالة انتحار سبق وان حدثت قبل محاولتك عند النهر، هل تفهمين؟ اتصل مارك على هاتفك، الذي سبق وأن احتفظت به عندما كنا في المكتبة، فتحت الخط وأنبّته على الطريقة المباشرة في نقل الخبر إليك، تكلمت معه بغضب، واصفة ما أقدم عليه بالفعل الأخرق. وإلى أن وصلنا إلى مكان الحادث، كنتِ أنتِ قد كففتِ عن الهذيان، وانتابتك حالة من الوجوم. أصبحتِ هادئة بشكل غريب، ثم بدأتِ ترتجفين. رأيتك، بواسطة المرآة الداخلية، تضعين يدك على إحدى عينيك وتغلقين الأخرى، وكأنك تلعبين لعبة. حتى عندما رأيتِ شقيقتك في ذلك المكان، على الأرض الصلبة، مضرجة بدمها، لم تنطقي بكلمة، كل ما فعلتِه هو أنكِ ألقيتِ نظرة عليها من بعيد، حيث وضعت الشرطة حداً فاصلاً بواسطة أشرطة. ثم رافقك مارك إلى الشقة، كنت في أثركما، ساعدتك في تغيير ثيابك، وأعطيتكِ قرصاً مهدئاً، ولم أغادر إلا مساء، حوالي الساعة العاشرة ليلاً».

لا شك أن ناتالي احتملت الكثير من المتاعب بسببي، ووقفت مع محنتي وتصرفت كأخت. شكرتها كثيراً لأنها لم تتركني وحدي، لم أنتبه إلى أنها كانت تحمل معها دفتراً بغلاف أزرق إلا عندما أوشكت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ما، الانتهاء من شهادتها، أو ربما رأيته فعلاً، من دون أن أعيره ا. اهي، فنسيت أمره بمرور الوقت، حتى ناولتني إياه قائلة بنبرة من ، شك على المغادرة:

«هذا الدفتر لك»

أحسست أنها على وشك سؤالي عما إذا كنت سأكمل رسالتي الماجستير، لكنها ترددت، لعلمها أن الوقت غير ملائم. قلت لها، وكأني أجيبها عن سؤالها غير المطروح:

«أنا مشوشة للغاية، ليس بمقدوري استيعاب ما حدث، يبدو كل شيء في مكانه، مارك في مكتبه، وعبير في غرفتها، أما أنا، فبانتظار أن يوبخني أحدهما على كسلي قائلاً: ماذا تفعلين هنا يا امرأة، هيا انجزي عملك الآن واحصلي على الشهادة! ألا ترين أن كل شيء ساكن في هذا المكان كما كان من قبل؟ آه سحقاً! أشعر بالحزن يأكلني من الداخل، في حين لا يبدو عليّ شيء في الظاهر. أنا متوترة لأجل هذا، ولا أعلم لم عليّ التوتر حيال هكذا أمر، ربما لأن أختي في المشرحة، وزوجي في التحقيق، وأنا هنا لا أفعل شيئاً سوى الاصغاء لما فعلته من فظائع أثناء غيبوبتي! كلا، لم تكن غيبوبة، كانت حالة غامضة تشبه الجنون، كما قلتِ قبل قليل، أو ربما كنت مجنونة حقاً، ما هذا العناء يا إلهي! لماذا عليّ احتمال كل هذا؟!»

فكرت في حينها: ماذا لو كنتُ ما أزال أعيش في بلدي، وثمة امرأة عراقية تشغل مكان ناتالي؟ ربما ستحثني على البكاء، كما يجدر بامرأة جنوبية مجللة بالسواد، تعصب رأسها بعصابة سوداء، أن تفعل، تجلس امرأة إزاء أخرى هناك لتباشرا بعدها العويل. خطر لي سماع

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بعض المرثيات بأصوات نعاة عراقيين في اليوتيوب، لعلي أبكي، فعلى حد علمي، أو كما أخبرتني صديقتي، أنا لم أبكِ، بل تحولت إلى آلة للتدمير الذاتي النفسي فحسب، لم تخرج دمعة واحدة حتى الآن، ما هذا الجفاء يا تُرى؟ كنت أريد التعقيب على سؤال ناتالي بشأن محاولتي الانتحار. أردت إخبارها أن الأمر لم يكن متعلقاً بنيّتي إنهاء حياتي بتلك الطريقة، لم أكن في وعيي حين أقدمت على هذا الفعل، لم يسبق لي، حين تلقيت خبر موت عبير، أن قررت الانتحار، لم يسعني الوقت لأفعل، كانت صدمة عنيفة، والمرأة في العراق حين تُصدم، يمكن لشعورها بالجزع أخذها إلى أبعد حدٍ، بوسعها من خلاله أن تفقد رشدها، ويكون التكهن بتصرفاتها حينئذ صعب للغاية. كانت عيناي صامتتين بشكل لا يُغتفر، وكأني أوفيت ما عليَّ من حزن، ولم يعد بمقدوري بعد الآن فعل شيء، سوى الوجوم.

عانقتني ناتالي، ربتت على كتفي، ومسدت زندي، كما يجب لامرأة انكليزية أن تفعل لتنهي ما بدأته من مواساة. لا أعرف لماذا أحسست أنها تطارد عينيَّ بينما هي تميل رأسها بشيء من الفضول، في وقت أشحت أنا فيه وجهي ناحية أخرى. لعلها أرادت رؤية ما إذا كان ثمة دموع أو لا، فقد بدوت في حينها كأني أفعل ذلك لأخفي سحنتي الباكية. كنت قد جعلت الدفتر الأزرق على شكل اسطوانة، وأمسكته بقوة عندما رافقت ناتالي إلى الباب. لم أكن أتذكر نوع المعلومات التي دونتها فيه، ولن أدعي نسياني لموضوع رسالة الماجستير، رغم نسياني لأشياء كثيرة، منذ اللحظة التي كانت أشد عليّ من سقوط نيزك على رأسي، ربما لأني عملت فيها طيلة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

السنة، ومن جهة أخرى لا أتذكر ما دونته في الدفتر الأزرق، على أمل الاستفادة منه في رسالتي المخصصة لدراسة ثقافات بلاد ما بين النهرين في الألف الثاني قبل الميلاد. عدت إلى الصالة واتصلت بمارك، قال أنه في الطريق، لكنه لم يصل إلا بعد ساعتين.

ثمة ما يؤلم في هذا الصمت، ولا يعني هذا أن المكان كان، قبل موت عبير، مثالياً، مأهولاً، أو حافلاً بالحركة، حيث يمكن سماع إيقاع الحياة فيه، من خلال الأصوات الناتجة عن فتح الأبواب وغلقها، طرطشة المياه في الحمام، قرقعة الأواني في المطبخ، وقع الأقدام، زعيق الأطفال، أصوات تنادي وأخرى تنبعث من تلفاز هنا ومذياع هناك. على العكس، كان مكاناً أشبه بالتابوت، ما أن تدخله حتى تلفك الكآبة. يمكن تمييز الصمت الذي يعقب كارثة ما (صمت يذكرك دائماً بأشياء تريد نسيانها وطي صفحتها لتستأنف الحياة من جديد) عن صمت عادي يغلف نمطاً معيناً تجده في الكثير من المساكن، فالعديد من الناس ينعمون بذهب السكوت، ويفضلونه على فضّة الكلام، أخذاً بحكمة قديمة تمتدح الصمت. يغرقون في الكآبة، من دون الشعور بالحاجة إلى من ينتشلهم من رتابة تمضي بهم غير مكترثة بالفوضى في الخارج. لكن الصمت الذي يلي موت أحدهم يبدو جارحاً، للروح وللذاكرة، ولما هو في الطريق إلينا حاملاً الأمل في التغيير.

عاد مارك إلى الشقة، حاملاً معه الخبر التالي: بمقدورنا تسلم الجثة بعد ثلاثة أيام كحد أقصى. لا أعرف إن صرت أرى الأشياء على غير ما هي في الحقيقة، أو ربما احساسي بالفجيعة هو من يدفعني إلى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

التخيل، فقد بدا لي زوجي، في تلك الأثناء، متذمراً من تأخر مراسم الدفن، وكأنه يريد الانتهاء من الموضوع بأسرع وقت والعودة إلى روتينه اليومي. كان متعباً، لابد أنهم أنهكوه بالأسئلة، وسيفعلون معي الشيء نفسه. أخبرني أنهم سيأتون غداً صباحاً ليأخذوا افادتي. ورغم أن الوقت ما يزال مبكراً، لكنّ مارك رأى بتعجيل الاتفاق مع إحدى شركات دفن الموتى أمراً ضرورياً. ربّت على كتفي قائلاً بألا أقلق بشأن التكاليف، كنت أعرف القيمة المتوسطة لدفن الميت. أصبحت كلفة الموت أعلى من كلفة الحياة! هذا ما قالته امرأة باكستانية في الحي ذهبت لتعزيتها بوفاة زوجها، الذي بلغت كلفة دفنه نحو 2000 جنيه استرليني.

«هناك ملاحظة مهمة عزيزتي» قال وهو يحك أنفه ثم ينظر إليَّ ليرى إن كان بإمكاني إعطاء فكرة واضحة عن نوع المراسم التي سترافق الدفن: «يجب معرفة إن كان من المناسب دفن الفقيدة على الطريقة الإسلامية، إذا رغبتِ بذلك فبوسعي تدبر الأمر، سنتصل بوكالة دفن اسلامية ونتفق معهم».

حسناً، ماذا يظنني هذا الرجل؟ كان سؤاله مستفزاً بطريقة غريبة، فهو لا يجهل رغبتي بدفن المرحومة حسب التقاليد الإسلامية. أردت سؤاله لِمَ هو مستعجل هكذا؟ هل يخشى على الدود من الموت جوعاً إن لم يأكل منها؟ أصابني الهلع وأنا أتخيل اليرقان الكريه وهو يعبث بجسد شقيقتي المسكينة، ربما قرأت شيئاً من هذا القبيل سابقاً، ظننت أن ذلك لن يحصل بما أنها ستُحشر في تابوت، فمن أين يأتي الدود يا ترى؟ فعلى حد علمي أن القوانين

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في بريطانيا تحظر على ذوي الميت دفنه من دون تابوت، مهما كانت [illegible] ازداد هلعي وأنا أتذكر أن مثل هذه الكائنات الضئيلة، العابثة، لا تحتاج إلى إذن لتدخل إلى تابوت ما، فهي تولد وتنمو في جسد الميت، وتبدأ في نخره شيئاً فشيئاً، وهذا بالضبط ما يسمونه التفسخ، وبسبب أجهله، افترضت أنها ستبدأ من عينيها، ربما لأن العراقيين إذا أرادوا إثبات رؤية شيء ما يقولون: رأيتك بعينيّ هاتين اللتين سيأكلهما الدود! شعرت بالغضب ولا أعرف ممن، من الدود أم من مارك، الذي أوشكت على توبيخه حينما شرع بإجراء الاتصالات من أجل ترتيب مراسم دفن لائقة بعبير كما قال. حصل على رقم هاتف إحدى وكالات الدفن الإسلامية من شبكة الانترنت، واتصل بهم. سمعته وهو يسأل عن سعر مساحة القبر والتابوت ونوع الخشب والنماذج المتوفرة، وعن سطح القبر الحجري، والشاهدة، والكفن وكلفة عملية الغسل والتكفين، ونوع محامل الأزهار، ولون الخط الذي سيُكتب به الاسم وتاريخ الوفاة. التفت بعدها نحوي ليسألني عما إذا كنت أفكر بنقش قول أو حكمة أو آية قرآنية على الشاهدة. قلت له أني لم أقرأ القرآن منذ سنوات، ولا أحفظ منه سوى بعض السور القصيرة التي لا تعنى بالمناسبة، ثم عدت بعد أقل من دقيقة لأطلب منه إخبارهم بكتابة عبارة: «إنا للّه وإنا إليه راجعون» إذ تبدو سورة الفاتحة طويلة بالنسبة لشاهدة قبر، أنهى مارك المكالمة وراح يجمع كل كلفة على حدة، ثم قال:

«2758 جنيه!»

دُهشت للحظات، وحسدت الكثير من العراقيين على كلفة دفن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

موتاهم، رغم المسافة الطويلة التي تقطعها الجنازة إلى مقبرة وادي السلام في النجف، المقبرة التي لا يخلو حديث البعض عنها من المباهاة، كونها المقبرة الأكبر في العالم، أو هذا ما يظنه أغلبهم، ربما لأن الموت في العراق يعمل بجد منذ سنوات طويلة، على قدم وساق كما يقال، والحال على هذا النحو أشبه بفاكهة أو نوع من الخضراوات أو أي سلعة أخرى، كلما أغرقت السوق بها كلما أصبح ثمنها رخيصاً. نعم، يحدث كثيراً أن يفاخر البعض من بني جلدتي بأشياء مخيفة كالمقابر، وأخرى لم تطالهم المنفعة منها مثل النفط، الذي بيع إلى الشركات العملاقة، وأُهدرت أمواله بطريقة عبثية.

كان الوقت يقترب من الساعة الرابعة عصراً. استغربت أن أحداً من الشرطة، أو من إحدى مؤسسات التأهيل النفسي، لم يزرني بعد، ربما اقتنعوا بكلام ناتالي، وغضوا النظر عما تلقوه من إبلاغ عن حالة انتحار. يحدث أحياناً سقوط بعض السياح في النهر، كما حدث مؤخراً مع سائحين إسبانيين في لندن. انسحب مارك إلى المطبخ لإعداد الطعام، ولولا مبادرته تلك، لم أكن أتذكر منذ متى لم يدخل شيئاً إلى معدتي. الغريب أني، حتى تلك اللحظة، لم أكن أشعر بالجوع، أو ربما كنت جائعة حقاً لكن ليس لي القدرة على تناول الطعام، مثل كل المنكوبين بأحبائهم. كنت أخشى أن يكون تناول الطعام نوعاً من الترف في أوقات لا يجب على المرء عمل شيء سوى البكاء، ولعل الأغرب من هذا، هو أن مارك لم يسألني عن سبب الكدمات والخدوش في وجهي، والهالة الزرقاء حول عيني اليسرى، والتمزق الذي طال شفتي السفلى. لا بد أنه لاحظ هذه التغيرات، التي كانت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ا فم أحداً غيره إلى التحقق في ما إذا تعرضت إلى حادث مروري، أو اعتداء من قبل أحد المدمنين أو المتشردين في أحد شوارع لندن الأمانية، أو لعلني تدحرجت من علوّ. ربما أخبرته ناتالي بما حدث في الطريق من مكتبة الجامعة إلى وايت تشابل، ولم يشأ الحديث عنه إلا بعد فترة من الزمن، أكون قد تعافيت خلالها، وعدت إلى رشدي. انتبهت فجأة إلى أني ما زلت أمسك الدفتر الأزرق، منذ أن ناولتني إياه ناتالي قبل مغادرتها. صدّقت لحظتها أن ما يحدث، حين ينسى المرء أشياء يحملها، أمراً وارداً، فكأنه يفقد الإحساس بوجودها، من دون أن يؤدي ذلك إلى ارتخاء أعصابه وعضلاته أو فتور القوة القابضة على شيء ما. خطر لي تصفح الدفتر، وكما لو أنه سر ولا أرغب لأحد غيري الاطلاع عليه، انصرفت إلى غرفة النوم، وقمت بتصفحه وقراءة محتواه.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(3)

كانت العبارة الأولى مضمّنة بين قوسين، وقد جاءت كعنوان أو شيء كهذا: (طقوس الندب والجزع في العراق القديم) ثم تلاها عدداً من المعلومات يبدو أني استللتها من عدة كتب، لأضيفها إلى مادة أعمل عليها لنيل الماجستير، وكنت قد كتبتها على شكل نقاط، لكن من دون ذكر المصادر، وهي كما يلي:

1، صرخت المقدسة عشتار لمقتل المقدس سين، وبكت نائحة: ويلاه ويلاه، ويلي عليك يا ولدي وأخي سين، لقد اختلط دمك بالتراب، وعفّر وجهك الأرض، يا فتيات مزّقن جيوبكنّ، والطمن صدوركنّ، وبقيت صرختها حتى زمن حزقيال القرن السابع قبل الميلاد، ولا زال دويها مستمرا إلى يوم القيامة.

2، كان البابليون يلطمون الخدود ويشقون الثياب ويعلّون اصوات المراثي والنواح في اليوم التاسع والعاشر.

3، جشتي نانا حدقت في اخيها

خدشت وجنتيها

مزقت فمها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

شقت ثيابها

نتفت شعر رأسها

صدر عنها نواح مرّ على السيد المعذّب

اواه يا اخي، أواه، أيها الفتى الذي لم تكن ايامه طويلة.

4، ويمكن ملاحظة شعائر الحزن على موت إنانا ونزولها إلى عالم الاموات من خلال هذه السطور، التي تبين اقامة المناحة في الخرائب، وقرع الطبول في المعبد، واللطم على العينين، ولبس ثوب اشبه بثوب المتسولين، وهذا يعني ان اظهار الحزن نفسه كان شعيرة دينية واجتماعية عند السومريين:

اني نازلة إلى العالم السفلي

اني نازلة الى العالم السفلي

فأقم عليّ المناحة في الخرائب

واقرع الطبل من اجلي في قاعة المعبد

وطف من اجلي في بيوت الالهة

والطم عينك من اجلي والطم فمك من اجلي

والطم... الكبير من اجلي حيث.....

وتسربل من اجلي كالمتسول بثوب واحد.

5، وكان اليوم الأول من الاحتفال مخصصاً لندب الإله تموز، الميت الغائب في العالم الأسفل، والنوح على روح النبات الهاجعة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في أعماق الظلمات، ثم يتحول النحيب الهادئ إلى تفجّع مأساوي وهيستيريا جماعية، ويباشر المحتفلون لطم خدودهم، وإيذاء أجسادهم، بما تصل إليه أيديهم من أدوات جرح وتقطيع، وتمزيق ثيابهم وحثو التراب على رؤوسهم، وإلقاء أنفسهم في الأنهر والبرك.

6، ولكن أنكيدو لم يرفع عينه

فجس قلبه فلم ينبض

وعند ذاك برقع صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

وكاللبؤة التي اختطف منها أشبالها

وصار يروح ويجيء أمام الفراش وهو ينظر إليه

وينتف شعره ويرميه على الأرض

مزق ثيابه الجميلة ورماها كأنها أشياء نجسة

ولما أن لاح أول خيط من نور الفجر نهض جلجامش.

في الحقيقة، لم استغرب ما قرأته في الدفتر الأزرق، فأنا أعرف مثل هذه الطقوس، وقرأت عنها في كتب الميثيولوجيا العراقية مؤخراً، كما شهدتها عن قرب، عندما كنت لا أزال أعيش في العراق، أثناء طقوس عاشوراء، أو في المناحات على الأموات، ما أثار دهشتي حقاً حينذاك هو حدوث تلك «الفظائع» بعد تدوينها مباشرة، كما لو أن ثمة من أرسل لي إخطاراً بما يجب عليَّ فعله فور تلقي الخبر المفجع، وبالطريقة السائدة في مناطق الجنوب العراقي، أتذكر إحدى النساء في حي الحرية، جيء بجثة ابنها الغريق، فانهالت على

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عليها باللطم، وخمشت خديها، ومزقت ثيابها وأدمت صدرها، ونثرت شعرها وقامت بنتفه، وحين خرجت لتوديع الجنازة، حثّت التراب على وجهها، قبل قيامها بإلقاء نفسها في بركة للمياه الآسنة كانت على مقربة من البيت، بعد مضي ثلاثة أسابيع أو أكثر لم تتذكر تلك المرأة شيئاً مما فعلته، ولولا رؤيتها لمن سبقنها في الفعل نفسه، من نساء الحي، على أولادهن الذين قُتلوا في الحروب، لما صدقت أنها أوشكت على إهلاك نفسها، كأن جينات وراثية تنتقل من امرأة إلى أخرى، هي التي تقف وراء كل هذه الممارسات والهيستيريا وحالات الجزع القصوى، المتوارثة منذ مأساة تموز، مروراً بمأساة كربلاء، وليس انتهاء بما يحدث الآن في العراق. خزين هائل من التراجيديا العراقية، لم أتوقع ممارسته يوماً. لم أفكر بشيء من هذا طيلة حياتي، خصوصاً في السنوات العشر الأخيرة التي عشتها في بريطانيا، ولا أعلم إن كان لما دونته من شعائر الجزع لدى العراقيين القدامى صلة بما أقدمت عليه وقتها، ربما كان الأمر محض صدفة، جاءت بالتزامن مع انغماسي التام في صدمتي، أو ربما خذلني التعبير عما صار يجيش في داخلي من حزن، ولم يكن بمقدوري فعل شيء سوى اقتفاء أثر الجدات والأمهات والعمات والخالات. أو هي عادة متأصلة في بعض النساء العراقيات، يقدمن عليها وقت لا يكون للوعي حضور يمكنه لفت انتباه إحداهن، إلا أن ما تفعله ليس إلا نوعاً من الجنون الفجائعي الناتج عن كارثة أو حدث جسيم، ينزل على المرء كالصاعقة، فيحيله إلى كائن طقوسي، مازوخي، متفجع بقسوة وعنف، ليس له القدرة على التحكم بانفعالاته، ومستعد لإيذاء نفسه بأي شيء تطاله يداه.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كنت مستغرقة بالتفكير حين هزني مارك من كتفي، أظنه لم يفعل هذا إلا بعد أن يئس من جدوى مناداتي:

«يجب أن تأكلي شيئاً يا سليمة!» كان يحنو عليّ ويده ما زالت على كتفي: «لا أظنك تناولتِ طعاماً منذ الأمس!»

أومأت له برأسي ثم قلت:

«ليس لي شهية الآن، ربما فيما بعد»

لم أكن في وضع يسمح لي بالضحك، كما اعتدت أن أفعل كلما نطق مارك اسمي، بالشكل الذي لا يختلف كثيراً، حينما يتلفظ به أحد من مواطنيه الانكليز. كنت أقول له، أنه ليس مضطراً لتجشم عناء النطق باسمي، إذ طالما لاحظت كم يكون من الصعب عليه فعل ذلك، فقد يتلعثم لسانه، بينما هو يلوكه، قبل قذفه بتلك الطريقة الكاريكاتيرية. أحرص دائماً على ألا يراني أضحك رغم أنه كان، خلال السنوات الأولى لزواجنا، دائم الضحك والتفكّه على لكنتي غير الانكليزية، التي واجهتُ بسببها، بداية، صعوبة التواصل بسلاسة مع أناس مثل الانكليز، لا يصبرون كثيراً أمام من يتوجه إليهم بالسؤال، عن مكان أو حاجة بإنكليزية متخبطة، متعثرة، دائماً ما تفضي الكلمات فيها، إلى غير المعنى المراد. لم أحبب اسمي كثيراً، كان في طريقه إلى الانقراض، أسوة بأسماء مثل فضيلة، سعدية، حليمة، وفيّة، نعيمة، حينما سُمّيت به، تيمناً باسم جدتي لأبي. بعض أسماء الإناث في العراق أصبحت، بمرور الوقت، مثار استهجان وتهكم أجيال جديدة مأخوذة بالتطور، ويحمل أصحابها أسماء أجنبية، تركية وفارسية وهندية وأوربية أحياناً، صارت تنافس الأسماء العربية الموسومة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الاسم مؤخراً. فعلى سبيل المثال، من الصعب العثور على اسم [illegible]، إلا في بطاقات هوية الأحوال المدنية للنساء العجائز. لكنه [illegible] في النهاية، ولا يمكنني التنصل منه ببساطة، كما لا أفضل [illegible] رغم كرهي له. أما لقب العائلة، فربما أحتاج إلى مناسبة تملك من القوة ما يمنعني من الضحك بإفراط، إذا ما فكر أحد الانكليز في نطقه، ويُفضل أن تكون مناسبة أليمة، ولتكن مناسبة حدادي على شقيقتي عبير. إلا أن ذلك لم يمنعني من الشعور بالأسف، أو بفقداني شيئاً من شخصيتي، أو ربما هويتي، عندما صرتُ أُدعى سليمة شيتل بما أني تزوجت مواطناً انكليزياً.

ومن حيث الشكل، يشبه اسمي (معناه السالمة من العيوب والناجية والمعافاة) مفردة «**إسليمة**» بإضافة حرف الألف بداية، أو «**سْليمة**» بتسكين حرف السين، وهي كلمة قديمة تستعمل في اللهجة العراقية الدراجة، أصلها «سليموت» أو «سيلوم» قد تعود جذورها إلى البابلية أو الآرامية، وتعني الموت أو شبح الموت أو ملاك الموت، فيقال للشخص على سبيل الدعوة بالموت: «**إسليمة تكرفك**» أي جرفك الموت، وقد تُستعمل لوحدها في الجنوب من قبيل الازدراء والتحقير أيضاً، ونسبة المرء إلى البلاهة، فالشخص الـ«**سليمة**» أو الـ«**إسليمة**» هو ذلك الأبله، المتخبط، قليل التدبير، الذي دائماً ما يتعثر ويخذله الحظ في كل مرة.

لم أسلم من هذه الكلمة، خلال حياتي في العراق، ربما سمعتها مرات قليلة، أثناء شجاري مع الفتيات، في المدرسة. أما في البيت، فقد سمعتها من قبل أمي مئات المرات، سواء مفردة لوحدها، للدلالة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على غبائي وبلهي وقلة خبرتي، أو كدعاء عليّ بالموت بإضافة فعل الانجراف. لم أكن أعرف ماذا تعني الكلمة بالضبط، ولم أحاول التحري عنها، بقيت لسنوات طويلة، أجهل أن أمي تدعو بواسطتها عليَّ بالموت، وحين تنعتني بـها في حال فشلي في فعل شيء ما، كالطهو أو جلب حاجة، أو الاعتناء بشيء، فكأنها بذلك، تناديني «موت» بدلاً من اسمي. لا أتذكر يوماً، نادتني فيه أمي، وحاولت خلال ذلك، ألا تنطق اسمي تحقيراً بتغيير اللفظ، عندئذ، يكون معناه، وهو على تلك الشاكلة، أقرب إلى ما يفضي إليه معنى الكلمة القديمة المتوارثة سليموت أو سيلوم، التي يبدو أنها مرت بمراحل التحريف والتجريف عبر الزمن، لتصل إلى ما هي عليه الآن، من دون أن تفقد معناها، مثلها مثل الكثير من المفردات الأخرى ذات الأصول الضاربة في القدم. فحين غزا الإسكندر المقدوني العراق، ووصل على مقربة من ساحل الخليج، كانت البصرة في حينها تسمى تريدون، وقبل الفتح الإسلامي بصرياثا، تلاعبت بها الألسن على مر العصور، وتغيرت مراراً أثناء تنقلها بين الآرامية والكلدانية والسريانية والأغريقية والأكدية والفارسية فكانت تسمى أيضاً بصريا، باصرا، باصورا، بصيريي، حتى لفّق اللسان العربي في الفتوحات الإسلامية، حكاية أصل التسمية الحالية، وألبسها حلّة البداوة الصحراوية من خلال نسبتها إلى الحجارة الغليظة الضاربة إلى البياض، تلك التي يقال أنها تقطع وتقلع حواف الجِمال.

لأعد إذن إلى ذلك اليوم، من تشرين الثاني/ نوفمبر 2016، رفض مارك تأجيل تناول طعامي حتى المساء، واضطر إلى رجائي وهو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

، او انه صينية الأكل، حيث كنت أجلس على السرير، ممددة ساقيّ، ، اضعة قدماً على الأخرى، ومسندة ظهري على لوح رأس السرير. لم أعد على التدليل، كان لطف من مارك أن يفعل كل هذا، إذ لم ألحظ ،ابه الرياء. كرهت ظهوري كما لو أني في مشهد سينمائي، امرأة ،حوبة، وجدت فسحة لتفعيل كسلها، فبدت عاجزة تماماً حتى عن ،حريك يدها، ولا ينقصها سوى أن تطلب مبولة. لقد قضيت عمري أخدم نفسي بنفسي، وأحاول مواجهة الحياة بقوة، بعد كل نكبة، بعيداً عن ملامح الانكسار، التي توصلني إلى صورة مثيرة للشفقة. كان بودي لو أعصب رأسي وأرتدي السواد، وأضرب عن الطعام، وأترك شعر جسدي ينمو، وأهمل نفسي تماماً، كما تفعل امرأة عراقية في مأتم، لأشبع نهمي للحزن، لكنها لندن، لن يسعني تطبيق نموذج التراجيديا العراقية فيها، لأبدو سادية بحق نفسي، أكثر مما حدث وفعلته سابقاً. وبينما كنتُ أتناول طعامي، رغم خجلي من نفسي أو من عبير التي تخيلت جثتها المتجمدة في ثلاجة الموتى، كان مارك يجلس على كرسيّ بجانب السرير، وقد تناول الدفتر الأزرق من على سطح الدولاب على يميني، وشرع بتصفحه. لا يبدو تصرفاً سليماً، ولم أكن لأسمح له حتى لو استأذنني. كنت ألوك الطعام على مهل، وبصعوبة، فثمة ألمٍ طال فكيَّ، وما زال يلازمني منذ الأمس، بسبب اللطم الذي وجهته إلى فمي وخديَّ. كنت أثناء ذلك أنظر بطرف عيني إلى مارك المتطفل في حينها، واكتشفت أنه كان يلقي على نظرة بين الحين والآخر.

كانت من نوع النظرات التي تسعى إلى مطابقة النظري بالعملي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

قبل إعطاء أي علامة. بدا كأنه يريد معرفة ما إذا كانت هناك فقرة مكتوبة في الدفتر لم أنفذها، أو أغفلت بنداً من بنود الوثيقة البكائية، الجنائزية، العراقية القديمة. لم يكن مارك يعرف شيئاً عن هذه العادات قبل ذهابه إلى العراق بصفة ضابط في الجيش البريطاني عام 2003، لم يظهر عليه الاستغراب، أو هذا ما لاحظته عليه، لكنه لم يخفِ استياءه من التصاقي بهذه التقاليد، حتى وأنا أعيش في مدينة متحضرة مثل لندن. بان انزعاجه من خلال ملامحه كلما نظر إليَّ. أردت إخباره أن ليس من عادة جميع العراقيات، الإقدام على ما فعلته، كما أن نية للانتحار لم تخطر على بالي. في البصرة مثلاً، وخصوصاً في الأحياء الراقية كما تسمى، بما أن ثمة أحياء أخرى رثة، لا تبلي النساء بشكل حسن، قياساً بما تظهره النساء في الأحياء الفقيرة، من فنون الجزع العنيفة، التي تصل أحياناً، إلى إراقة الدماء، برطم الرؤوس بالجدران. حتى الرجال، في بعض الأوقات، يفقدون رشدهم، فيصل بهم الجزع إلى ما وصل إليه كَلكَامش حزناً على صاحبه أنكيدو.

حدثني مارك عما شاهده يوماً، حينما قتلت قوة عسكرية كان يقودها، صبياً عراقياً، وكيف تعاملت أمه مع الحدث:

«كان فتى في الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره، قُتل برصاصة استقرت في صدره. ظن جنودنا في البداية، أنه أحد المسلحين، الذين اعترضوا دوريتنا، في منطقة تُسمى القِبْلة على ما أتذكر. لكن اتضح، من خلال دراجة هوائية كان يقودها إلى البيت، وكيس من الخبز يحمله معه، أنه ليس كذلك. صُدمت وحزنت كثيراً. لم تكن تلك

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الأولى، إذ سبق وأن أخطأ جنودنا التقدير في عدد من المناطق، [illegible] إلى مقتل أناس أبرياء آخرين. لم نسمح لأحد من الذين هبوا [illegible] الجثة من ذوي القتيل وجيرانه بالاقتراب. امرأة متلفعة بعباءة [illegible] من بين الجنود واتجهت نحو الصبي القتيل، تعثرت وسقطت [illegible] مرتين أو ثلاثة قبل أن تصل. كانت امرأة بدينة، بيضاء، ربما [illegible] سن الأربعين، حافية القدمين، انزلقت عباءتها من على [illegible]، بينما هي تركض. ألقت بنفسها على جثة ابنها، وبدأت تولول [illegible] بمفردة لم أسمع امرأة قبلها في حياتي وهي تتفجّع بها، [illegible] أثار في داخلي، لأول مرة منذ سنوات حاولت خلالها الاقتناع [illegible] توني بلير، اليقين بعبثية هذه الحرب، ومن جهة أخرى، بتّ أدرك إلى حد كبير، أن احتلال بلد ما، بذريعة إزاحة نظام دكتاتوري كان يحكمه، لم تعد ذريعة مقنعة، يمكن أن تؤخذ على محمل الجد، حتى من قبل أولئك الذين عانوا من الدكتاتورية».

«يبوو؟!» قاطعته بطريقة ظن في إثرها أن ثمة مكروه أصابني، لكني في الحقيقة كنت أساله عما إذا كانت الكلمة التي تلفظتُ بها المرأة هي المعنية في قوله، فراح مارك يرددها ورائي بنبرة مرتبكة، وكنت أنا أصحح له:

«يبوو! هكذا تُلفظ، على هذا النحو: يبووو! هكذا تماماً»

كررتها عدة مرات، وشعرت بنبرتي تتصاعد، في كل مرة أنطق بها، حتى خلت أني سأدخل في نوبة نياحة هيستيرية جديدة، إن لم أكبح نفسي وأكف أخيراً، وكأني كنت بحاجة إلى من يحثني، بطريقة غير مقصودة، لأن أعاود طقوس الندب. كنت سأمضي في الأمر، ما

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

دمت أشعر بتقصيري إزاء موت عبير، لولا أنْ عاد العجز الى تفعيل نفسه فجأة، وجعلني أمسك في اللحظة الأخيرة. سألني مارك عن معنى الكلمة، في وقت لم أكن أعلم بعد ماذا تعني، سوى أنها كلمة تفجّع تطلقها النسوة العراقيات إيذاناً بحدوث أمر جلل. توصلت فيما بعد إلى أن لهذه الكلمة جذوراً سومرية وبابلية قديمة أيضاً، وهناك كلمات مشابهة في المعنى، سريانية وآرامية وسورية، ما زالت النساء يرددنها حتى الآن.

استطرد مارك في سرد الحادثة الأليمة كما وصفها، والتي بدأ يفكر بعدها بترك الخدمة في الجيش، أسوة بضابط بريطانيين آخرين:

«فردت المرأة المنكوبة ذراعيها، واستمرت بإطلاق تلك الصرخات المدوية. كنت أقف على مقربة من الجثة، أربكني المشهد كثيراً، أربكتني نظرات الأم وهي تصرخ في وجهي بأعلى صوتها، كأنها تؤنبني، وتحملني مسؤولية مقتل ابنها. حسناً، فليكن، ومن عليه تحمل المسؤولية غيري؟ بالإضافة إلى جنودي، والقوات البريطانية، وزير الدفاع، وجاك سترو، ورجل الحرب الأول السيد بلير وبروباغنداه المقيتة. بالطبع، أنا لم أطلق الرصاص عليه، أو حتى أعطي أوامري بذلك، لكني ظهرت كما لو كنت القاتل، فالصبي قُتل برصاصنا في النهاية.

حسناً، أنا أعترف، جميعنا قتلة!

ثم فجأة، شقت المرأة ثوبها من الأعلى للأسفل، وراحت تضرب صدرها بعنف حتى كادت تدميه. كان ثدياها الذابلان مضرجان بدم بدأ بالنضوح فعلاً من أعلى الصدر في مشهد لا علاقة له بالعري، إذ

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لم تكن رؤية ثديي امرأة وهي على هذا الحال المزري مبعثاً لإثارة أو تحريك الغرائز، بقدر ما كانت محفزاً للشعور بالتعاطف والإحساس بالذنب. لم أرَ في حياتي أماً تندب ابنها بهذه الطريقة. كانت تزداد عنفاً وأذى، حتى لم يبق في رأسها خصلة إلا واقتلعتها، ولا مكان في وجهها إلا لطمته وأدمته أو خدشته بأظفارها. ازداد غضب السكان وهم يرون هذا المشهد ويعضون على أصابعهم من الغيظ. كانوا يلغطون، ويجهشون، ويشتمون. بدا ذلك جلياً، رغم عدم احاطتي سوى بالقليل من الكلمات العربية، لكن، ماذا على المرء فعله حيال هكذا مشهد، سوى كيل الشتائم. لم يكن ينقصنا سوى شرارة، شرارة واحدة لتحصل بعدها الكارثة، وتُذاع بعد ساعة في الأخبار العاجلة: وحدة من الجيش البريطاني ترتكب مجزرة فظيعة ضد السكان العزّل في البصرة! أحسست أننا محاصرون بعدة مئات منهم، وأني على وشك إصدار أمرٍ بارتكاب مجزرة حقيقية، إذا ما قرر هؤلاء الهجوم علينا. أزعم أني تصرفت بحكمة، وأعطيت أوامري بعدم إثارة المزيد من الاستفزازات، ومن ثم الانسحاب من الموقع، من دون الرد على ما شرع الصبية بفعله مؤخراً، إذ انهالوا علينا بالأحجار والعبوات الزجاجية الفارغة وأكياس القاذورات».

شرد ذهني بعيداً، هناك في العراق رحت أتخيل الأم المفجوعة بابنها القتيل، عندما سمعت مارك، وهو يطمئنني، للمرة الثانية أو الثالثة بألا أقلق بشأن التحضيرات للجنازة. تذكرت مجالس عزاء الموتى في بلدي، تستغرق بالعادة ثلاثة أيام لا تكف فيها النساء عن اللطم والنياحة في سُرادق يُنصب خارج الدار. تتوسط النائحة النساء

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المحاطات بها على شكل دائرة، وتبدأ بالنواح وإنشاد المرثيات الحزينة، بألحانٍ تثير العواطف وتؤجج الأحزان المنسية، وتُسيّل الدموع، فيتعالى العويل والآهات، ويبدأ اللطم على الصدور، بحركات إيقاعية رتيبة. كنت قد حضرت بعض مجالس النياحة مع أمي، التي كانت ما تزال تنعى شقيقها المفقود في حرب الخليج الثانية، وتبحث عما يبكيها، وتجده عادة في مرثيات النائحات اللائي يفطرن قلوب النسوة الثاكلات، من قريبات وأخوات وزوجات وأمهات المتوفين، ويدفعن الواحدة منهن إلى إدماء صدرها ونفش شعرها وتمزيق ثيابها.

لا يسعني إنكار افتقادي، في تلك الأيام وبشدة، مثل هذه الطقوس. أحسست أني بحاجة إلى مواساة من نوع لا أجده في طقوس الحداد المسيحي، المجبول على الكياسة والهدوء. ربما لهذا السبب فعلت ما فعلته، وكأني أردت تعزية نفسي بنفسي. أعرف أن البعض لا يعدها ميزة حسنة، أو عادة مثالية، إنما مجرد هيستيريا جماعية، وأوركسترا جنائزية سوداوية، كما أعرف أنها موضع ازدراء نساء الطبقة الارستقراطية الأنيقات، اللائي يستعملن المناديل الورقية، ومساحيق تجميل خفيفة، ويتباكين بهمس، لكنها أيضاً، أو هذا ما اكتشفته شخصياً، جزء من هوية شعبية وذاكرة اجتماعية تراكمت في داخلها شتى أنواع القهر والحزن والظلم والقمع والحروب المتعاقبة. تمنيت لو أن ثمة نائحة في الجوار استدعيها لتؤبن عبير على الطريقة العراقية الجنوبية، وتشفي ما اعتمل في صدري من أحزان، بتنويعاتها النغمية الشجية، وأشعارها الناعية، كما كانت تفعل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

نائحات المعابد السومرية على الموتى والغرقى وقتلى الحروب قبل الاف الأعوام. تخيلتني وسط حلقة من النساء المعزيات، موشحات بالسواد، معصبات الرؤوس، تعلو أيديهن وتهبط على الصدور المدماة في حركة آلية متناسقة، بينما هن يردحن على أنغام وأناشيد النائحة الكوريالية، التي تصدح بقصائد الجزع، فيرددن وراءها بعد كل بيت: أحّا! تخترق أصواتهن النادبة الجدران حتى تصل إلى آخر الزقاق: أحّا.. أحّا.. أحّا! هذه الكلمة الفجائعية الأخرى، التي تستمر طيلة أيام الحداد، أو كلما مرت ذكرى الميت ولطمت امرأة فخذها حسرة ولوعة على زوج أو أبٍ أو أخٍ أو ابن مأسوف على شبابه.

لم أنس، طيلة شرودي وتفكيري وتخيلاتي السابقة، آخر مرة كرر فيها مارك طمأنته بشأن تكاليف الدفن، وكأن همي الوحيد هو حصول عبير على تأبين لائق. بدا، وهو يقول ذلك، كأنه يتحدث عن شيء لا علاقة له بالموت، شيء يحدث دائماً وبشكل طبيعي. لكن، أليس الموت شيء يحدث دائماً؟ حدثت نفسي. شيء مستمر وأبديّ، وطبيعي جداً؟ دائماً ما أفكر بقصة كَلكَامش وأنكيدو، وأستنتج أحياناً أن كَلكَامش لم يقم المناحة ستة أيام وسبع ليالٍ، ولم ينتف شعر رأسه، ويمزق ثيابه، ويطلق شعر جسده، ويلبس جلد الأسد، ويهيم على وجهه في البراري، إلا على نفسه، بعد تخيّل الدود الذي نخر جسد أنكيدو وهو يعبث في جسده، ويظهر ذلك من خلال مناجاته لنفسه قائلاً: إذا ما متّ، أفلا يكون مصيري مثل أنكيدو؟ لقد رفض كَلكَامش أن يُدفن صاحبه، حتى رأى جثته تتفسّخ، أما أنا، فلا أنوي ترك جثة عبير تتعفّن هكذا. لكني أيضاً، أكره

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الحديث عن جنازتها بهذا الشكل، مثل أي شيء عاديّ، حتى لو كان الموت من أكثر الحقائق عادية في العالم. إذن، ما بال هذا الرجل، مارك، يريد دفنها بهذه السرعة؟ هل يخشى على مدينته المتحضرة من النتانة؟ لو كان الأمر بيدي، وأملك منزلاً وليس شقة، لدفنتها في الحديقة الخلفية، يفعل بعض الانكليز الفقراء هذا منذ فترة، تخلصاً من تكاليف الدفن الباهظة. احتاج إلى حفر قبر فقط، وشاهدة أكتب عليها اسمها وميلادها وتاريخ الوفاة، قد أضع صورتها أيضاً، وإذا ما حدث وصرت عجوزا كهلة، وعاجزة عن النزول لزيارتها وقراءة سورة الفاتحة على قبرها، بوسعي أن أفعل ذلك من النافذة، وأرمي لها الزهور كل ليلة جمعة.

قلت له بغضب:

«ليس هناك ما هو أكثر أهمية من حياة عبير، وعبير ماتت، ادفنوها فقط، فإن إكرام الميت بدفنه!».

حسناً، لست متأكدة من قولي العبارة الأخيرة. إكرام الميت بدفنه، مقولة اسلامية يواجه بها الناس في العراق أطباء التشريح، لانتزاع جثث موتاهم ودفنها سريعاً، كأن شيئاً من التشوّه لن يطال الجثث في حال دُفنت من دون إخضاعها إلى مباضع الجراحين، وكأنهم يتلافون بذلك رواج رائحة العفونة، وفي الوقت نفسه يخفون رائحة جريمة قتل محتملة. أتذكر بهذا الصدد رجلاً من سكان الحي، أصر على عدم إخضاع زوجته الأولى التي ماتت فجأة للتشريح، بداعي حرمة الكشف عن جسدها. كان يلوّح بالتهديد والوعيد، حتى خشي منه الأطباء في دائرة الطب العدلي، وكانوا سيذعنون لتهديده لولا

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ان أحد ضباط الشرطة أصر على إجراء عملية التشريح، ليكشف في النهاية سر موت المرأة، إذ اتضح من خلال التحقيقات أنها ماتت مسمومة على يد ضرتها.

لكن، من عساه أن يفكر بقتل فتاة مسكينة، بكماء، مثل عبير؟ كنت سأسأل مارك، لكنه غادر الشقة بعد ساعتين، في مشوار لم يفصح عنه، في حين كان الأجدر به البقاء إلى جانبي في ذلك المساء. كنت قد أكلت قليلاً، بالقدر الذي يضمن لي عدم الإصابة بالجفاف، ومن يومها، أصبح الطعام آخر ما أفكر به، وأنسى في كثير من الأحيان أني لم آكل منذ يوم. اتصلت بناتالي لأطلب منها المجيء، وترددت في آخر لحظة، لم أشأ إقحامها بالمزيد من مشاكلي النفسية على ما يبدو، فربما أنهار في أي لحظة. ليس بوسع أحد التنبؤ بانفعالاتي المفاجئة خلال فترة ما بعد موت شقيقتي، تناولت قرصين، أحدهما مهدئاً والآخر منوّماً، لبثت بعدها في فراشي، لا أفعل شيئاً، سوى التفكير بما حدث. عدت إلى تلك الأيام، قبل أكثر من عشرِ سنوات، حين كانت عبير في التاسعة من عمرها، من كان يظنّ، أن فتاة قذرة مثلها، عاشت في الشارع أكثر مما فعلت في البيت، طفلة الحي الرث، التي يصعب تمييزها كأنثى، إلا من خلال عضوها التناسلي، من كان يظن أن تلقي بها الأقدار على ضفاف التيمز، لتموت بهذا الشكل، بإلقاء نفسها من نافذة غرفتها، في الدور الرابع؟ كيف امتلكت الجرأة لتفعل ما فعلت؟ ألم تفكر بي؟ بآلام ستبقى تلاحقني طيلة حياتي؟ من أين جاءتها كل هذه الشجاعة، إن كان حقاً ما يدعيه أرباب العدمية، بتسميتهم ما يقبل عليه المنتحرين شجاعة، وليس مرضاً نفسياً؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ومنذ متى وهي تفكر بالانتحار؟ حاولت العثور، في حينها، على ملمح واحد على الأقل، أو إشارة تدل على نيتها هذه، ولم أجد. لقد قرأت عن العديد من المنتحرين، ممن أنهوا حياتهم بإرادتهم، ولم يبن عليهم، قبلها، أي علامة، أو تصرّف، أو حالة يمكن لها تنبيه المحيطين إلى ما يعتمل في صدورهم، من الشعور بعبثية الحياة، وعدم عدالتها، وبالتالي ضرورة مغادرتها، من غير أسفٍ ولا ندم. تيقنت أن عبير كانت واحدة من ضمن أولئك، كأنها كانت تنتظر لتكبر، وتصل إلى التاسعة عشرة من العمر، ليزداد وعيها بما حدث لها، وإدراكها الصعوبة، التي ستواجه فرساً مثلها مكسورة الساق، بينما هي تحاول نسيان الماضي، والاستمرار في الحياة.

وبينما أنا كذلك، استغرقت في نوم عميق على نحو ما يحدث مع جريح أنهكه نزف الدم، وظن أنه لن يستيقظ من نومه أبداً، ومع ذلك نام. لكني أفقت في صباح اليوم التالي، اليوم الذي كان عليّ الإجابة فيه عن أسئلة المحققين بشأن عبير. كانت أسئلة متوقعة مثل: هل هذه المرة الأولى التي تحاول فيها الانتحار؟ هل سبق وأن تعاطت نوعاً من المخدرات؟ هل لديها بوي فرند؟ هل حاولت أن توصل شيئاً قبل الحادثة، رسالة أو معلومة أو أي طارئ ربما طرأ عليها؟ هل تلتقي بأصدقاء معينين؟ صفي لنا علاقتك معها. هل علاقتها مع زوجك طيبة؟ منذ متى وأنتما في بريطانيا؟ هل كانت الضحية تعاني من صدمة معينة؟ استمر الاستجواب لأكثر من ساعة، لكن أكثر ما أثار مواجعي من بين تلك الأسئلة هو: هل سبق لشقيقتك الحمل من قبل؟ صمتُّ في البداية محدثة نفسي: لا بد أنهم يعلمون بقضية عبير،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لماذا هذا السؤال إذن؟ كانت إجابتي مقتضبة، أشرت خلالها إلى أن الجميع يعرف ما حدث للطفلة المسكينة في العراق. لم يوجهوا لي السؤال المألوف: أين كنتِ وقت الحادثة؟ مثل هذا السؤال، لا بد أنهم طرحوه على مارك، بما أنه كان خارج الشقة وقت الحادث، كان عائداً من تمشيته الصباحية، حينما وجد هناك ضجة أمام البناية، ورجال شرطة، وأناس متجمعين، قبل أن يصدمه مشهد عبير، وهي ملقاة على الأرض، ممرغة بدمها.

لكن، قبل ذلك، في وقت مبكر من الصباح، تحدثت إليَّ سيدة ترأس جمعية خيرية وطنية، لدعم ومساعدة المتضررين من الانتحار. كانت امرأة متوسطة العمر، تدعى أنجيلا سامتا، جميلة ودمثة للغاية، كما يجب على أشخاص يشغلون وظائف في مثل هذه المؤسسات أن يظهروا، وعرفت من حديثها أن شريكها انتحر قبل ثلاثة عشر عاماً. وكما أخبرتني ناتالي، أصررت منذ البداية، على موقفي بشأن ما حدث على ضفة التيمز، قلت لها أنه حادث عرضي، حصل قبل علمي بحادثة انتحار شقيقتي. فكرت إلى أي حدٍ سيتأزم الوضع، لو أخبرتها أن ما مارسته، لم يكن في الحقيقة، سوى طقوس الفجيعة، نمط من الجنائزية ما زال سائداً في الجنوب العراقي، حيث لا يوجّه اللوم لامرأة تفعل ما فعلته هناك، أو حتى يرمونها بالجنون. في النهاية، لم تقتنع السيدة أنجيلا بالمصادفة، التي جعلت سقوطي في النهر يحصل بعد فترة وجيزة من إلقاء شقيقتي بنفسها من النافذة.

«وهل كل هذه الكدمات والجروح في وجهك بسبب حادث عرضي أيضاً؟!» سألتني أنجيلا سامتا، وهي تمسد يديّ. كنا في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

غرفة الجلوس، وكان مارك يجلس ليس بعيداً عنا، بحيث يمكنه سماع حديثها: «أنا آسفة لما حدث لشقيقتكِ، إنه لحدث محزن للغاية، لكن، من المهم أن نتحدث عن الأمر، عنك أنتِ بالذات. نحن كمؤسسة معنية، نعتبر كل حادث انتحار مأساة ودماراً للأسرة والأصدقاء والمجتمع البريطاني، 4820 شخصاً انتحروا في العام الماضي، ولا نريد لهذه الأزمة أن تتفاقم، وكونكِ جزء من المجتمع، أنا هنا لمساعدتكِ، إن كان ثمة ما تودين قوله، تأكدي أني سأصغي إليك باهتمام، وبكل سرور، وأعدكِ أننا سنتعامل مع الحالة بكل أمانة ومسؤولية، وسنجد حلاً».

حاولت بعدها معرفة التاريخ العائلي، مشيرة إلى أن الحكومة تستثمر نحو مليار جنيه استرليني، في دعم خدمات الصحة العقلية، وأنهم يريدونني من ضمن المشمولين بالرعاية.

«لكني لست مجنونة ولم أحاول الانتحار!»

قلت لها، واستأذنتها بحجة حالتي النفسية المتردية، في حين غادرت هي، بعدما أكدت لمارك أن بإمكاني مراجعة مقر الجمعية في أي وقت.

أخيراً، تسلمنا الجثة في اليوم التالي، بعد اتمامهم عملية التشريح، وأخذهم عينات لاستخدامها في التحقيق. كان قد مر على وفاة عبير ثلاثة أيام، لم أبكِ خلالها أبداً، الأمر الذي ما زال يؤرقني ويجعلني أفكر بالتمثيل. لا يعقل بقائي صمّاء هكذا، حتى وأنا أودع شقيقتي إلى القبر. ثمة نساء في المآتم العراقية يتباكين، ويصفقن تحت العباءات بدل اللطم على الصدور، ففي بعض الأحيان، حتى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الـ ـيات الحزينة، التي يقال مجازاً أنها تذوّب الحجر، لا تجدي نفعاً في استدرار دموع عصية كدموعي، أشعر أنها متوفرة بما يكفي، لملء ـ ـة بسعة خمس لترات، لكنها ترفض الخروج. بدا المحقق، وهو يـ ـرنا بإمكانية تسلّم الجثة، كما لو أنه يفرج عن سجين وليس عن ـ ـة هامدة، مشوّهة، ومبضّعة بالأمواس من الرأس، مروراً بالفرْج ـ ـى القدمين. لم أرد إلقاء نظرة أخيرة عليها وهي على هذا الحال، ـشيت من رؤية فتاة أخرى ليست هي نفسها عبير، سيؤلمني الأمر ـثيراً، وأظل أتخيل المشهد لفترة طويلة. لكني رغبت، للحظات فقط قبل طرد الفكرة من رأسي، في السهر على الجثمان، كما يفعل الكاثوليك مع موتاهم. أيضاً هناك ليلة تُسمى في ديارنا ليلة الوحشة، ليلة الوحدة والاغتراب الأبدي تحت التراب، يقضيها أهل الميّت في قراءة القرآن والأدعية، وهو ما واظبت عليه في الأيام اللاحقة، ثم صرت افعله عند قبرها، في ليالي الجُمعات.

كان مارك قد رتّب كل شيء كما وعدني، وجرت مراسم الدفن في منتصف نهار اليوم نفسه، بعد تسلمنا الجثة، في مقبرة للمسلمين بمقاطعة إيسيكس، على بعد ساعة وربع تقريباً عن لندن. هناك، حيث تصطف القبور في صفوف طويلة باتجاه الكعبة، تعلوها نُصب رخامية وأخرى غرانيتية نُقش على بعضها أسماء الموتى باللغة العربية، والبعض الآخر بلغات أخرى فارسية، وكردية، وتركية، وروسية، وأُردية، وبشتونية، وبنغالية، وبنجابية وغيرها، ما عدا عبارتي البسملة، وإنا للّه وإنا إليه راجعون، اللتين خُطتا بالعربية على جميع شواهد القبور، التي لم تخلو من الـتأثر بنمط

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المقابر الانكليزي الآيقوني، الأنيق والباذخ، كالغرانيت الأسود، ومحامل الزهور، وكتابة اسم المتوفى وتاريخ الوفاة وبعض الدعاء وشيئاً من القرآن باللون الذهبي البراق، ما يعده بعض المتشددين من البِدع.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(4)

حضر المراسم عدد من معارف مارك، وبعض الجيران من البنغاليين والباكستانيين، والجالية العربية، وتخلف البعض الآخر عن الحضور، بذريعة أن عبير، صغيرتي البريئة والجميلة عبير ماتت منتحرة، أي أنها، في نظر أولئك البعض، ألقت نفسها في بركة الهلاك، وسعت إلى الجحيم بيديها، من دون إدراكهم أنها عاشت تفاصيل هذا الجحيم من قبل، منذ كانت في التاسعة من عمرها. ومن جهة أخرى، كانوا يستنكرون خرقي للقاعدة، مستهجنين زواجي من شخص غير مسلم، أنا المرأة التي ما زلت مسلمة رغم كل ما حدث.

حاولتُ البكاء في المقبرة ولم أفلح، كنت أشعر بكمية النشيج في صدري، وهي تخنقني. لا أعرف ماذا على الانسان أن يفعل تجاه هذا الأمر، فقد بدت حاجتي للبكاء كحاجة الغريق إلى التنفس. كان واضحاً، للحضور، حجم الصدمة التي أحالتني إلى هذا الوضع، قامة صامتة، بعينين نسيتا ملوحة الدموع، قامة أشبه بعمود إنارة، ذو مصباحين يومضان بوهن، في وحشة الليل. كنت ارتدي ثياب العزاء السود، قميص بأكمام وتنورة أسفل الركبة عند منتصف الساق، وألف رأسي بشال أسود. قلما ترافق امرأة جنازة ما إلى المقبرة في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

جنوب العراق، تعصب رأسها، وترتدي السواد، وتلف عباءتها حول خصرها، ولا تتكلم إلا لغرض العويل، وما أن ينتهي الدفن، حتى تلقي بنفسها على القبر الرطب، وتبدأ بالنياحة.

كنا نقف على مبعدة أمتار من القبر المحفور، وُضع على النعش باقة كبيرة من زهور بيضاء، اظنها زنبق، وعند الرأس كان هناك محمل عليه صورة عبير، لا شك أنها إحدى أفكار مارك، التي لم يستشرني قبل تنفيذها، ولم أكن لأوافق عليها، لما ستجلبه رؤيتها، في ذلك المكان الموحش، من حزن مضاعف ما زال يرفض الخروج، حتى تلك اللحظة، على شكل بكاء ودموع، على الأقل. في حال موافقتي، كنت سأختار صورة أخرى لشقيقتي وهي في التاسعة عشرة، وليس تلك الصورة، التي أعطت انطباعاً زائفاً عن عمر الفتاة، فقد كانت صورة قديمة، قبل سنوات، ربما كانت عبير في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة حين التُقطت لها، في مناسبة لا يسعني تذكرها حتى الآن. كانت ناتالي تقف على يساري، بزيها الجنائزي التقليدي، الذي رأيته مرة في أحد الأفلام، ولم أتوقع أن يأتي يوم، أكون فيه داخل مشهد لا يختلف كثيراً، عدا أن مراسم الدفن في المشهد السينمائي كانت على الطريقة الفيكتورية، في حين وقف مارك على يميني، وقد شبك الاثنان ذراعيهما بذراعيّ بقوة، كأنها يتوقعان دخولي في نوبة جزع مشابهة لتلك النوبة الهيستيرية وحالة فقدان الوعي، التي ضربتني في اليوم الأول. لعلني لا ألومهما على ذلك، فما أن أنزلوا التابوت إلى القبر، ورأيت الرفوش وهي تهيل التراب عليه، حتى قدحت في رأسي فكرة حثّ التربة على وجهي،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الحرة لا تقل جنوناً عن شبيهاتها في طقوس الجزع الجنوبية، وسيجد مارك في النهاية من ينصحه بضرورة اصطحابي الى إحدى عيادات الطب النفسي، إذ ليس بوسع أحد تصديق عدم وجود علاقة للجنون بكل هذا. أنا في لندن، مدينة العزاء الهادئ، الوقور، يمكن للمرء سماع صوت ارتطام الإبرة بالبلاط في أي مكان يُقام فيه الحداد على ميّت، لكنني لم أفعل شيئاً، لم أتحرك من مكاني خطوة واحدة، كنت أسمع دعاء المشيعين وتكبيراتهم، وأنظر إلى مشهد الدفن بعينين بالكاد ترمشان، إلى التراب تحديداً، كان تراباً أحمر رطباً لا يشبه تراب مقابرنا الرمليّ والصلب.

أنزل التابوت أربعة أشخاص من المسلمين بواسطة حبال، لا يحدث عادة مثل هذا الشيء في العراق، لا يُنزل الميت إلى قبره، إذا كان امرأة، إلا واحداً من ثلاثة: الأب، الأخ، أو الزوج، قبل أن يقوم الدفّان بعمله، حيث يحشر الجثة في اخدود جانبي، من جهة القبلة يُسمى لحداً، ويغلقه ببلاطات مصنوعة من الطين والقش. لكن عبير لا أب لها ولا أخ ولا زوج، الأول ابتلعه الموت منذ سنوات عديدة، والثاني لم يولد أصلاً، والثالث لم يُقدر له المجيء قبل موتها. لقد حاولت في طفولتها، وحتى عمر التاسعة، الإنابة عن الشقيق الذي لم يأتِ، حسرة أمي الدائمة وأمنيتها الكبرى، لهذا تماهت مع الفكرة، بصورة ظنّنا معها أن ثمة ذَكَرٍ حقاً يعيش بيننا في البيت، ثم اكتشفنا بمرور الأعوام أن الفتاة لا تمثّل أو تقلد عالم الذكور، إنما هي مصابة بمرض اضطراب الهوية الجنسية. لا أريد الخوص في تفاصيل حياتنا في العراق، قبل إتمامي هذا الفصل من حيث توقفتُ، أثناء مراسم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الدفن في مقبرة إيسيكس، فعلى الرغم من حالة التشتت والضياع والحزن التي كانت تلازمني طيلة الوقت، لكني استطعت أن ألمح شخصاً يقف جانباً، على مبعدة أمتار، بجوار شجرة سرو كبيرة، كان يرفع يديه الضارعتين بالدعاء، بالتزامن مع طلب الحانوتي من الجميع قراءة سورة الفاتحة، بعد الانتهاء من عملية الدفن. كان يرتدي قبعة رياضية ونظارة شمسية بقصد التنكر وليس بما يتلاءم مع المناسبة، كما هو الحال بالنسبة للمعزين المشاركين في المراسم. عرفته على الفور، إنه روميو البنغالي، أو هكذا أطلقت عليه أنا، يقطن في المنطقة نفسها، ليس بعيداً عن Christian street حيث نسكن. لا شك أنه لاحظ انتباهي إلى وجوده وتعرفي عليه، فغادر على وجه السرعة، حتى قبل انتهائنا من القراءة. بان الذعر عليه وهو يحث الخطى باتجاه بوابة المقبرة ويتلفت بين حين وآخر. التفتُّ نحو مارك، فرأيته يُطارده هو الآخر بنظره من خلف زجاج نظارته المضلل. لم يكن الوقت مناسباً لأسأله عن سبب تواجد هذا البنغالي في مراسم دفن شقيقتي، انتظرت حتى انتهت، وسألته في السيارة، حين كنا في طريق العودة إلى وايت تشابل، وقد حاولت قدر الامكان، تلافي اظهار شعوري بالغضب، فقال لي:

«ربما ليس لأحد الحق في أن يسأل شخصاً لماذا يتواجد في المقبرة، أو في أي مكان عام آخر. قد تكون صدفة، أو ربما جاء لزيارة قبر أحد معارفه، هذه المقبرة تضم رفات آلاف المسلمين، ومنهم البنغاليين، وكما تعرفين أن حي تاور هامليتس يحتوي على نسبة كبيرة منهم، وكثيرون يدفنون موتاهم هنا!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

صمت مارك دقيقة، ليرى ما إذا كنت سأجيبه على ما قدمه من ... ، ولما رأى أن ليس لديّ ما أقوله، حاول طمأنتي، مع أن شيئاً لم يظهر عليّ بعد، ليعطي انطباعاً واضحاً بشأن قلقي من وجود البنغالي أثناء دفن عبير:

«أنا أعرف إلى ما ترمين عزيزتي، برأيي أن لا أهمية لوجود البنغالي في المقبرة خلال مراسم دفن المرحومة، لقد انتهى الأمر عند الحد الذي تعرفينه، أرجو ألا تشغلي نفسك بهكذا أمور، والأفضل أن تستعدي لاستقبال المعزين، لا بد أن يكون غداً متعباً وشاقاً، هل اتفقنا؟»

كالعادة في مثل هذه المواقف التي تستدعي من مارك التهدئة، أومأت له بالإيجاب، مع أنه لم يقنعني تماماً. رحت أقضي ما تبقى من الوقت بالصمت والتحديق عبر النافذة إلى المناظر الطبيعية، والمساحات الخضراء، على جانبي الطريق A12 وA13 والتي تنتهي في راينهام ستي باتجاه لندن. كنت قد زرت، أنا ومارك وعبير ولمرتين، إسكس وتحديداً كولشيستر من أجل السياحة، حيث أمكننا رؤية بحر الشمال للمرة الأولى. أمطرت في الطريق، وتضاعفت كآبتي. منذ أن كنتُ في العراق، وهذه الأجواء الغائمة والممطرة تشعرني بالحزن، رغم أنها تسود لبعض الوقت، في الشتاء فقط. بمناسبة أو من دون مناسبة، أجدني حزينة وأكره المطر، أردد أحياناً أبيات السياب الشهيرة:

أتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج المرازيب إذا انهمر؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع

بلا انتهاءٍ ـ كالدم المراق، كالجياع

كالحب، كالأطفال، كالموتى هو المطر!

كما لو أن الشاعر يخاطبني، فكثيراً ما تخيلت، وأنا وحيدة أراقب المطر، أن هذه الأبيات موجهة إليّ. كنت أجلس بإزاء النافذة المطلة على باحة بيتنا في البصرة، واستمع إلى المطر، أراقب قطراته التي تنقر الزجاج، وأتتبعها وهي تنحدر للأسفل، يميناً وشمالاً، كما تريد لها الريح القوية، إلى أن تتلاشى، لتحل محلها قطرات أخرى. يملؤني الحزن، في المرات القليلة التي تمطر في البصرة، أثناء شتاءنا القصير، من دون أن أعثر على السر وراء هذا، فكيف الحال وأنا أعيش الآن في لندن، مدينة الضباب والبرد والرطوبة والمطر. تعلمت ألا أثق كثيراً بشمس لندن، فقد تختفي خلف السحب الرمادية في أي لحظة، حتى في الصيف، خلال شهر آب، لهذا، دائماً ما أخرج حاملة معي معطفاً، أو مظلة. كثيرون ينتابهم الإحساس بالضياع أثناء المطر، لكن وحده السياب كان بمقدوره التعبير عن ذلك الألم، بأقل الكلمات وأكثرها عمقاً. حاولت تتبع آثاره في لندن، حينما أقام فيها نحو ثلاثة أشهر، من منتصف كانون الأول 1962 إلى منتصف آذار 1963، زرت الأماكن التي حل بها، مثل فندق ذه كمبر لاند، في ويست لاند، على ناصية شارع أكسفورد، ثم في لكسام، منطقة كنزينكتون، شارع كروميل، ففندق يورك، في شارع كوينز وي، منطقة بيزووتر، ومستشفى سانت ماري في بادنغتون، إذ سبق أن رقد هناك في جناح لندو، تحت اشراف الدكتور هارولد إدواردز، بل أني ذهبت إلى أبعد

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

... تلك الأماكن، إلى مدينة درم الجبلية الصغيرة والضبابية، حيث اقام فيها لأيام قليلة، بعد قبوله للدراسة في جامعتها.

كما توقع مارك، كان اليوم التالي كئيباً ومتعباً، موشحاً بالسواد، ...لمات المواساة والتهوين المنافقة، الأكف المتصلبة، ووجوه ...صنع الحزن، وأعين تعتصر الدمع عنوة. وكما هي العادة في تأثر الجاليات بثقافة هذا البلد وعاداته وتقاليده التي لا تبلى، ألقت أجواء الحداد الانكليزية بظلالها الهادئة والرزينة على مراسم عزاء شقيقتي، فلا نائحة تولول في الجوار، ولا نسوة يرتدين السواد ويلطمن على صدورهن، وينفشن الشعور ويمزقن الثياب، لا سُرادق، ولا حتى «حلاوة التمر» التي تُصنع وتُوزع على المعزيات بعد النياحة، في المآتم العراقية. أحسست بالبلادة وهي تسري في أوصالي، ورغم ذلك، لم أحبذ انفراط أولئك الناس من حولي، لأعود بعدها إلى وحدتي. قد يظهر المرء، في مثل هذه المناسبات، رابط الأعصاب، متحلياً بالجلادة والصبر، ولا يبدو عليه الانكسار، لكن، ما أن يلفي نفسه وحيداً، حتى يشعر بالضعف وينهار، وهو ما حصل في المساء، عندما انصرفت آخر معزية، ولم يعد أمامي سوى الاعتزال في غرفة النوم، حيث قادني مارك إلى هناك، آملاً في حصولي على قسطٍ كافٍ من النوم، بعد يوم متعب. انتابتني الكآبة الشديدة، وظننت أن شيئاً في هذا العالم لن يهدئ روعي.

كنت مستلقية على جنبي، في السرير، ومارك على الجانب الآخر، كان نظري مثبت على النافذة، هناك ضوء لأعمدة الإنارة في الشارع، غربلته الستارة البيضاء الشفافة، ليصل على هذا النحو، باهتاً، واهناً،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وقد أضفى على جو الغرفة الكئيب طابعاً شبحياً، أو هكذا أحسسته بحكم الحالة المزرية التي أعيشها، عندما لا تكون الأشياء المحاطة بنا أقل يأساً منا. شرعت بتقليب الذكريات والمواجع، فلم أعثر بينها على ما يبعث على السرور، أو حتى الابتسامة الغارقة بالدموع.

كانت ليلة أقل عبئاً مما مضى، فقد بكيت فيها.

هكذا فجأة، وجدتني أبكي، كما لو أن ذلك لم يحصل معي من قبل. كانت هذه المرة الأولى التي أبكي فيها منذ وفاة عبير، انتهزت الفرصة للاستمرار بالبكاء، فربما لن تدمع عينيَّ مرة أخرى. أخيراً، عادت قنواتي الدمعية لإنتاج سائلها المالح وضخّهِ بغزارة. لا أعرف كم استغرقت من الوقت يومها، لكني لا أشك أن بكائي امتدّ لساعات، حتى أحسست بالجفاف وتحول البكاء إلى تباكٍ. تعبت كثيراً، وظن مارك أنه سيغمى عليَّ ما لم أكف عن النشيج، حاول تهدئتي، احتضنني مراراً، وتحدث إليّ كثيراً، لكن مثلما المرة السابقة، لم أعي ما كان يقوله، شعرت أنه لم يحتضنني ليهدئني فحسب، أو لمجرد المواساة، فقد أحسست بقوة ذراعيه وهو يطوقني بهما، ليحول دون إيذائي لنفسي، إذا ما حدث وانهارت أعصابي مجدداً. في النهاية لم أفعل شيئاً سوى البكاء، كنت أفعل هذا بشدة، وبطريقة خلت معها أني لن أكف عن النحيب. تخيلت متسائلة: ماذا لو لم أكف حقاً؟ هل سأموت؟ هل حصل مع أحد من قبل، أن مات من البكاء؟ كان خيالي يتمدد حينئذ، ويشطح بعيداً، إلى أقصى ما يمكن أن يصله خيال أحدهم، تصورت كم سيكون مربكاً للآخرين ومزعجاً هو استمرار امرأة ما بالبكاء طيلة حياتها، حتى وهي تستحم، وتأكل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الطعام، وتمارس الجنس، أو تتسوق، أو تتبادل الحديث مع جارتها، حتى وهي تضحك. لم يسبق لي الإجهاش بالبكاء على هذا النحو، حتى عندما مات والدي، كان حزني كحزن أي فتاة فقدت أبيها، لم احذو حذو أمي وخالتي وبعض قريباتنا، اللائي أوشكن على تمزيق انفسهن من اللطم، وبعد ساعة رأيتهن يأكلن بشراهة، وكأن شيئاً لم يكن. في المحصلة، ولكي أكف عن البكاء في ذلك المساء، كان لا بد من حدوث أمر من أمرين، فإما أموت من شدة البكاء، وهو ما تبدر إلى ذهني مؤخراً، أو أغط في النوم، وإلا، فإن توقفي عن النحيب بشكل ارادي، كأي شخص آخر يأخذ كفايته ويصمت بعدها ليعود الى ممارسة الحياة، صار أمر غير وارد، أو هكذا ظن مارك، الذي يئس من اسكاتي، وقد حصل أخيراً، أن بدأت أشعر بالتعب، مع اقتراب الفجر، أحسست بالدوار، وبدأت أنفاسي تضيق، وشيئاً فشيئاً، غططت في النوم.

كان أكثر ما سمعته من المعزيات، نهار اليوم الماضي، هي التمنيات بأن تكون هذه المناسبة آخر الأحزان. في الواقع، أنا لا أعرف كيف يكون بوسع الأحزان أن تكون الأخيرة، فلا يحدث بعدها شيء يجعل المرء حزيناً، لكني أزعم بأنها كانت أمنيتي أنا أيضاً، ليس بالصيغة نفسها التي قصدتها النسوة المعزيات، إنما على نحو ما يطمح إليه شخص يؤمن باستمرارية الحياة، وجدوى عيش الآتي منها بشكل جيد. كانت أمنية مؤقتة بكل الأحوال، إذ سرعان ما تلاشت في اليوم التالي، لتُجَدِّد يقيني بوجود أشخاص في هذا العالم، ولدوا لا لأجل شيء يستحق، سوى استقبال اللا متوقع من

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الصدمات العنيفة، ولست أنا الأقل تعاسة بينهم، فهذه هي المرة الثانية التي أتلقى فيها الخبر نفسه:

«أختكِ حامل!»

هكذا تجري الأمور، ورغم ذلك تجد من يلومك لأنك تلطم عينيك وصدرك وتخمش خديك حد الإدماء، ثم تبدأ التفكير بالانتحار.

لم يكن الخبر أقل وطأة من خبر انتحار عبير، لكني استقبلته بطريقة لم يعد لطقوس الجزع العنيفة من نفع، لأعبر بواسطتها عما استجد مؤخراً، وكان سيوقف قلب أي امرأة تجمعها مع عبير قرابة من الدرجة الأولى، كأن تكون أمها أو اختها. وكما لو أنه السر الأخير الذي صرت أرغب بمعرفته لأموت بعدها، رحت أردد مع نفسي: من أحبل شقيقتي؟!

حدث هذا في اليوم التالي، عندما أظهرت نتائج الفحوصات الجنائية على عينات أُخذت من جثة عبير، أنها حامل. كنت قد أفقت من نومي بعد خمس ساعات، لأجد مارك في غاية القلق، ويظنني في غيبوبة. لا بد أنه جس نبضي كثيراً، ورفع يدي وتركها تسقط، وحاول إيقاظي مراراً، ليظن ذلك. طمأنته قائلة أني بخير، وأشعر بشيء من الراحة بعد نوبة التنفيس البكائي الطويلة. أما ما حصل، قلت له، فكان نتيجة حبسة اصابتني منذ وفاة عبير، ولكي اطمئنه أكثر، استحممت في محاولة لاستعادة نشاطي، وأفطرت معه، ورغم الارهاق والصداع بسبب سهرة الليلة الماضية الغارقة بالدموع، لم أشعر برغبة في معاودة النوم.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عند الظهيرة، زارنا المحقق الذي يتولى مهمة التحقيق في قضية سمير، دخل إلى غرفتها لبعض الوقت، ثم عاد إلى غرفة الجلوس، ووجه لكلينا بعض الاسئلة، كان من ضمنها سؤاله عما إذا كانت الفقيدة تملك هاتفاً نقالاً. كان هاتفاً من تلك المصنوعة خصيصاً للصم والبكم، ويمكن من خلالها ارسال واستقبال المكالمات، وعلى ما هو بائن أنه مفقود، وليس كما ظننت، من أن الشرطة أخذته مع بقية الأشياء من غرفتها، بحثاً عن أدلة محتملة.

وفجأة، في خضم الكلام والسؤال والجواب، نقل لنا المحقق الخبر. أوشكت، لحظتها، على إطلاق ضحكة، ضحكة بلا معنى، من تلك التي لا يجد المرء إزاء ما يتلقاه من أخبار مفاجئة وصاعقة، سوى القهقهة بها، بهيستيرية تعبّر عما يجول في داخله من اضطرابات نفسية، تكاد أن تحيله إلى كائن مختلٍ عقلياً. لا بد أني اجتزت لحظات الضعف العاصفة، التي يتحدد بعدها مصير الانسان، فإما مجنوناً، أو ناجياً ومستمراً بامتلاك قواه العقلية، ليتلقى المزيد من الصدمات. أظنني ما زلت أمتلك عقلي، وإلا لم أكن أجلس لأروي كل هذا الآن. لاحظت، حينذاك، أن المحقق صار يتلافى ذكر كلمة انتحار بينما هو يتحدث، وهذا يعني بداية شكوكه بشأن تعمد الضحية إلى انهاء حياتها بملء إرادتها، مما يعني وجود فاعل، أو لأقل قاتل. اتضح له ذلك من خلال حالة الحمل، وهو دافع كاف لارتكاب جريمة، بالإضافة إلى الهاتف المفقود:

«رغم أننا لم نعثر على أثر واضح لجريمة محتملة، لكن هذا لا ينفي أن تكون الضحية رُميت من خلال النافذة!» قال المحقق وهو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يشبك أصابع يديه، ويدوِّر إبهاميه حول بعضهما: «ما أعنيه بكلامي أن الفتاة ربما تلقت دفعة من أحدهم، بحركة واحدة أو اثنتين، وبشكل مباشر، بطريقة جاهزة للقتل، لن تضطر خلالها إلى المقاومة، وهكذا، يُصعب العثور على أثر بائن إذا ما أخذنا هذا الاحتمال بعين الاعتبار، على العكس من افتراضنا في حال عمد الجاني إلى خنق الضحية، أو طعنها، أو ضربها بآلة حادة!».

حاولت تخيل المشهد من البداية، منذ دخول القاتل عبر بوابة البناية، بعد التأكد من عدم وجود كاميرات للمراقبة، ثم ارتقائه إلى الدور الرابع، بواسطة المصعد، ودخوله الشقة (لا أعرف كيف فعل هذا) افترضت أن عبير، حينذاك، كانت تقف بإزاء النافذة، تتأمل شيئاً من هناك، أو تراقب حركة الشارع كعادتها، أو تستنشق هواء نقياً. لا بد أنها سمعت وقع أقدام الزائر الغريب وراءها، فالتفتت لفتة كاملة، بكل جسدها، لتُفاجأ بوجوده المباغت، انقض عليها مباشرة، ودفعها باتجاه النافذة، فخرج نصفها، الذي ربما تأرجح لبعض الوقت، في محاولة يائسة للتوازن، قبل أن تهوى إلى الأسفل. تُرى من هو ولماذا قتلها؟ ما الذي فعلته شقيقتي، واستحقت عليه الموت بهذا الشكل المروع والمؤلم؟ هل حقاً ما قاله المحقق: الحمل سبب كافٍ لارتكاب جريمة؟ وهل تُقتل النساء في بريطانيا، لمجرد حملهن؟ قد يحدث هذا في العراق والدول العربية والاسلامية، انقياداً وراء تقاليد غسل العار، وفي بريطانيا أيضاً، وبقية أوروبا، وفي أميركا، ما دام أن ثمة من يرى في ذلك مسحاً لكرامته وشرفه في البراز. لكن، من هذا الذي رأى في حمل عبير إهانة لكبريائه، ليقدم على قتلها؟ فعبير لا

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ا. .الها ولا أخ ولا زوج، لا في لندن ولا في أي بقعة من هذه الأرض، ، لا حتى أولاد عمومة مستعدين لقطع آلاف الأميال، واقتفاء أثرها إلى هذا الحد، من أجل القضاء عليها، والثأر لكرامتهم. لقد نُسينا .ا. زمن طويل، ولم يعد أحد في العراق يكترث لمصيرنا. فرسان .حسورتا الساق، ومنسيتان إلى الأبد، بل ميتتان. الحمل سبب كاف لارتكاب جريمة! حتى وأنا أتخيل كيف ارتُكبت الجريمة، لم يفارق ، جه روميو البنغالي مخيلتي. يبدو أن عبير كذبت علينا، وكانت على علاقة معه حقاً، عاشرها، فحبلت منه، وقرر أن يقتلها. لكن، لماذا يقتلها؟ دفعاً للفضيحة؟ وأي فضيحة أكثر من القتل؟ لماذا لم يتقدم لخطبتها مثلاً، ما دام أن أحداً لا يعلم، غيرهما، بمسألة الحمل، ليتم اقترانهما وفق بروتوكول من ستر مسلماً ستره الله؟ أليس من المفترض أنه يحبها؟ وإلا لماذا أقام علاقة معها؟ أمن أجل النوم معها فحسب؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا تعّمد إحبالها؟ يبدو السؤال الأخير ساذجاً نوعاً ما، فهناك الآلاف الفتيات في بريطانيا، بعمر عبير وأصغر منها بسنوات، يتم تلقيحهن ويحبلن، من دون إلقاء اللائمة على الشركاء، إذ بالإمكان حصول الحمل، حتى في حال قام عاشقان بإجراءات الاحتراز لمنعه، بينما هناك نساء، أمثالي، يتمنين الحمل وإن بضفدع، وفي إطار علاقة موثقة كالزواج، لكن من دون جدوى.

أكثر ما أثار حيرتي، في هذه المسألة، هو عدم ملاحظتي، قبل موت عبير، أي شيء من أعراض الحمل، ولعل أكثرها وضوحاً امتلاء البطن. ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى أخبرنا المحقق بالتفاصيل، فقد تبين أن عبير كانت في نهاية الاسبوع الثالث من

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الحمل حين أقدمت على الانتحار، وعلى وجه الدقة في مرحلة التخصيب والغرس. اكتشفوا في البداية افرازات مهبلية بعضها مخاطية، والبعض الآخر تحتوي على شيء من الدماء، مما أثار الشك حول ما إذا كانت تلك افرازات عادية بسبب الالتهابات، أو ناتجة عن عملية الإخصاب، وهو ما اتضح فيما بعد، عندما كشفت الفحوصات عن وجود بويضة مخصّبة ملتصقة بجدار الرحم. وهكذا، لا يمكن للحمل أن يبان على امرأة، إلا في حال اكتشفته هي بنفسها وأخبرت به. أما بقية الأعراض، فبمقدور أي فتاة إخفاءها بسهولة، كما أن ليس كل الأعراض من هذا النوع تثير الشك بشأن وجود حمل ما، فربما تشكو المرأة من انقباضات البطن، الافرازات، الشعور بالثقل والتعب والغثيان، آلام الثديين وانتفاخهما، تغير الشهية والنفور من بعض الاطعمة، توقف الدورة الشهرية، ارتفاع درجة الحرارة، كثرة التبول، انتفاخ محيط الخصر، ويكون كل هذا بسبب مشاكل صحية أخرى لا علاقة لها بالحمل.

أحسست بالدوار، كنتُ على بعد خطوة واحدة من هاوية عمقها الجنون، ليس بسبب حمل عبير غير المتوقع فحسب، بل بسبب الغموض الذي بدأ يلف القضية بشكل عام، وشكوك سابقة عادت إلى الواجهة بعد طيّها ونسيانها، وإذا حصل وتذكرتها عرضاً أؤنب نفسي، وأعود إلى دحض ما تبادر في ذهني في فترة معينة من الزمن.

«هل تشكين بأحد؟» سألني المحقق، كنت شاردة الذهن ولم أسمعه إلا بعد تكرار سؤاله مرتين أو ثلاث، ثم قال:

«هل أنتِ بخير؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

قفزت صورة روميو البنغالي أمامي مجدداً. ومن غيره يفعلها؟ ات مع نفسي. كان مثيراً للريبة طوال الوقت، والذكر الوحيد، الذي ظهر في أواخر حياة عبير، وكنت أظن أنه اختفى من دون أن يترك اثراً، وإذا به، ويبدو هذا أقرب إلى الوضوح، يرفض المغادرة من دون أن يكون له في الأمر يد طالت جداراً لم يكد يتطهّر من آخر انتهاك، حتى التصقت تلك البويضة به مجدداً. كنت على وشك اتهامه، لولا أن مارك قاطعني قائلاً:

«لا أظن أن هناك متهمين محتملين حضرة المحقق، وليس لشقيقة زوجتي علاقات حميمة مع أحد، كانت فتاة منضبطة، ولا تخرج كثيراً، وصداقاتها محدودة وجميعها مع فتيات، أضف إلى ذلك، حضرة المحقق، أنها مسلمة، وكانت ما تزال محافظة على تقاليدها، بشأن الحريات الخاصة، إلى أن توفيت!»

«لكن،، هذا لا يعني، بأي ظرف من الظروف، ألا يكون لها علاقات في السر!» رد المحقق الخمسيني، ذو الأنف الطويل، المتذاكي على طريقة موروثة من قصص شرلوك هولمز. كان من المفترض أنه ينظر إلى مارك في تلك اللحظات، لكنه راح يوجه نظرته إليَّ، من تحت نظارته الترتشلية قائلاً، وكأنه يوجه كلامه لي: «لا أحد يعلم ماذا يجري في الخفاء يا مستر شيتل، أعرف فتيات مسلمات أقمن علاقات جنسية مع رجال من جنسيات أخرى، بعضهن قُتلن من قبل ذويهنّ وأخريات هربن مع عشاقهن!».

صمت المحقق، سائلاً عما إذا كان مسموحاً بالتدخين في الشقة، أومأ له مارك على مضض، فأشعل سيجارة ماركة بنسون آند هدجز،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وبدا وهو يدخّن كأنه يروج لمنتج محليّ، ثم تابع حديثه، بينما الدخان يخرج مع كلماته:

«ثم لا تنسى يا مستر شيتل أننا في بريطانيا، والقانون هنا، كما تعلم، يسري على الجميع، فمثلما يضمن القانون حرية فتاة انكليزية بالأصل، كذلك بوسعه ضمان حرية عبير، وغيرها من المسلمات بالتجنيس. في أحد الأيام، جاءت فتاة مسلمة، أو لنقل من عائلة مسلمة، تشكو أبويها، لأنهما يمنعانها من مواعدة موسيقي شوارع من أصول جامايكية، أحبته منذ أول مرة رأته فيها وهو يعزف على الغيتار، في ساحة الطرف الأغر، ماذا برأيك يفعل القانون إزاء شكوى فتاة تعيش في لندن وتتمتع بالجنسية البريطانية؟ بالطبع يقف إلى جانبها، وبالتالي، انصرفت الفتاة العاشقة مع عشيقها العازف الجامايكي، وهما الآن في السجن بعد ضبطهما يتعاطيان الهيروين، في حين عاد الأبوان إلى بلديهما الأصلي خائبين، ويشعران بالعار!».

بدا مارك مُفحماً أمام كلام المحقق، الذي عاد ليسألني مجدداً:

«إذن مسز شيتل، هل تتهمين أحداً؟»

«حتى الآن، كلا!»

أجبته بعد تردد دام للحظات، ولا يظهر أنه اقتنع بكلامي.

«حسناً» عاد ليقول، بعدما أطفأ سيجارته في المنفضة، ثم نهض ليزرر سترته، كاشفاً عن إجراء تعتزم الشرطة القيام به، وهي المعلومة التي من المفترض بقاؤها طي الكتمان، حتى إتمام الإجراء، ولا أعرف السبب وراء كشفها: «نحن مضطرون إلى إخضاع زوجك إلى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ـ.ـ.ل الـدي أن إيه!» كان ينظر إليّ حينئذ، قبل التفاته نحو مارك ـاـاـ: «لن نضطر إلى أخذ عينات منك يا سيد شيتل، أنت تعرف أن ـ اك قاعدة بيانات للحمض النووي لكل بريطاني، «عاد ليلتفت إليّ ـ ابعاً: «كما أرجو إخطارنا في حال كان هناك متهماً محتملاً»

«هل يعني هذا أنكم تتهمون زوجي حضرة المحقق؟»

سألته وأنا ألقي نظرة قلقة على مارك الذي تغيّر لون وجهه إلى الشحوب، وبدا كما لو أن طيراً ما يقف على رأسه، أو زجاجة ينتظر من أحدهم إصابتها بطلق ناري، كما يحدث في عروض المغامرات الخطرة.

«نحن لم نتهم أحداً حتى الآن مسز شيتل، انها اجراءات احترازية. أرجو ألا يثير ذلك قلقك، فحتى هذه اللحظة لا يبدو أن هناك متهماً، لكن هناك احتمال غير مؤكد بشأن وجود جريمة!»

هكذا بدأ الحديث عن جريمة قتل، وليس عن حادثة انتحار فحسب. يبدو الأمر مفزعاً، أكثر مما لو اقتصر على فرضية الانتحار. لفظة قاتل لوحدها تجلب الرعب من حيث لا تشعر. كانت عبير مطلوبة للقتل في بلد يسوده الحكم العشائري وينعدم فيه الأمن، ورغم ذلك لم تجد من يقتلها، أو ربما منعت أنا أحداً من الوصول إليها، لكنها، هنا في انكلترا، في مدينة شرلوك هولمز وشرطة سكوتلاند يارد، كان الطريق إليها سالكاً وسهلاً للغاية.

لم أفهم لماذا قاطعني مارك، حين كنت على وشك اتهام البنغالي، رغم معرفته لما يترتب على ذلك من عواقب، لعل ابرزها اتهامه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

شخصياً من قبل الشرطة، فها هو المحقق يضعه في تفكيره، ويطلب منه الخضوع لتحليل الحمض النووي. طلبت منه افهامي، قال أن البنغالي مجرد فتى ساذج، وقع في غرام الفتاة لفترة من الزمن، ولا يظن الأمور بينهما وصلت إلى درجة الالتحام الجسدي المباشر.

«و لماذا برأيك؟ فتى بعمره، ربما تجاوز الخامسة والعشرين، ألا تستطيع حيواناته المنوية أن تخصب بويضات فتاة في ذروة انفعالاتها الجنسية؟ أم تظن أنه خصيّ مثلاً؟ آه، سحقاً، لا تقل أنك تتعمد اغفال حقيقة أن ذلك البنغالي نام مع شقيقتي، وأنه هو من تسبب بحملها ثم...»

«ما تقولينه مجرد استنتاجات عزيزتي. اختك انتحرت، هل تفهمين؟ انتحرت، أنهت حياتها بإرادتها، ولا علاقة لأحد بما حدث، حتى لو افترضنا أن البنغالي قتلها، ما الذي يدفعه إلى ارتكاب مثل هذا الفعل؟»

«الحمل!» صرخت بوجهه: «لا بد أنه علم بحملها وسعى إلى التخلص منها بتلك الطريقة، لم يرد الارتباط بفتاة بكماء يقضي حياته معها بالإيماءات والإشارات!»

«و كيف يمكن لشخص ما معرفة أنها حامل، إذا كانت الأجهزة المجهرية نفسها والتحاليل الجنائية بالكاد كشفت الأمر؟»

«لا بد أنها علمت ذلك وأخبرته» قلت له: «تخبر الفتيات شركائهن بذلك قبل الأمهات»

«أما أنا» قال مارك: «فأشك أن حتى عبير نفسها كانت تعلم بحملها، لهذا، لا أظنها انتحرت بسبب الحمل»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

تشاجرت مع مارك في ذلك النهار. كان آخر ما قلته قبل خروجه هو أني سأبلغ الشرطة عن البنغالي، وأودعه الحبس قريباً. أحسست برغبة شديدة بالبكاء ولبثت أنتحب لساعة أو اكثر. خطر لي الدخول إلى غرفة عبير، غير أني انصعت لرغبتي في المشي، وهي رغبة قديمة متأصلة فيَّ منذ فترة طويلة، عندما كنت أقطع مسافات طويلة في الطريق إلى المدرسة. مارك يفعل الشيء نفسه، لكني على العكس منه، دائماً ما أكون على استعداد لقطع مسافات أطول، من دون التفكير بالتوقف ما لم أبلغ نقطة حددتها سابقاً. هناك معلومة، لا أعرف مدى صحتها، تقول: إن المشي يمتص الطاقة السلبية. حسناً ربما، لكنه لن يمتص الحزن على أي حال، أقول هذا كوني لا أريد لحزني الانجلاء بسرعة، قبل كشفي لبعض الألغاز التي رافقت قضية عبير. هذا ما أطلقت عليه الصحافة البريطانية في عام 2006: قضية عبير. قد أكون عانيت أكثر منها، لكن القضية كانت قضيتها، ربما لأنها أصغر مني عمراً، أو لاعتبارات أخرى ليس تأنيب الضمير أحدها، إلا إذا امتلكت دولة عظمى مثل بريطانيا تنتج الصواريخ المشعة، ضميراً عادلاً، بحيث تجعل من الطفولة العراقية المشعّة والمشوّهة قضيتها الكبرى.

كنت منهكة، ولم أضع في حسباني المشي لمسافة طويلة كما اعتدت من قبل. كان الوقت بعد الظهر، بدأت على مهل في الدقائق الاثني عشر الأولى، الفترة التي يستغرقها المرء لقطع ما مقداره ألف متر بمعدل مشي متوسط. وددت لو أجري بعدها وأركض إلى ما لا نهاية، حتى تتمزق قدميّ عند آخر نقطة. شعرت بنبضي يتزايد كلما أسرعت، هناك بعض الأشخاص يمشون على نفس الوتيرة، لكنهم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يفعلون ذلك من أجل التخسيس وتنشيط الدورة الدموية، ولا أظن أحداً منهم يشغل تفكيره بأخت منتحرة، وزوج متهم بالقتل، وقاتل محتمل ما يزال طليقاً. كنت أمشي متجاهلة النظر إلى جانبي الطريق، حيث تصطف متاجر بيع الألبسة والاكسسوارات، والهواتف الجوالة، والأسلحة، والساعات، المكتبات، الفنادق، المطاعم، المجمعات السكنية، وكالات التوظيف والتسويق وتأجير السيارات، المؤسسات التعليمية والحكومية، المقاهي، المعالم التاريخية، مكاتب المحاماة وشركات التأمين، الكنائس، البارات، الصيدليات، استوديوهات التصوير، صالونات الحلاقة، ماكنات الصرف الآلي والهواتف العمومية وغيرها، التي تمتد من الشارع التجاري مروراً بشارع وايت تشابل هاي، وفينشورش، وجريسشورش، وشارع كانون في حي السيتي، مجتازة نقطة التقاطع مع شارع فكتوريا كوين، باتجاه شارع بولص تشرجيارد، ثم لودجيت هيل، ثم شارع فليت في حي الصحافة، فأولد ميتر، وصولاً إلى تيودور عبر كنغ بنتش وولك، ومنه إلى شارع كارمليت الذي ألقى بي في طريق فكتوريا إمبانكمينت، حيث وجدتني أخيراً على ضفة التايمز، في المكان نفسه الذي شهد إلقاء نفسي في مياه النهر قبل أيام. جلست هناك على مقعد بإزاء النهر، أفكر بكلام مارك، وقد أثار استغرابي دفاعه عن البنغالي، بشكل جعلني عاجزة عن مقاومة شعوري بالارتياب، كأنه يقول لي: «حسناً عزيزتي! لماذا تتهمين البنغالي وأنا موجود؟ ألا ترين أني ناضج بما يكفي لأُحبل مائة امرأة خلال شهر، ولدي خصيتان قادرتان على انتاج ملايين الحيامن المنوية؟ ألا أبدو رجلاً بالنسبة لك أم ماذا دهاك يا امرأة؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لو فكر مارك أن يوجه لي مثل هذا الكلام وبهذه الطريقة، لقلت له بوقاحة ونبرة غير بريئة:

«إذا كان الأمر يجري معك بهذا الشكل، فلماذا لم تحبلني يا سيد شيتل؟»

كان قد مضى على زواجي من مارك قرابة ستة أعوام، لم نفلح خلالها بإنجاب طفل واحد على الأقل. فعلى الرغم مما تعرضت له، لكن المشكلة تكمن فيه، لأسباب هرمونية مزمنة لم تنفع معها الأدوية والعقاقير. لهذا، لا يمكن الشك فيه كثيراً، مع بقاء حمل امرأة منه احتمالاً قائماً، ويمكن حدوثه في أي لحظة، ما دام أنه لا يعاني من العقم التام. إلا أن مارك لم يكن راغباً بالإنجاب، إلى درجة يجعل هذا الأمر يشغله أو يسبب له القلق طيلة الوقت، على العكس مني، كنت مصرة حتى وقت قريب على ممارسة حقي في الأمومة، حتى لو اضطررنا في النهاية الاستعانة بالطريقة الاصطناعية، وهو ما كان مقرراً وكنا سنلجأ إليه قبل انفجار الوضع وحدوث كل تلك الكوارث. ازدادت، لفترة قصيرة جداً، رغبتي بالإنجاب بعد وفاة عبير، كنت أفكر بهذا الأمر نهار اليوم الذي قادتني فيه قدميَّ إلى ضفة التايمز، لقد شعرت بالخطر، ممن؟ لا أعرف. أظن أنه الخطر نفسه الذي تستشعره أي امرأة أخرى، ماتت ابنتها الوحيدة، في حين ما زال زوجها يعاني من مشاكل في الانجاب. نعم، كانت عبير أبنة أكثر منها أختاً. كنت أشعر على الدوام بأمومتي لها، منذ أن ولدت، على الرغم من وجود أمي في ذلك الحين، في العراق. لدى شريحة كبيرة من الناس، المرأة التي لا تنجب، أو حتى من لا تنجب سوى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الإناث، عادة ما تكون عرضة للشراكة مع امرأة أخرى، هناك الكثير ممن يقضين أعمارهن مع أزواج لا يخصبون، إما لأسباب تتعلق بالانتقاص من ذكورة الزوج، في حال أخلى سبيلها وعاش وحيداً بقية حياته، وكأن أحداً لن ينعته بالخصي إذا أبقاها في قفصه، أو لأسباب أخرى تتمثل برغبة بعض النساء في الاستمرار مع الرجل، إما بداعي الحب أو الرأفة، أو التسليم لمشيئة الرب، ويحدث أيضاً أن من تنجب ذكراً واحداً أو اثنين، لا تختلف، في نظر أم الزوج وذويه، عن المرأة العاقر، خصوصاً في المناطق الريفية التي يجب ألا يقل عدد الأطفال لكل زوجين عن ستة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(5)

عدت إلى الشقة في آخر النهار، لم أجد مارك هناك. كنت جائعة، لأول مرة أشعر بالجوع وأكون راغبة بتناول الطعام بملء إرادتي، بعدما كنت أفعل هذا بإلحاح من مارك في الأيام الماضية.

هكذا إذن تستمر الحياة، عندما تبدأ رغبات المرء بالعودة تدريجياً، من الحاجة إلى الأكل والشرب، ثم الخروج بداعي تنشق الهواء، ثم ممارسة الجنس، قبل الشروع في نهاية الأمر بالعمل. ليس بوسع أحد منع الحياة من الاستمرار، إلا إذا فكر بقتل نفسه، وحتى لو فعل هذا، فإن من سيتوقف هي حياته، وليس الحياة برمّتها. لقد أُعدمت الحياة في هيروشيما، لكنها عادت مجدداً، ولا زالت مستمرة إلى الآن. في العراق، يأتي أحدهم مثقلاً بالمتفجرات، ويُحدث مجزرة هائلة في أحد الأسواق الشعبية، لكن سرعان ما تعود الحياة وتدب الحركة في المكان ثانية. أكثر من مليون ونصف من الأرمن قُتلوا في عام 1915، لكن أرمينيا ما زالت في الوجود. الحياة مستمرة في العراق وفلسطين وفيتنام والجزائر وراوندا، واستمرت بعد الطاعون الأسود في أوربا، وبعد الحرب العالمية الاولى والثانية، والحرب الكورية، والحرب الفيتنامية، والحرب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

العراقية الإيرانية، وعاصفة الصحراء، وحرب العراق عام 2003. من جهة أخرى، في بعض الاحيان، قد لا تلوم امرأة ما، عاشت ما عشته أنا، العدميين بشأن سخطهم على الحياة والأمهات. هناك لازمة عدمية يرددها اليائسون في العراق، إذ يخاطب العراقي أمه، سواء كانت على قيد الحياة أم متوفاة، معاتباً إياها، ملقياً باللائمة عليها لأنها جاءت به إلى هذه الحياة، وكأنه سيكون أكثر سعادة وأماناً إذا ما بقي لابثاً في خصيتي أبيه. لكني لم أصل إلى هذه المرحلة من العدمية، رغم إيماني بانعدام العدالة، ليس عدالة الحياة، إنما من يظنون أن لهم الحق في إدارة حياة الآخرين.

وما دام الأمر كذلك، والحياة مستمرة، فلأدخل غرفة عبير إذن. حدثت نفسي وأنا أتناول العشاء مع مارك، الذي عاد إلى الشقة بعد نصف ساعة، ولا يبدو أنه عابئ بما تعتزم الشرطة فعله، وهو إجراء تحليل ال دي أن إيه. كان ما يزال غاضباً من شيء ما، عدا الشجار الكلامي بيننا قبل ساعات. لم أسمع منه شيئاً في تلك الليلة، باستثناء همهمته وصوت مضغ الطعام، وهي عادة سيئة لم يكن بمقدوره التغلب عليها. كان يأكل بصمت وببطء، كأنه مرغمٌ. لم ينظر إليّ، حتى عندما أخبرته بنيتي تفقد غرفة عبير لم يعلق (لم أدخل غرفة عبير إلا بعد يومين، اي ظهيرة اليوم نفسه الذي ظهرت فيه نتيجة تحليل الـدي أن إيه) ثم سرعان ما انصرف لينام، رغم أن الوقت ما يزال مبكراً. تساءلت في نفسي، وقت كنا نتناول الإفطار، صباح اليوم التالي، على نحو ما جرت الأمور في الليلة الفائتة، بصمت ومن دون أي مبادرة من أحدنا لإذابة الجليد بيننا: ماذا لو اختفى مارك،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الرجل المشتبه بهم في قضايا القتل العمد؟ أولئك الذين لم تترك لهم التكنولوجيا والعلم الحديث من مهرب، وأصبح الواحد منهم عاجزاً عن دحض الأدلة الدامغة التي تدينه، ولا يملك إزاءها سوى الفرار. إلا أنه لم يهرب، بدا واثقاً من براءته، ومع هذا، لم يخفي خوفه من شيء كان مجهولاً حتى بالنسبة لي. كان توجسه واضحاً، لكن ممن؟ هذا ما لم أعرفه حتى وقت متأخر، حين كنا نجلس في الصالة، في اليوم التالي، اتذكر عندما سألته عما يقلقه، ما دام أنه واثق من النتيجة. لاذ بالصمت لدقائق، ثم عاد لطمأنتي، مع محاولة فاشلة لأن يكون طبيعياً. غير أن ستة أعوام أظنها كافية، لتعرف امرأة أشياء كثيرة عن شريكها، منها تمييز ما إذا كان طبيعياً حقاً، أم أنه يعمد إلى المحاكاة، متظاهراً بأن ما يحدث شيء طبيعي، لا تداخله الغرابة. لم ترعبني فكرة وجود علاقة بينه وبين شقيقتي، أكثر مما فعله تخيّلي لمشهد العري بينهما، لقد نشطت مخيلتي في حينها بشكل مقزز وكارثي، وددتُ لو أرطم رأسي بالجدار، لأجبره على الكف عن التفكير. ما أخافني حقاً هو أحد تعريفات الخيال: (القدرة على التفكير بالأشياء الممكنة) كدت أُجن حين لاحظت أن بالإمكان حدوث ما تخيلته بين مارك وعبير، وهذان الاثنان هما في الحقيقة زوجي وشقيقتي، بالطبع سيختلف الأمر لو كان أبطال خيالي روميو البنغالي وعبير. لا أعرف ما الذي يحدث ويكون سبباً في انتاج التخيلات، لكن أياً يكون هذا الشيء الذي يحدث، تمنيت أن يتوقف، وإذا كان بوسعه الموت فليمت إذن. وحبذا لو يتوقف رأسي عن العمل، أو يصيب مخي عطب ما، أو أفقد الذاكرة، أو حتى أموت، لكي لا أعود إلى تخيّل مارك وهو يدفع وركه بعنف نحو وسط عبير، يعلو ويهبط

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عليها، وهي تهتز تحته وترتعش مثل طير، من دون تأوهات أو شتائم عادة ما ترافق العلاقات السيئة غير الشرعية.

شعرت بالألم، وهو ينخر أعضائي، وتمنيت لو أصاب بمتلازمة مارسيلي، نسبة إلى عائلة بريطانية لديها حصانة ضد الألم. كانت أياماً مرعبة، وها أنا أتذكرها تماشياً مع قانون استمرارية الحياة، فإن تستعيد ذكريات تحمل هذا الكم الهائل من الألم، ثم تتحسس نفسك لتعرف أنّ مكروهاً لم يحصل لك بسببها، لهو دليل ساطع على أن الحياة استمرت بعد ذلك، وأنك جالس في شرفة، تدخن وتستعيد ما حدث ببرود، شئت أم أبيت، لا بد لهذه الحياة أن تمضي. يوماً ما، أُصبت بجرح بليغ في ظاهر كفي الأيمن، أتذكر ما قالته أمي وقتها، قالت: تكبرين وتنسين! وفي مرة أخرى قالت: تصير سوالف! أي أنك ستكبرين ويصبح الحدث الذي كان جسيماً في حينها مجرد حكاية ترويها، كما يحصل الآن وأنا أروي عن عبير. لكني طالما اعتبرت قولها الأول، الذي يشبه الحكمة: تكبرين وتنسين! نوعاً من التهوين يستخدمه العراقيون، حتى لو كان أحدهم مصاب بصاروخ، إذ كيف يمكن لشخص نسيان شيء ما، وهناك في المقابل أشياء كثيرة تذكره به؟ فأنا على سبيل المثال، ما يزال أثر الجرح على ظاهر كفي يذكّرني، كلما نظرت إليه، بتلك الحادثة، وزمانها ومكانها والآلة التي جرحتني، وإذا افترضت إزالته بواسطة عملية تجميل كما حصل مع تشوهات وجهي، ستبقى هذه العملية تذكرني به طوال الوقت. إذن، ما معنى أن أكبر وأنسى؟ لعله ليس هو النسيان نفسه المؤدي إلى اضمحلال الأشياء والأحداث من الذاكرة. أمي وباقي الأمهات،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ممن يرددن هذا القول، ربما لا يعنين بالنسيان كحالة تجعلنا لا نتذكر ماذا أكلنا في عشاء الليلة الماضية، أو من زارنا قبل شهر، بل يقصدن أن كل ما هو ماضٍ هو منسي بالضرورة، من دون التسبب بمحوه تماماً. يحدث أن تسأل امرأة ما زميلتها عن شخص كانت تجمعها به علاقة غرامية منذ عشرين سنة، فترد عليها هذه قائلة بأنها نسيته، في وقت ما زالت هي تذكره لتدلل على نسيانه، لكن من ناحية أخرى هي ما زالت تتذكر اسمه، وملامحه، وشيئاً من مواقفه، وسبب هجره إياها، وهي بذلك كأنما تقول بأنه أصبح من الماضي، والماضي لا يعود. هذه هي الخلاصة، حكاية لا يُعبأ بها، يمكن أن تُروى سريعاً على مائدة الغداء أو حتى أثناء المعاشرة الجنسية، تماماً، كما أصبح الجرح على ظاهر كفي الأيمن.

وهل سأنسى حقاً ما حدث لي ولعبير عندما أكبر؟ هل سيتحول كل شيء إلى طي النسيان، أو الماضي، حين أبلغ السبعين أو الثمانين من العمر، وتغدو كل المصائب التي حلت على رأسي حكايات أو «سوالف» على حد تعبير والدتي؟ تساءلت مراراً وأنا أنظر باتجاه غرفة عبير، ولأول مرة منذ أيام لا أبدو مترددة في الدخول إليها. لا أعلم مم كنت خائفة وقتها، ربما لم يكن خوفاً، أو كان كذلك بالفعل، لكنه الخوف من رؤية أشياء شقيقتي، رغم جهلي أيضاً بما يمكن أن يُخيف في أشياء عائدة لفتاة ميتة. لعله ليس خوفاً من الأشياء نفسها بقدر ما هو الخوف مما يبدو غير مرئيّ، وسيظل عالقاً في مكان ما داخل الإنسان، يبقى يعذّبه لأمد طويل. الآن، وبعد مضي أكثر من عام على ما حدث، صرتُ أعرف كم كنت أخشى مما يسببه الحنين

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من ألم، ألم مضن قد يركد مع الوقت، كما تركد المياه، ويبقى بإمكان أصغر ذكرى بل وأتفهها أحياناً تحريكه وبعث روح الهيجان على سطحه، كما فعلت أشياء عبير سابقاً. دائماً ما أحاول تجنّب الشعور بالحنين إلى الأشياء المفقودة، مثلاً، كنت أحاول تحاشي ما يمكن إصابة غيري من حنين إلى الوطن، منذ نزولي من الطائرة وملامسة قدميّ لأرض مطار هيثرو في عام 2006، رغم أن عدة ساعات فقط كانت تفصلني عن آخر مرة رأيت فيها العراق. كذلك حصل نهار ذلك اليوم في غرفة عبير، فقد أحسست كأنها غائبة منذ فترة طويلة، وها أنا أشتاق إلى رؤيتها واحتضانها ومعانقتها. على هذا النحو، وجدت نفسي منقادة إلى هذا النوع من الخوف، متناسية رغبتي في بقاء عماي المؤقت، لاعتقادي أنه سيظل يذكرني بشقيقتي الميتة. كما لو أننا نسعى إلى نسيان الأشياء العزيزة، المفقودة، ليس لأن الواحد منا لا يحبها، بل ليتجنب الشعور بعذابات يسببها الحنين إليها، وهكذا كنتُ أنا، مع ملاحظة عدم حاجتي إلى ما يذكرني بعبير لأتعذب من أجلها، لكن عذاب الحنين يبدو أمضّ من غيره حين يتعلق الأمر بتفقّد أشياء تركها المفقود وراءه، وأماكن زارها، وأوقات أمضاها معنا.

كانت نتيجة تحليل الـدي أن إيه قد ظهرت، لتُبرّئ مارك وتجعله موضع الاتهام في الوقت نفسه، فعلى الرغم من تفنيد نتيجة الفحص الخاصة بالحمل أي علاقة جنسية محتملة بينه وبين عبير، وهو ما جعلني أشعر، للمرة الثانية، بتأنيب الضمير بسبب شكوكي السابقة به، إلا أن ثمة شعر من رأسه عثروا عليه في الغرفة، أعاده، بالإضافة إلى البصمات على مقبض الباب وأشياء أخرى، إلى واجهة الاتهام،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مما دفع الشرطة إلى ابقائه قيد التحقيق، واستدعائه في أي وقت، إذ كان من الممكن جداً العثور على تبرير منطقي لمسألة البصمات، بما أنه يتفقد عبير على الدوام، بتوصية مني أو من تلقاء نفسه، ويدخل إلى غرفتها بين حين وآخر، فالفتاة بكماء، وليس بوسعها الإجابة عن أسئلة تفقدية مثل: هل أنتِ بخير؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل أنتِ نائمة؟ هل أستطيع الدخول عزيزتي؟ أضف لذلك، وكما لو أنه عرّابها، كان الرجل يتعامل معها على نحو ما يتعامل الآباء مع بناتهم، أي كانت علاقته معها أبوية، أما الشعر، فقد كان مارك ينكش شعره بشكل مستمر، أو في حالات معينة، كأن يحاول، بلا جدوى، الإجابة عن سؤال ما، فيجذب بأصابعه بعضاً من شعره، الذي بدأ بالتساقط مؤخراً، لهذا، فمن الطبيعي أن يترك منه شيئاً في كل مكان من الشقة. تحدثت معه، لم يكن فرحاً ولا حزيناً، ولِمَ عليه أن يكون حزيناً؟ فهذه هي نتيجة التحليل قد برأته من تهمة الإحبال، غير أن شيئاً، مما ينبغي له الظهور على شخص متهم بجريمة قتل ثمّ بُرِّأ أخيراً، لم يبن بعد. كانت طباعه تزداد غرابة مع الوقت، وكنت أنا أبرر هذه الغرابة بداعي حزنه على عبير، فهو ما زال يظن أنها انتحرت، في حين بدأت أنا أقتنع منذ أن أخبرني المحقق، بفرضية القاتل الخفي.

لم انتظر المزيد من الوقت، حتى أبلغت الشرطة عن البنغالي. هاتفتُ المحقق، وأخبرته بكل شيء عنه، وعن آخر مرة رأيته في المقبرة. أخفيت الأمر عن مارك، لظني أنه سيعرقل مسعاي في التبليغ عن المشتبه الأول في هذه الجريمة. نزلت الى الاسفل لبضع دقائق، متظاهرة بالذهاب الى دكان بقالة على ناصية الشارع، وقمت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بالاتصال. سألني المحقق عن السبب وراء تأخري في إبلاغه، بالطبع لم أقل له أن مارك هو السبب، لكي لا يُتهم بعرقلة مسار التحقيق. أخبرته أني لم أكن متأكدة بشأنه، لكنه عاد وسألني، لماذا لا أريد لزوجي أن يعلم بالأمر، ولم يكن جوابي مقنعاً. من حسن الحظ، لم يكن المحقق لجوجاً بهذا الصدد، واكتفى بطمأنتي مؤكداً أنه لن يخبر أحداً، حتى حين القبض على البنغالي، وأنه سيتجاوز صلاحياته ويعلمني بما يستجد في هذه القضية الشائكة.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، وكان مارك قد خرج، ليعوض ما فاته من تمشية الصباح، عندما دخلت إلى غرفة عبير. كانت الشرطة قد تركت كل شيء فيها، على ما كان عليه منذ الحادثة، بعد الانتهاء من عملها، وقت كنت ما أزال منهارة، ولا أعي شيئاً بعد. أخذوا البصمات وعينات، والتقطوا الصور، كما أخبرني مارك فيما بعد، فتشوا في كل مكان، بحثاً عن دليل محتمل يؤكد أن شقيقتي هي من قامت بإلقاء نفسها من النافذة، وليس ثمة أحد قام بإلقائها. أزعم أنه لا يمكن لمثل هذه الحوادث، في بريطانيا، المرور هكذا، على أنها مجرد حوادث انتحار فحسب، مع أن ذلك حصل مع سعاد حسني، التي ما زال الجدل يدور حول حقيقة ما إذا كانت قد انتحرت فعلاً، بإلقاء نفسها من شرفة في الدور السادس من مبنى ستوارت تاور غرب لندن، أو أن أحداً قتلها.

ألقيت نظرة بانورامية شاملة على محتويات الغرفة. لم أغمض عينيَّ وأنا أدور في مكاني، كما لو أني خشيت أن تفوتني رؤية شيء من أشياء عبير. كانت تشبه غرف الأطفال، هناك دببة، وكرات صفر

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على شكل ابتسامات، صور لشخصيات كارتونية، وأبطال أفلام، ولاعبي تنس وكرة قدم. لم تكن عبير تحلم، من قبل، أن يكون لها غرفة بهذه المواصفات، لو أنها على قيد الحياة، وما تزال تعيش في العراق، لكانت الآن في غرفة بدائية، ضمن بيت رث، يقع في إحدى المناطق العشوائية، متزوجة ولديها أربعة أطفال يتعلقون بثدييها، ويمتصونها كما القراد. انتبهت إلى أني لم أكن أدخل هذه الغرفة كثيراً في الفترة الأخيرة قبل موتها، عندما كففت عن مراقبتها والضغط عليها، في محاولة لإثبات عدم شعوري بالغيرة أو ما شابه، تجاهها في ذلك الحين، وقت بلغ التوتر بيننا ذروته. ربما دخل مارك أكثر مني، بدليل أن شعره في كل مكان من الغرفة. وكما لو أني أفعل هذا لأتعرف على مكان لا أعرفه ودخلته لأول مرة، عدت إلى الدوران حتى وقعت عينيّ على النافذة. لا أعرف نوع الشعور الذي انتابني في لحظتها، بتّ أتذكر كيف أجفلت ووضعت يدي على فمي لأكتم صرخة وشيكة، فقد كانت تلك النافذة ما تزال على حالها منذ أن فتحتها عبير لتنفذ عبرها إلى الموت. خطوت باتجاهها على مهل، حتى توقفت على بعد خطوتين منها، لكي لا يصيبني الدوار، إذ ما زلت أعاني حتى الآن من فوبيا الأماكن المرتفعة. لقد اعتادت على إرسال تلويحها من هذا المكان، حيث أقف، كلما خرجتُ، لكنها لا تفعل دائماً، إنما في أوقات معينة، حينما يكون مارك لا يزال في الشقة. لم أشغل نفسي كثيراً بالأمر، إذ ليس عليها التلويح لي في كل مرة أخرج إلى الشارع.

فجأة، وبحركة سريعة وخاطفة، ولا إرادية، التفت ورائي، رغم أن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

شيئاً لم يتناه إلى سمعي حينذاك، مثل وقع أقدام، أو صرير باب، كما يحدث في أفلام الرعب وقصص الجريمة. ربما أحست عبير بالشيء نفسه، وظنته أحداً بصدد منعها من الانتحار. ومن يعلم، ربما كان على العكس، بصدد دفعها باتجاه النافذة، التي اقتربت منها أكثر، متحدية خوفي وحالة الدوار وفقدان التوازن التي تسيطر عليّ، كلما نظرت من علوّ إلى أسفل، رأيت من هناك الموضع الذي احتضن جسد شقيقتي. وكما ألمحت من قبل، كنت أعاني من فرط التخيّل وقتها، فرحت أتخيّل صوت ارتطام جسدها بالأرض. الحقيقة أني تخيلت أكثر من صوت، فلا بد من اختلاف صوت ارتطام رأسها العنيف والمميت عن صوت الارتطام في حال تلقّت الأرض الاسمنتية الصلبة بيديها، أو قدميها، أو وقعت على قفاها أو وجهها أو جنبها. ورغم وجود عدة مئات من الناس يسكنون في الشارع، لكنه يبدو في مثل ذلك الوقت، مهجوراً، إلا من شخص كان يقف بإزاء البناية، يرتدي ثياب مغني الراب، ونظارة شمسية وقبعة، يضع يديه في جيبيه وينظر باتجاه النافذة، إليّ تحديداً. لم أشغل نفسي به كثيراً في البداية، لكني، حين لاحظت أنه ما زال هناك، يختلس النظر مثل لص، دققت فيه النظر واكتشفت من هو: روميو البنغالي. يا للشاب اللعين! الحق، أنه لم يغب عن بالي لحظة واحدة منذ أن علمت ببراءة مارك من تهمة حمل عبير. انتبهت إلى أن ساعتين لم تمضيا بعد على ابلاغ الشرطة عنه، لهذا ما يزال طليقاً. ما الذي يفعله في مثل هذا الوقت من النهار يا ترى؟ هل يريد قتلي أنا الأخرى؟ من يحسب نفسه؟ جاك السفاح بنسخته البنغالية؟ لكن جاك، سفاح وايت تشابل، أو هارون كوسمينسكي، كان يقتل بائعات الهوى، فماذا يحسبنا جاك هذا الزمان يا ترى؟ عاهرات؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

استجمعت قواي، بعد شعوري بتبددها فور رؤية االبنغالي. غادرت الشقة مسرعة ونزلت إلى الشارع، رأيته يقف في مكانه، على الرصيف المقابل، يتلفت يميناً ويساراً، ولا يظهر أنه مستعد للفرار. توجهت نحوه بخطوات ظننت أنها واثقة ومتزنة، خطوات امرأة ذاهبة لتسأله عن مطعم للأكلات الباكستانية، لأكتشف بعد قليل أنها كانت خطوات مرتبكة، واهنة، لقدمين تمكّن منهما الضعف. تخيلتني أعرج في تلك الأثناء. لا عجب، فأنا في النهاية الفرس المكسورة ساقها. رأيت البنغالي يتحرك، سالكاً الجهة التي تفضي إلى الطريق التجاري، عبر Christian street، ومن دون تفكير رحت أتعقبه. كان يمشي ويتلفت وراءه، ولا يبدو في عجالة من أمره، فقد أبطأ في المشي، كأنه يريدني مني اقتفاء أثره. فكرت في مناداته: هييي أنت، روميو، أيها البنغالي! كدت أفعل، لولا تذكري أن هذا ليس اسمه، بل هو من اختراعي. لم يثبت، حتى ذلك الوقت، ما إذا كانت عبير قد انتحرت أو تم قتلها على يد فاعل مجهول، لكن فكرة تعقّب أحد القتلة المحتملين أربكتني. فكرت بما قد يصيبني جراء هذه المغامرة، قد يكون هذا البنغالي خطيراً إلى درجة أنه يريد استدراجي إلى مكان تكون فيه الفرصة مواتية للنيل مني. لكن، لماذا أنا؟ هل بسبب ابلاغي عنه؟ كيف وهو لا يعلم حتى أني فعلت ذلك؟ ربما كان عليّ البقاء في الشقة والاتصال بالشرطة بدل التهور بهذا الشكل وتعريض نفسي للخطر. شخص مثله عليه الاختفاء عن الانظار بدلاً من الظهور على هذا النحو السافر، وكأنه يريد أن يقول لي: نعم، أنا قتلت أختك، والآن حان دورك! غير أنه، في الواقع، لم يظهر بهذه الطريقة تماماً، كان أشبه بكلب يريد من صاحبه أن يتبعه ليريه شيئاً،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ولو كان في نيته إيذائي حقاً، لقصد الشقة وفعل فعلته. حسناً، سيكون من الغباء السطو على شقة ما أثناء النهار، في ظل مراقبة بوليسية محتملة. إذن، ماذا يريد مني هذا الشخص؟ لماذا اقتحم حياتنا بهذا الشكل، وقلبها رأساً على عقب؟ ماذا يريد منا؟ كنت خائفة وغاضبة في آن معاً، وددت الامساك به وصفعه حتى تكل يداي، توقفت عندما رأيته عند نهاية الشارع، كأنه ينتظر مني مواصلة تتبعه، لينعطف نحو الطريق التجاري.

لم أغامر أكثر من ذلك، استدرت لأعود من حيث أتيت، وعندما التفت، بعد قطع مسافة قصيرة، رأيته يتبعني. تحولت في غضون دقيقة واحدة من مُطارِدة إلى مُطَاردة. ليست هذه المرة الأولى التي أُطارد فيها، طُوردت من قبل، وتتبع أثري غاسلو العار ومسلحو الميليشيات، حين كنت أحاول حماية عبير من القتل، ومرة ثانية عندما كنت أعمل في القاعدة البريطانية، ومحسوبة ضمن عملاء الاحتلال المهددين بالتصفية. يبدو أن تجربة كهذه، مر عليها عشر سنوات، لم تجعل مني امرأة صلبة بما فيه الكفاية، لتمنع قلبها من الخفقان الشديد، واصفرار الوجه، والإحساس بضعف القدمين، وتوتر الأعصاب، والتعرق، والسخونة التي غمرت كامل جسدي. أسرعت في المشي حتى كدت أجري، لا يُعقل أن لا يكون ثمة شرطي على طول الشارع وعرضه. خطرت لي فكرة الدخول إلى أحد المتاجر أو المطاعم والاتصال بالشرطة. فعلتها رغم أني قطعت ثلثي المسافة إلى البناية التي تقع فيها شقتنا، دخلت إلى متجر صغير وطلبت الشرطة تليفونياً، لمحت البنغالي واقفاً على الرصيف

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المقابل، بجانب إشارة مرورية، وقد خلع النظارة عن عينيه، وراح يحدجني من وراء زجاج واجهة المتجر. لم أعرف لحظتها إن كان يخزّني بعينيه أم يلقي نظرة معاتبة، لائمة ومتسائلة. على ماذا يلومني، وبماذا يعاتبني يا تُرى؟ فكرت بالخروج ومواجهته، ربما أوفر عليه عناء المحاولة بمنحه الفرصة لطعني، لكن عينيه تشيان خلاف ما خيّل لي أنه يريد فعله، وهو النيل مني. خلت للحظات أنه ربما يكون نادماً على ما فعله بشقيقتي، ويريد أن يطلب مني الغفران، أو لعله يريد الكشف عن سرٍّ يقلب المعادلة، ويغير النتائج. اتممت المكالمة، حينما نظرت إليه ولم أجده في مكانه، اختفى فجأة ولم يظهر له أثر في أي مكان من المنطقة.

يومذاك، لم أعد إلى الشقة، كنت مرعوبة، واستغربت أني قطعت كل تلك المسافة، حتى كدت أبلغ الطريق التجاري، لا لأجل شيء سوى تعقب شخص تشك الشرطة أن له يداً في موت شقيقتي. استأجرت تاكسي أقلتني إلى داجنهام حيث تسكن ناتالي. مكثت في منزلها حتى المساء، وبعثت رسالة إلى مارك، أعلمه فيها أني في زيارة إلى منزل صديقتي، من دون التطرق إلى ما حدث معي، لكني رويت كل شيء لناتالي، ثم للمحقق عبر الهاتف.

منذ ذلك الحين، وأنا أعيش في قلق ورعب، رغم أن البنغالي لم يكن خطراً إلى هذه الدرجة، كما بدا واضحاً حينما خرجت في إثره. ربما لم أكن خائفة منه، بل من شيء آخر ما زال مجهولاً، من تلك الأشياء التي تفاجئنا، وتجعل الواحد منا يظن أنه على حافة نهاية العالم، حيث ليس ثمة شيء يمكنه رتق الشق الذي بات يهدد

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وجودنا. هناك شقوق، كلما حاولت رتقها كلما اتسعت، وتضاءلت معها فرص النجاة.

لم أهدأ أو اطمئن حتى قُبض على البنغالي في بيت أحد اصدقائه، بعد يومين من ابلاغي عنه.

قبل ذلك، اتصل بي المحقق ليخبرني أنهم أجروا فحص الدي إن أي للمشتبه به، فلديهم عينة منه في قاعدة بيانات الحمض النووي الريبي، وسبق أن اعتُقل مرتين من قبل، بقضيتي نشل في الميترو، وبالتالي، اتضح أنه المتسبب في حمل عبير.

لم أُفاجأ، كانت نتيجة متوقعة، لكني بكيت بشدة.

بعد ساعة، على مائدة الغداء، أبلغت مارك بخبر إلقاء القبض على البنغالي.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

البصرة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(1)

كنا نسكن في حي رثّ، يقع على أطراف البصرة، عندما اجتاحت القوات البريطانية المدينة من الجانب الجنوبي، بعد ليلة من القصف العنيف، طال آليات الجيش العراقي في ثكنة لا تبعد كثيراً، يتمركز فيها أحد الألوية المدرّعة التابعة للجيش. سارعنا أنا وأمي يومذاك، أسوة بالبقية من سكان الحي العشوائي، إلى حجز إحدى بنايات الثكنة، لنتخذ منه منزلاً، بدلاً من الخص الذي كان يأوينا طيلة السنوات الماضية. في حين احتلت خالتي رسمية، وابنها الوحيد حمدان، المبنى المقابل.

كان المبنى من الطابوق وذا سقف كونكريتي، يتألف من صالة عريضة وغرفتين مع إثاثها، وملحقات: حمام، مطبخ، ومرحاض. اضطررنا فيما بعد، بمساعدة ابن خالتي حمدان، إلى إقامة سياج يحيط بالواجهة ويفصل المبنى عن الشارع، ليضيف بذلك باحة واسعة بطول خمسة أمتار وعرض عشرة.

امتلأت بنايات الثكنة بالسكان، وأُضيفت، بمرور الزمن، أبنية أخرى عشوائية تُباع وتُشترى، بالإضافة إلى ما يشبه الشارع الصناعي على الطرف الشمالي، بمواجهة الطريق العام، قبل أن تجد الثكنة أخيراً

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من يطلق عليها اسماً مضحكاً هو حي الحرية، اسم على غير مسمى، كتبه بالطلاء الأسود مجهول على الجدار عند المدخل الرئيسي.

في تلك الأيام من شهر نيسان عام 2003، وجد الأولاد من الذكور والإناث، تسليتهم في الآليات المدمرة والمجتمعة في رحبة واسعة وسط الحي، دبابات، مدرّعات، سيارات حوضية، عجلات حمل من نوع إيفا، وسيارات واز صغيرة، مدافع ومدافع مقاومة الطائرات. كان بعضها معطوباً بالكامل، والبعض الآخر مدمر جزئياً. أصبحت الرحبة بمثابة مدينة للملاهي يؤمها الأولاد ويمضون فيها أوقاتهم باللعب على ظهور الآليات وفي داخلها، قبل أن يهجم عليها السكان ليجردوها من إطاراتها وزجاجها، ثم باعة العتيق والخردوات والمعادن، أما هذه الشريحة الأخيرة، فقد حولوها إلى مقبرة حقيقية.

في حينها، كانت عبير في السابعة من عمرها، تقصد، كبقية الأطفال في الحي، رحبة الآليات العسكرية برفقة أربعة من أولاد الجيران، بمثل سنها أو أكبر منها قليلاً، اثنان منهم توأم. كانت أمي تحاول منعها دون فائدة، ففي كل مرة تحتال عليها وتذهب إلى هناك، ولا تعود إلا بعد ساعة أو ساعتين، وهي ملطخة بالسخام، لتنال من الضرب المبرّح ما يجعلها تقسم بجميع المقدسات والأولياء الصالحين بألا تعود إلى اللعب في رحبة العجلات المعطوبة، أو مدينة الألعاب كما سُمّيت أخيراً. لكنها سرعان ما تنسى أوجاعها في اليوم التالي، وتُهرع إلى المقبرة التي استمر هوس الأولاد بارتيادها طيلة السنوات الثلاث اللاحقة، رغم تحول الدروع الى هياكل حديدية تسفع بها الريح وتسكنها الكلاب الضالة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أما أنا، فكنت في التاسعة عشرة من عمري آنذاك، مضى عام على تركي الدراسة، بعد انتهائي من المرحلة الإعدادية، كنت سأدخل الجامعة بعدها، إلا أن والدي لم ينتظر حتى ذلك الوقت، استسلم عند هذا الحد، عندما لم يعد بمقدوره احتمال ازدراء الأهالي ولوم الأقارب والجيران، راح يتذرع بصعوبة توفير تكاليف الدراسة الجامعية، وقت كنت أعلم أنا بخروج الأمر عن سيطرته منذ أن وبّخه أحد أولاد عمومته قائلاً:

«كَعدها بالبيت.. ما عدنا بنات تدرس بالجامعات!»

كما لو أني سأجلب لهم العار، فقد كان الاختلاط بالذكور معضلتهم الكبرى.

كان أبي، رغم كل شيء، على العكس من أمي المؤمنة أن مكان المرأة المناسب في البيت، تغسل، وتعجن، وتنظف، وتطبخ، وترعى الزوج وترضع دزينة من الأولاد الحفاة. كان رجلاً طيب القلب، دائماً ما يدع الأمور للزمن، مغلوب على أمره، لا هم له سوى تدبير المعيشة، مهملاً لصحته ويدخن كميات كبيرة من السجائر. ظلّ يردد أن لا أحد يموت بسبب الدخان، حتى وُجد متيبساً على فراشه، في مخزن للمواد الإنشائية كان يعمل حارساً فيه، بعد فترة قصيرة من تركي الدراسة، قبل اندلاع الحرب. عندئذ، اضطرت أمي إلى تسليمي مهمة الاعتناء بعبير، والتفرغ للعمل كمنظفة في مستشفى البصرة العام.

وطيلة فترة الدراسة المتوسطة والإعدادية، كنت أقطع ما مقداره خمس كيلومترات مشياً على الأقدام إلى المدرسة، برفقة اثنتين أو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ثلاث فتيات من الحي، تركن الدراسة تباعاً، إما ليُزوّجن أو إذعاناً لإرادة ذويهن. أقصى ما يمكن بلوغ الفتاة إليه في هذه الناحية المعزولة هو السادس الابتدائي، إلا إذا قرر الأهل خلاف ذلك، قبل أن يطيح بهم ازدراء الآخرين، كما حدث مع والدي الذي قاوم إلحاح أقربائه بإجباري على ترك المدرسة، حتى وصلت إلى السادس الإعدادي، وحصل ما حصل. كنت أعرف أن هذا سيحدث يوماً ما، لذا، لم أدخر جهدي في الحصول على أكثر قدر من التعليم، قبل مكوثي الأبدي بين جدران البيت، بانتظار تقدم أحدهم لخطبتي. ولم تكن أمي لتنتظر كل هذا الوقت حتى تزوّجني، فبالنسبة لها، لم يكن الأمر مرهوناً بانتهائي من الدراسة، فقد كانت مستعدة لدفعي إلى أول خاطب منذ بلوغي الثالثة عشرة. إلا أن أحداً، ولا أعرف إذا كان هذا من سوء حظي أو بالعكس، لم ينجح بالارتباط بي خلال السنوات الماضية، لأسباب تتعلق إما بأمهات الخاطبين اللائي يبحثن عن الأجمل والأصغر سناً، عن ربات البيوت وليس ربات المدارس المتعلمات، أو بظروف وهيئات من يتقدمون للزواج مني، وكان يرفضهم والدي حتى توفي، بداعي العطالة مرة، والعيوب الخلقية والأخلاقية مرة أخرى.

شخص واحد، يقرب لنا من بعيد، لم يفقد الأمل في التزوج مني، رغم رفضنا المتكرر له أنا وأمي، اسمه راهي، ويطلقون عليه راهي المضمد، وهو في الحقيقة ليس سوى مدّعٍ. كان حلاقاً في البداية، ثم مطهرّجي يجري عمليات الختان للأطفال، وحين فشل فيها، اشترى شهادة اعدادية تمريض، عندما كانت مثل هذه الشهادات الدراسية

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

تُباع في سوق الجمعة بعد الحرب، وتعتمد بسهولة ومن دون تدقيق، أثناء التقديم على الوظائف الحكومية، مثلما فعل راهي، فقد عُيّن بصفة مضمد في إحدى المستشفيات، وتعلم هناك شيئاً من المهنة، قبل اكتشاف أمره وطرده من دون محاكمة، لينتهي به الأمر إلى فتح عيادة صغيرة للتداوي وزرق الإبر في الحي، ولكي يمّوه من خلالها على عمله في بيع حبوب الهلوسة، فإليه يعود الفضل في ازدياد متعاطي هذه الحبوب من شبان الحي، إذ يبيعها عليهم خلسة.

يولد الذكور في هذا الحي ليعينوا آباءهم على تحمل أعباء المعيشة الصعبة، أما الإناث فينتظرن نصيبهن من الزواج، وسيئة الحظ من تجتاز الثامنة عشرة ولا تتزوج، مثل هذه تُنعت بـ«البائرة» وأظنني كنت حينئذ في طريقي إلى أن أكون «بائرة» رغم عدم تجاوزي عامي التاسع عشر بعد، أو هكذا كانت تظن أمي إن لم أتزوج حمدان ابن خالتي رسمية الذي يكبرني بعام. فمنذ سنوات، وهي لا تكف عن تملق شقيقتها الكبرى بهذا الشأن، حتى أثمرت جهودها أخيراً وتمت خطبتي بعد الحرب بسنتين، حينما بلغت الواحد والعشرين في عام 2005.

كان حمدان شاباً وسيماً، لكنه غير متعلم ومهووس بتربية الطيور منذ صغره، يملك برجاً كبيراً فوق السطح يضم طيوراً كثيرة للزينة، وأخرى من أجل الاستعراض في الهواء، وعدا ذلك، كان يكسب رزقه من هذه الهواية المنبوذة من مجتمع المدينة، قبل التحاقه بالعمل، بعد الحرب الأخيرة، في الشارع الصناعي، أو هذا ما يطلقونه على مجموعة من المحلات البائسة، التي يعمل أصحابها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في صهر معادن الآليات العسكرية، والمخلفات الحربية. كانت أمي تحبه كثيراً، فقد شاركت في تربيته مع خالتي، وتعتبره ابنها، خصوصاً أنها قضت حياتها بالتحسر على ذكر لم تنجبه. صارت تعتمد عليه في كثير من الأمور بعد وفاة والدي، وتسخّره دائماً، وكان هو يطيعها وينفذ طلباتها من دون تذمر. في كل الأحوال، لم تكن أي فتاة أخرى لتطمح بأكثر من حمدان في حي يعمل أكثر شبانه كعمال بناء، ساحبي عربات، بائعي خردوات، بائعي اسطوانات غاز، حراس، نشّالون، وقطاع طرق. أما البقية، فيقضون أوقاتهم إما بالبطالة أو اللصوصية أو التعاطي بالمواد الإباحية وأقراص الهلوسة، التي يبيعها عليهم راهي المضمد. في النهاية كان لا بدّ من الزواج والإنجاب، وإلا سأبور وأتعفن مثل أي بضاعة كاسدة، إلى أن أموت وأُدفن بصمت.

ما زلت أتذكر غروب ذلك اليوم القاتم من بداية شهر كانون الأول عام 2005، حين عادت أمي من مناوبتها في المستشفى، وسألتني ماذا أعددت للعشاء، ثم سألتني عن عبير:

«أين أختك؟»

«أظنها في مدينة الألعاب» أجبتها بلا مبالاة، بينما أُلولب خصلة من شعري واقرأ.

«هل تسخرين من أمك يا بنت؟» صاحت بي.

«بل أقول الصدق» أجبتها بنبرة جادة هذه المرة.

«تقصدين أنها في ذلك المكان؟» سألت مرة أخرى.

«نعم» أجبتها.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ماذا تفعل هذه القحبة الصغيرة في مقبرة الدبابات في مثل هذا الوقت؟»

قالت حانقة وارتدت عباءتها، ألقت عليّ نظرة قبل خروجها إلى بيت خالتي قبالة بيتنا، لترسل حمدان إلى مقبرة الآليات كي يأتي بعبير، ثم قالت:

«وأنتِ؟ ماذا تفعلين؟»

«اقرأ»

«هل ما زلتِ تأملين؟» سألتني ولم أجبها

في الحقيقة، لم أكن آمل بالعودة إلى المدرسة، يئست تقريباً، لكني أشتاق لها، والقراءة أقل ما كنت أفعله.

«ستتزوجين حمدان قريباً ويجب أن تتعلمي كيف تعتنين بأولادك»

قالت أمي بعد عودتها من بيت الخالة، أخفيت وجهي بين طيتي الكتاب، أظنه كان كتاب الانكليزية، وبدأت بالبكاء.

لم يمضِ سوى أقل من ساعة، حتى ظهر حمدان ومعه عبير، وقد خبّأها وراءه كي يحميها من العقاب، وما زالت تحت حمايته حتى هدأت أمي وأومأت لي بأن آخذها. قدتها من يدها إلى غرفتنا المشتركة، ولاحظت في حينها أنها كانت تضع يدها على خدها، وتفرد ساقيها وهي تمشي بحركة بطريقية طالما قلّدَتها، كلما رأت أحداً مصاباً بحرقة ما بين الفخذين أثناء الصيف، لكني لم أفهم لِمَ كانت تفعلها في ذلك المساء.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ربما أفلتت عبير من العقاب الذي كانت ستتلقاه من أمي، مثل الصفع وشد الشعر، وأحياناً «العطّابة» وهي لفافة من القماش تُحرق ويُلسع بها الجلد، لكنها لم تسلم من بعض الدمغات واللكزات، التي وجهتها لها ونحن في طريقنا إلى الغرفة، قبل البدء بتقريعها، كما لو أني كنت أمها الثانية حتماً، ومن حقي المشاركة في تأديبها، والحد من نزقها وجرأتها على اقتراف الحماقات. ألم تقل أمي قبل قليل أن عليّ تعلّم كيفية الاعتناء بأولادي في المستقبل؟ ها أنا أفعل. لكن الغريب في الأمر أن عبير لم ترد على أيّ من استفزازاتي ومناكدتي لها. ليس من عادتها التزام الصمت هكذا، كانت وقحة معي دائماً، وسليطة اللسان، ترد عليَّ بالمثل سواء بالشتيمة أو الضرب. في بعض الأحيان، لا أجاري شراستها، رغم أنها ما زالت في التاسعة، أفسدها دلال الأب كما تقول أمي. لكنها لم تفعل شيئاً في المرة الأخيرة، كانت صامتة فحسب، كأنها لم تسمع أو تشعر بشيء من تعنيفي وتوبيخي لها. ربما تكون أمي أكثر من تخشاه في البيت، لكن ليس إلى حدٍّ يجعلها تبدو كما لو أن مسخاً زعق بوجهها في الظلام. قد تبكي لدقائق بعد نيلها عقاباً مؤلماً، لكنها سرعان ما تلحس وجعها وتعود إلى طيشها الذي فاق طيش الصبيان في سنها. حتى المعلمات في المدرسة كن يشكون من فرط حركتها وافتعالها المقالب، وتنمرها على الفتيات اللائي لم تكن تطيق وجودها بينهن لأسباب يُظن أنها بيولوجية. ففضلاً عن فرط الحركة، كانت عبير تعيش حالة من اللا ارتياح والانزعاج والقلق بسبب نوع جنسها. كانت تكره جسدها، وفكرة أنها أنثى بعضو تناسلي لا يتوافق مع شعورها بالانتماء إلى عالم الجنس المعاكس. رافقتها هذه الحالة منذ

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

فترة الرضاعة، ثم بدأت الأعراض بالظهور أثناء طفولتها المبكرة، بعد عامها الثالث، من خلال اتباعها سلوك الطفل الذكر، بداية من أسلوب اللعب وحتى طريقة قضاء حاجتها. فهي، مثلاً، لا تعبأ بدمى العرائس والفساتين والضفائر، وتمارس ألعاب الذكور الخشنة مثل المسدسات والبنادق، والمقاليع، وكرة القدم، والدوّامات، وترفض التبول في وضع الجلوس. لا أنسى أيضاً ولعها بملابس الذكور، فقد استمرت بارتدائها حتى التاسعة من العمر. كانت دائمة التذمر من كونها بنتاً، دونما إخفاء رغبتها في أن تصبح ذكراً، وقد ازداد نفورها من الأطفال الإناث مع الوقت، حتى صار منعها من اللعب مع الأولاد، بعمر الخامسة، صعباً. أتذكر المرة الأولى التي قصّت فيها ضفيرتيها، ليتناسب شكلها مع الوسط الذكوري المنغمسة فيه، والمتكيفة مع أجوائه بشكل غريب. أعادت هذا الفعل أكثر من مرة، حتى استسلمت أمي أخيراً وتركتها، بل أنها بدأت مسايرتها بأخذها إلى الحلاق، وإلباسها ثياباً ولّادية، والسماح لها باللعب مع أولاد الجيران في الحي. كأنها تماهت مع الدور الذي تلعبه عبير وحلّت فيه بدلاً عن طفل لم يسعفها الحظ في إنجابه، وكانت ما تزال تندبه رغم أنه لم يوجد أصلاً. غير أنها، من ناحية أخرى، لا تحبذ استمرار عبير على هذا الوضع فترة طويلة، خوفاً على مستقبلها في الزواج، ففي النهاية، هي لا تظن أن ثمة أحد يرغب بالزواج من فتاة مسترجلة، كما تسميها. أما أبي، فليس ثمة شيء بيده ليفعله، حيال تواطؤ أمي مع هوية عبير المختلقة، وتسامحها مع شكلها وعاداتها الذكورية. لقد قضى حياته غائباً عن البيت في العمل، ولم نكن نراه سوى يومين كل اسبوع، لكنه، وكما هي عادته في ترك الأمور تحدث، كان ينظر

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

إلى حالة الابنة الصغرى على أنها حالة مؤقتة. أتذكر حين كانت ما تزال في عامها الثاني، ظن الأطباء أنها مصابة بالتوحّد، لفرط ما لديها من حركة. لم يعبأ بالأمر، وترك كل شيء للزمن، فاتضح بعد سنوات أنه على حق، عندما بدت عبير طفلة طبيعية، مثلها مثل الكثير من الاطفال المجبولين على الذكاء المصحوب بإيقاع حركي سريع، ولغط وثرثرة، وكثرة السؤال والتحري والميل الى التجريب والاكتشاف. ومثلما كان فرط الحركة لديها ليس توحّداً، كذلك ظنّ أن ميلها إلى عالم الجنس المعاكس وعاداته لم يكن اضطراباً في الهوية الجنسية، كما تحذلق بذلك أحد الأطباء في المستشفى، وهو ما تحقق بعد موته، في تلك الليلة الباردة من كانون الأول عام 2005، فعادت إلى طبيعتها كأنثى، ترتدي الفساتين، وتلزم البيت، بعدما كانت تتخيل، في وقت مضى، أن عضواً ذكرياً سيظهر لها، وتُصاب بالرعب من نمو نهدين في صدرها.

كان نهدا عبير قد بدءا بالنمو فعلاً حينما بلغت السابعة. لم نشك أن الوقت كان مبكراً لحدوث مثل هذا البروز، كانت على العكس مني، إذ ما زلت أعاني من ضمور النهدين حتى بلوغي التاسعة عشرة. كانا مجرد نتوءين بالكاد طفيا فوق مستوى الصدر على نحو خجول، مما سبب القلق لأمي التي كانت تردد باستمرار:

«كيف سترضعين أطفالك بهذين الثديين الخاملين؟!»

لا شك أن نمو نهدي عبير بهذا العمر يُعد من علامات البلوغ المبكر، ولعله المبكر جداً. لم تنتبه أمي، أو لعلها انتبهت من دون أن تولي الأمر اهتماماً كبيراً، إلا في الفترة الأخيرة، عندما بدأت تمنعها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من مصاحبة الذكور، والذهاب إلى مقبرة الآليات العسكرية. حاولت اقناعها بأخذها إلى الطبيب، لكنها استمرت في عدم اكتراثها لما بدا أنه غير طبيعي، وهما ذلكما النهدان اللذان أعلنا، في وقت أبكر من المعتاد، عن أنوثتها.

لأعد إلى تلك الليلة، التي كانت بداية معاناتنا طيلة السنوات العشر التالية.

سألت عبير عما حل بها، فنظرت إليّ بعينيها الملونتين المذعورتين ولم تقل شيئاً. ولأول مرة، منذ فترة طويلة، ارتمت البنت في حضني، لكنها لم تبدأ البكاء بعد. ظننت أنها متأثرة بتقريع أمي لها أكثر من أي وقت مضى، مع أن ما حدث كان أقل ما تتلقاه دائماً. لم أسمع من قبل عن قدرة الجسد البشري في إفراز الروائح حسب انفعالات المرء المعاشة، حزن، فرح، كآبة، حقد، انكسار، خوف، لكني كنت متأكدة أن الرائحة التي شممتها لم تكن رائحة جسد عبير، بل رائحة ما كانت تشعر به، كما شممت أيضاً رائحة ذروق مقرفة، وكأن الفتاة خاضت في بركة من فضلات الطيور. تركتها تغفو في حضني مستغربة من نومها في وقت مبكر. غادرت بعدها الغرفة وكل ظني أنها أول من سيوقظني في صباح الغد لمرافقتنا، أنا وأمي وخطيبي المطيرجي، إلى سوق العشار لشراء جهاز العرس. لكنها بقيت مستغرقة في النوم، مما أثار غضب أمي، فقررت عدم اصطحابها. وقبل أن نغادر أوصت خالتي رسمية بتفقدها أثناء غيابنا.

عندما عدنا إلى البيت بعد الظهر، أخبرتنا الخالة أن عبير مريضة. وفعلاً، كانت البنت محمومة وتهذي. حملتها أمي برفقة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حمدان إلى المستشفى، ولم يعودوا إلا في ساعة متأخرة من الليل. قضيت الوقت إلى جانبها حتى انجلت عنها السخونة، ولم أنم إلا بحلول الفجر. بقيتُ ألازمها في اليومين التاليين واعتني بها حتى بدأت بالتحسن، من دون أن تغادرها الكآبة كلية. ثمة شيء لاحظناه عليها أنا وأمي في الأيام التالية، وهو أنها، بالإضافة إلى زوال ميلها الذكوري، أو لنقل تعافيها من اضطراب الهوية الجنسية، أصبحت ميالة إلى الهدوء، كأن هناك من كبح جماحها، وأخضعها، وأعادها إلى فطرتها الأصيلة كأنثى. ظنّنا أنها مريضة فحسب، وستعود سريعاً إلى مشاغباتها وثرثرتها وتنمّرها وذكورتها ما أن تتحسّن، وهو ما لم يحدث في الأيام اللاحقة، مما أثار الهلع في نفوسنا، رغم أنها لم تكن المرة الأولى، إذ طالما كان الصمت عادتها، أو طريقة تعبّر بواسطتها عن الاحتجاج، أو عندما تريد إخبارنا بحزنها وصدمتها وعدم رغبتها بالذهاب الى المدرسة. المرة الأخيرة كانت قبل سنتين، حين توفي والدي، فمن هول الصدمة استمرت بالصمت ثلاثة أيام لم تنطق أثناءها بكلمة واحدة، قبل استعادتها لقدرتها على الكلام في اليوم الرابع.

كانت تلك أياماً كئيبة خيّم خلالها الصمت على أسرتنا الصغيرة، وافتقدنا فيها ما كانت تحدثه عبير بجلبتها وشيطنتها وصخبها الصبياني. بدا من الصعب الاعتياد على اختفاء طيش الأولاد الصغار بهذا الشكل، الذي يشعر المرء إزاءه بالتعاسة، فقد كانت عبير موجودة وغير موجودة. أحياناً لا نشعر بوجودها، إلا عندما نراها، كما لو أن ضجيجها كان أهم ما يميزها، أو ربما نحن من

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اعتدنا عليه. ولم تكن أمي لتسكت أو تُسلّمها إلى الخرس ببساطة، لكنها، بداية، وبدلاً من عرضها على طبيب متخصص، ذهبت بها إلى مدينة الزبير القريبة، لعرضها على معالج روحاني كما تسمي أولئك السحرة والمشعوذين. كانت تظنها ممسوسة من الشيطان أو من الجن، أو هذا ما توصلت إليه خالتي رسمية قائلة: البنت مضرورة! وهكذا، اصحبت أمي ترافقها إلى مخدع أحد الروحانيين الصابئيين، الذي قال أن ثّمَّ جنيّ يتلبس جسدها، وأنها تحتاج إلى عدة جلسات علاجية روحانية، حتى يتمكن من إخراجه. تلك الجلسات العلاجية الروحانية، التي استمرت طيلة اسبوع، لم تكن في الحقيقة سوى جلسات للتعذيب، اكتشفت ذلك عندما كنت أحمّم عبير، رأيت آثار ضرب بعصيّ أو بواسطة سلك معدني، على زنديها. ثم لاحظت في مرة أخرى كتابة على أجزاء من جسدها، وازرقاق تحت أظفري إبهامي قدميها. فضلاً عن كدمات وآثار عضّ وبقع دم في اليوم الأخير. وفي النهاية، لم تتحسن عبير، بل تفاقمت حالتها نحو الأسوأ. وصلت أمي إلى الانهيار في تلك الأيام، كنت اسمعها تبكي في غرفتها ليلاً، وأحياناً في الحمام، وقد لاحظت مرة، بعد عودتها مع عبير من إحدى تلك الجلسات، شيئاً غريباً على أخمصي قدميها، لم يكن وشماً، فأنا أعرفه، ولديها أوشاماً في حنكها ومعصميها، بل كان شيئاً أشبه بالنقوش بلون أسود اختفت فيما بعد، ولم أعرف فحواها أو المعنى من وجودها إلا بعد عشرة أعوام.

اضطرت أمي، بعد أسبوع من مراجعة المشعوذ الصابئي، إلى الاستسلام والاستعانة بالطب. قامت بعرض عبير على أكثر من

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

طبيب متخصص، بحكم عملها في المستشفى وعلاقتها الطيبة مع الكادر الطبي، إلا أن أحداً منهم لم يعثر على التفسير العلمي المناسب لحالتها. عندئذ، بدأت الشكوك تحوم في داخلها، ولكي تكسر حاجز الصمت الرهيب الذي لفّ عبير فجأة، راحت تستخدم العنف لمعرفة ما إذا كانت البنت تلعب إحدى ألاعيبها الشيطانية المعتادة. راحت تسخّن سكيناً وتهددها بسلخ جلدها إن لم تنطق فوراً، وهي عادة سادية لم تكف عنها بعض الأمهات العراقيات حتى الآن. كانت قد بدأت فعلاً بتقريعها وقرصها وصفعها والصراخ بوجهها، مما دفعني الى التشاجر معها، والوقوف حائلاً دون مواصلة تعذيبها، حتى كفت أخيراً، بعد تهديدي اياها بالهرب من البيت. كنت أعرف بماذا كانت تفكر أمي في حينها، فرغم ازدياد وجعها وقلقها على عبير في كل يوم يمر لا تنطق فيه، لكنها لم تكن تحتمل في الآن نفسه تخيلها امرأة عانساً وخرساء، جميع خُطّابها من الصم والبكم والعرجان والعوران وكل ذي عاهة مستديمة. أنا أيضاً شككت في الأمر، وكنت أحثّها على الكلام، وأتوسل بها كي تنهي هذه اللعبة، حتى تيقنت تماماً أنها لم تكن تمثّل أو تدّعي أو تلعب. لقد فقدت صوتها حقاً، ليس ثمة شيء يجعلها تحتمل قسوة أمي تجاهها، كما أنها كانت صغيرة على اتخاذ مثل هذه الطريقة كأسلوب لمواجهة الأمور بالعناد والتجاهل لأكثر من ثلاثة أيام. حتى عندما ندمت أمي على نهجها العدواني، وحاولت احتواءها وتدليلها وإغرائها بالهدايا، واصطحابها إلى أضرحة الأولياء، لم تنطق عبير أبداً، ولم تبدأ باستعمال الإيماءات والإشارات إلا بعد مضي اثنين وأربعين يوماً، حدث خلالها عدداً من الأحداث، بعضها كان مفرحاً بالنسبة لي، كفسخ حمدان خطبته

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مني، في حين كان للبعض الآخر أشد الأثر في نفسي وعلى حياتي وحياة عبير في آن معاً.

هناك ظاهرة لفتت انتباهي في تلك الأثناء، وأثارت قلقي على عبير. فقد اكتشفتُ بالصدفة، في الليلة التي لم تعد الفتاة الصغيرة بعدها قادرة على الكلام، بقعة من الدم على فراشها ثم في سروالها الداخلي، وهو ما جعلني أخمن السبب وراء صمتها وذهولها والتغير المفاجئ الذي طرأ على سلوكها مؤخراً.

في الواقع، لم تكن تلك أول مرة أعثر فيها على مثل هذه البقع، فقد سبق (بما أن مهمة غسل الثياب وترتيب الأفرشة في البيت موكلة إليَّ) أن حدث الأمر قبل ذلك ثلاث مرات متتالية. استبعدت في المرة الأولى أن تكون الدورة الشهرية هي المصدر، في وقت كنت أجهل إمكانية أن تحيض فتاة في التاسعة من العمر، بسبب عوامل منها الوراثية أو البيئية أو الفسيولوجية. لم أخبر أمي، فقد كنت أعرف ردة فعلها وجربتها بنفسي، فمنذ أدركتني الدورة الشهرية في سن الثالثة عشرة، وهي تنغص عليّ حياتي وتبحث لي عن زوج. ولكي اتأكد أكثر، حفظت تاريخ عثوري على بقعة الدم الاولى، وانتظرت لأرى إن كانت ستعاود الظهور مجدداً. وفعلاً، ظهرت بقع أخرى بعد ثمانية وعشرين يوماً، ثم تكررت الحالة نفسها في الشهرين التاليين. لم أعد أشك في الأمر، هذا هو بالضبط ما يفسر حالات الانفعال العصبي، والشعور بالتعب، النهم في الأكل، الانتفاخ والصداع، التي أصبحت تنتابها في أيام معينة من الأشهر الثلاثة المنصرمة. لم تحاول إخفاء الآثار، ربما لأنها لا تعرف شيئاً بعد عن تلك الإفرازات، أو لظنها بأنها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مريضة، لكنها، كالعادة، لا تشكو لأحد إذا ما أصابها مكروه. كثيراً ما يحدث هذا ولا نعرف عنه شيئاً، إلا في وقت تكون منهارة وطريحة الفراش. كان أمر مكاشفتها والحديث معها بهذا الشأن صعباً. كانت ما تزال حانقة من بروز نهديها، وتوقعت أنها ستتهور إذا علمت بأكثر علامة تميز انتمائها إلى الأنوثة. التزمت الصمت من دون الكف عن متابعتها، غير أنّ شيئاً لم يكن على طبيعته حينما عثرت على بقع الدم في الليلة التي كفت فيها عن النطق. اكتشفت أن هناك خللاً في الحساب، إذ لم يمضِ سوى أقل من أسبوع على انتهاء آخر دورة، حتى أدركتها مرة أخرى في تلك الليلة، أو هذا ما ظننته في البداية. كنت سأعزو السبب إلى اضطرابات تعاني منها بعض الفتيات، ثم تذكرتُ أن مثل هذه الاضطرابات معنية بالدرجة الأولى بتأخر موعد الدورة الشهرية وعدم انتظامها، ولا يمكن بمكان الإحاضة بعد أقل من أسبوع من الانقطاع، إلا في حال حدوث نزيف. لم يحصل لي هذا من قبل، فدورتي منتظمة وتأتي وتذهب في موعدها المحدد. كانت فكرة إخبار أمي ما تزال مستبعدة. آثرت الاستمرار بمراقبة عبير ومتابعتها خلسة، بتفتيش ثيابها والبحث في فراشها، وتفقدها أثناء الاستحمام وحتى وهي نائمة. لكني لم أعثر على شيء إلا بعد مضي أسبوع، بقعة دم جديدة وكبيرة اكتشفتها على لباسها الداخلي، بعد عودتها من رحلتها الأخيرة إلى بلدة الزبير، حيث كانت أمي ترافقها إلى مخدع الروحاني الصابئي، من أجل تخليصها من الشيطان أو الجني المتلبس في جسدها حسب زعم ذلك الروحاني. كل هذه الأحداث جعلتني أصرف النظر عن مسألة الدورة الشهرية، وأصر على فكرة واحدة لا غيرها، وهي أن عبير مريضة، ويجب عرضها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على طبيب. هنا، كان لا بد من إخبار أمي بالأمر. حاولت، وأنا أتحدث إليها، منعها من الوصول بخيالها إلى أبعد مما هو بائن ويتمثّل في معاناة عبير من مشكلة صحية. فوجئتُ بعدم تفكيرها بالدورة الشهرية كاحتمال أكيد، فربما لم يسبق لها سماع أن ثمة فتاة حاضت في التاسعة من عمرها. رافقتها وعبير في اليوم التالي إلى المستشفى، إحدى الطبيبات الجراحات هناك خمّنت، من خلال الأعراض الظاهرة، معاناة البنت من جرح ما، ثم تبيّن من خلال الفحص السريري أن هناك جرح في نهاية المستقيم، عند فتحة الشرج، مرض شائع لدى الأطفال ممن يتناولون أطعمة خشنة ويعانون من الإمساك. كنت على وشك سؤالها إن كانت الفتيات بعمرها يحضن، أو من الممكن نزول الدم بعد أيام على انقطاع الدورة في موعدها، أردت إخبارها أن بعض بقع الدم كانت تلطخ الجهة الأمامية من سراويلها، وليس الجهة الخلفية كما يُفترض، لكني خشيت من فتح الباب الذي لن يُغلق إلا بتزويج شقيقتي في أقرب وقت.

في الباص، وعلى طول المسافة من المستشفى إلى البيت، لم تكف أمي عن تقريع عبير وتوبيخها، لتعمدها أكل بذور عباد الشمس مع قشوره، كل اعتقادها أن هذا هو السبب بإحداث الفطر في مستقيمها، في حين كانت هي صامتة، غير عابئة، تنظر من وراء زجاج النافذة إلى البنايات على جانب الطريق، ولا يبدو أنها تعير اهتماماً لما ثرثر به الأم. كنت أضحك في نفسي، كيف لم أفكر بأمر كهذا؟ وكيف استطاعت طفلة بهذا العمر كتم الألم فترة امتدت لأكثر من ثلاثة اشهر، اذا ما وضعت في الحسبان الفطر الشرجي كسبب وراء

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ظهور بقع الدماء الأولى، تلك التي ظننتُ أنها دماء الدورة الشهرية، لكني سرعان ما عدت إلى التساؤل، عما أذا كان نزيف الفطر الشرجي يتبع نظاماً يحاكي نظام الدورة الشهرية في الأشهر الثلاثة الماضية؟ افترضت أني كنت مخطئة في الحساب، رغم تأكدي منه.

وصفت الطبيبة لعبير بعض الأدوية الموضعية، ومنذ ذلك اليوم، وعلى مدى سبعة وثلاثين يوماً، لم تعد بقع الدم الى الظهور مجدداً، ما يدل على تعافيها من التقرح. الغريب أنها سمحت لي بتطبيبها بنفسي، على غير العادة، لم ترفض الفكرة أو تقاوم، كما كانت تفعل سابقاً، قبل تحميمها، بداعي أنها لا تريد لي رؤية عضوها الذكري الذي كانت تتخيله. لقد تغيرت تماماً، تلك الطفلة المتمردة، الكتومة، والذكية العنيدة، أصبحت مثل حمل صغير، كيفما يوجهها المرء تسير، خاضعة، خانعة، تحولت فجأة إلى كائن صامت مطيع وميال إلى العزلة، ترتدي الفساتين البنّاتية وتعلّق الأقراط في أذنيها وتلعب مع البنات أو تكتفي بالفرجة، وقلما تخرج إلى الشارع.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(2)

كانت أمي أكثر من تأثّر سلباً بفسخ حمدان خطوبته مني، الحدث الذي أوشك أن يوصلها الى الجلطة القلبية. قالت لي يومها بأنها لن تدعني اجتاز عتبة البيت إلى المدرسة إلا على جثتها. بدت غاضبة، وبودها لو تئدني، يجللها العار لأن ابنتها البكر طُلقت قبل زفافها. كانت تسألني عما إذا افتضني ابن شقيقتها في أوقات الخلوة التي كانت توفرها لنا، بعد عقد القران، فلو حدث ذلك حقاً، فإن أمر تزويجي من شخص آخر سيكون مستحيلاً حينذاك. أخبرتها أنه لم يكن بتلك الجرأة، وأن يده لم تمتد إلى أبعد من صدري وفخذيَّ، ناهيك عن القبلات الدبقة بنكهة السجائر الرديئة ورائحة الفم الكريهة. كانت تتمايل يميناً ويساراً أثناء ذلك، كما لو أنها تولول، تلطم فخذيها حيناً وتعضّ أصبعها السبابة حيناً آخر، وظلت تلحّ عليَّ من أجل الحصول على معلومات أكثر، حتى أقسمت لها بالقرآن والأولياء أن ابن شقيقتها ذاك لم يفعل فعلته الكبرى، رغم أنه حاول مرة لكنه لم ينجح.

«هل تعرّيتِ أمامه؟» كان هذا آخر أسئلتها.

«كلا، أبداً!» أجبتها نافية، وكنت أكذب، فقد تعريت أمامه، وهجم عليَّ حتى كاد يفعلها، لكنه قذف سائله الكريه خارج المرمى.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عندئذ فقط صدّقت وكفت عني، لكنها لم تكف عن مراقبتي، ولولا خشيتي عليها من السكتة القلبية، لادّعيت خلاف ذلك، فأتخلّص وإلى الأبد، من رابطة مجتمعية فاشلة تُدعى الزواج.

انقطعت العلاقة مع خالتي تقريباً، أصبحت أمي لا تطيق الدخول إلى بيتها، بالكاد تتبادل معها التحية إذا حدث وتلاقتا عند الباب أثناء خروجهما. حاولتُ ألا أبدو سعيدة بالأمر، لكن خذلتني قدرتي على إخفاء تلك السعادة عن أمي، التي تضاعفت همومها، فبالإضافة إلى خرس عبير المفاجئ. ها أنا أعود إلى كوني فتاة «بائرة» من جديد، بعد أن شارفتُ على الدخول إلى عش الزوجية كما يسمونه. أتذكر أنه كان موسماً للأعراس قبل بدأ مراسم عاشوراء في شباط، ولم يمضِ على سقوط النظام سوى سنتين وسبعة أشهر. هناك حفلات زفاف أقيمت في مواعيد متقاربة مع موعد زفافي الملغى، الفتيات اللائي تزوجن قبل ثلاثة أو أربعة أشهر، انتفخت بطونهن وبان عليهن الحمل أخيراً. كنت سأكون من بين من تزوجن في شهر كانون الأول، أتوحم بأشياء غريبة، لولا ما قام به حمدان بفسخ خطبته مني، مما أثار جنون أمي، فراحت تندب حظها وتلقي باللائمة عليَّ، وكأني أنا من سعيت وراء خيبتها وليس ابن شقيقتها، الذي لم أكن أتخيله زوجاً إلا لطيوره. كانت أمي تتحرى أخبار النساء الحوامل في الحي، تنظر إليهن بعين الغيرة والحسد، وتحصي عددهن، وتذكر اسمائهن، ومتى سيلدن، وماذا سيضعن، في حين كنت أنا أحمد اللّه وأشعر بالغثيان لمجرد الإحساس ببطن مملوءة، والشكاية من أوجاع الظهر وأعراض الحمل المزعجة، وآلام ما بعد الإجهاض، الإجهاض

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الذي لم تُستثنى منه أي من النساء الحوامل، سواء من قريناتي حديثات الزواج، أو النساء المتزوجات قبل ذلك بشهرين وثلاثة أشهر، أو النساء الأمهات، كما لو أنهن اتفقن جميعاً على إسقاط أجنتهن بالتتابع وفي تواريخ متقاربة، وهو ما حدث مؤخراً في الحي. كانت ظاهرة غريبة، لا يمكن طبعاً أن أعزو سببها إلى أمي، ونظرتها الحاسدة وهي تطاردهنّ بها، لاعنة حظ ابنتها المتخلفة عنهن، كما لا يمكن التركيز وتوجيه سهام الحسد التي يُعتقد أنها تزيل النعمة إلى الجميع دفعة واحدة.

بدأ الأمر مع امرأة تسكن في الشارع نفسه، ظُن أنها حالة إجهاض طبيعية، كما يحدث لبعض النساء الضعيفات، أو اللواتي يعانين من رخاوة في الرحم، أو بسبب زواج الاقارب. بعدها بيومين أجهضت امرأة أخرى كانت أماً لأربعة أولاد، ولم تسقط جنيناً من قبل. ثم توالت بعدها حالات الإجهاض، واحدة تلو الأخرى، حتى بلغ عدد النساء اللائي أجهضن في الحي خلال شهر نحو ثلاثة عشر امرأة. وتراوحت أعمار الأجنة الساقطة بين أربعة أسابيع والشهرين والأربعة أشهر، ما عدا تلك التي لُفظت في الحمامات والمراحيض وعلى الأسرة، من دون علم أحد بها. من المؤكد أن ظاهرة كهذه لا تحدث صدفة، وهو ما أثار ريبة السكان، فراح بعضهم يتحرى السر وراءها.

ومنذ أن فسخ حمدان خطبته مني، وأمي تراقبني عن قرب، أصبحت تشك في أي شكاية تصدر مني، بسبب حالات كنت أعتبرها طبيعية، كالدوار، الغثيان، أوجاع الظهر، ولا تستبعد أن يكون

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ما أشكو منه عرضاً من أعراض الإخصاب والحمل. حتى اشتهائي لبعض الأطعمة كان يثير جنونها وتعدّه توحّماً. كنت أشعر أحياناً أنها صارت تمني نفسها لو كنت حاملاً بالفعل، حتى يعود حمدان للزواج مني. شكّكتني بنفسي، حينما تأخر موعد الدورة الشهرية، وبتّ أعاني من وجع شديد في أسفل بطني بالتزامن مع ظاهرة الإجهاضات. كنت استبعد حمل امرأة ما من علاقة جنسية سطحية، وهو ما لم أخبر أمي به. ففي أحد الأيام، قبل الليلة التي فقدت فيها عبير قدرتها على النطق بيومين، كنت برفقة حمدان أثناء إحدى خلواتنا الشرعية كما يسمونها. أجبرني على التعري أمامه، وبما أني كنت خاضعة، مستسلمة لقدر لا مفر منه أطعته كنعجة، بشرط ألا يفعل شيئاً، باستثناء النظر، حتى حلول ليلة الزفاف الموعودة، عندذاك، يمكنه أن يفعل ما يشاء. لكن، الملعون لم يحتمل، حاول، بدايةً، إجباري على ممارسة الجنس الفموي، وحين قاومت نزوته تلك، بدأ بمداعبتي وتلمسي في أكثر المواضع إثارة. كان يعرف من أين تؤكل الكتف، لا بد أنه جرب ذلك مع نساء قبلي، وشيئاً فشيئاً تحول إلى غول وأنقض عليّ كالمجنون، لكني لم أدعه يفعلها، فقد بلغت الذروة قبله أثناء ما كان يداعبني، وعدت إلى وعيي سريعاً، في لحظة حاسمة كان سيلجني فيها. عندئذ، اكتفى بإهراق منيّه بين الشفرين تحت فتحة الإحليل. لم يفزعني ذلك بقدر ما جعلني اشمئز، وفي المقابل غضب حمدان مني ولم يكتفي بتقريعي، بل لطمني على وجهي، وراح يكيل الشتائم لي كما يفعل مع عاهرة وليس زوجة مستقبلية، قائلاً بينما هو يهز إصبعه السبابة في وجهي بأنه سيحوّل حياتي إلى جحيم، وقد نفّذ وعيده بالفعل.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مع اقتراب رأس السنة الميلادية، ازداد الألم في أسفل بطني، وازدادت معه وساوس أمي، حتى خلت أنها ستنهار، حدست أني كذبت عليها، أرادت مرافقتي إلى المستشفى في اليوم نفسه، مما اضطرني إلى تصنّع الشفاء والاحتيال عليها ودفعها إلى تأجيل الأمر حتى اليوم التالي.

وفي ساعة متأخرة من ليلة رأس السنة، في الحمام، بعد ثمانية وعشرين يوماً مضت على محاولة حمدان النوم معي، أثناء ما كان العالم يحتفل بالكريسمس، أجهضت!

كانت العملية أشبه بالحيض، ولولا الكتلة الدمية المتجلطة التي سقطت مني، لما صدقت أن أمراً كهذا حصل حقاً. حاولت تلافي الشعور بنوع محدد من اليأس، ذاك الذي قد يدفع النساء إلى إنهاء حياتهن بالانتحار. فكرت كثيراً: أنا لم أزنِ، فلماذا عليّ الشعور بالعار؟ كنت بحكم المتزوجة، وبانتظار ليلة مشؤومة يسميها المصريون ليلة الدخلة، ليلة إيلاج المرود في المكحلة، لم أعلم أن الحيوانات المنوية لذلك المطيرجي المعتوه كانت نشطة وسريعة وعالية الخصوبة إلى درجة تمكنها من العوم والسباحة مثل سلابيح الماء، والتسلل عبر القناة المهبلية، ثم تكمل طريقها إلى الرحم، وتكمن هناك لأول بويضة مستعدة للتلاقح، خصوصاً وأن غشاء البكارة يحتوي على فتحة لنزول دم الدورة الشهرية وباقي الإفرازات الأخرى. لكني اضطررت إلى إزالة الغشاء اللعين لأمكّن الكتلة الدمية من الانسياب بسهولة، كان لسقوطها وقعاً غريباً تناهى إلى أذنيّ بشكل خيّل لي معه أن ثمة من همس لي قائلاً: انتهت حياتك!

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أخفيت هذه الحقيقة عن أمي، لا يمكنني التكهن بردة فعلها، خشيت من عودة حمدان، الذي سيضطر إما للارتباط بي، أو اتهامي بالزنا مع شخص آخر، عندما لن تقنعه مسألة إمكانية حمل المرأة عن طريق عملية جنسية خارجية. استطعت التحايل على أمي مجدداً، رغم أعراض ما بعد الاجهاض التي بانت عليَّ في وقتها، إرهاق، شحوب، بلادة. أعلمتها بعودة الدورة الشهرية، وأريتها قطعة قماش ناقعة بالدم. ظننت أن معاناتي انتهت عند هذا الحد، ولم أعبأ بما كان في طريقه إليّ. أصبحت امرأة «بائرة» رسمياً، ولن يتقدم أحد لخطبتي بعد الآن، ستقول الأمهات الخاطبات، إذا ما اقترحت إحداهن اسمي: لو كان يُرتجى منها خيراً لما تركها ابن خالتها! أصبحتُ بحكم المطلقة، مما يعني انخفاض أسهمي لدى الخاطبين الشبان، المأخوذين بموجة الرغبة الجماعية بالزواج من صغيرات السن بعد الحرب، وأنا، في نظر أغلبهم، لم أعد فتاة صغيرة بمهبل ضيّق ونهدين صغيرين بملء الفم، وجسد كالريشة يمكن حمله إلى سرير الزوجية.

كان اللغط بشأن ظاهرة الإجهاض الجماعي لنساء الحي ما زال دائراً. قيل أن التلوث الإشعاعي هو السبب وراءها، وتحديداً مقبرة الأليات العسكرية المدمرة، الأمر الذي لم نكن نصدقه قبل سقوط النظام، عندما كان الحديث يجري عن استخدام الولايات المتحدة وبريطانيا أسلحة فتّاكة تحتوي على اليورانيوم المشع. كان البعض يسخر من لقطات تلفازية تُعرض تحت عنوان تساؤلي متشكٍ وتراجيدي: لماذا؟ يظهر فيها أطفال معاقون وآخرون مشوهون أو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مصابون باللوكيميا بسبب التلوث الإشعاعي، عادّين الأمر مجرد دعاية يراد منها إشغال الرأي العام عما كان يحصل من قمع داخلي في العراق. وعلى ما يبدو، أننا كنا نعيش تحت تأثير إشعاعي لا عشوائي مبكر، وجرعات عالية في زمن قصير، مما أدى إلى حدوث إصابات مباشرة، بسبب المادة المشعة في مقبرة الآليات المدمرة، والأدخنة الناتجة عن عملية صهر المعادن المفككة من تلك الآليات في الشارع الصناعي على الطرف الشمالي من الحي، والذي صار مركزاً يستقطب باعة العتيق والخردوات ومخلفات الحرب من كل مكان، هناك، حيث صار يعمل حمدان، ويجني المال من صهر النفايات المشعة وبيعها. كنت أراه عند خروجي لجلب حاجة من الجيران، أو عند إطلالتي من وراء الباب على الشارع، تذكرني نظراته المزدرية، الشامتة، بقوله: سأكسر أنفك! لم أكن أجهل معنى هذا القول، فالرجل لا يكسر أنف المرأة بالمفهوم الشائع عن طريق العنف، بلكمة مثلاً أو ركلة، إنما بإذلالها وإخضاعها وتحويلها إلى كائن مدجّن وضئيل، فقط لأنها متعلمة، أو ببساطة ابنة مدارس. ولا تقتصر عادة كسر الأنوف، أو الأصح تمريغها بالوحل، على طبقتنا الرثة، طبقة العشوائيات وشهادات دون الابتدائية، وأرباب المهن المتدنية والحقيرة أحياناً، بل هي عادة متجذرة في شرائح واسعة من المجتمع العراقي. يقال لامرأة من صنف النساء المتهمات بالتعالي، أو الحائزات على درجة وإن تكن ضئيلة من العلم والثقافة، إنها امرأة ذات أنف يابس بحاجة إلى كسر، أو كما يُصطلح عليه في اللهجة الدارجة: «فرك أنف» إذا لم تفرك أنفها منذ البداية، فستتقوى عليك، تستغلك، تركبك مثل بهيمة! في حين يظل هناك صنف من النساء

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بحاجة إلى كسر من نوع آخر، وهو كسر العين، فإن تكسر عين إحداهنّ، فهذا يعني دفعها إلى الطأطأة والانتكاس، والشعور بالدونية أمامك. قد يكون ثمة رابط مجازي بين حالة الكسر وبين العين، بما أن الأخيرة تبدو كأنها مغطاة بزجاج، وأغلب الكتّاب يصفونها على هذا النحو، لكن ما لا أفهمه حقاً هو علاقة الكسر بالأنف، ولماذا على المرء الجهر بنية إهانة شخص ما بقوله: أريد كسر أنفه؟ وهل يُشمل الأطفال بهذا التنكيل؟ أعني هل يستحق طفل ما أن يُكسر أنفه بهذه الطريقة الوحشية الغابية؟

ذكرتُ سابقاً أن عبير لم تستخدم الإشارات والإيماءات من أجل التواصل إلا بعد مضي اثنين واربعين يوماً، في شهر كانون الثاني 2006 بعد عملية إجهاضي السرية بثمانية عشر يوماً، عندما استفاقت من نومها مذعورة بعد منتصف الليل، وراحت تشير إلى بطنها وأسفل ظهرها بينما هي تتلوى. لم تكن لتفعل هذا لولا أن الألم بلغ بها حداً لا يُطاق، لكن من دون دفعها إلى النطق بحرف واحد، كما كانت أمي تأمل. هذا لا يعني أنها لم تكن تتألم قبل ذلك، حينما كانت مصابة بالفطر الشرجي، لكنها، كما أشرت، كتومة وتخفي آلامها، وبالنسبة لأمي، ليس كل ما يسبب ألماً في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل يحتاج إلى طبيب مختص، أو نقل لأقرب مستشفى، حتى لو تطورت الحالة إلى شعور بالدوار، الغثيان، رغبة بالتقيؤ، السخونة، وهو ما انتهت إليه عبير بعد ساعة من التلوي والألم. عادة ما يلجأ السكان في مثل هذه الحالات إلى الممرض الوحيد في الحي، الذي لا يكتفي بالتداوي البسيط وزرق الإبر، بل يتوهم في كثير من الأحيان

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أنه طبيب حقاً، ما دام ثمة من لا يفرق بينه وبين الأخير، فيأخذه التفاخر الزائف إلى أبعد مما هو عليه، ولا ينصح المريض بمراجعة المستشفى إلا بعد أن يصيبه اليأس ويعترف بفشله، مدركاً حجم الورطة التي سيجلبها لنفسه. لكن راهي المضمد، حينئذ (أو هذا ما كنتُ أظنه) كان حصيفاً بما يكفي ليعرف مماذا تعاني عبير، وسرعان ما تأكدت شكوكه حينما تفاقمت حالتها وبدأت تنزف، وارتفعت درجة حرارتها، وأُصيبت بالإسهال، ثم أُغمي عليها.

هناك، في تلك الغرفة الوضيعة، التي لم يحاول راهي المضمد الاهتمام بها، لتكون أشبه بعيادة طبية صغيرة غير مرخصة، كما يفعل الممرضون والمعاونون الطبيون المحترفون والمجازون، وعلى سرير التداوي وزرق الإبر القذر، وسط مزيج من الإفرازات، بول، دم، قيء، براز، لفظت المسكينة الصغيرة جنينها، وكان عبارة عن قطع من الدم المتخثّرة.

وجد راهي في هذا الظرف فرصته السانحة من أجل التملق، وإظهار مروءته المزعومة، أقلنا إلى مستشفى البصرة العام، بسيارته الواز، التي سبق وأن استولى عليها من ثكنة قريبة، بعد الحرب، وقام بتغيير لونها إلى الأزرق. وصلنا إلى قسم الطوارئ، أدخلوا عبير إلى ردهة الأطفال، كانت ما تزال تنزف، تركت أمي تلطم وتولول في الممر ودخلت في إثرها إلى الردهة، حيث باشرت الطبيبة، برفقة ممرضة ومعاونة طبية، معاينتها، فتحت عينيها، وجسّت نبضها، وتفقدت ضغط الدم، ثم أعطتها حقنة في العضلة وأخرى من خلال جهاز الإعطاء في وريدها، ظلت تراقبها زهاء نصف ساعة إلى أن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

انقطع النزيف، وانخفضت حرارتها إلى المعدل الطبيعي، لكنها لم تفق بعد. أرادت الطبيبة أن تعرف صلة القرابة التي تجمعني بها، قلت لها إنها شقيقتي، أما أمي فقد تعرفت عليها فوراً كونها تعمل كمنظفة في المستشفى.

«و الرجل؟» قالت بصوت أقرب إلى الهمس وهي تومئ إلى راهي الذي كان يشبك يديه وراء ظهره ويذرع الممر جيئة وذهاباً، ويتلفت كل حين ليلقي نظرته المرتابة نحونا: «هل يقرب لكم؟»

«ليس تماماً» قلت لها وأنا أفرقع بأصابعي من القلق: «أحد سكان الحي»

كانت الطبيبة مرتبكة، بل خائفة وتتلفت أثناء ما كانت تسألني بصوت مرتجف عن مكان سكننا، وإن كان لدي فكرة عما حدث لعبير، لم أجبها.

«هل هي متزوجة؟»

بدت مترددة وهي تسألني. لم يكن من الطبيعي أن يسأل أحدهم، عما إذا كانت فتاة صغيرة في التاسعة من العمر متزوجة أم لا. ربما صادفت هذه الطبيبة أمهات مراهقات بعمر الثالثة عشرة أو أكثر، لكن لا يبدو أنها واجهت مثل هذا الموقف. لم تشهد من قبل حالة إجهاض لطفلة في مثل هذا العمر، لكن، ماذا عساها أن تقول، وكيف بإمكانها إيصال الفكرة بأقل الكلمات، من دون تركها لأثرٍ يستوجب ردة فعل كالتي يمكن صدورها من أمي مثلاً. لا أعرف لماذا اختارت إخباري بالأمر أنا تحديداً، رغم وجود امرأة أكبر مني سناً. ربما رأتني أكثر

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

هدوءاً من أمي، أو أكثر حكمة، لكنها، في الوقت نفسه، لم تتساءل مع نفسها ما الذي يمكن لفتاة ضعيفة مثلي فعله، وكيف تتصرف. نعم، كنت ضعيفة حقاً وعلى حافة الانهيار، كان مدعاة لاستغرابي ألا يبدو عليَّ الذعر حينذاك، أو الخوف، بل الرعب على أتم وجهه. أردت أن أقول لها: بلى، إنها متزوجة! ترددت للحظات ثم هززت رأسي نافية، ليزداد بعدها ذهول الطبيبة، إصفر وجهها الأبيض واصطبغت ملامحها بالحيرة، لا بد أنها كانت تلعن حظها وسوء الطالع وذلك اليوم، يوم نوبتها في المستشفى.

«هل أنتِ متأكدة إنها في التاسعة؟» هززت رأسي ثانية، لكن بالإيجاب هذه المرة، فقالت الطبيبة، ولا أعرف إن كانت غاضبة في حينها أم على وشك البكاء: «أنا مضطرة لإبلاغ إدارة المستشفى.. إنها جريمة!».

نعم جريمة، كانت جريمة حقاً، لكنها من جهة أخرى ستكون فضيحة ما لم تصمت الطبيبة.

في أغلب الأحيان، الفتاة المغتصبة مثلها مثل الفرس الذي تُكسر ساقه في الصحراء أو في أحد الوديان بين الجبال، أو في مضمار السباق، أو بينما هو يسحب عربة مليئة بأسطوانات غاز الطبخ، يجب إنهاء حياته لكي لا يكون عالة لما تبقى من الطريق، تماماً كما يحصل في الأفلام، يُتخلص من الأحمال الزائدة لكي لا تغرق السفينة في العاصفة، أو يهبط المنطاد في البحر، ويُقتل الأسرى الجرحى بداعي عدم وجود وسيلة نقل، ويُتخلى عن المرضى والمجانين وكبار السن عند صعود الجبل، هرباً من الموت، وفي المحصلة، إذا لم يُعثر على

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المغتصب لتزويجه من عبير بالقوة، ستُقتل الأخيرة لتتفادى القبيلة الشعورَ بالعار. حتى لو لم يفشِ راهي، المضمد المزعوم، الأمر لأحد من سكان الحي، ستفعل زوجته النمامة عندما سيخبرها، متأسفاً، أن من عجائب هذا الزمان وعلامات نهايته هو حمل طفلة بعمر التاسعة من مجهول. تخيلت كيف سيقضي راهي يومه في غرفة الطبابة القذرة وغير المرخصة في الحي، بإخبار مرضى السكري وارتفاع ضغط الدم والانفلونزا والرشح، والمغص المعوي والتقرحات، وذوي الجروح الطفيفة، والمصابين بالإسهال، والبواسير، ونزيف الناسور، وتعفّن الشرج، ومدمني اقراص الهلوسة بآخر علامة من علامات آخر الزمان، التي يحذر منها الدعاة وأرباب المنابر المعممين على شاشات التلفاز في شهري رمضان ومحرم، وكيف أن اللّه حظي حي الحرية، من دون سائر الأحياء في المدينة، بهذه العلامة. يصلح الخبر لنشره في الصحف، مع أخبار التفجيرات في الأسواق الشعبية ومعارك المسلحين مع القوات البريطانية والأمريكية: لأول مرة في العراق، فتاة بعمر التاسعة تجهض، والفاعل؟ مجهول! لكن، مع وجود وكالة أنباء فضائحية مثل راهي المضمد المزعوم، لا يحتاج الأمر إلى أكثر من عشرة مراجعين مرضى، ويُفضل أن يكونوا من النساء لقدرتهن الفائقة على إثارة اللغط وسرعة نقل وإفشاء الأسرار، لينتشر الخبر في أرجاء المعمورة، وليس في حي الحرية فحسب، أو.. ربما لن يفشي راهي السر لأحد سوى أمي. أستطيع تخمين وتصور طريقة كشفه للأمر، فإذا كان هو عبارة عن وكالة لبث أخبار الفضائح، فإن أمي هي سمّاعته المدوية، بإمكان صراخها اختراق الجدران والوصول إلى كل بيت، إذ لن تصبر كثيراً حتى تبدأ باللطم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

والعويل ونتف الشعر وتمزيق الثياب، ناعية بكارة ابنتها الطفلة، من دون وعي مسبق بإمكانية إذاعة الخبر عن طريق النياحة، وسط مجموعة من النساء الثرثارات، اللائي يتحرين عن كل شيء.

كنت قد أرسلت أمي مع راهي إلى البيت، لجلب ثياب نظيفة وبعض الأغراض الضرورية، لأن عبير ستمكث في المستشفى ليومين أو ثلاثة، وهو ما اضطررت لاختلاقه حتى أتمكن من تنفيذ ما تبادر في ذهني حينها، وفكرت به كحلّ، لا يخلو من الخطورة أبداً، لهذه المعضلة. لم أفكر باستجداء عطف راهي المضمد، فربما يستغل الفرصة ما دام أن الماء صار عكراً إلى هذه الدرجة من العمى، ويبتزني فيما بعد، لأقبل به زوجة ثانية، ثم ألبث تحت طائلة التهديد والوعيد طيلة حياتي القادمة. كان من الصعب التكهن بما ستؤول اليه الأمور، أو باختصار: لم يعد لنا من مكان أو فرصة للعيش في حي الحرية الموبوء. لم يسبق لي التفكير بالهرب من قبل، نعم، كنت أهدد أمي بذلك، لكني لم اتوقع تنفيذ وعيدي في يوم من الأيام، لعلمي أنهم سيتبعونني، يقتفون أثري، ويعثرون عليّ ويقتلونني، كما حصل مع فتيات أخريات. أما الآن، أعني في تلك الفترة العصيبة من حياتي وحياة شقيقتي، في الوقت الذي لم يتبق لدينا ما نخسره، بعد فقداننا لعذريتنا، بتلكما الطريقتين الفضتين، ولم نعد نصلح لمشاريع الزواج، ولا حتى للعبودية، فيبدو الأمر مختلفاً. إذا كانت تلك معركتي فلأخضها إذن، قلت لنفسي متحدية كما لو أني أواجه الموت. إذا كان على عبير أن تموت فلتمت بطريقة أخرى، لن أسلمها للقتل، لن أسلمها لأولئك، لكن، من هم أولئك؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ولماذا هم متخفون ولا يظهرون إلا للاجتماع من أجل القتل والثأر وغسل العار؟ لماذا لا يجتمعون، مثلاً، من أجل التكافل الاجتماعي وانتشال امرأة وابنتيها من تحت خط الفقر؟ تموت المرأة جوعاً، بصمت، ومن دون أن يرف لأحد جفن، وحين تبيع جسدها لإعالة نفسها يظهر هؤلاء ليلقنوها درساً في الأخلاق.

«هذه جريمة!» تقول الطبيبة، وتفشل في إخفاء خوفها أو التمكن من السيطرة على لون بشرتها المتقلب حسب انفعالاتها: «جريمة كبيرة!»

طلبت مني أن أتبعها إلى غرفة المناوبة، إذ بدا راهي المضمد أكثر فضولاً في ذلك الحين، ازدادت نظراته المتشككة، واقترب منا كثيراً ليسترق السمع.

وفور دخولنا الغرفة، بدأت التوسل بالطبيبة، كدت أقبّل يديها اللتين أفلتتهما من بين يديّ لتمنعني من بلوغ قدميها.

«ماذا بوسعي فعله لكِ؟»

قالت وهي تهزّني من زنديّ، وتحثني على التكلم بهدوء لكي لا تلفت الجلبة التي أحدثتها انتباه المراجعين أو أحداً من الكادر التمريضي في الخارج.

«ساعديني!»

قلت لها وأنا أمسك يديها ثانية وأضمهما إلى صدري متوسلة بها كعبدة.

«أساعدك بماذا؟» سألتني.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«على الهرب» أجبتها في لحظة لم أعد قادرة على الوقوف، فهويت على الأرض منتحبة.

«أنا طبيبة!» قالت بعد دقيقة من الصمت لم يُسمع خلالها سوى نحيبي الخافت: «لا يسعني المخاطرة بمستقبلي المهني.. هل تفهمين؟» ثم طلبت مني الخروج.

أحسست بقرب النهاية، ستبلغ الطبيبة ادارة المستشفى عن الحالة، وينتهي كل شيء، ستأتي الشرطة، وتحقق في الأمر، ستعلم أمي، وتنهار، ويصل نعيبها إلى حيّ الحرية، ومنه ينتقل إلى كل مكان، ليحط في النهاية، في آذان «أولئك» الذين سيبحثون عن الفاعل، وحين لا يعثرون عليه، يقتلون المهر الصغيرة المكسورة ساقها. لا أحد بوسعه إلقاء اللوم على الطبيبة، لأنها رفضت تهريبنا، إنها مخاطرة كبيرة، أن يعرّض شخص ما مستقبله، وربما حياته في أسوأ الظروف، من أجل قضية خاسرة كهذه، في بلد لا توفر حكومته الحماية حتى للأطفال.

غادرت غرفة مناوبة الأطباء إلى الرواق، جلست على الأرض بانتظار خروج الطبيبة، لأتوسلها للمرة الأخيرة. لم تسع الفرصة لأفعل ذلك، فقد انشغلت بمتابعة حالة جديدة لطفل مصاب وصل للتو. لم أتحرك من مكاني، حتى عادت إلى الغرفة، وقد أومأت لي قبل أن تدخل، هرعت في إثرها، ووجدتها واقفة هناك شابكة ذراعيها على صدرها الصغير، اومأت لي مجدداً، فاقتربت منها، ولمّا بدت نيتها بالهمس لي بشيء، اقتربت أكثر، عندئذ، قالت بصوت خفيض، وهي تنظر نحو الباب من فوق كتفي، وعلى وجهها الخوف:

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ستنتهي نوبتي بعد اربع ساعات، بإمكانك المغادرة بعدها، لو شئتِ أخرجي من بوابة العيادة الاستشارية، أعتقد أن الطريق سيكون آمناً من هناك»

صمتت للحظات، ثم سألتني:

«إلى أين ستذهبان؟»

«لا أعرف!» أجبتها.

لا أدري ما الذي أخرسني عن شكرها حينذاك، ربما لإحساسي أني سأفعل هذا لاحقاً، وأبقى مدينة لها بقية عمري. غادرت مسرعة إلى الردهة، وجدت راهي المضمد يطمئن على عبير التي كانت ما تزال نائمة، رجته أمي طالبة منه الانصراف إلى بيته، لكي لا تقلق عائلته، لكنه رفض المغادرة، قال أننا ربما نحتاج إليه. صرت أشك أن هذه إحدى أساليبه التي دأب عليها في تملق أمي، كي تزوّجني منه، فمن نظرته الكريهة المبتزة عرفت أنه يضمر نية سيئة، كأنه يقول لي: الآن أنا أعرف كل شيء! كنت أحث نفسي على تحمل المزيد من العناء، فما هي إلا أربع ساعات وأختفي مع عبير، أهرب بها. كانت أثقل أربع ساعات مرت في حياتي، دفعت أمي، خلال الساعات الثلاث الأولى منها، إلى النوم أسفل السرير الذي ترقد عليه مريضتنا، تلفعت بعباءتها وبدأت تشخر من التعب واللطم والصراخ، لديها قدرة عجيبة على التكيف مع الأوقات والظروف الصعبة، مثلما كان لدى راهي المضمد القدرة نفسها لتحصيل بعض المتع الحسية والمنفعة الشخصية، تخيلته وهو يرافقني خارج الردهة، بعد إلحاح طويل، الحجة معروفة: يريد مناقشة أمر في غاية الأهمية معي،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حسناً، وما عساه أن يكون غير الموضوع الذي شغله طيلة الأعوام الماضية، وهو الزواج مني. لا بد أنه ما زال مصراً على جعلي ضرة لزوجته، وكانت أمي ستجبرني على الاقتران به في النهاية، خصوصاً بعد وقفته المشرّفة معنا، كما ستصفها، في محنة عبير. ستقول أنه أشرف وأفضل من ابن الخالة حمدان، الكلب الناكر للجميل، والقبول به كزوجة ثانية أفضل من البقاء كامرأة بائرة. لكن، حتى هذا لا أظن أن راهي يريده. كنت أتوقع منه المساومة على جسدي مقابل سكوته، تصورت إلى أي حدٍّ ستكون تلميحاته بهذا الشأن أوضح من المعتاد، بائن من نظراته، أنه يتوق للنوم معي فحسب، يجعل مني قحبته الخاصة. ومن يعلم، ربما يرسلني إلى بعض أصدقائه المقربين البدينين. وددت لو أنفجر بوجهه كما ينبغي، أنشب أظفاري في عينيه الدنيئتين، وأظهر ما كان يحرق أضلاعي من الحقد والغضب والرغبة في انتزاع تفاحة آدم من عنقه، أو أبلغ الشرطة عن مهنته الحقيرة، لكني كنت أدرك أن أحداً لن يتعرض إليه، في حين يُلقى القبض على المستهلك دائماً. خشيت الإبلاغ عنه، قد أزيد بذلك من بلل الطين الذي وجدنا أنفسنا ممرغين في وسطه، خصوصاً وأن واحدة من الساعات الأربع انقضت، ولم يتبق سوى ثلاث ساعات. ماذا يُقال عندما تعطي إحدانا كلمة لأحدهم؟ وعد؟ نعم، كنت سأعده خيراً؟ وأبدو كما لو أني أعده بفرصة عمل، أو إسداء خدمة، أو عمل جميل، وليس بمنحه جسداً يعبث به ويلوثه بلعابه وألعابه المقززة. يظنني ما زلت عذراء، لهذا سيعدني هو الآخر بألا يفتضني. كاذب وخنزير، يمكنني رؤية نيته السيئة في عينيه، ماذا يعني كوني عذراء من عدمه؟ وبماذا يشعر الرجل وهو يفتض بكارة أرق من نسيج

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

دودة القز؟ ما المفرح في الأمر، بل ما الباعث في هذه العملية على الإحساس بالخيلاء؟ تخيلت للحظة أنه دلع لسانه ولعق الهواء بينما هو يعدني، ربما يفكر باستخدام أصابعه، إنها قذرة بما يكفي لنقل الجراثيم والبكتيريا والتقرحات. ماذا بعد؟ الإيلاج الشرجي؟ يا لخيالك التعس وأمنيتك الخرائية أيها الممرض المزيف، يبدو كرماً منك ألا تفعلها من الأمام، وتستعيض بالمخرج بدلاً من الفرْج أيها القضيب الشجاع. كان لا بد أن أعده بالنوم معي، لأتمكن من طلب خدمة أخيرة منه. يصبح الرجال مطيعين وكتومين مثل النعاج، إذا ما تعلق الأمر بأجهزتهم الاستمنائية البولية.

لكني ما ان انتبهت من تخيلاتي، حتى شعرت بالدوار، وكدت أتقيأ. لم أجد سوى أمي، أما راهي، فقد خرج إلى الرواق. تبعته، لأتحدث إليه، وجدته واقف هناك، ويبدو أنه دخل في حديث مع مراجعين آخرين، مررت من أمامهم، في طريقي نحو باب الخروج، سمعت خطواته وهو يتبعني، ابتعدت عدة أمتار نحو مساحة خضراء محاطة بسور حديدي، وحينما التفتت ورائي وجدته واقف بإزائي، وهو يطوح بمسبحته ويبتسم ابتسامة صفراء ماكرة، لكنه لم يتكلم، كدت اختصر عليه الطريق، وبدلاً من سؤاله عما يريده، طلبت منه اصطحاب أمي إلى البيت.

«ولماذا أمك؟» سألني: «لماذا لا تذهبين معي أنت، ونتكلم في الطريق أيضاً؟»

«نتكلم بماذا؟» سألته كما لو أني أزجره.

«عن أي شيء» رد، وبدا كأنه يهون عليّ الأمر: «يقضي الناس أوقاتهم بالحديث في الطريق، أليس كذلك؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«أمي متعبة، وأفضّل أن تذهب إلى البيت لتنال قسطاً من الراحة، وتأتي بعد الظهر» قلت له، فهز رأسه موافقاً.

عدت مسرعة إلى الردهة، لأجد أمي ما تزال نائمة، في حين كانت عبير مستيقظة وتأن. جاءت الطبيبة بعد قليل كي تتفقدها، كانت مرهقة، بعينين ذابلتين وشعر تركته ينسدل على كتفيها بشكل عشوائي، بعد أن كانت تربطه على شكل ذيل حصان، ولأول مرة، لمحت الباج المعلق أسفل كتفها الأيسر مكتوب عليه اسمها: داليا عزيز متي. غادرت بعد فترة وجيزة، من دون التفوّه بحرف واحد، أو حتى النظر إليَّ. استيقظت أمي على صوت أنين عبير، وخرجت في إثر الطبيبة، لتعود بعدها بدقائق، وتخبرني بإصابة شقيقتي بجرثومة في الأمعاء، مما يعني إقامتها في المستشفى لبعض الوقت. عندئذ، علمت أن الطبيبة جادة في تعاطفها مع محنتنا. وجدت الوقت مناسباً لأطلب من أمي الذهاب إلى البيت مع راهي، من أجل الراحة، وجلب بعض الأشياء الضرورية. رفضت في البداية، ثم أقنعتها بضرورة الاعتماد عليّ، أذعنت وغادرت قبل الساعة السابعة صباحاً.

كان من المفترض أن الطبيبة داليا غادرت في تلك الأثناء، ولن تحل الطبيبة البديلة محلها قبل الثامنة. جلبت كرسياً متحركاً ونقلت عبير إلى الحمامات لتنظيفها، وبدلاً من العودة بها إلى الردهة حيث كانت ترقد، سلكت طريقاً آخر يفضي باتجاه العيادة الاستشارية على الجانب الأيمن، كما وجهتني الطبيبة، لنجد أنفسنا في الشارع أخيراً. لم تكن لدي فكرة عن الجهة التي سنقصدها، كان اللجوء إلى أحد الأقارب خياراً خطيراً، شعرت أننا تائهتان في المدينة الكبيرة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

والمزدحمة والمضطربة أمنياً. كانت عبير قد استعادت شيئاً من قوتها، وبدأت تعي ما حولها، لكنها كالعادة منذ فترة مضت، صامتة ولا يبدو أن لديها أدنى رغبة في سؤالي: أين نحن؟ أو إلى أين نحن ذاهبتان؟ سمعت إطلاق نار ليس بعيداً، وأصوات انفجارات استمرت لدقائق، ثم سمعت من أحد المارة، أن اشتباكات بين المسلحين والقوات البريطانية، تحدث في الجوار، وفجأة، بينما أنا أتلفّتُ حولي، ولا أعرف ما يمكن فعله في هذه الورطة الكبيرة، وإذا بصوت أنثوي ناعم، كأنما انبعث من حلم، يخترق أذنيّ قائلاً: اتبعيني!

كما لو كنت أتوقع ذلك وانتظره، رحت أمشي في إثرها بأقصى ما أمكنني من سرعة، حتى قطعت مسافة، تُعد طويلة بالنسبة لامرأة تدفع عربة للعاجزين. كانت بمثابة حبل النجاة الذي أمسكته أخيراً على جانب الطريق، في الجهة المقابلة، حيث توقفت هناك سيارة أبل حمراء، يجلس خلف مقودها شخص بوجه حليق وبشرة قمحية وشعر سبط، ربما يكون زوجها أو أحد معارفها أو زملائها في المستشفى، وعلى ما هو بادٍ، أن لديه فكرة عما حدث.

انطلقنا في شوارع مغبرة، واجتزنا عدداً من تقاطعات الطرق، والأحياء، وبنايات حكومية ما زالت على حالها، منذ تدميرها في الحرب الأخيرة. ازداد قلق داليا حين أوقفتنا في الطريق نقطة تفتيش بريطانية، تكلم السائق مع أحد أفرادها بإنكليزية طلقة، قبل السماح لنا بالمرور. واصلنا بعدها طريقنا حتى بلغنا أحد المنازل في منطقة سكنية أجهل موقعها، لكنها تبدو كتلك الأحياء التي توصف بالراقية في البصرة، منازل كبيرة بعضها مغلف بالحجر، والبعض

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الآخر بالغرانيت، حدائق واسعة وارفة ومظللة بالنخيل والسدر والزيزفون وأشجار الحمضيات والنباتات المتسلقة. نزل زوج أو قريب أو زميل الطبيبة، وراح يضرب جرس المنزل، وهو يتلفت في كل الاتجاهات، حتى أطلت امرأة أربعينية العمر من وراء الباب، ثم رأيته يومئ للطبيبة التي حرضتنا بدورها على الإسراع بالنزول. تذكرت أننا تركنا الكرسي المتحرك في المكان الذي انطلقنا منه بعد خروجنا من المستشفى، سألت عبير عما إذا كان بمقدورها المشي، لكن لا جواب. كانت تنظر من حولها حين ترجلنا من السيارة، من دون أن تدل ملامحها على شيء سوى المرض. دلفنا إلى المنزل بمساعدة الطبيبة، وقادتنا المرأة بعدها عبر سلم مسقف بالقرميد الأحمر، على الجانب الأيمن، إلى الطبقة العلوية. يظهر أن لديها فكرة عنا هي الأخرى، فقد شرعت بطمأنتنا، قائلة بصوت لا تنقصه الشجاعة، أننا سنكون في مأمن هنا، ثم نزلت مع الطبيبة، ولم أرهما إلا بعد ساعة تقريباً.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(3)

كانت الطبقة العلوية للمنزل مؤلفة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام، وقد عُزلت عن الطبقة الأرضية، لكي يكون بالإمكان شغلها بالمستأجرين. كنت أجلس على كرسي بإزاء عبير الممددة على أريكة في الصالة، وعيناها ترنوان بنظرة ثابتة، إلى صورة العذراء المعلقة على الجدار ورائي، عندما دخلت المرأتان، وكل واحدة منهما تحمل معها شيئاً. كيس من الأدوية والحقن والمقويات، جلبته الطبيبة معها لعبير، في حين كانت المرأة المضيفة، تحمل صينية فيها طعام، وترمس شاي صغير، إضافة إلى بعض السوائل من أجل المريضة. عرفتني على نفسها، اسمها إيفان سمير وتسكن مع والدتها السيدة ماري في الأسفل، قالت أن داليا وزوجها أحاطاها علماً بما حدث للصغيرة، وعبرت عن تعاطفها معنا، قائلة أنها ستفعل ما بوسعها لكي تبقينا بمأمن عن أي خطر محتمل.

«لن يفكر أحد بهذا الحي» قالت مطمئنة: «إنه مليء بالمسؤولين الحكوميين الصاعدين، الذين أثرتهم فترة ما بعد سقوط النظام، أما السكان، فأغلبهم أثرياء، بعض المنازل تشغلها مكاتب لمنظمات حكومية ومدنية وأجنبية، إغاثة، صحافة، شركات تجارية، وبعض القنصليات، ومقار الأحزاب المحلية المتنفذة، حتى أن أحداً لن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يفكر بالسرقة من هذا الحي على كثرة ما فيه من كلاب بوليسية، وكاميرات مراقبة، وحراس أمنيين».

ساعدتني على إنهاض عبير، وبينما كنت أحاول إطعامها، كانت هي تسترسل بالحديث:

«من المؤلم أن يحدث شيء فظيع كهذا لفتاة بعمرها. مسكينة، تبدو مرهقة ومريضة، الكثير من الفتيات الصغيرات يتعرضن للعنف بشكل مستمر، هناك من هن أصغر منها عمراً، يمتهن التسوّل، ويتعرضن لتحرش الكبار، وتُنتهك أجسادهنَّ الصغيرة، يمكن العثور على هذه النماذج في أي بلد، لكن هنا تحديداً، فإن مشكلة كهذه تتفاقم بمرور الأيام بشكل خطير»

وعلى الرغم من محاولات إيفان لطمأنتنا بين الحين والآخر، إلا أني لم أشعر بالأمان أو الاستقرار إلا بعد مرور سبعة ايام، كانت كافية لتستعيد عبير نصف عافيتها، ولأتعرف أكثر على إيفان وأمها، تلك المرأة الطيبة والمرهفة، عمة بسمان الذي أقلنا بسيارته مع زوجته الطبيبة داليا. كانت في منتصف السبعينات من العمر، من النسوة اللائي يقضين أوقاتهن في الطهو والحياكة، وصنع الحلوى، والتسوق، والمواظبة على حضور القداس، والقيام بالأعمال اليدوية، التي تعرضها في بازار خيري، يقام في ساحة كنيسة مار أفرام، في منطقة مناوي باشا، بين فترة وأخرى، لدعم العوائل المتعففة من المكونات الصغيرة. أما إيفان، فلم تكن تقل عن والدتها رهافة وإنسانية، امرأة متعلمة، ومضيفة سابقة في الخطوط الجوية العراقية. وعلى مدى أشهر، من فترة مكوثنا في بيت الأم وابنتها المسيحيتين الكلدانيتين، لم ألحظ على أي منهما

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أدنى إشارة دالة على شعورهما بالضيق من وجودنا معهما في البيت نفسه. ربما شعرتا بالخوف، خصوصاً الأم، وهو أمر طبيعي بالنسبة لمن يأوي فتاتين هاربتين، ومطلوبتين عشائرياً، فرسين مكسورتي الساق، منتهكتين، وربما مجهولتي المصير، وهو خوف مشروع، لكنه مؤقت، بدأ بالتلاشي تدريجياً بعد مرور خمسة وأربعين يوماً. كانت الطبيبة تتردد على بيت الخالة ماري بين فترة وأخرى، مع زوجها بسمان وأحياناً لوحدها، وفي كل مرة كنت أسألها عما إذا حدث شيءٌ في المستشفى له علاقة بقضية عبير. أخبرتني في المرة الأولى، بعد مضي خمسة أيام على هروبنا، أن أمي عادت في اليوم نفسه بصحبة ذلك الرجل، وتعني راهي المضمد، وأحدثت ضجة في أروقة المستشفى.

«لم أكن موجودة حينئذ، كانت استراحتي من النوبة الليلية كما تعلمين، لكنهم أخبروني هناك أن ثمة امرأة أحدثت فوضى بسبب اختفاء ابنتيها، وضج القسم بصراخها وعويلها. في اليوم التالي، استدعتني إدارة المستشفى للمساءلة، كوني الطبيبة المشرفة، أخذت معي ملف المريضة وأطلعوا عليه: عدوى جرثومية والتهاب معوي حاد، هذا هو تشخيصي. خشيت من وشاية الممرضة والمعاونة الطبية الخافرتين، رغم أني ظللتهما، لحسن الحظ أن أي منهما لم تتكلم بشيء يثير الريبة»

«و أمي؟» سألتها ويدي على قلبي، تلك الحركة التي ظلت تلازمني حتى الآن، كلما استشعرت خطراً في الطريق إليّ: «ماذا حدث لأمي يا دكتورة؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لا أعرف» ردت الطبيبة: «كانت قد غادرت المستشفى بصحبة الرجل، ولم يرها أحد بعد ذلك»

«لم تعد؟» سألتها: «هل تركت العمل؟»

«حسب علمي»

كنت قد صمت لفترة قصيرة، قبل أن أقول:

«أنا مدينة لكِ يا دكتورة» مسحت بأصابعي دمعة طفرت من عيني اليمنى: «مدينة لكِ بحياتي، لقد عرضتكِ للخطر!»

«لا يهم عزيزتي» ردت على نحو أخجلني، وددت معه لو أعانقها: «كان لا بد من حدوث هذا في النهاية، إن لم أكن أنا، فمن قبل غيري. لو تركتكِ أنتِ وشقيقتك في تلك الحال المزرية ولم أفعل شيئاً، لأكلني الندم بقية عمري!»

كنتُ، إلى وقت قريب، أتساءل عما يدفع بعض الناس للمخاطرة بحياتهم ومستقبلهم المهني، من أجل انقاذ حياة انسان آخر، هل هو مجرد الشعور بالمسؤولية تجاه بني جنسهم؟ هل هي الغريزة الإنسانية إزاء فعل الخير؟ الفطرة السليمة؟ الحاجة إلى الشعور بجدوى انسانية الإنسان؟ تسجيل موقف شرفي؟ أم خوفاً من تأنيب الضمير في حال ترك أحدنا أي كائن حي، سواء كان بشراً أو حيواناً أو حتى نباتاً يموت، رغم شعوره بالقدرة على انتشاله؟ ما فعلته الطبيبة وزوجها، وبعدها إيفان والخالة ماري، ثم مارك بعد ذلك، جعلني أثق في حينها بالمقولة الشائعة: لو خُليت قُلبت! نعم، لولا بعض الأخيار لآل أمر هذه الحياة إلى الزوال، على أيدي نماذج أخرى تدميرية، مهمتها التنكيل ببني البشر.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لا أعرف ما الذي حدث لأمي بعدها، لم يعد أحد يراها في المستشفى، يبدو أنها تركت العمل فعلاً. في كل زيارة تقوم بها داليا الى بيت الخالة ماري اسألها عنها، ودائماً ما تكون إجابتها هزة نافية من رأسها. بدأت أشعر بالاستياء لأن أحداً لا يسأل عنا، لا يتفقدنا، أو يحاول معرفة ما إذا كنا ما نزال على قيد الحياة، كما لو صار من قبيل الإجحاف، بالنسبة لي، ألا يبحث أحدهم عنا حتى لو كان بقصد التحري تمهيداً للنيل منا. فكرة مجنونة بالتأكيد، انهزامية ويائسة، لكنها من ناحية أخرى، وعلى الأقل، تدل على وجودنا. امرأة تفكر بهذا الشكل لا بد أنها فقدت أحد براغي عقلها المهمة، تلك التي تمسك العقل وتمنعه من الطيران، ألا يقال للمجنون: طار عقله؟ لكن، لماذا كل هذا التفكير السلبي؟ منذ متى يُسأل عنا؟ لقد عشنا ما مضى من حياتنا ونحن منسيين، والآن، إلا يكفي كل هذا الدفء والرعاية والاهتمام من أناس أغراب؟ كنت اسأل نفسي، ألا يكفي التفقد الدائم لنا من قبل داليا وزوجها بسمان، هذين الزوجين اللطيفين اللذين لم يخرقا القاعدة الاجتماعية السائدة بين الأطباء في العراق، إذ قلما تجد طبيبة متزوجة من رجل خارج السلك الطبي، فقد كان بسمان متخصصاً في تأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة، ويعمل في مركز لأطفال التوحد في المدينة، وبما أن مرضى من هذا النوع قليلي الكلام وكثيري الحركة، ويعاني أغلبهم من مشاكل في النطق، أخذ الرجل على عاتقه مساعدة عبير على استعادة صوتها بواسطة العلاج الطبيعي، بعد ترجيحه لإصابتها بنوع من الاضطرابات اللغوية تدعى أفازيا، أو بالحبسة الكلامية الناتجة عن صدمة الاغتصاب. لم يكن يفعل ذلك باستمرار، غير انه وفي كل زيارة إلى بيت عمته ماري، يقضي معها ساعتين أو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ثلاث. وفي النهاية لم يحصل أي تطور، باستثناء تعلمها الكثير من لغة الصم والبكم الإشارية التي سهّلت تواصلها مع الآخرين، وقد نشأت بين الاثنين ألفة وصداقة بريئة، كانت عبير تعبر عنها من خلال إشارة تفتعلها بيديها، تشكّل من أصابعها العشرة شكلاً يحاكي القلب وتجعله أعلى يسارها، بينما هي تبتسم.

خطر لي في تلك الفترة، حين كنت لا أزال أحاول استنطاق عبير لأصل إلى الفاعل، التوصل إلى ما كنت أجهله بصدد حمل الصغيرات. استعنت بداليا بما أنها طبيبة، وتعرف الكثير عن هذا الموضوع، الذي لم أهضمه بعد، أو أني لم أرد تصديق ما حدث، وبدا كأنه حدث مقتطع من فيلم، قد يكون مشوقاً على نحو مأساوي ويستميل العاطفة في أحلك الظروف، لكنه لا يُصدق. طالما كرهت الأفلام وأحببت الكتب، الروايات تحديداً. لو خيّل لي أن المشهد مقتطع من قصة، لما تكبدت عناء تكذيبه. جرّبت فيما بعد، في لندن، كيف تصبح أحداث الروايات في الأفلام مصطنعة، بينما لا يظهر هذا الاصطناع وأنا أقرأها في كتاب. تبدو القصة عالماً آخر لا يقل واقعية في تمثّله عن الواقع المعاش، الواقع المادي والمرئي والملموس، رغم أن الروائيون يكذبون كثيراً، ويطلبون منا تقبل الأحداث اللامنطقية، كحمل طفلة في التاسعة من العمر، من دون تعقيبات ذاهلة من قبيل: يا إلهي شيء لا يُصدق! وهذا أمر لا يُحتمل! وهذا غير ممكن! مستحيل! خارق للعادة، للطبيعة!

أمر كهذا لم يكن يحدث في الخيال فحسب، بل هو أمر واقع، ويحدث كثيراً في الخفاء، أكثر منه في العلن.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

قالت الطبيبة:

«البلوغ المبكر لدى الأطفال صغيري السن نادر، لكنه ليس مستحيلاً، ويُصبح الحمل والولادة احتمالاً وارداً، كما هو الحال بالنسبة لشقيقتك!»

في حالات نادرة، تماماً مثلما هو الحال بالنسبة لحمل الفتيات البالغات العذراوات نتيجة علاقة جنسية سطحية، وبصقة منوية نشطة على باب الفرْج، من دون إيلاج وفضّ للبكارة. كان من سوء حظي وحظ عبير أن نكون إحدى نوادر هذا الزمان، هي من جهة وأنا من جهة أخرى، لكن بالتزامن طبعاً وفي الآن نفسه، وهنا تحديداً تقع أكثر نسبة من سوء الحظ هذا. هناك نوادر تحصل وتكون مدعاة لمباهاة أصحابها، أما نحن فعبارة عن نادرتين فضائحيتين، الأولى حبلت في التاسعة من العمر والثانية حبلت من دون جماع.

إلى هذا الحد، توقفت معلومات داليا عن الموضوع، لكنها وعدتني بجلب المزيد في القابل من الأيام. كانت في زيارة، برفقة زوجها، إلى بيت الخالة ماري. لم تكن الأم وابنتها متواجدتين، الأولى خرجت للتسوق والثانية في العمل. كنا نجلس في صالة الدور الأرضي، وكان بسمان كعادته، منذ أسابيع مضت، منهمكاً بإعطاء عبير دروساً في لغة الإشارات. كانت تتعلم بسرعة، وكلما تلقت إشارة أو إيماءة جديدة وأتقنتها، يصفق الاثنان أيديهما ببعض احتفاء، وعادة ما تكون الهدية قطعة من الشوكولا، ترد عليها عبير في المقابل بواسطة الإشارة القلبية نفسها، تشكّل من أصابعها العشرة قلباً وتضعه على يسارها، عرفاناً بالجميل.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لم تكن خدمة الانترنت المنزلية متيسرة لأي كان في ذلك الوقت من عام 2006 المضطرب في البصرة، حيث يمكن للاشتباكات أن تندلع بين المسلحين والقوات البريطانية في أي لحظة. كان الأمر مقتصراً على مقاهي الانترنت والمؤسسات الحكومية، فجلبت لي داليا، بعد ثلاثة أيام، أوراقاً مطبوعة سحبتها من عدة مواقع موثوقة على الشبكة العنكبوتية، وكانت تحتوي على معلومات عن حالات مشابهة لما حدث لعبير. ذُهلت حين علمت بوجود فتيات أصغر منها عمراً، ما بين الخامسة والثامنة، من روسيا وبيرو وكولومبيا ونيجيريا والهند والمكسيك وأوكرانيا، جميعهن حبلن نتيجة عمليات اغتصاب، من قبل مجهولين، ما عدا طفلة يُحتمل أن الفاعل هو جدها لأبيها. لكن، أكثر ما أثار استغرابي هي تلك الطفلة من بيرو، وتُدعى لينا مدينا، التي أنجبت في سن الخامسة، أي عندما كانت تصغر عبير بأربع سنوات، قالت داليا أنها أكثر حالة إنجاب لطفلة موثّقة بشكل لا يحتمل الإنكار. منذ ذلك الحين وصورة لينا العارية ببطنها المنتفخة وسرتها البارزة ونهديها الناتئين لا تفارق ذاكرتي، أو الأحرى مخيلتي، لأن تلك الفتاة في الصورة، التي تقف مجردة من ثيابها أمام خلفية رمادية، وتشبك ذراعيها خلف ظهرها، لم تكن لينا نفسها، بل كانت عبير، رغم فارق السن، أو هكذا تخيلتها وهي في الشهر السابع من الحمل. إذا كانت لينا هذه لم تعطِ إجابة دقيقة بشأن هوية الفاعل، كما ورد في صفحة عنها في موقع ويكيبيديا، فإن عبير لم تكن تملك إجابة أصلاً، أو أنها تملك فعلاً، إلا أن ثمة ما يمنعها من قولها، ليست الأفازيا فحسب، إنما شيء آخر، كالخوف مثلاً. نعم، كانت عبير خائفة، وهذا بالضبط ما توصلنا إليه جميعاً، عندما

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حاولنا التعرف على هوية الفاعل، لكن، كالعادة، من دون جدوى. إن اللجوء إلى القانون، في مثل هذه الظروف، يعد مجازفة خطيرة، فمهما حصل، سيبقى الفاعل مجهولاً، فالفتيات في مثل هذا السن، إما يكونن خائفات مثل عبير، أو لا يملكن إجابة دقيقة وواضحة مثل لينا مدينا.

كانت مشاعري مختلطة في حينها، خوف، إحساس أشبه ما يكون بالسعادة الصغيرة، حزن، وقلق. كنت خائفة بحكم وضعنا كفتاتين تجهلان، حتى ذلك الوقت، مستقبلهما، وسعيدة لاستعادة عبير نفسها، لكن ليس على نحو ما كانت عليه قبل فقدانها عذريتها. وحزينة لأجل أمي، فأنا لا أعرف عنها شيئاً أو ماذا حل بها. وقلقة لأجل إيفان وأمها، إذ لم أكن متيقنة، رغم الانطباع السائد عن الأمان، أننا لن نورطهما في قضيتنا، لكنهما، وكما لو اعتادتا على إيواء المطاردين وأصحاب الظلامات، كانتا لا تباليان بوساوسي. كنت أشعر بالخجل والامتنان في الآن نفسه، ولكي أخفف من حدة الشعور الأول وأقابل الإحسان بمثله، ولكي نتلافى أنا وشقيقتي التحول إلى عالة على الآخرين، مجرد فتاتين كسولتين، عديمتي الجدوى، تعتاشان على جهد الغير، شرعت بمساعدة الخالة ماري في أعمال البيت، تنظيف، غسل، طهي، جلي، خصوصاً وأن المرأة كبيرة في السن، وابنتها تكون في عملها. لم أكن أعلم أين وماذا تعمل إيفان، تكاد تكون متكتمة من هذه الناحية، ولا تريد لأحد معرفة نوع عملها، كانت تغيب لأسبوع كامل، وتظهر في الاسبوع التالي، وهكذا.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وفي يوم ما، بعد انقضاء الشهر الثاني على وجودنا في بيت الخالة ماري قررت أن أعمل. لم تستحسن الأم وابنتها الفكرة، لكني كنت مصرة، وما كان بوسعهما مقاومة رغبتي التي أخذت تتنامى يوم بعد يوم. عبرت لهما عن تقديري لما فعلتاه من أجلنا أنا وشقيقتي، واستعدادي لتقديم أي ثمن يضمن سلامتهما، حتى لو كان حياتي. لم أبالغ بهذا الشأن، ليس بمقدوري نكران الجميل، كنت مستعدة حقاً لفعل ما بوسعي حتى لا تتعرض المرأتان وداليا وزوجها للخطر. سأعمل وأكسب المال واستأجر مكاناً آخر، لأبعدهما عما يجلبه وجودنا معهما من أذى، حتى تحين فرصة الهرب إلى الخارج، هذه خطتي. لقد هجر أكثر المسيحيين هذا البلد بسبب الظروف الأمنية، ولا أريد أن نكون الظرف الإضافي الذي سيبعد هاتين المرأتين أيضاً، قلت ذلك لهما، فردت عليَّ إيفان قائلة:

«حسناً، لكن ماذا يمكن أن تعمل امرأة مثلك، وفي مثل هذا الظرف تحديداً؟»

«أي شيء يدر المال» قلت لها، ولاحظت هي في عينيّ ومن خلال طريقة كلامي مدى اصراري على موقفي: «منظفة، خادمة، فرّاشة، بائعة، أي شيء باستثناء التسول والبغاء طبعاً!»

«لن تتسولي، كما أنك لن تضطري للبغاء» قالت إيفان: «لكن، عليك التفكير بسلامتكما، بسلامة الصغيرة المسكينة بالذات، لقد نالت ما يكفي من الألم وهي طفلة صغيرة، تعرفين جيداً أنها لن تحتمل صدمة جديدة، وأي تهور منك ستكون له عواقب وخيمة، هل تدركين ذلك؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«بالطبع أدرك» أجبتها: «لا بد من مواجهة الأمر، لن نظل هكذا إلى الأبد، لا أحد يموت قبل أوانه، وأعتقد أننا سنُنسى مع الوقت، ولن يتذكرنا أحد. ألا ترين أنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء البحث عنا إلى الآن؟ المدينة ليست صغيرة وسنضيع في زحمتها وبين غبارها وضبابها وفوضاها. سأعمل متنكرة، لا تخافي، سنتدبر أمرنا، إلى أن نتمكن من مغادرة البلد، لا يعني هذا التضحية بحياة عبير، لا أبداً، أعدك أنها ستكون بخير»

«دعيني أساعدك على الأقل، في إيجاد عمل» قالت إيفان.

«هذا ما كنت سأطلبه منك» قلت لها.

«ليكن ذلك، لكن بشرط» قالت.

«أنا موافقة حتى قبل أن أعرف شرطكِ!» قلت لها، وأنا في غاية الامتنان.

«لا تكوني ممتنة إلى هذا الحد، قد ترفضين العمل في النهاية!» قالت إيفان.

«لن أرفضه وأنا في أمس الحاجة إليه» قلت.

«قد تتعرضين إلى الخطورة!» قالت وهي تلقي عليّ نظرة، بدت أثناءها كمن يخلي مسؤوليته، عما يمكن أن يلحق بي من أذى، في حال مضيت في قبول العرض.

«لا يهم.. وإذا كنت تقصدين بالخطورة الموت، فأنا ميتة منذ فترة!» قلت لها: «والآن، قولي لي ما هو شرطك؟»

«حسناً» قالت إيفان: «شرطي هو أنك لن تخرجي عبير من هنا،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حالياً وربما على مدى سنة أو أكثر، أما السكن، فالمكان الذي تسكنانه كان معداً بالأصل كشقة للإيجار، لن يشك أحد في الأمر، ولن تكونا في النهاية سوى مستأجرتين، وأرجو ألا تقلقي بشأن الدفع، فلسنا بحاجة للمال، أكسب جيداً من عملي، هل فهمتني عزيزتي؟»

لم أعرف بماذا أُجيبها، أفحمتني بحلولها التي كانت بمنتهى الكرم، كنت على وشك البكاء قائلة: لماذا تفعلين كل هذا من أجلنا؟ لكني اكتفيت بالنشيج ومعانقتها.

في ذلك اليوم، عرفت ماذا تعمل إيفان، ولم تكن لتكشف لي عن عملها، لولا أنها أرادت توظيفي. لم أفهم، في البداية، قولها عن الخطورة التي قد أتعرض لها، إلا بعد أن سألتها أين وما هو هذا العمل.

«في القاعدة البريطانية!»

قالت، وراحت تراقبني، لترى إن كان وجهي تجهّم، أو بانت عليه علامات التراجع، وهي ردة الفعل المتوقعة، في حال كان ثمة أحد غيري تلقى عرضاً بالعمل مع الاحتلال. لكنّ شيئاً لم يبدر مني باستثناء ترديد ما قالته، على شكل سؤال مضاد:

«في القاعدة البريطانية؟!»

«نعم في القاعدة البريطانية العسكرية!» أكدت إيفان.

«وماذا يمكن أن أعمل هناك؟» سألتها.

«أي شيء يمكنك عمله، ولا يكون بالضرورة قيادة دبابة، أو طائرة، أو إطلاق النار على أحدهم»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أجابت إيفان، ثم أطلقت ضحكة جميلة، غير متكلفة. تصنعتْ ابتسامة، وتركتها تسترسل في حديثها لي قائلة بحماس، كأنها هي من ستحظى بالوظيفة ولست أنا:

«إنهم يدفعون جيداً، سأحدثهم عنك وعن عبير، أنا متأكدة أنهم سيتعاطفون مع محنتكما، وربما حمايتكما إذا اقتضى الأمر، بل إخراجكما من هذه الجعجعة أيضاً، هذا إن كنتِ قد قررتِ حقاً مغادرة البلد كما قلت قبل قليل، تكمن الصعوبة في التنقل فقط، أما في داخل القاعدة فنسبة الأمان مئة بالمئة»

«وأنتِ، لماذا لم تغادري حتى الآن؟» سألتها.

«ربما أفعل ذلك لاحقاً، لا أعرف متى بالضبط» أجابت وهي تشعل سيجارة أخرجتها من علبة مارلبورو، وكانت هذه المرة الأولى التي تدخن فيها أمامي. قالت أنها لا تدخن في البيت كثيراً، لأن والدتها تعاني من تحسس في القصبات الهوائية: «أمي ترفض الخروج، إنها عاطفية وميالة للشكليات إلى أبعد حد، تقول أن وجود المسيحيين الكلدان في الجنوب يمتد إلى آلاف السنين، وأن أسلافنا أسسوا في البصرة أقدم أبرشية. لكني، رغم ذلك، أستطيع إقناعها بالأمر في النهاية»

«ولماذا لا تفعلين؟» سألتها.

«لن أفعل.. حالياً على الأقل» قالت إيفان، وتذكرت فجأة أن عليها ألا تدخن في الصالة، فخرجنا إلى شرفة تطل على حديقة مهملة، لا تخلو من بعض الورود، تعتني بها الخالة ماري: «لا يرتبط موضوع الهجرة بها، بقدر ما يتعلق بأولادي!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«هل أنتِ متزوجة؟» سألتها، وقد لاحظت توقي إلى معرفة المزيد عن حياتها.

«كنت!» قالت وهي تعبّ الدخان في صدرها، وتحبسه لعدة ثوانٍ كي يفعل فعله، فتبدو وكأنها تريد التشفّي برئتيها، قبل أن تزفره برفقة حسرة طويلة تحكي تاريخاً من الأسى: «لديّ ولدان وبنت، يعيشون مع والدهم، طليقي، في الموصل، أرسلتهم إلى هناك بعد الحرب، لإكمال الدراسة، معظم ما أحصل عليه من عملي أرسله إليهم، فالأب إمكانياته محدودة»

تركتني إيفان عصر ذلك اليوم من بداية شهر آذار 2006 أفكر بعرضها، وخرجت هي مع والدتها لزيارة إحدى قريباتها. كنت أجلس على إحدى الكنبات الثلاث، في صالة الدور العلوي، حيث نسكن، وكانت عبير، التي لا يظهر أنها سمعت حديثنا، تكلمني بالإشارات، لكني لم أنتبه إليها، كعادتي عند استغراقي بالتفكير، إلا بعد أن وقفت بإزائي. كنت أضع ساقاً على الأخرى، وأسند حنكي بقبضة يدي، وعيناي لا تحيدان عن النظر إلى صورة السيدة العذراء على الحائط، أعلى الساعة الالكترونية. تذكرت يوم كانت تحدق بها عبير، قبل أكثر من شهرين اثناء صدمة ما بعد الاجهاض، بعينيها الملونتين الضائعتين. اختلطت أحداث ذلك اليوم بما كنت أتخيله يحدث في حال قبلت بالعرض، لتعم الفوضى في رأسي وأفقد التركيز، بشكل لم أعد أميز فيه شيئاً سوى وجه عبير الغاضب، الذي حل محل صورة العذراء، فقد وقفت أمامي متخصرة، وراحت توقظني من غفلتي، وتؤشر بيديها وتحرك شفتيها، حتى فهمت أنها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

تسأل عما إذا كان معلمها بسمان سيأتي هذا المساء ليعطيها بعض دروس البكم. حسناً، قلت في نفسي، ماذا تظن هذه الفتاة؟ أن تستمر في تلقي الدروس الصامتة إلى الأبد؟ أفهمتها بالإشارات، أن الرجل لديه عائلته ومشاغله، وأنها تعلمت ما يكفي، وليس هناك من داعٍ لإزعاجه أكثر. تبرّمت، وانطوت على نفسها، لم تأكل شيئاً في تلك الليلة، كأني حبست عنها لعبتها، أو منعتها من مشاهدة التلفاز. ولم تزل على هذا الحال، منكفئة، كئيبة، حتى جاء بسمان في اليوم التالي ليكمل ما بدأه من الدروس الصامتة، فأشرق وجهها ثانية، وبان حجم توقها إلى تعلم المزيد من لغة الاشارات، التي ساعدتها كثيراً ومكنتها خلال الأعوام اللاحقة من التواصل وإيصال أفكارها، ورغباتها، وما تريده وما لا تريده. وبقدر ما أسعدني الأمر، بقدر ما أحزنني، إذ لا يمكن لتلك الإشارات والإيماءات البلهاء التعويض عن صوت عبير المسكينة.

غابت إيفان لأسبوع آخر، وحين عادت أخبرتها بقراري: سأعمل في القاعدة البريطانية!

«هل أنتِ متأكدة؟» سألتني، وكانت تبري أظفارها تمهيداً لطليها.

«نعم» أكدت لها: «ماذا عسى أن يحدث أكثر مما حدث؟ سأعمل مؤقتاً، ربما لعام كامل فقط، أدخر خلاله ما يكفينا للخروج أنا وشقيقتي من العراق»

لم يكن الحصول على عمل آخر صعباً، لكنه سيكون أكثر خطراً وأقل أجراً، وتكون نسبة التعرف إليَّ من قبل «أولئك» كبيرة، وربما سيُعثر عليّ بسهولة في النهاية، ويحدث ما يحدث. لا بد أن تتقابل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الوجوه! حكمة أبي، التي لم أؤمن بها من قبل، فطالما غابت وجوه، شرّقت وغرّبت، عاش أصحابها غرباء وماتوا ودُفنوا وتحللت أجسادهم، أكلها الدود، ولم يسمع أو يرهم أحد بعدها أبداً. بالطبع هذا لا يعني بقائي بمأمن عن الخطر أثناء عملي مع الغزاة القدامى، لكن، مع ذلك، يبدو الأمر مختلفاً نوعاً ما، إذ يجب عليّ الحذر.

«يحتاج الأمر إلى خطة محكمة» تقول إيفان محذرة: «إلى تظليل، مراوغة، تمويه، وانتباه!»

وإلا سينتهي بي الأمر، بطبيعة الظرف، إلى أقرب مكب للنفايات، أو قرب دائرة الطب العدلي، كما اعتاد «أولئك» على رمي جثث النساء المشبوهات، وكأنهم يسهلون على موظفي هذه المؤسسة المرعبة عملهم. ربما كانت غايتي العمل فحسب، وإعالة عبير في بداية الأمر، في حين تبقى أمنية الخروج من العراق صعبة نوعاً ما، بالنسبة لفرسين مكسورتي الساق، ومن دون وثائق، لكن ما أن عرضت عليَّ إيفان العمل مع البريطانيين، حتى بدأ تفكيري يأخذ منحى آخر.

وهكذا، التحقت بالعمل.

كان اليوم الأول صعباً، ليس بسبب الخوف، فقد صرت أشعر بقلبي ينبض لا لأجل شيء، سوى الاستمرار بضخ الدم، وحملي على التنفّس والعيش من أجل عبير، بعد أن أصبحت شقيقتي وابنتي في الآن نفسه. لا أعرف هل هي شجاعة مني ألا أخاف، أم تهور، غباء، تمرد، أو مغامرة؟ لكني أعرف أيضاً أني غدوت أكثر جرأة وخشونة، وأكثر تحدياً في مواجهة العالم الخارجي، الذي أتحدث

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عنه كما لو أني أذكر حياة الغابة. لم أكن خائفة جداً، إنما كنت أشعر بالقلق، فهذه أول مرة أترك فيها عبير منذ فترة ليست بالقصيرة. بالتأكيد هي لن تكون وحدها، فهناك الخالة ماري، وهي امرأة طيبة، عطوفة، مشفقة، عاملتنا كأم واعتادت على وجودنا، قبل انهيار كل شيء. كما أن شقيقتي لم تعد فتاة صغيرة، إلى حدٍّ لن يكون بمقدور أحد الاعتناء بها، لقد بلغت العاشرة، وتغيرت تماماً.

«عبير فتاة جميلة وعاقلة» هكذا قالت الخالة ماري آخر مرة وهي ترفع رأس عبير من حنكها وتبتسم: «سأعلمها الطبخ والحياكة، وستساعدني في أعمال البيت، أليس كذلك يا حلوة؟»

تهز عبير رأسها موافقة، وتنكسه خجلاً، تفرك راحتي يديها بين ركبتيها، وترسل إشارة القلب، التي تفتعلها بيديها، إلى بسمان الجالس قبالتها، وقد انتهى للتو من تلقينها درساً إشاراتياً جديداً. بدت، حينذاك، أكبر من عمرها بخمس أو ست سنوات، أصبحت أكثر نضجاً وإدراكاً وربما شعوراً بالمسؤولية، أو هكذا تراءت لي، وما أكدت عليه الخالة ماري، التي كانت تراقبها عن قرب، عندما أكون في العمل. قد تواجه بعض الصعوبات في فهم ما تريده قوله، لكنها تجتازها بمزيد من الحنكة والصبر، حتى اعتادت اخيراً. تقول أنها فتاة مطيعة، وتتعلم بسرعة وتسلّيها في وحدتها، لكنها، أحياناً، وكما لو أن ثمة ذكرى تقف وراء ذلك، أمي أو أبي أو ما حدث لها مؤخراً، يشرد ذهنها، وتنطوي على نفسها، وتميل إلى العزلة، ثم سرعان ما تعود إلى طبيعتها، كأنها لم تكن يوماً الفتاة التي انتُهكت وشوّهت طفولتها في وقت مبكر.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وعلى الرغم من أننا نعمل في المكان نفسه، لكن إيفان، ولدواع أمنية كما أسمتها، لم تحبذ أن أرافقها في الذهاب إلى القاعدة البريطانية، والعودة منها. لكننا كنا نصل إلى هناك، كلاً على حدة، بالطريقة التنكرية نفسها، حيث أخرج في ساعة مبكرة جداً من الصباح، مجللة بالسواد وأرتدي قناعاً وقفازات، استقل سيارة أجرة إلى مكان أحدده مسبقاً، ويتغير في كل مرة، ثم أستقل منه سيارة أخرى إلى مكان قريب من مقر القاعدة، الواقعة في القصور الرئاسية السابقة، على ضفة شط العرب. كنت أعمل بنظام المناوبة الأسبوعي، وأحياناً كل عشرة أيام، وقد يكون أكثر أو أقل، حسب الظرف والحالة الأمنية. لم أعي حجم الخطر الذي كان يحدق بإيفان إلا بعد أن خضت التجربة بنفسي. خيّل لي، مرات عديدة، أن هناك من يتعقب أثري، كنت متوجسة طيلة الوقت، وأتلفت ورائي، أراقب نظرات المارة لأعرف إن كانوا يحدقون بالمرأة الخائنة المتنكرة، أو ينظرون بشكل عابر، تلك النظرات الفضولية حيناً، والمتشهية حيناً آخر، رغم أن شيئاً مني لم يكن يظهر، باستثناء عينيّ الباهتتين، الخاليتين من أي زينة، بما في ذلك الكحل، الذي يزعم الرجال أنه أكثر ما يغويهم في وجه المرأة. كنت أصل بعد إيفان دائماً، أجدها تنتظرني عند البوابة من الداخل، وقد التهمها القلق بسبب تأخري، لكنها بدأت تطمئن مع الوقت، فقد خبرتُ اللعبة جيداً وصرت أعرف كيف أناور ولا أجذب الانتباه، أثناء الذهاب والإياب.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(4)

كانت الحياة في القاعدة لا تخلو من الخطورة، خصوصاً القصف بقذائف الهاون، التي يطلقها المسلحون ليلاً، من المناطق المجاورة والقرى المجانبة لشط العرب، على الجانب الآخر. وباستثناء ذلك، ليس ثمة شيء بمقدوره تعكير صفو ما كان يحيطنا من أمان، ونحن وسط جنود مدججين بالسلاح، على العكس مما يكون عليه الحال في الخارج. لم انزعج حينما علمت أن عملي سيكون في المغسلة، وليس في المطبخ كطاهية، كما أوهمتني إيفان بذلك أكثر من مرة. إيفان التي اتضح انها، هي الأخرى، تعمل في قسم التنظيف والغسيل، وتشرف على النساء العاملات في القاعدة. اعتذرت مني وراحت تبرر قائلة، أنها لم ترد لي تضييع فرصة الكسب السريع، رغم خطورته، والحقيقة هي اني لم أكن أطمح بأكثر من هذا العمل، لقاء ما يدفعه البريطانيون من أجرة مضاعفة، آخذين بنظر الاعتبار الخطورة التي نتعرض لها، جراء عملنا معهم. خطورة كانت تفوق تلك التي قد أتعرض إليها، في حال عملت في مكان آخر. وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لا أعمل في القاعدة، وأكسب أجراً مضاعفاً؟ هكذا أقنعت نفسي، ومضيت بالأمر.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كنا نغسل ما يُرسل إلينا في سلال كبيرة، وننشفه ثم نكويه: شراشف، وجوه وسائد، طاقيات، ملاءات، ثياب. لم يكن هناك احتكاك مباشر بالجنود في القاعدة، كنا نراهم عن بعد، نسمع اغانيهم في الليل، وعربداتهم، وشتائمهم أثناء كل موجة من القصف بقذائف الهاون، ودائماً ما كنت أعثر على اشيائهم المنسية في جيوب الثياب التي افتشها، قبل ادخالها الى الغسّالة، على طريقة الأمهات العراقيات: أقراص تعريف، بطاقات، نقود معدنية، دفاتر ملاحظات صغيرة، صور عائلية، أقلام، مفاتيح، ميداليات، علامات، مناديل، ولّاعات، علب كبريت، سجائر، ورق لعب، قراضات أظفار. عثرت على أشياء نادراً ما تُنسى في الجيوب، مثل الساعات، والسكاكين الصغيرة. في إحدى المرات وجدت محفظة، وبداعي الفضول أردت معرفة اسم صاحبها المكتوب على بطاقة عاجية بداخلها. كان اسماً رائجاً في الأفلام الأجنبية، ظل يتردد في ذاكرتي طيلة الوقت، كأنه يفعل ذلك عنوة لكي لا أنساه قبل رؤية صاحبه يوماً. هناك أشياء أخرى غريبة، أو هي ليست غريبة، إنما وجودها في جيوب بعض الجنود غريباً، مثل الواقي الذكري، لم أتعرف عليه في البداية، ظننت أنه بالون، لكن إيفان أخبرتني أنه فلاش لذر. ضحكت بملء فمها قائلة: أيعقل أنك لا تعرفين هذا الشيء؟! حسناً، ومن أين لي معرفته؟ فالرجال في حينا لا يعبأون بمثل هذه الأشياء، بل يستمرون في إحبال النساء حتى بلوغهنّ سن اليأس. وإلى ذلك الوقت سيكون هناك دزينة من الأولاد الحفاة، العراة، القذرين، وغير المتعلمين. لا حبوب لمنع الحمل، لا لوالب، ولا واقيات ذكرية. لكن، ماذا يفعل جندي في الجيش بفلاش لذر؟ لم أكن في الواقع غبية، إلى درجة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أظن معها أن هذه البالونات الشفافة تُستعمل لمنع الحمل فحسب، وليس لمنع عدوى الأمراض الشرجية أيضاً، بين الرجال على الأرجح. ولأول في حياتي أرى صوراً خليعة، أغلبها لرجال عراة معضّلين، وبأعضاء ذكرية منتصبة، لم أشك في أن لبعض الجنود يداً بوضعها في جيوبهم لإحراجنا.

بعد مرور حوالي شهرين، أصبحت قادرة على دفع أجرة السكن، والخروج للتسوق. لم ينل الأمر رضا الخالة ماري وابنتها إيفان، لكني أصررت على الدفع ما دام باستطاعتي فعل ذلك. أما معارضتهما خروجي للتسوق، فكان بدافع خشيتهما من وقوع المحذور، وخوفهما عليّ سواء من «أولئك» الذين يتعقبون روائحنا، ليقتلوا الفرس المكسورة ساقها، أو من «أولئك» الذين يتعقبون رائحة الخيانة والعمالة للمحتل، خصوصاً بعد ارتفاع وتيرة مطاردة المترجمين والمقاولين والعاملين لحساب القوات البريطانية. هناك نساء تركن العمل في القاعدة، بعد مقتل منظفتين يعملن في قاعدة المطار، وإلقاء جثتيهما في مقبرة الانكليز. لا أزعم عدم خوفي حين سمعت بالخبر، لكني كما قلت من قبل، كانت خشيتي على عبير، أما أنا، فصرت أسير على حد السكين، كما يقال، بقلب ميت. كان عليّ الحصول على المزيد من المال، بما يكفي لخروجنا من العراق، لم أكن أثق بالإنكليز كثيراً، فقد أجريت حتى شهر آب من تلك السنة، ومن دون نتيجة، عدداً من المقابلات مع لجان عسكرية بريطانية خاصة تنظر في طلبات اللجوء، التي يقدمها العاملين المعرّضين للخطر. لقد أخرجوا

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بعض المترجمين المهددين بالقتل، كما لو أن عليّ التعرض إلى تهديد حقيقي، من قبل «أولئك» بسبب عملي في القاعدة، لأنال الحظوة. أما التهديد القبلي من قبل «أولئك» الآخرين فلا أظن أنه يعنيهم، فإما تعرضك للخطر بسببنا، أو فكل تبريراتك مرفوضة. لم يكن من السهل الحصول على جوازات من دون وثائق شخصية، لقد تركت كل شيء ورائي، وصار من الصعب استخراج وثائق جديدة بسبب وضعنا الحرج، وعدا ذلك، فإن اللجوء إلى القانون لحمايتنا سيكلفنا الكثير. كان ما يزال قانوناً هشّاً، تسيّره زمر فاسدة ومتواطئة، وينتشر السلاح خارج نطاق سيطرته، والكلمة الفصل في النهاية بأيدي المسلحين والعشائر وميليشيا الأحزاب المتنفذة.

كنت أسمع، في حينها، أخباراً عن تحقيقات، كان الجيش الأميركي يجريها حول جريمة اغتصاب وقتل طفلة عراقية، في الرابعة عشرة، بالإضافة إلى ذويها، والديها وشقيقتها الصغرى، في جنوب بغداد. ما لفت انتباهي، عدا وحشية الفعل، هو اسم الطفلة، التي لم يعد يتذكر أحد قضيتها كثيراً هذه الأيام، كانت تحمل اسم شقيقتي نفسه. لقد اغتُصبت من قبل «أولئك» أيضاً، وهم أربعة جنود أمريكيين سكارى، ثم قُتلت وأحرقت جثتها. بعد ستة أعوام، أي في عام 2012، ستكون هناك عبير ثالثة، بعمر الخامسة، تُغتصب على يد أحد عناصر الاستخبارات العسكرية العراقية في البصرة، ويُهشّم رأسها بحجر، وهي واحدة من سلسلة جرائم اقترفت ضد الأطفال من الذكور والإناث، خلال السنوات اللاحقة، من قبل «أولئك» متعددين، قساة، وساديين إلى أبعد حد. بنين، سماح، حمزة، كوثر،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وغيرهم الكثير من الضحايا الصغار، ممن لا يحملون فكرة وإجابة واضحتين عن «أولئك» الجناة، تماماً مثلما عجزت لينا مدينا، قبل عشرات الأعوام.

ثمة أمر كان يشغل تفكيري منذ فترة تربو على الشهر، أو الأحرى إنها كانت ثلاثة أمور حدثت بالتتابع. الأمر الأول هو كفّ داليا وزوجها عن زيارة منزل الخالة ماري. الأمر الثاني، تغيّر سلوك صاحبة البيت العجوز الطيبة تجاهنا، أنا وعبير، بالتزامن مع انقطاع قريبيها عن المجيء إلى منزلها، وهو ما جعلني أفكر جدياً في المغادرة. أما الأمر الثالث، فكان عودة الكآبة إلى عبير، بشكل كان أقرب إلى الانتكاسة، والرجوع إلى ما كانت عليه، قبل أن يتبين لي أن حالة الاكتئاب هذه ستظل ترافقها على مدى الأعوام القادمة، وهي مرتبطة بمواقف معينة كنت أجهلها، ولم تتكشف لي إلا في وقت متأخر، حين أصبح إصلاح ما كُسر من سابع المستحيلات، وصار كل شيء خارج السيطرة. حاولت معرفة ما إذا كانت شقيقتي هي السبب وراء جفاف الخالة ماري، فربما عادت البنت إلى شيطنتها السابقة، وبدأت بمضايقتها، إلا أنها لم تنفي كما لم تؤكد ذلك، قالت أن عبير لا تبدو فتاة طبيعية، ربما بسبب ما حدث لها، وهي بحاجة إلى رعاية خاصة، وإنها، أي الخالة ماري، امرأة مسنة، ولا تقوى على مثل هذه المهمة. ثم ألمحت بعدها إلى أن أحفادها سيصلون من الموصل قريباً، لقضاء ما تبقى من العطلة الصيفية معهم، وهم بالعادة يشغلون الشقة العلوية. كان كلامها مفهوماً، بالنسبة لي، إلى درجة كافية، جعلتني لا أتردد في اعتباره إنذاراً بالإخلاء. كنت أعرف

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

جيداً صعوبة ترك عبير لوحدها، والذهاب إلى العمل. قد تكون قادرة على الاهتمام بنفسها، بعد بلوغها العاشرة في كانون الثاني الماضي، لكن ليس لأكثر من نهار يوم واحد، فكيف بها وأنا أغيب عنها طيلة أسبوع كامل، مما اضطرني في النهاية إلى ترك العمل في القاعدة، بعد جمعي مبلغاً لا بأس به. ومن جهة أخرى، كنت قد يئست من جدوى أن يكون للبريطانيين نية في إخراجنا من العراق.

لم يكن بالضرورة حدوث شيء غيّر موقف الخالة ماري هكذا، فجأة، ومن دون سابق إنذار. ربما سئمت المرأة منّا، وفي النتيجة النهائية، كل شيء نسبي في هذه الحياة، حتى في أعمال الخير، وجهود الإنقاذ، والقدرة على الاحتواء، والمشاعر الإنسانية. بالتأكيد لا يمكنني إخبار إيفان بشأن والدتها، يكفي وقوف الاثنتين إلى جانبنا في محنتنا، لفترة ليست بالقصيرة. لذا، لن أجرؤ على التحدث معها بالأمر. ماذا عساني أن أقول لها؟ لسبب مجهول، أو حتى من دون سبب، السيدة والدتك لم تعد تريدنا في البيت؟ كيف سأصوغ كلماتي وأنا أكلمها؟ لا بد أنها ستكون بهيئة شكوى، مهما حاولت وبذلت جهدي لأجعلها خلاف هذا الفهم. لا أعرف حقاً، إن كان لي الحق في التشكي على هذا النحو، رغم أني مستأجرة، ومن حق المستأجر الاعتراض على قرار الإخلاء، ما لم يوضح الطرف الآخر أسباباً واضحة ومنطقية. وبهذا الشكل، سأكون ناكرة لجميل المرأتين، اللتين طالما كانتا ودودتين معنا.

قررت المغادرة بصمت، من دون إثارة القلاقل، أو الجدل بين الأم وابنتها. أعرف أن إيفان لن تسمح بخروجنا، ستطلب تبريراً لن أكون

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

قادرة على اختلاقه، حينئذ، يجب عليَّ قول الحقيقة، والكشف عن رغبة والدتها بمغادرتنا. كنت سأكتب لها رسالة، أشكرها فيها على كل شيء، ثم نغادر خلسة ومن دون جلبة. لكن، لن يحدث هذا. إن قيامي بزيارتين، الأولى إلى المستشفى لمقابلة الطبيبة داليا، لا يمكن إنكار فضل هذه المرأة الشجاعة، سأعانقها وأشكرها هي الأخرى، فلولاها ما كنت أعرف ماذا أفعل وأين أذهب. نعم، كنت عقدت العزم على الهروب بعبير، لكن كيف وإلى أين؟ فهذا هو بالضبط، ما تكفلت داليا بحمله على عاتقها، من دون مقابل، عرّضت المرأة نفسها للخطر، لا لأجل شيء سوى إنقاذنا، حتى كلمات الشكر رفضتها، وهو جميل مهما فعلت لأرده إليها فلن أقدر.

وإذا كانت زيارة المستشفى أمراً خطيراً، فإن زيارة حي الحرية بالغ الخطورة، إلى درجة كبيرة. لا أتذكر يوماً مضى، خلال الأشهر المنصرمة، لم أفكر فيه بمصير أمي، إلى أين انتهت؟ كيف تعيش، ومع من؟ وما هي ظروفها؟ وهل هي حية أصلاً أم أنها فارقت الحياة؟ كنت أرجح الاحتمال الأخير، لأبدأ بعدها بالبكاء. لم أتقبّل فكرة أنها على قيد الحياة، ولا تبحث عنا، أو حتى تبلغ الشرطة باختفائنا. ليس ثمة ما يجعلها تلتزم الصمت، وتنزوي جانباً، وكأننا لسنا سوى قطتين اتخمتهما بما يكفي من اللبن، قبل تركهما تبحثان عن قوتهما في المزابل. لو كذب حدسي وكانت ما تزال حية، سأعتبر ما فعلته خيانة، تخلّي، أنانية، وقسوة، أحياناً أشعر بالغضب منها، وما أن أتذكر الاحتمال القائل إنها ميتة، حتى أشفق عليها، وعلى ضعفها تجاه المآسي التي حدثت لنا. أمي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

امرأة مقهورة، كادحة، كابدت الكثير من المصاعب، واحتملت من الهموم ما يمكن أن ينتهي بامرأة سواها إلى الموت بجلطة دماغية، أو سكنة قلبية، أو في أقل التقديرات، إلى الجنون. كانت إحدى النساء اللائي، كما لو أنهن يرثن الشقاء ويورّثنه، فدائماً ما أشعر أني أكمل ما بدأته منذ صغرها، مذ كانت تعمل في مزارع الطماطم في سفوان، مروراً بتزويجها بعمر الثالثة عشرة من رجل يكبرها بواحد وعشرين عاماً، ثم عملها في خدمة البيوت، وجمع العبوات الفارغة، قبل الانتهاء في المستشفى كمنظفة.

لأعد إلى ذلك اليوم من شهر آب، يوم ذهابي إلى المستشفى.

قبل البحث عن الطبيبة داليا، خطر لي التحري عن أمي بنفسي، لعل أحداً ممن كانت تعمل معهم لديه معلومة جديدة عنها. اتجهت إلى ردهة الجملة العصبية، حيث كانت تعمل. كانت هناك آليات تهدم بناية قسم الحروق، التي أُغلقت منذ فترة طويلة، بسبب تفشي جرثومة قاتلة. سألت عنها مضمداً، وعاملة تنظيف مسنة، ومعاون طبي، وبوّاب، جميعهم أخبروني إنها تركت العمل فجأة، ولا أحد منهم يعرف ماذا حل بها. تماماً مثلما توقعت، وكما أخبرتني داليا سابقاً. حتى إنها لم تترك عنواناً واضحاً لسكنها، واستغربت تكتم أمي الغريب هذا عن مكان سكنها. استغرق الأمر بضع دقائق، قصدت بعدها قسم الطوارئ، لأسأل عن الدكتورة داليا، أخبروني إنها انتقلت إلى القسم الجراحي منذ فترة، فذهبت إلى هناك، وحين سألت عنها قيل لي إنها منشغلة بمعاينة المرضى الصباحية. انتظرتها في الممر حتى فرغت من عملها بعد نصف ساعة، وخرجت قاصدة بهو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الأطباء برفقة طبيبتين، مشيت في إثرها، ناديتها باسمها حين أوشكت على الدخول إلى البهو. وكما لو أن الثلاثة مربوطات على التوالي، أو يحملن الاسم نفسه، ومع جهري باسم الشخص المستهدف بعلو صوتي، إلا أنهن التفتن جميعاً. وإلى أن وصلت حيث توقفن، كانت الاثنتان قد انسحبتا إلى الداخل، في حين وقفت داليا في مكانها، وهي تلقي عليَّ نظرة ساهمة، مرتابة. لقد جرت العادة، منذ عدة أشهر، أن أرتدي نقاباً وأتوشح بالسواد، لهذا، لم تتعرف عليَّ الطبيبة. كانت تضع على رأسها شالاً كيفما اتفق، لتتفادى النظرات الناقمة لبعض المتشددين.

«أنا سليمة، ألم تعرفيني؟» قلت لها سائلة: «كيف حالك يا دكتورة؟ منذ فترة لم نرك؟»

لم ترد على الفور، وهذا لا يعني أنها لم تعرفني أو تحاول التصنّع، وإلا لواجهتني بالسؤال الارتدادي نفسه، المتشكك، الذي يردده المتهربون، بينما هم يضيّقون أعينهم، في محاولة لتذكر الاسم: «سليمة؟!» لم تفعل داليا شيئاً من هذا القبيل، إنما تمهلت قليلاً، قبل الترحيب بي وبنبرة باردة، بدا من الواضح أنها تحمل شيئاً من الحزن، أو خيبة الأمل. ولما أحسستها على غير طبيعتها، آثرت أن أوفر عليها مشقة لقاء من لا ترغب بلقائه، وأكلمها على وجه السرعة وأغادر، لكي لا أتسبب لها المزيد مما تشعر به، ولا أعرف ما هو، فربما كانت تشعر بالخوف، بالخطر، خصوصاً وأني قرأت في عينيها، اللتين اتسعتا بدهشة حين عرفت من أنا، سؤالاً ينم عن توبيخ: ما الذي جاء بك؟ أو: ماذا تفعلين هنا؟ أو: هل جننتِ لتأتي إلى هنا؟!

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

خشيت أنها ربما تكون متورطة فعلاً في قصتنا، وأن هناك من يراقبنا، أحد «أولئك» الذين يتواجدون قبل وقوع الكارثة، وعادة ما يكونون هم المتسببين بها. تلعثمت وأنا أدبج بعض كلمات الشكر، وبدلاً من معانقتها كما هو مخطط، مددت يدي للمصافحة، كانت يدها الصغيرة البيضاء والنحيلة باردة ومرتجفة، استطعت تحسسها رغم ارتدائي قفازين من القماش. لم تقل شيئاً أو تعقّب، أدارت وجهها ودلفت إلى البهو مسرعة، كما لو أن أحداً يطاردها، ولم أرها إلا بعد عشرة أعوام.

في الواقع، لم أكن أعلم ما الذي يحدث، لماذا يتغير الناس من حولك، هكذا فجأة، وبشكل غامض، من دون تقديم اسباب تحملنا على إعطائهم العذر اللازم، ولكي نتفهم، في الآن نفسه، مواقفهم؟ من قبل كانت الخالة ماري، والآن داليا، التي فكرتُ بلقائي البارد معها في الأيام اللاحقة، وكنت أتساءل عما طرأ مؤخراً، وجعلها تقطع زياراتها إلى بيت عمة زوجها، والتهرب مني، حتى بدأ يتضح لي، مع الوقت، أن السبب وراء كل هذا لا يتعلق بخطر محتمل يحدق بها، مصدره «أولئك» بل كان هناك شيء آخر، شيء سيظل يعذبني فترة طويلة قبل الوقوع عليه، مع جملة من الأشياء، أو لنقل أسراراً غامضة بدأ الزمن يفشيها تباعاً.

على العموم، كان قد مضى على وجودنا في بيت الخالة ماري عشرة أشهر، وعلى مباشرتي العمل في القاعدة البريطانية ستة أشهر، وعلى تركي إياه سبعة أيام. حاولت إيفان معرفة السبب الحقيقي، الذي جعلني أترك العمل في القاعدة. أخبرتها بعدم رغبتي بالإثقال

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على الخالة ماري، وهي امرأة مسنة، ومتعبة. قالت أني بذلك أزيل من احتمال تعرضي للخطر. اقترحت عليّ التناوب فيما بيننا، مما يتيح لواحدة منا التواجد في البيت، في حين تقضي الأخرى مناوبتها الاسبوعية في القاعدة. لم تستطع اقناعي، وبررت رفضي بداعي تركنا المنزل عاجلاً أم آجلاً، مما يعني احتياج عبير إلى رعاية مستمرة. وفعلاً، كنت أعددت العدة لأنفذ ما خططت له، منذ إنذار الإخلاء غير المباشر، الذي أصدرته الخالة ماري. لم يكن العثور على مكان للسكن بالأمر الصعب، وهو بيت صغير في منطقة للعشوائيات، تقع في وسط المدينة. كنت أدرك مدى خطورة هذه الخطوة، لكن من ناحية أخرى، أصبحت الإقامة في بيت الخالة ماري تبعث على الشعور الخانق، بعدم رغبة الآخرين في وجودك بينهم، أو بالقرب منهم، مع إداركك حجم الأذى الذي قد تسببه لهم.

بعد أيام مضت على زيارتي للمستشفى، وفي أكبر تحدٍ، أو لأقل في أكثر حالة تهور قد تقدم عليها امرأة مطاردة، قررت الذهاب إلى حي الحرية.

كان لا بد من وضع حدّ لكل ما أعاني منه، بسبب جهلي بمصير أمي. فكرت بالتنكر بهيئة متسولة، وجدت الفكرة صائبة، لكني كرهت ظهوري على هذا النحو، فعدلت عنها قبل دقائق من مغادرتي إلى الحي. قلت في نفسي، يكفي كوني مقنّعة ولا أحد يعرفني. لأذهب وليحدث ما يحدث.

ليحدث ما يحدث! أظنها عبارة غبية، عبثية، وانتحارية نوعاً ما، يتقول بها المغامرون، من دون وعي أحياناً بالمنزلق أو النهاية التي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

سيصلون إلى تخومها. حينئذ، لن يسع الوقت أحد منهم لقول: لم أكن أتخيل الأمر بهذا السوء! أما أنا، فكنت أتخيل كل أنواع السوء والتنكيل، حينما كنت في طريقي إلى المنزلق، الى ذلك المكان الموبوء، حي الحرية.

هل كنت مترددة؟ نعم، كنت مترددة، لكن ليس إلى درجة تجعلني أفكر بالعودة، وقد بلغت مكاناً يتيح لي معرفة ما الذي حدث لأمي.

ركبت سيارة أجرة أقلتني إلى نقطة قريبة من الحي، ترجلت من المركبة وقطعت المسافة المتبقية راجلة. كنت أمشي وأتعثّر، رغم أن الطريق الترابية كانت مستوية، وليس هناك من عثرات أمامي. لا أعرف إن كان المارة لاحظوا تلكؤي. كان قلبي يدقّ بشكل تصاعدي، أهوج، مثل حيوان محبوس في قفص، وكما لو أني غبت لعشرة أعوام، وليس عشرة أشهر فحسب، لاحظت حجم التغيّر الذي طال الحي أثناء غيابي. ازداد عدد المباني، لتزداد معها العشوائية والفوضى، أصبح هناك سوق صغير، وميكانيكي دراجات نارية، وصالون رث لتزيين العرائس. كان الوقت صباحاً، والجو حاراً ورطباً، والمارةُ قليلين. عليَّ المرور بمقبرة الآليات المدمرة في وسط الحي أولاً، لأنعطف بعدها نحو اليسار، وأدلف إلى شارعنا. شيء ما طرأ على مقبرة الآليات هي الأخرى، تم تحديدها كمنطقة مشعة وخطرة، من قبل جهة حكومية أو دولية، لا أعرف. توجد علامات تحذيرية تحتوي على جمجمة وعظمتين متقاطعين، ولافتات تحذر من الاقتراب، مكتوب عليها: خطر... منطقة مشعّة! وعلى الرغم من ذلك، لمحت من بعيد عدداً من الأطفال يلعبون وسط هياكل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الدبابات. يشبه هذا كثيراً وصول الشرطة بعد ارتكاب المجزرة، إدراك متأخر للكارثة، للموت الصامت كصمت عبير، كصمت لينا مدينا، وهم يسألونها عن الجاني.

ازدادت الجلبة المرعبة في داخلي، بسبب النبض المتزايد للحشوة الدموية الكريهة المسماة قلباً، حينما اقتربت من بيتنا. ماذا لو رآني ابن خالتي حمدان وتعرف عليَّ؟ بمقدوره فعل ذلك، بحاسة كلبية طالما امتلكها، ولعل هذا هو أكثر ما كان يشتت تفكيري في حينها. لا أحتمل رؤية هذا الشخص مجدداً، لا أعلم ماذا سيصيبني بالضبط، أقل ما يمكن فعله، لأشفي غليلي منه، هو اجتزاء جوزة عنقه. لم انتبه، إلا في وقت متأخر، إلى أن هناك أولاد يلهون في الشارع، ولا يبدون عابئين بالحر، وهم يلعبون لعبة نسيت اسمها. تعرفت إلى بعضهم، ولم يكن بينهم أياً من أبناء الجيران الذين كانت ترافقهم. وددت لو أعثر عليهم، لأحقق معهم، لعلني أتوصل إلى المتسبب في ما حدث لشقيقتي. لكني فكرت: حتى لو حدث وصادفتهم، فلن أخاطر بالتحدث إليهم، فربما تعرف عليّ أحدهم، وبالتالي لن أجد الوقت الكافي لأهرب بجلدي. كان الصمت يخيم على بيتنا، لا يبدو أنه مسكون. ترى أين ذهبت أمي؟ تساءلت وكدت أنسى نفسي وأولول ببيت من الشعر الدارج، ينعى أهل الدور المهجورة من سكانها. انتبهت إلى خطورة ما كنت بصدده، وكففت عنه أخيراً. ومثل أشياء كثيرة صرت انتبه لوجودها في وقت متأخر (حدث ذلك أثناء ما كنت أجول بعيني في واجهة البيت) قرأت على السياج عبارة مكتوبة بطلاء أحمر: الدار للبيع! وثمة رقم هاتف نقال تحتها لغرض المراجعة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أتذكر كيف شهقت لحظة وقع نظري على تلك العبارة، كأن أحدهم أخبرني للتوّ أن أمي ما زالت حيّة، وها هي الآن تعرض بيتنا للبيع. لكن، لماذا عليها بيعه؟ وأين تنوي الذهاب بعدها؟ أين تسكن ومع من؟ مع خالتي رسمية؟ ومن قال أنها هي من عرضت البيت للبيع؟ ربما هي ميتة حقاً، وأن هناك من استولى عليه، حمدان ابن خالتي، وهل هناك أحد غيره؟ أو هو أحد أعمام والدي، واحد من «أولئك» الذين لا يظهرون إلا في المناسبات النفعية، كتقاسم تركات الموتى، أو من أجل الثأر، أو التخلص من فرس كسرت ساقها.

شعرت أن عليّ القيام بشيء ما، لأعرف ما الذي يحدث. لم أسأل أحداً طبعاً، لكني حفظت رقم الهاتف في إعلان بيع البيت، من حسن الحظ أنه كان رقماً مميزاً، من السهولة حفظه عن ظهر قلب، حيث يتكرر فيه أحد الأرقام لخمس مرات، ولم يكن عليَّ سوى حفظ رقمين آخرين مختلفين، بالإضافة إلى كود شركة الهاتف النقال، وهو معروف للجميع. وأثناء ما كنت أفعل هذا، تناهى إلى سمعي صوت قادم من الخلف، حيث يقع بيت الخالة رسمية، بإزاء بيتنا، استطعت تمييزه فوراً، ولم أشك للحظة أنه صوت خالتي، قالت بلهجة عدوانية متشنجة:

«البيت ليس للبيع، ارحلي من هنا!»

وبدلاً من الالتفات نحوها، أطلقت ساقيّ وغادرت الشارع مسرعة، حتى أني كدت أركض. خشيت النظر إلى خالتي، فقد كانت لي نفس عيني أمي. يبدو أنها ارتابت مني، إذ شرعت بمناداتي، لكنها لم تتلفظ باسمي أبداً. كانت تناديني بـ يا امرأة، وتحثني على

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

التوقف. لم ألتفت أبداً، رحت أغذّ السير حتى خرجت من الشارع. وبينما كنت أسير مسرعة باتجاه بوابة الخروج، التي ما زالت قائمة منذ سقوط النظام، وجدت نفسي أمام أحد «أولئك» وجهاً لوجه، ولأول مرة منذ أكثر من عشرة أشهر. كان على مبعدة أمتار قليلة مني، يعلق على كتفه بندقية كلاشنكوف، وهناك جعبة فيها ذخيرة مربوطة إلى بطنه، لو لم أتنح عنه جانباً وأتلافاه، لأصطدم بي عمداً. ثم، وأنا أكمل طريقي، تجرأت والتفت خلفي، رأيته ينظر نحوي، ممعناً النظر بطريقة لا ينقصها الشر. لعله كان يميز من طريقة مشيي، إن كنت أنا سليمة نفسها، ابنة خالته الهاربة. انتابني الضعف، وتوقعت أني لن استطيع إتمام خمس خطوات من دون الوقوع أرضاً. عدت لأشعر بالخوف وقفزت صورة عبير أمامي، كان من الخطأ ألا أوصي بها إيفان، في حال حدث لي مكروه. كدت أندم، وأعترف بأني لست سوى امرأة طائشة، بنزعة انتقامية بائسة، امرأة لم يعد بمقدورها التحكم بتصرفاتها، وانفعالاتها، وردود افعالها غير المحسوبة، التي عادة ما تأتي على سبيل النكاية بمجتمع ظالم، أو فرد سادي، أو عُرْفٍ تعسفي، أو قانون غير عادل، العمل مع العدو، التزوج من رجل اجنبيّ، والذهاب إلى تلك المقبرة، حي الحرية، الذي يُعد بمثابة ذهاب المرء إلى الموت بقدميه. وإلا، ماذا بالإمكان تسمية كل هذا؟ بطولة؟ شجاعة؟ أم حماقة؟ أظنني كنت كذلك، حمقاء بالفعل، فبدلاً من الاهتمام بعبير، والبدء بحياة جديدة، بعيداً عن كل ما يتعلق بماضينا المظلم، رحت أخوض في وحل الماضي، بحجة البحث عن أمّ ضاعت بين أكثر الاحتمالات شقاء، الموت، التشرد، الجنون. لقد زعمت في البداية، أني غدوت بقلب دبغته المعاناة، ولم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يعد عابثاً بالموت، حتى لو بلغ الأمر من السوء حداً، ينتهي بي إلى جثة مبضعة بالآلات الجارحة، أو مليئة بالرصاص. لكني، في نهار ذلك اليوم، كنت خائفة حقاً، إلى درجة الامتناع عن سؤال أحد صبية الحي عما حدث لأمي، إذ لا بد أن أحدهم يعلم ماذا حل بهذه المرأة، ماتت؟ رحلت؟ انتحرت؟ أو أي شيء آخر يشي بمصيرها. بإمكان المرء، في هذا الحي، سماع فساء النمل، ولا بد أن أحداً ما يعلم عنها شيئاً، لكني لم أتفوه بكلمة واحدة، الأمر الذي ندمت عليه، فيما بعد، أشد الندم.

هناك شيء آخر، إلى جانب الخوف، شعرت به عندما صرت بمواجهة حمدان، وأنا في طريقي لمغادرة الحي. لقد شعرت بالغضب، نعم، فقد كان هذا الرجل أحد المتهمين في قضية عبير. لم أشك به بداية، ثم رحت أبحث بعدها عما إذا كان ثمة وازع أخلاقي، يمكن منعه من ارتكاب جريمة كاغتصاب طفلة. لم أجد بالطبع، حمدان شخص فظّ، غير مؤتمن، غادر وعدواني، وجريء على نحو سلبي. لقد أصيبت عبير بالأفازيا في مساء اليوم الذي طلبت أمي منه أن يأتي بها من مقبرة الدبابات، التي لا تبعد عن بيتنا كثيراً، لكنه رغم ذلك، غاب نحو ساعة، قبل ظهوره معها بتلك الهيئة.

تمالكت نفسي في حينها، ومضيت في طريقي بخطى لن يعوز أحدهم الكثير، ليعرف من خلالها كم كنت مضطربة، مشبوهة، ومثيرة للريبة. توقعت أن يتبعني حمدان، ابتعدت ما يقارب نصف كيلو متر، وحين التفتت ورائي رأيت عدة أشخاص لم يكن ابن خالتي المسلح من بينهم، كانوا جميعهم من المارة. وصلت إلى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الطريق العام، وركبت إحدى الباصات القادمة من قضاء الزبير، والمتجهة إلى مركز المدينة في العشار. وطوال المسافة إلى هناك، رحت أفكر بجدوى ما فعلته، ونتائجه، ووجدت أني لم أخرج من هذه المغامرة بشيء سوى رقم هاتف نقال عائد لمجهول. عندئذ، بدأت الاستنتاجات تنهال من كل ناحية، فما حدث في حي الحرية جعلني انهمك في التحليلات المؤرقة. فإذا كانت أمي ميّتة حقاً، فهذا يعني أن أعمام والدي هم الأقرب إلى الاستيلاء على البيت، وهو ما لا تقدر خالتي رسمية الاعتراض عليه، إذ سترجح كفة العمومة على الخؤولة في قانون العشائر. وبما أن تلك الخالة معترضة على بيع البيت، فهذا يعني وجود طرف آخر خارج إطار العائلة والقرابة، هو من يمسك بزمام الأمر، وهو ما يفسر عدوانيتها تجاه كل من يرغب في الشراء، إذ لن يكون من حقها الاعتراض، إذا كانت أمي هي من ترغب في البيع. لكن، من عساه يكون هذا الطرف؟ وكيف أصبح باستطاعته الاستيلاء على البيت؟ ربما يعطي ذلك الفرصة لاحتمال كون أمي ما تزال على قيد الحياة، وبطبيعة الحال، سيولّد هذا الاحتمال سؤالاً جديداً هو: لماذا على أمي إعطاء الحق لهذا الطرف، الذي يبدو غريباً حقاً، في التصرف بالبيت؟ وإذا افترضت أنها هي من عرضته للبيع، لماذا على خالتي الاعتراض، في وقت لا تملك أدنى حق في ذلك؟ ولماذا تريد أمي بيع البيت بالأساس؟ بماذا تفكر؟ وأين تريد الذهاب بعدها؟

شرد ذهني، وغرقت بالتفكير والتحليل والاستنتاج. انتبهت في منتصف الطريق، وحاولت التعرف على المكان الذي وصل إليه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الباص. حسنٌ، نحن في البصرة القديمة، حيث الزحام يصل إلى الذروة في مثل هذا الوقت. كان الجو يزداد حرارة كلما اقتربت الساعة من الزوال، الرطوبة لا تطاق، وثمة رائحة ثوم زنخة تنبعث من الراكب الجالس إلى جانبي، تكاد تفقدني صوابي (سأشم هذه الرائحة مجدداً بعد فترة قصيرة جداً) تركت الباص، ورحت أقطع المسافة المتبقية إلى العشّار مشياً. رحت أستعيد أثناء ذلك رقم الهاتف النقال المكتوب على سياج البيت، تحت إعلان البيع سيء اللغة. بالطبع، لم أنسه أبداً.

لم تكن المنطقة التي نسكنها تبعد كثيراً. أكملت الطريق راجلة. كنت منهكة، وفي حالة بائسة أعادتني إلى يوم هروبنا من المستشفى. كنت كمن خرج لتوه من موت وشيك، حتى أن عبير لاحظت ارتباكي، ربما بسبب الصفرة في وجهي، وملامحي التي ذوّبها الرعب. خيل لي أني قرأت سؤالاً، لا يمكن لعينين صياغته سوى عيني فتاة متوجسة، خائفة وقلقة، كأنها انتظرت الإجابة لفترة طويلة. كان أحد الأسئلة التي تسكن على طرف اللسان، إلا أن أحداً لا يرغب في طرحها علناً. لم تحاول عبير يوماً سؤالي، بلغة الإشارة، عن أمي، قد لا تكون راغبة في ذلك، أو لأسباب تتعلق بما انتهت إليه منذ انتهاكها على يد شخص مجهول. كما لو أنها أُصيبت بعدة أمراض دفعة واحدة، أمراض نفسية، عدا الأفازيا، كفقدان الذاكرة الجزئي، فقدان السيطرة على اللغة. كنت أشك في أحيان كثيرة أنها لا تعي حتى من أكون، وكم كنت مخطئة بهذا الشأن.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(5)

في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن نامت عبير. أخرجت رقم الهاتف النقال، الذي كتبته في ورقة فور وصولي إلى الشقة، ترددت كثيراً في الاتصال بصاحبه، كدت أعدل عن الأمر وأمزق الورقة، وأنسى الرقم إلى الأبد، ثم آوي إلى فراشي، ولا أفكر إلا بشيء واحد: الغد. لكني، وفي لحظة من لحظات الجرأة، التي تأتي بعد طول تردد ومماطلة، ويخيل للمرء أنه سيموت إن لم يستغلها، ضربت الرقم في هاتفي، واتصلت. وفي كل مرة، يرن الهاتف بصوت كصوت الموت، أوشك على قطع الاتصال، وثمة أمنية مضمرة في داخلي تقول حبذا لو أن أحداً لا يرد على هذه المكالمة.

فجأة، كأن أحداً قرأ أفكاري، وحشر صوته في أذني قائلاً: أمنية غير موفقة! سمعت الطرف الآخر وهو يقول بنبرة، لم يمضِ الكثير من الزمن منذ سمعتها آخر مرة:

«نعم.. تفضل!»

كان صوتاً ظننت للحظة أنه سيذوّب طبلة أذني، فقد كان أشبه بصلية رشاش في حفلة إعدام، ينذر بالشؤم:

«من المتصل؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لم أفكر بالرد طبعاً، جعلته يتكلم أكثر، لأقطع الشك بالبقين هذه المرة، وأتأكد من إنه... حسناً، إنه راهي المضمد.

«اسمع يا أنت...» قال وقد بان الاستياء على صوته الناعس: «أياً كنت، فهذا ليس وقتاً مناسباً لتعبث مع الناس، وتقلق راحتهم. نم، أو شاهد التلفاز، أو، أقول لك شيئاً؟ اذهب وانكح يدك، لا يهمني، ولا تعاود الاتصال وإلا اتصلت بالشرطة!»

وأغلق الخط.

أتذكر تلك الليلة جيداً. أتذكر الصمت الذي غرقت فيه لساعات طويلة، مؤرقة، وثقيلة، وأنا أردد: لكن، لماذا راهي المضمد؟ كنت أجريت الاتصال في الصالة، ولا أعرف كيف ومتى ذهبت إلى سريري في الغرفة، حيث أنام إلى جوار عبير. كانت أشبه بالصدمة، لم أفق منها إلا في صباح اليوم التالي، عندما بدأت أتأمل ما يحدث. لقد ظهر راهي المضمد الآن، انبثقت صورته فجأة، وها هو الآن يحشر أنفه في القصة من جديد، ليزيدها تعقيداً بالنسبة لي، وربما تشويقاً لمن يقرأ هذه الأسطر. كنت متعبة ذهنياً، لكني لن أصبر كثيراً، حتى أبدأ التفكير بأمي، والتكهن بنوع علاقتها براهي المضمد، العلاقة التي لن تكون أقل مما صرت أظنه في ذلك الحين، وإلا، ما الذي يمكن أن يحدث في هذا العالم، ليجعل من حق هذا الشخص التصرف ببيت العائلة؟

الابتزاز!

بما أني هربت، ولم يعد بوسعه ابتزازي لغرض الزواج مني، لجأ

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

إلى الخطة ب، وراح يبتز أمي المسكينة. لا أعرف إن كان قد فعل هذا من أجل الارتباط بها، أو لكي يستولي على بيتها فحسب. ربما ضرب العصفورين معاً، بحجر مكره ودهائه، لمعرفته بأقرب طريق يفضي إلى الاستيلاء على البيت هو الارتباط بصاحبته. ألا يفعل ذلك الكثير من الرجال؟ في مثل هذه الحالة، وأمام هذا الكم الكبير من الضغط، ولكي لا يُفضح سرنا، ولأن أمي وحيدة ومقطوعة من شجرة، كما كانت تردد دائماً، وما زالت في الثلاثينات من عمرها، وبحاجة إلى رجل، رضخت أخيراً وذهبت طائعة إلى بيت راهي، ثم وكلته بعرض بيتها للبيع.

لكن، أي سرّ هذا الذي يمكن أن يفضحه راهي المضمد؟ في حين يُفترض أننا فتاتان هاربتان في نظر «أولئك»؟ هل هو سر عبير الذي سيضاعف خزي العشيرة، ويجلل أُمّنا بالعار، ويزيد من النار اشتعالاً؟ يبدو الأمر كذلك بالفعل، فإن نكن فتاتين هاربتين، لهو أهون من اعتبارنا فتاتين هاربتين، إحدانا مغتصبة والأخرى لم تعد صالحة للزواج.

لم يسعني الوقت للتأكد إن كانت هذه التكهنات صحيحة، فما حدث بعدها أوقف كل رغبة لي في معرفة المزيد، سواء عن أمي، أو عن هوية «أولئك» الذين انتهكوا طفولة عبير.

كنت قد ذهبت إلى القاعدة البريطانية، للمرة الأخيرة، صباح اليوم التالي، من أجل قبض مستحقات مالية متبقية في ذمة الإدارة البريطانية. غادرت القاعدة بعد الظهر، بعد قيامي بمراجعة أخيرة ويائسة لقيادة العمليات البريطانية، بشأن طلب اللجوء الذي قدمته

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

سابقاً، قبل أشهر، ولم يسفر عن شيء حتى تلك اللحظة. ودّعت زميلاتي العاملات، وبعض المترجمين العراقيين، ممن تسنى لي التعرف عليهم وقُبلت طلبات بعضهم باللجوء إلى بريطانيا، إثر تعرضهم للتهديد. كان من ضمن خططي في الأيام القادمة هو البحث عن سكن جديد في منطقة آمنة، ثم السعي في الحصول على طريقة نستطيع من خلالها، نحن الاثنتان، مغادرة العراق بأي ثمن أو وسيلة، عن طريق التهريب عبر إيران أو تركيا مثلاً. لكن، شاءت الأقدار أن أقع بين يدي بعض «أولئك» حين كنتُ في الطريق إلى البيت. كان اليوم الأخير من شهر آب، وكانوا ثلاثة أشخاص ملثمين، اثنان في سيارة بي أم دبليو والثالث على دراجة نارية، اعترضني عند نهاية شارع الوطن، على مقربة من بناية الخطوط الجوية العراقية. نزل الملثمان من السيارة وفي يد كل واحد منهما مسدس، وحملاني ثم ألقياني في صندوق السيارة، وسط ذهول وتوجس المارة المتواجدين في الشارع، بعد أن جرداني من حقيبتي، حيث أضع نقودي وهاتفي النقال. اقتادوني بعدها إلى مكان مجهول لم أتبينه، فقد عصبوا عينيّ فور وصولي إلى هناك. لم أكن أعرف إلى أي صنف من «أولئك» ينتمي الخاطفون، هل هم من «أولئك» القبليين، تعرفوا على هويتي، وجاؤوا ليغسلوا عارهم بدم الهاربة؟ أم من «أولئك» المسلحين، اكتشفوا أخيراً عملي لحساب المحتلين وها هم الآن يسوقوني إلى إحدى المحاكم الشرعية؟ أم من «أولئك» الأخلاقيين، ظنوا أني عاهرة أتجلبب بمسوح العفة، وقرروا إقامة الحد عليّ؟

قضيت بقية النهار وساعات الليل وأنا معصوبة العينين، مقيدة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليدين، مكممة الفم بشريط لاصق، وملقاة على سرير، في مكان أجهله. لم تقطع سيارة الخاطفين مسافة طويلة، وصولاً إلى هذا المكان، ما يعني أني ما زلت في المدينة. ثمة أصوات بعيدة لمنبهات سيارات يمكن سماعها، ودوي لطائرات تحوم في الجوار. كان الجو أقل حرارة في الداخل، لكن الهواء، الذي تولده مروحة سقفية كان رطباً وخانقاً. وسط هذا الضياع، والضعف وقلة الحيلة، رحت أتكهن بمصيري، وما الذي سيفعله بي «أولئك» الذين صعب عليَّ التعرف على هويتهم من خلال أسئلتهم التي استجوبوني بها في اليوم التالي. كانت أسئلة مختلطة، لا تتشابه، ولا صلة لبعضها بالبعض الآخر، كما لو أنها صيغت بعناية، لكي لا أتعرف إلى أي نوع من «أولئك» يرجع أفراد الجهة الخاطفة، حتى ظننت في النهاية أنهم خليط من كل «أولئك» الذي أعرفهم والذين لا أعرفهم. ما زال عددهم ثلاثة، كأن ثمة من انتقاهم، ليمثل كل واحد منهم جهة ما. لا أعرف إن كانوا هم أنفسهم من قاموا باختطافي، أزاحوا العصابة عن عينيَّ، والشريط اللاصق عن فمي، وبدؤوا تحقيقهم معي:

«ما نوع عملك في القاعدة البريطانية؟ كم امرأة تعمل معك؟ هل تعرفين أسماء المترجمين؟ كم مقاول يتعامل مع البريطانيين؟»

«متى احترفتِ البغاء؟ وأين تمارسينه؟ ومن هو قوادك؟ ما نوع زبائنك؟ من معك من النساء؟ هل أنتِ باكر؟ هل تمارسين الجنس من الخلف؟»

«أين اختك الأصغر؟ أين تخبئينها؟ من يتستر عليكما؟ اعطنا العنوان، لماذا هربتما؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بدا من الواضح أن المستجوِب الثالث يعرفني جيداً، على العكس من المستجوِب الأول، والثاني الذي يظنني عاهرة. لم يكن بمقدوري تمييز أحدهم عن الآخر، كان الثلاثة ملثمين، ويرتدون ثياباً سود، ولا يظهر من وجوههم سوى أعينهم، يضيقون اللثام على أفواههم، حتى لا يتسنى لي التعرف إلى أصواتهم. كان هناك مصباح واحد أعلى الجدار ورائي، حاولت التركيز على الشخص الذي طرح الأسئلة المعنية بي وبعبير، يظهر أنه يعرفنا، وربما كانت تربطه صلة بنا. اقترب مني بداية وقال بصوت أقرب إلى الهمس أني قد أحظى بفرصة للنجاة، إذا اخبرته عن مكان شقيقتي. أفرز جسدي كميات كبيرة من العرق، أحسست في إثرها بالدوار. كنت غارقة من رأسي إلى قدميّ، ومع ذلك كان بوسع هذا الجسد الشقي أن يرتعش، كما يفعل في كل مناسبة لا علاقة لها بالبرد، أو انخفاض نسبة السكر. كانت أطرافي باردة، رغم النار المستعرة التي أحسستها تأكل أوصالي من الداخل. تتابعت الصور المنبثقة في إطارات حلمية رجراجة، وهالات من الضوء، عبير، الخالة ماري وابنتها إيفان، الدكتورة داليا وزوجها بسمان. يقال أن هذه من علامات الاحتضار، استدعاء المحتضِر صور الأناس الأقرب إليه، أو من شكلوا انعطافة في حياته، إلا أني، في الحقيقة، لم أكن أحتضر. افتقدت صورة أمي، ربما لأنها كانت بعيدة عن خطر ما قد أدلي به من معلومات، تعرض البقية إلى التصفية الجسدية، ما داموا متواطئين في نظر «أولئك»، لم أتكلم طبعاً أو أتفوه بكلمة واحدة، لم أشأ التضحية بكل هؤلاء، ما دام سيقتلني «أولئك»، كنت أردد بيني وبين نفسي: لن أخبرهم بشيء. وبالفعل، لم أعط أي معلومة، حتى بشأن عملي، أو أكشف عن أي اسم لعاملة، أو مترجم،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أو مقاول. لأمت وحدي، هذا ما قررته، وفهمه المحققون الملثمون، الذين غادروا بعد ساعتين من المحاولات الفاشلة لاستنطاقي.

«تكلمي يا امرأة..» يقول لي أحدهم: «هل تريدين الموت حقاً؟»

«عميلة، خائنة سافلة!» يصرخ آخر في وجهي ويلطمني: «تفوو على وجهك يا عاهرة!»

الثالث، الذي يبدو أنه من معارفي، شدني من شعري أكثر من مرة قائلاً:

«إذا لم تخبريني عن مكان شقيقتك أطعمناك للكلاب!»

لم أتكلم

كنت منهارة، وبودي لو أصرخ، لكني أقسمت بألا أنطق، حتى لو كان ذلك على سبيل التفجع مما كان يحدث لي، وهو الحال الذي كنت أدرك أنه لن يدوم طويلاً، إذ شرعت بالصراخ عندما لم يعد أمام «أولئك» سوى التنكيل بي، وتعذيبي. كان صراخاً مكتوماً على أي حال، بسبب الشريط اللاصق، بعدما عادوا للصقه على فمي. انتبهت متأخرة إلى السرير الذي كنت ملقاة عليه، كان سريراً طبياً، من تلك التي يرقد عليها المرضى في المستشفيات، أو لا، لم يكن كذلك، لقد كان أحد الأسرة المرتبطة بأجهزة الكشف بالأشعة المقطعية، أو لعله سرير خاص بالمجانين، لاحتوائه على مشدّات من السفيفة ثبتوني بواسطتها من المنتصف، في حين باعدوا بين ساقيَّ، وثبتوهما بمشدات أخرى خاصة بالقدمين. لم يكن الوقت مناسباً ليثير ذلك السرير استغرابي لكني ما زلت، حتى لحظة كتابة هذه الأسطر، أتساءل عن جدوى وجوده في مكان لاحتجاز المختطفين، هل لأنه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يلبي طموح المختطِفين، بما أنه يحتوي على مشدات؟ وهل من الصعب على أناس كـ«أولئك» استعمال إحدى الطرق الكثيرة في قصص الاختطاف والتعذيب، التي من شأنها تقييد المختَطف ومنعه من الحركة؟

كانوا قد عصبوا عينيّ مجدداً، وشرعوا بنوع آخر من التنكيل، جردوني من العباءة والنقاب، وواجهوا صعوبة في انتزاع الجينز الذي ارتديه، فقد كان ضيقاً. عمدوا إلى تمزيق القميص، وانتزاع حمالة الصدر. لم يعودوا لربطي بواسطة المشدات، قلبوني على بطني، وقيدوا يديّ وربطوني برأس السرير، ثم بدأت الحفلة.

حسناً، هل عليّ أن أكمل؟ أشعر بغصة تحرق قلبي وتعتصره، كما يحدث مع شخص يُعصر بين جدارين، لتُسحق عظامه، كلما تذكرت تلك الحادثة. تذكرت عبير قاسم وما جرى عليها، للحظات، تخيلتها على هيئتي، وقد كُمم فمها بلاصق، وقيدت يداها إلى الخلف، وحُشرت في زاوية الغرفة، حيث تم انتهاكها هناك، ثم قتلها، ومن ثم حرقها من قبل «أولئك» آخرين، «أولئك» البعيدون.

كانوا اثنين، استطعت تمييز روائحهما. كان لجسد الأول رائحة ثوم خانقة، وعلى ما يتضح أنه سمع بأن للثوم مفعول الفياجرا، فالتهم ما يكفي ليفعلها ثلاث مرات. أما الثاني، فكانت رائحته عطر رخيص امتزج مع العرق ورائحة السجائر، لينتج رائحة ستظل تلاحقني إلى القبر. كان أحدهما يشدني من شعري، بينما هو يفعلها، وينعتني بالخائنة، والآخر يضربني على عجيزتي بكفه، ويصرخ في إذني: قحبة! بقي واحد، قريبي على ما أظن، ربما تنحى جانباً ليشبع نزعة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

التشفّي بداخله. لكن، يتشفى ممن؟ ولماذا؟ ولماذا لم يفعلها كما فعلها زميلاه؟ أو لماذا لم يقتلني ويغسل عاره؟ أم أنه لا يعدني عاره الشخصي، كوني ابنة خالته ووالده من قبيلة أخرى، وعليه، فإن مهمة من هذا النوع إنما ينفذها الأب، أو أحد الأخوة، أو أولاد العمومة، ممن يحملون اسم العشيرة نفسها، أم لأنه أراد لي التمرغ بعاري إلى الأبد، كسيرة، ذليلة، فرس أخرى مكسورة الساق؟

لم أمت!

أنا نفسي لم أصدق بقائي على قيد الحياة، نادراً ما تتعرض امرأة لمثل هذه الفظاعات، ويكون بمقدورها العيش بعدها، مثل صديقتي ناتالي، فمن لم تُقتل ستفكر حتماً بالانتحار، أو تذهب إلى أقرب مبغى، أو تمتهن التمثيل الإباحي. الكثير من النساء فعلنها، بعد أن قُتلن معنوياً ونفسياً، ولم يعد أمام الواحدة منهن سوى إتمام الأمر، بدلاً من انتظار أحد اثنين، إما رجل يشعر بالخزي، لأن فرساً كُسرت ساقها ما زالت تتنفس بالقرب منه، فيعمد إلى خنقها بالوسادة وهي نائمة، أو سوبر مان شهم، شريف، لا يعبأ بالقيل والقال، يحملها بين ذراعيه ويطير بها بعيداً. دائماً ما كنت أحلم بهذا الأخير، حتى ظننت أني وجدته يوماً في مارك، لكن السوبرمانات يخذلون أيضاً، يعجزون أحياناً عن الطيران، وإن طاروا مجدداً، فلا لأجل غرض سوى حملك ومن ثم رميك من علو مناسب، بحيث يمكنهم سماع صوت ارتطامك بالأرض، وطقطقة عظامك، ونزيف دمك، ونخرتك الأخيرة.

لم يكن بقائي على قيد الحياة ليسعدني، أو استقبله برحابة ورضاء

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بالقضاء والقدر وروح رياضية، لأبدو أثناء ذلك، كما لو أني شفيت من مرض عضال، أو أفلت من الغرق، أو نجوت من حادث مروري مؤسف. في الحقيقة، تمنيت لو أنهم أحرقوني مثل عبير قاسم. كنت أبعد من الشعور بالسعادة، واستقبال الأمنيات بالشفاء بابتسامة واهنة، لكنها عميقة، تشي بكثير من الأمل. كنت أبعد بأكثر من هذا عن عرض كتفيّ للطبطبة، وتلقّي التشجيع، ورفع المعنويات، وسماع واحدة من أكثر العبارات إحباطاً يمكن قولها لمن فقد قدميه، أو رجليه، أو جزءا حيوياً منه: حسناً يا امرأة، لقد كتبت لكِ حياة جديدة! أو هذا ما قيل لي بعد الحادثة، إلا أن أحداً لا يدرك حقيقة ما فقدته في حينها. لا أتكلم هنا عن العذرية، فقد انتزعتها بيدي هاتين، ويمكن لأي غشاء بكارة اصطناعي الآن خداع ذكاء أعضاء الذكور التناسلية. كما أني لا أتكلم عن شيء يبدو خلال الحديث عنه، كأنه إله يتلبس كالروح جسد كل امرأة، يدافع عنه الرجال، وإذا ما قُتل أحدهم من أجله، يُعتبر شهيداً، ويرتقي إلى مصاف شهداء النفس، والتراب الوطني، والمال، الشيء الذي ما أن يُفقد حتى تفقد المرأة نفسها، فكأنما قُتلت، أو تم دفنها في الحياة. لكني أتكلم عن شيء آخر لا يدخل في مقولة ما يؤخذ بالإكراه يُسترد بالإكراه، وهو شيء سأبقى أفتقده إلى الأبد، رغم جهلي به، لكنه، وبما أنه يُفتقد على هذا النحو، ويدفع فقدانه إلى الشعور بالحزن والغصة والحيف والكآبة واللا أمان، فلا بد أن يكون شيئاً بالغ الأهمية.

آخر شيء أتذكره، قبل فقداني الوعي، هو صوت ذاك الذي أظن أنه قريبي، كان يطلب من زميليه تركي له، العبارة التي تشبه: الآن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حان دوري! لكنه لم يكن يعني ذلك تماماً، على الرغم من أن لا فرق بين الطريقتين في القتل: الطعن بسكين أو بعضو تناسلي، فاتركاها لي تعني أنا أقتلها، إنها قريبتي، وأنا من عليه أن يهرق دمها، هي عاري، وأنا من سأغسله، إنها فرسنا المكسورة ساقها، وأنا من يجب عليه إطلاق رصاصة الرحمة على رأسها. لعام أو أكثر بعد الحادثة، ظللت أردد بيني وبين نفسي كلما تذكرت: ليته فعلها وقتلني! شعرت بالغضب، حين أفقت من غيبوبتي، لا أعرف ممن، منه لأنه لم يقضِ عليَّ، أو مني لأني لم أمت، أو من الذي أنقذني. احتاج البريطانيون إلى مترجم، ليعرفوا بماذا كنت أهذي وقتها، وبدلاً من طرحي للسؤال البديهي في مثل هذه الظروف: أين أنا؟ شرعت بصراخ كانت تتخلله تساؤلات ذاهلة: لماذا لم يقتلني ويريحني؟ لماذا أنقذتموني؟!

جلبوا لي طبيباً نفسياً ظل يلازمني أغلب الوقت، اجروا لي التحاليل الطبية ليعرفوا ان كان ثمة احتمال بالحمل او الاصابة بعدوى من المغتصبين. كان هناك ضابط يتفقدني بين الحين والآخر، في غرفة خاصة داخل القاعدة، عرفت فيما بعد أنه قائد الدورية التي انتشلتني من مقبرة الانكليز، في وسط البصرة، حيث تُرمى جثث الخيول المكسورة سيقانها. حاولت في الأيام اللاحقة تذكر أين رأيته من قبل، لكني كنت مشوشة، بنصف ذاكرة، وأحاول جاهدة ألا أفقد عقلي. كانت إيفان هي أول من رأيتها عندما أفقت بعد أربعة أيام من الغيبوبة، اعتنت بي أثناء ذلك، وجلبت شقيقتي الصغرى معها إلى القاعدة. كان اسم عبير من ضمن الأشياء التي رددتها بكثرة بعد افاقتي، وحين سأل البريطانيون من تكون، كشفت إيفان لهم حقيقة ما

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

جرى عليها، مما جعلني موضع اللوم، حين قال لي أحد المسؤولين في الخارجية: كان عليك توضيح ما جرى لشقيقتك في طلبك منذ البداية، فنحن نهتم بهذه الحالات الإنسانية، خصوصا الأطفال. لهذا، سمحوا لإيفان بإحضار عبير، التي لم أرها لأكثر من اسبوع، فقد مُنعت من الزيارة، بسبب وضعي الصحي وحالتي النفسية حينذاك. كان وجهي مليئاً بالكدمات والجروح وملفوفاً بضماد، لم يظهر منه سوى عينين تورمتا على نحو مخيف. كنت أجهل متى أحدثوا كل هذا الضرر بوجهي، أو بتعبير أدق، لا أتذكر شيئاً من هذا، ولماذا فعلوه بالإساس، كان هناك العديد من الكدمات والجروح طالت جسدي، لكن ما لحق بوجهي كان فظيعاً للغاية، اكتشفته حين أزاحوا الضماد ورأيته في المرآة، هناك آثار لجروح، لكنها ليست بعمق يجعلني مشوهة تماماً، اذ عاد وجهي الى ما كان عليه بمرور الزمن، وبمساعدة بعض عمليات التجميل. امتنعت عبير من معانقتي أول مرة، أحسست بخوفها، فقد صرت أشبه بعبعاً كنت أخوّفها به وهي صغيرة، بعمر الرابعة أو الخامسة، أثناء محاولاتي الفاشلة للحد من ميلها إلى عالم الذكور، بعبعاً اخترعته مخيلتي، بوجه مشوه كوجهي، يسرق خصي الأولاد، لا أعلم ما إذا تذكرته عندما رأتني في ذلك اليوم من أيام شهر أيلول 2006، لكنها كانت تنظر إليّ بتوجس، رغم أن شيئاً لم يبدر منها، ليثبت بالتالي عدم تعرفها إليّ. تمنيت في حينها لو أصابتني الأفازيا مثلها، لكي لا أتكلم إلى أحد، أو أفضي بتصريح للصحفيين الفضوليين، بعد سفرنا إلى لندن، في وقت اشتهرت فيه قضية عبير وأصبحت على كل لسان.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

استمرت فترة النقاهة في القاعدة البريطانية حتى نهاية السنة، لم يكف خلالها مارك، الضابط البريطاني وزوجي المستقبلي الذي عثرت دوريته عليَّ في مقبرة الانكليز، عن زيارتي، إذ كان، علاوة على إيفان وعبير والطبيب النفسي، أحد أهم الأسباب التي شجعتني، وجعلتني أقف على قدميّ من جديد، مع أن الكآبة والخوف والشعور بالضآلة وصدمة ما بعد الاغتصاب، لم تفارقني لسنوات.

وعلى الرغم من أني أصبحت لا أقل عنها ضرراً، من الناحية النفسية والجسدية، بل تفوقت عليها من الناحية الثانية، إلا أن عبير استحوذت على أغلب الاهتمام، كما جرت العادة منذ شيوع ما تعرضت له من انتهاكات. فما أن تحل في مكان حتى تُسلّط عليها الأضواء، وتُحاط بالرعاية، وتكون محل عطف الجميع. أصبحت صديقة لسكان القاعدة من مجندين ومجندات، وضباط من كافة الرتب، وإداريين وفنيين وطباخين. كان الجميع يدللونها، يجلبون لها الهدايا، لعب ودمى وثياب، يلتقطون معها الصور التذكارية، ويفتعلون بعض المواقف الكوميدية لإضحاكها، وثمة مجندات يصحبنها في نزهات على متن أحد القوارب الحربية في شط العرب كل أسبوع. غير أن أكثر من تعرفت إليه عن قرب، بحكم تردده المستمر على مكان رقودي، في غرفة تقع ضمن بناية صغيرة في مجمع القصور الرئاسية السابق، هو مارك، فطيلة فترة النقاهة والاستشفاء، التي سبقت سفرنا إلى لندن، نشأت بينه وبين عبير صداقة ودودة. كان الرجل يشفق عليها أكثر مما يفعل معي، ربما لأنها ما زالت صغيرة، أو مريضة بالأفازيا، وبإمكانها، وهي بهذا الشكل ونظراً لما تعرضت له من انتهاكات، استمالة مشاعر الكثير من البريطانيين،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وجذب انتباههم، وإشعارهم بالعطف ووخز الضمير. كان يجلب لها الحلوى والقصص المصورة، ويلعب معها أحياناً، وكانت هي تبادله هذا الاهتمام وتعبر عن امتنانها بالحركة المحببة إليها، شكل القلب الذي تعمله بيديها، وهي الإشارة التي استمرت في إرسالها إليه على مدة الأعوام التالية. بدا مارك كأنه متعطش للأبوة، كما لو أنه حُرم من الأطفال فترة طويلة، وها هو الآن يمنح عطفه الأبوي إلى من تستحق، إحدى ضحايا أسلحتهم الفتاكة. وفي كل مرة يأتي لزيارتي، نتبادل الحديث لساعة أو أكثر. كنت أفهمه بشكل جيد، فإلى جانب ما تعلمته من الانكليزية، الدرس الأحب إليَّ، والتعليم الذاتي الذي واظبت عليه بعد تركي المدرسة، كان عملي في القاعدة البريطانية قد جعلني على تماس مباشر مع لغة المحتلين القدامى. وقتذاك، تسنى لي تذكر أين رأيت مارك من قبل، لكنه في الحقيقة، لم يكن هو صاحب الصورة التي وجدتها في محفظته، حينما كنت أعمل في غسل الثياب، بل كان جده كما قال لي في أحد أحاديثنا، لكن ملامحهما كانت متقاربة جداً، إلى حد كبير.

«كان جدي لأبي يخدم في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى، في العراق، كان من ضمن الطلائع التي وصلت إلى البصرة عن طريق البحر، لكنه لم يكن ضابطاً، بل جندياً في سلاح المشاة»

«هل قُتل في تلك الحرب؟» سألته

«لم يُقتل» أجابني وهو يمسك بصورة جده التي ظلت تثير فضول عبير، حتى أراها إياها: «مات بالكوليرا، مثل الجنرال ستانلي مود، ودُفن في مقبرة الجنود البريطانيين، هنا في البصرة»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ألهذا كنت متواجداً في المقبرة وقت كنت أنا مرمية هناك؟» سألته مجدداً، وكنت أتلافى النظر إلى عينيه الزرقاوتين بينما هو يجيبني.

«أبداً.. منذ مجيئي إلى هنا قبل حوالي عامين، وأنا أؤجل زيارة المقبرة والبحث عن قبر جدي، أعني، أن العثور عليك لم يكن بالصدفة. منذ فترة وظاهرة اختطاف النساء وقتلهن والتمثيل بجثثهن تقلقنا، أنتِ تعرفين بالتأكيد، القانون العراقي شبه معطل، والمدينة تعيش فوضى أمنية، وحملة السلاح خارج نطاق القانون أصبحوا أقوى من رجال الشرطة المذعورين، لهذا السبب، نخرج دورياتنا لمساندتهم»

استعاد صورة جده من عبير، التي جلست على كرسي، ليس بعيداً عنا، وراحت تنقل بصرها بيني وبين الضابط البريطاني، الذي استمر بالحديث قائلاً:

«كانت فكرة مترجمنا العراقي، اقترح علينا، بعد أن علمنا أن المختطفة هي إحدى العاملات في القاعدة، ثلاثة أماكن للعثور على جثتك، أقول جثتك لأننا يئسنا من جدوى إنقاذك بعد يوم من اختطافك. المكان الأول كان قرب مدرسة مهجورة في منطقة خارج مركز المدينة، في مكان اعتادت الجهات المجهولة رمي جثث ضحاياها من النساء فيه، المكان الثاني قرب دائرة الطب العدلي، أما المكان الثالث فكان في مقبرة الانكليز كما تسمونها هنا، حيث سبق وأن عُثر على العديد من جثث عائدة إلى نساء مجهولات الهوية، وجدناك على مقربة من شجرة خرنوب، بين الحشائش، ظنناك ميتة، لكنك كنت في غيبوبة، وكان ثمة كلاب تحوم في الجوار، لكننا وصلنا في الوقت المناسب»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«وكيف علمتم أني المختَطَفة؟»

«عن طريق زميلتك، إيفان على ما أظن، أبلغتنا بأنك مفقودة، وبما أنكِ لست المرأة الأولى التي تختفي هكذا، إذ حدث ذلك مع امرأتين مسيحيتين كانتا تعملان في قاعدة المطار، وجدتا مقتولتين ومرميتين قرب مكب للنفايات، لم نشك أنك الأخرى تعرضتِ للاختطاف من قبل...»

«أولئك!»

قاطعته قائلة بصوت ظننت للحظات أنه ليس صوتي، فقد كان أشبه بصدى أتعبه الارتطام بالجدران، مثل عصفور حبيس في غرفة من زجاج، حتى انتهى بتلك الصورة، كما لو أنه صادر من شيء يتهشّم من الداخل. كانت تلك أول مرة أتلفظ فيها بهذه المفردة، اسم الإشارة للجمع كما تعلمناها في المدرسة. لم يعقب مارك فوراً، كان يلقي بنظرة تأملية على عبير التي تنحت جانباً، لتمشط شعر دمية باربي لا أعلم من جلبها لها.

«تبدو طبيعية، لولا الصمت، لكن ليس هناك من داع للقلق، لا أعتقد أنها ستظل هكذا إلى الأبد، ستُأهّل في لندن بشكل جيد وتكون أفضل بكثير» قال وهو يغمزها بطرف عينه، ويبتسم، ثم التفت إليَّ سائلاً بنبرة هادئة: «من تعنين بأولئك؟»

التقت عيناي بعينيه، في لحظة تشابكت نظرتينا بشكل خيّل لي، خلال جزء من الثانية، أني سمعت صوت اصطدامهما ببعضهما. ربما أحسست بذلك، أو لمحته، ولم أسمعه، إذ ليس للومضة من صوت،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كنت كالصغيرات وقتها، لا أملك اجابة محددة، مثل شقيقتي عبير، مثل لينا مدينا والأخريات، مثل عبير قاسم، التي لو لم يُمزق وجهها بالرصاص وتُحرق وقُدّر لها البقاء على قيد الحياة، لما تعرفت على مغتصبيها، ليس لأن اليانكي الأربعة، بول كورتيز، جيسي سبيلمان، جيمس باركر، ودايل غرين، تنكروا بزي تنظيم القاعدة فحسب، ولا بسبب صدمة ما بعد الاغتصاب التي قد تصيبها بعد الحادثة، بل للسبب الغامض نفسه، الذي يُرجح أن يكون نفسياً، ويجعل الإجابة عسيرة مع أنها ممكنة، كأن الضحية في مثل هذا العمر، ومن دون وعي مسبق، تجد في الصمت والذهول والنظرة الشاردة، في الإبهام، وعدم امتلاك إجابة واضحة، طريقة للاحتجاج، أو ربما المعاتبة واللوم بترديد عبارة يسوعية تخترق الآذان مثل صرخة ممزقة: لماذا تركتموني عرضة للانتهاك؟!

وكما لو كنت بحاجة إلى المزيد من النضوج الفكري، والذكاء، والقدرة على التحليل، جاءت الإجابة بعد مضي سنوات، أثناء ليلة صيفية، كنت اقرأ كتاب «رحلة» مذكرات رئيس وزراء المملكة المتحدة السابق توني بلير، عندما تذكر مارك المضطجع إلى جانبي على السرير، ولا أعرف كيف، حديثنا، وسألني مجدداً عن «أولئك» ومن يكونون في نظري.

«هناك الكثير من «أولئك» يمكنك تقسيمهم ووضعهم في خانات منفصلة. إنهم موجودون في مشارق الأرض ومغاربها، في كل مكان، منهم «أولئك» الذين يفبركون الحقائق، ويختلقون الذرائع لشن الحروب، ويفتعلون الكوارث ثم يقضون فترة تقاعدهم في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كتابة مذكرات هزيلة مليئة بالتبريرات، توني بلير، جورج بوش، جورج دبليو بوش، كولن باول، جاك سترو، ديك تشيني، رامسفيلد وآخرون، فـ«أولئك» بشكل عام ليسوا مجهولين، لكنهم لا يظهرون إلا في أوقات معينة، وفقاً لمصالحهم الشخصية، كقتل امرأة متهمة بالزنا، أو لتقاسم إرث أو غنيمة، أو لنهب بلد ما. جميع «أولئك» يشتركون مع بعضهم في الهدف نفسه، رغم اختلاف أعراقهم وجنسياتهم آيديولوجياتهم، سواء كانوا يسكنون في حي رثّ يقع على أطراف البصرة، أو في جوف البيت الأبيض، مثل التسبب بحرب طاحنة، بموجة إجهاض جماعية قسرية، أو انتهاك طفلة أو امرأة بالغة، حرمانها من الدراسة وتزويجها وهي صغيرة من بائع اسطوانات غاز، أو متعاطي حبوب هلوسة، دفعها للتسول والبغاء، أو قتلها لا لأجل شيء سوى إنها فرس مكسورة ساقها!»

«هل تعتبرينا من ضمن أولئك؟»

تمهلت في الرد لكي لا أجرح كبرياءه، فهو انكليزي في النهاية، وسيزداد شعوره بالخزي لأنه شارك في الحرب، خصوصاً إذا تكلمت بصيغة الجمع التي تزعجه، وخاطبته كما في مناسبات أخرى بمفردة: أنتم. اخترت ما يتناسب مع موقفه المتأخر، الرافض للحرب، لكي أجيبه، لكني فوجئت به وهو يلقي جملته الكافافية الجاهزة، التي كما لو أنه تلقى تدريباً عليها من قبل، ليواجه أسئلة من قبيل: لماذا قمتم بغزو العراق؟

«كنا جزءاً من حلّ»

«كنتم حلاً للبعض!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

رفع رأسه لينظر إليّ، ويسألني عن البعض الذين أعنيهم بكلامي، فقلت له أنهم ينتمون إلى «أولئك» أيضاً، أولئك الذي يرتكبون الجرائم، ويظهرون في وسائل الإعلام كمحللين لها، الذين يضعون القوانين ثم يفسرونها بشكل مجحف وظالم، الذين يُعاد انتخابهم حتى لو كانت نسبة المقترعين واحداً بالمئة.

انقضت فترة النقاهة، وتمت الاجراءات القانونية لأجلائنا. غادرنا البصرة إلى لندن نهاية شهر كانون الأول، على متن طائرة بريطانية أقلعت من مطار البصرة الدولي. ودعت إيفان في القاعدة، تعانقنا وبكيت على كتفها بحرقة، ولا أعلم على ما كنت أبكي، على نفسي، أم على أمي التي لا أعرف عنها شيئاً، أم على العراق الذي أضعناه بلمح البصر. كان مارك في المطار لوداعنا، لن أنسى ابتسامته الباكية، وتلويحه الذي أرسله، وردت عليه عبير بإشارتها القلبية المحببة، التي وددت لو أفعلها أنا أيضاً لأعبر عن امتناني له، لكني كنت في وضع لا يسمح لي بذلك، سأبدو في حينها أشبه بفتاة صغيرة مصابة بالأفازيا. كان برفقتنا ثلاثة من المترجمين، سبق وأن قُبلت طلباتهم باللجوء، بعد تعرضهم للتهديد الفعلي بالقتل، وعدد من الجنود البريطانيين، حصلوا على إذن التمتع بالإجازة السنوية.

بدت عبير سعيدة بركوب الطائرة لأول مرة في حياتها، بعد أن عجزت من قبل عن ركوب النسخة الترفيهية في مدينة الألعاب. قضت أغلب الوقت بالنظر من خلل زجاج النافذة، العادة الوحيدة التي لم تفقدها، وهي الجلوس لصق النوافذ في الباصات والقطارات والسيارات، كلما صحبتها أمي إلى عملها في المستشفى، أو إلى مركز

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المدينة. أدهشها مرأى الغيوم، وأحسست أنها تود لو تلمسها. تمنيت لو تعبر عن دهشتها بفغر فمها، وفتح عينيها على اتساعهما، ووضع يديها على خديها، أو التصفيق بهما، بينما هي تنط من المفاجأة، كما كانت تنسى ميلها للذكورة وتفعل ذلك بعمر السابعة أو الثامنة، كلما رأت شيئاً يستدعي منها إظهار كل هذه الانفعالات. لكنها كانت، كما هي دائماً، صامتة، ولم تحاول الالتفات، لتريني ردة فعلها إزاء العلو الشاهق، علو أشعرني بالنقاء، وبرغبة في البقاء محلقة في الجو، برفقة الطيور، والأرواح الصاعدة، وريش الملائكة، والغيوم التي أُغرمت بها عبير، تماماً مثل طائر السمامة، الذي لا يهبط للأرض إلا من أجل التزاوج، وحتى طعامه يتناوله في الهواء الطلق. لكننا في طائرة على أي حال، جوف معدني بمحركات تعمل بالوقود، ولا بد من مطار في النهاية، تهبط إليه، لتعود بنا إلى الأرض المليئة بـ«أولئك» جدد.

لم أكن خائفة، رغم رعبي من الأماكن المرتفعة، ما الذي يمكن أن يخيف أكثر مما حدث؟ إنّ عدم خوف أحدنا من شيء، بعد حفلة من الترويع والتنكيل والتشفّي، لا يعني بالضرورة أنه أصبح شجاعاً، أو جَلِداً، أو أنه اكتسب القدرة اللازمة على تحمل ما هو أسوأ، أو تخلص من رهابه المزمن، لا يُعد الأمر شجاعة، أو اعتياداً كاعتياد المدبوغ جلده من ضرب السياط، الخوف غريزة طبيعية، أما الذين يقولون أنهم لا يعرفون الخوف، فعليهم القيام بزيارة الطبيب النفسي، كما فعلت أنا مراراً. قد لا يخاف الملاكم من خصمه، لكنه يخاف من الهزيمة أيضاً، الانتحاري كذلك، عندما يفخخ نفسه ويذهب إلى الموت بقدميه، يخشى، إن تردد، ألا يتقبل اللّه منه ميتة أخرى، غير

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

التي يأخذ فيها معه العشرات من الناس، في ميدان لتجمع العمال، أو في ساحة لكرة القدم، أو في سوق شعبي، وفي أقل الأحوال، سيخاف من أن يُقال عنه جبان، الخوف لا يعني الرعب تحديداً، إنما هو، في أحيان كثيرة، الخوف من نهاية المطاف، يوم القيامة بالنسبة للاهوت، ونهاية العالم بالنسبة للماديين، حتى الأنبياء، المثاليون، والشجعان، يخافون من الرب، واللا دينيين، الملحدين، أو العدميين يخافون من الموت، أو من العدم الذي يؤمنون أنهم جاءوا منه.

كانت عبير ترتدي ثياباً شتوية، في حين فضلت أنا البقاء على ثيابي التقليدية، بما فيها القناع، الذي وضعته لكي أحجب به ما تبقى من آثار التعذيب، ولم أنزعه طيلة فترة العلاج التجميلي في لندن، وعندما حان الوقت لتركه، تخليت معه عن حجاب الرأس أيضاً. كانت الذريعة جاهزة، كما هي لدى الكثير من النساء اللائي يرتدينه على سبيل المداراة، ومسايرة للتقليد الاجتماعي السائد، وليس عن قناعة شخصية، فأول ما يبدينه خصلة من الشعر، ثم مقدمة الرأس، ثم يقتصر الأمر على غطاء الرأس مقابل إظهار الرقبة والأذنين، قبل أن يلقينه تماماً. أما أنا، فلم أكن بحاجة إلى هذا التدرج القَلِق والوسواسي، وكأني بذلك، أمارس نوعاً من النكاية بـ«أولئك» الذين يرغمون النساء على التقيّد بما يؤمنون به، ويغطون حتى دمى الثياب في محلات الألبسة النسائية، وتماثيل حوريات البحر المحيطات بالسندباد البحري، في ساحة الطيران وسط البصرة.

كانت السماء تمطر في لندن عندما وصلنا، حصل ذلك كما في الأفلام، ففي الأفلام وحدها تمطر السماء دائماً، في هذه المدينة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

العجوز والكئيبة، ويُسرع الناس في عبور الشارع مع مظلاتهم وحقائبهم، تحت أضواء المصابيح وأنوار واجهات المتاجر الملونة، أقلتنا سيارة سوداء، ذات طابع جنائزي، تنتمي إلى نموذج سيارات الأجرة اللندني الموحد. تمالكني شعور لم أستطع تمييزه فوراً، أشبه بإحساس من يلقي عن كاهله عبئاً بحجم وطنٍ لم يعد يحمل هذه التسمية، منذ أن وطئت قدميَّ أرض المستعمرين القدامى. خيّل لي وأنا أنظر من وراء زجاج نافذة السيارة المبلل بقطرات المطر، أن ثمة شارلوك هولمز في كل زاوية، بقبعة ومعطف أسود، يحمل جريدة وعدسة مكبرة، وقد أمال قبعته على وجهه، بينما هو يتكأ على أعمدة الإنارة في كل مكان، أما المنازل الفيكتورية القديمة، فقد تراءت لي كما لو أنها ملاجئ معتمة ورثة، أو مدارس داخلية رطبة، يقطنها أوليفر تويستات وديفيد كوبرفيلدات عديدون، جوعى، ومصابون بالسل.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لندن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(1)

أعتني، منذ أشهر، بمهر انثى رمادية صغيرة السن، كُسرت ساقها في أحد سباقات الهواة في لندن، كنت قد حضرته برفقة صديقتي ناتالي، التي كانت تحاول إخراجي من جو الحزن والكآبة اللتان لازمتاني منذ وفاة عبير، فكان حضور هذا السباق أحد اقتراحاتها، وما زالت تلحّ عليّ، حتى وافقت على مضض. اختلفت هذه المرة عما سبقها من محاولات هذه الصديقة الوفية، من أجل مساعدتي في العودة إلى الحياة، إذ لم تفلح سابقاً عدداً من النزهات قمنا بها، ورحلات ريفية إلى الفريستون وافينهام وشير، في حين كان الذهاب إلى مضمار سباق الهواة مجدياً، والسبب هو تعرفي على غلوريا، أو هكذا أسميت المهر الصغيرة، تيمناً باسم بطلة رواية هوراس ماكوي الشهيرة.

كان من قبيل المصادفة المحض أن تكون ناتالي مغرمة بعالم الخيول، رغم أنها لم تمتط أو تربي حصاناً من قبل، فقط كانت تراهن عليها، عبر الانترنت، في غراند ناشيونال، وابسوم داربي، ورويال اسكوت، ونيوماركت، وهي السباقات التي تواظب على مشاهدتها في التلفاز، وتقرأ أخبارها في الصحيفة المتخصصة رايسنغ بوست.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لهذا، لم تجد مانعاً من إيواء المهر المكسورة ساقها في الحديقة الخلفية لمنزلها الواقع في داجنهام، والذي انتقلت للعيش فيه معها، بعد الحادثة بفترة قصيرة، ريثما أعثر على سكن مناسب. أشفقت عليها هي الأخرى، وساندتني في الحؤول دون قتلها وإجلائها إلى مجازر تونتون وشيشير، حيث يتم هناك قتل من ستة آلاف إلى عشرة آلاف حصان كل عام، وتصدير لحومها خارج بريطانيا، لتُقدم كأكلات نوعية ومفضلة في مطاعم طوكيو وباريس، وفي إيطاليا وبلجيكا. بالإمكان رؤية حصان يعدو في مهرجان تشيلتنهام، وبعد أيام يُقدّم لحمه ضمن طبق يُسمى ساشيمي، على طاولة العشاء في طوكيو، أو في أحد شوارع باريس الخلفية القذرة، حيث يلتهم الرواد بنهم أطباق مخ الخيل المضاف اليه الخبز المطحون، وقلب الحصان المحمر ووجناته المسلوقة، الى جانب الطبق الرئيسي لكفل الفرس، بعد تقطعيها وتخليصها من العظام، في مشهد يعيد إلى الأذهان، التشفّي الغذائي، أثناء الثورة الفرنسية، بالطبقة الارستقراطية، من خلال ذبح خيولها وسد جوع الثوار بلحومها. أتذكر بهذا الصدد، في إحدى سفراتنا القليلة إلى فرنسا، كنا أنا ومارك برفقة صديق قديم له كان قد دعانا للعشاء في أحد المطاعم، وطلب طبقاً من لحم الأحصنة، وعلى الرغم من أن الانكليز لا يأكلون هذا النوع من اللحوم، ويشعرون إزاءها بالغثيان، إلا أن مارك، ومن قبيل الرغبة بالتجريب والمجاملة لصديقه الفرنسي، طلب هو الآخر طبقاً. شعرت في حينها برغبة وشيكة بالتقيؤ، وأنا أسمع مارك بالذات وأراه يستلذ ويثنى على الطعم اللذيذ، ويبدي ندمه لأنه لم يتذوقه من قبل. شعرت بالغضب، وقلت في نفسي، ألم يشبع من لحم الفرس العربية

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المكسورة ساقها، حتى يلتذ بلحوم أحصنة المضمار الخاسرة؟ استأذنت منهم، وهرعتُ إلى دورة المياه، لأفرغ ما في جوفي، ليس اشمئزازاً من لحوم الخيول، لأننا نحن المسلمون يمكننا أكلها ايضاً، لكن في حالات الاضطرار القصوى، بل لأني تخيلت كما لو أن الاثنين يلوكان بلحومنا، نحن الأفراس المكسورة سيقانها في مضمار الحياة القاسية. لم أعاشر مارك في الفراش بعدها، لفترة من الزمن، لم يكن يعلم هو خلالها ما يجري لي، كأني انتظرت حتى يتطهّر مما علق في أعضائه، في لحمه ودمه وجلده، من لحوم الذبائح الغنية بالبروتين والحديد والهيدروكسيبرولين، لنخرج معها من جسده بهيئة براز وبول وعرق وبصاق.

عندما هوت غلوريا، المهر، إلى الأرض في الدورة الأخيرة، قبل بلوغ خط النهاية، ملقية بفارسها الذي راح يتدحرج على الأرض العشبية، متخبطاً بخيبته، جن جنون المراهنين عليها من المتفرجين، غضبوا، وعبست وجوههم، وشرعوا بالصراخ، مطالبين بما يجب فعله.

«اقتلوها! اقتلوها!»

هكذا كانوا يرددون، وهم يطوحون بقبضات أيديهم. رأيت بعدها مجموعة من الأشخاص، بينهم من يمتطي أحصنة، يتجهون نحو المهر، التي ظلت ممددة على جنبها وتتلوى، ترفس بقائميها الخلفيين مرة، وتحاول النهوض مرة أخرى، لكن عبثاً. أمسك ثلاثة من هؤلاء بالمهر الكسيرة، من رأسها وباقي جسدها، في حين راح الرابع ينزع عنها أربطة السرج، شخص خامس يرتدي قبعة رعاة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

البقر، كان يراقب عن قرب، انحنى عليها، وراح يتفحص قائمتها الأمامية اليسرى، وعلى ما يبدو، أنه من يبتّ في ما إذا كانت إصابتها تستوجب القتل الرحيم أم لا. لم أتبين الأمر، إلا عندما رأيت جرّاراً يسحب مقطورة وهو يقترب من المكان، لم أعد أرى شيئاً بعدها، فقد ضربوا حاجزاً بين الفرس والجمهور، الذي ما زال المراهنون منه يطالبون بقتلها، وعلى ما هو واضح، أن هذا بالضبط ما سيحدث.

أخبرتني ناتالي، بحكم خبرتها في هذه الميادين، أنهم بصدد حقنها بمخدر، تمهيداً لإخلائها إلى مكان ما، يتم فيه التخلص منها. لم يكن من الصعب عبور الحاجز الفاصل بين المضمار ومدرجات المتفرجين، فقد كان مضماراً للهواة، لا يتقيد بالقوانين السارية في مضامير على مستوٍ عالٍ، من طراز إينتري في ليفربول، حيث يندر هناك قتل الأحصنة أمام الجمهور، أو بسبب تواجد العائلة المالكة، أو أحد الشخصيات الزائرة، من مالكي الخيول باهظة الثمن. ورغم الصعوبة لكني استطعت اجتياز الحاجز، غير عابئة بمحاولة منعي من قبل ناتالي، التي لم تصبر طويلاً، حتى لحقتني بالطريقة نفسها. كنت قد تعثرت في الطريق، وهذه عادة الأفراس المكسورة سيقانها، دائمة التعثر، كما سيحصل مراراً لغلوريا، المهر الكسيحة، المسكينة فيما بعد. وصلت في وقت، كانت تفقد فيه وعيها تدريجياً، بفعل المخدر، حتى لم يعد يتحرك منها شيئاً، سوى رأسها، الذي كانت ترفعه بين حين وآخر، كذلك منخريها اللذين كانت تزفر منهما، وعينيها الجاحظتين، اللتين أظهرتاها كما لو أنها في النزع الأخير من حياتها. فوجئ فريق الإخلاء، الأحرى الجزّارون، بظهوري على ذلك النحو.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

صرخت بهم: توقفوا أرجوكم! إلا أن أحداً لم يعرني انتباهه. ألقوا عليَّ نظراتهم المزدرية فحسب، وهم واقفين، متخصّرين، بانتظار فقدان غلوريا وعيها تماماً، ليتسنى لهم نقلها إلى المقطورة، وحين صرخت بهم ثانية، بعلو صوتي هذه المرة، أومأ الرجل الذي يرتدي قبعة رعاة البقر، لاثنين من الفريق، بغية صرفي من المكان، لكني لم أترك مجالاً ليفعلا ذلك، وخاطبت الرجل ذا القبعة، طالبة منهم أن يتركوا الفرس وشأنها، بعدما ألقيت بنفسي عليها، في مشهد لا يتكرر إلا في الأفلام، قلت له:

«لا تقتلوها أرجوكم، أنا سأعتني بها!»

استغرب الرجل مما فعلت، حسبني مجنونة، أو أحد ناشطي الرفق بالحيوان، ممن يمكن العثور عليهم في السباقات، والمجازر، من أجل إنقاذ الخيول المهجنة الأصيلة. يقال أن الأحصنة تشمّ رائحة دماء أقرانها القتيلة، المسنة أو التي لم تعد سريعة، أو قادرة على القفز واجتياز الحواجز، بما يكفي، وفي هذه المجازر، يتم قتل الواحد منها تلو الآخر، أمام أعين بعضها البعض، إما بالرصاص أو مطرقة ثقيلة يُهشّم بها جانب المخ، ثم تُحمل الجثث في شاحنات بثلاجات كبيرة، ليتم تقطيعها وتغليفها، وفي النهاية تصديرها إلى بلدان يطيب لكثير من سكانها تناول لحوم الخيول.

«نحن نقتل هذه الخيول لا لنلقيها مع النفايات أو في البحر لأسماك القرش يا سيدة! والآن، هلا تنحيتي جانباً من فضلك؟»

«ماذا تفعلون بها؟» سألته

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كان صياح المتفرجين ومطالبتهم بقتل غلوريا يزداد حدة ورائي، في وقت كانت ناتالي تبرك إلى جانبي، وثمة نظرة تحدٍ تبرق في عينيها.

«نبيعها الى المجازر!» قال الرجل.

«أنا أشتريها منك!» قلت بنبرة لا يعوزها التوسل.

«ماذا تفعلين بها يا امرأة، إنها بحكم الميتة؟!»

«هذا لا يهمك، خذ مالك واتركها لنا إن كان لا يهمك سوى المال!»

«المسألة ليست في المال» أردف الرجل، الذي يرتدي قبعة رعاة البقر، أرسل إلى أفراد فريقه نظرات متسائلة، فهزّوا هؤلاء رؤوسهم، ثم قال:

«500 جنيه!»

«قبلت!» هتفت وأنا احتضن غلوريا

«خذيها»

لم أساومه على ثمن البيع، كنت أريد إنقاذها فحسب. قالت ناتالي إنه ثمن باهظ مقابل مهر مكسورة الساق، ونصف ميتة، لكني لم أشترها لأمتطيها وحين يصيبني الملل أتخلص منها، كما يفعل بعض الانكليز، الذين يتخلى أولادهم عن مهورهم، فيبيعونها، ليتم سوقها إلى المسالخ، لن أتركها للجزارين، وزبائن المطاعم النهمين، الذين يفضلون المهور الصغيرة، كما الفتيات الصغيرات، لطراوة لحومها، واحتوائها على العضلات ذات الجودة العالية، هكذا قررت.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

نقلنا غلوريا إلى مستشفى بيطري تابع للصليب الأزرق، وهي منظمة تهتم بالحيوانات غير المرغوب بها من قبل أصحابها، أو حيوانات الشوارع، أو المريضة، أسست، أثناء الحرب العالمية، وهي أول مستشفى لعلاج الخيول المتضررة جراء المعارك. هناك، رقدت غلوريا فترة من الزمن، حتى تعافت على يد طبيبة بيطرية، ثم قمنا بنقلها إلى الحديقة الخلفية لمنزل ناتالي، التي كانت كريمة معي، إلى درجة أنها سمحت بابتناء اسطبل صغير. ظلت ساق غلوريا شديدة الالتواء، مما جعلها تمشي على ثلاث، في مشهد مؤلم، ذكرني بفترة ما بعد الاعتداء، رغم أني لم أكن أعرج. بدأت، بمرور الأيام، الاعتياد على رؤيتها، وهي بهذا الحال، عاجزة، وغير قادرة على ممارسة نشاطها، في الجري والقفز، كما كانت تفعل قبلاً، فهي بالكاد تحجل لمسافة قصيرة، قبل انهيارها، واضطرارها إلى الاستلقاء في مسكنها، لفترات طويلة، وهو ما يشعرها بالتعاسة والوحدة، ويؤثر على تدفق الدم فيها. صرت أطعمها بيدي، وأروّح عنها، وأغسل جسدها، وأطببها، لكنها ما زالت حبيسة الحديقة الخلفية، وأظنها ستبقى كذلك بقية عمرها. وكما لو أنها استسلمت لقدرها، مدركة عدم صلاحيتها للسباقات أو حتى لحمل الأوزان، لم تحاول خلال فترة التعافي والعلاج القيام بجولة في الجوار، أو يدفعها شعورها بالملل إلى الخروج. كانت حزينة، وكئيبة، وبدت من نظراتها كأنها تلومني على انقاذي لها، أو هذا هو شعوري حين أفقت من الاغماء، في القاعدة البريطانية، ووجدت أني ما زلت على قيد الحياة.

لم يتبق لي في هذا البلد الغريب والبعيد، سوى هذه المهر

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وصديقتي ناتالي، فلا قريب ولا زوج ولا أخت. لهذا، تحملت تكلفة تربية غلوريا اليومية، صرت أشتري لها الشعير والقش، الفيتامينات والمواد المعدنية، والحبوب المغذية المكونة من القمح والألياف، وأخضعها للكشف الطبي، ولكشف المشاكل المعوية، والكشف عن الأسنان، فضلاً عن المطاعيم والحقن ضد أمراض داء الكلب، الكزاز، وأنفلونزا الأحصنة. كانت غلوريا بحاجة إلى إعادة تأهيل، الغرض منها استمرارها في الحياة فحسب، وليس من أجل عودتها إلى مضمار السباق، فالعودة إلى مضمار السباق، بالنسبة لفرس مكسورة ساقها، تشبه إلى حدٍ ما عودة امرأة مغتصبة إلى مضمار الحياة، أمر صعب للغاية، فإذا حدث واجتازت إحداهنّ أزمة ما بعد «الكسر» سيظهر في النهاية من يكسر لها ساقها الأخرى. فعندما كُسرت ساق حصان السباق «ألايدر» أُخضع إلى عمل جراحي، لكن سرعان ما عادت ساقه الأخرى لتُكسر هي الأخرى بعد يومين، فانتهى به الأمر بما يسمونه الموت الرحيم. أقول «أزمة ما بعد الكسر» لأن الكسر عند المرأة في العراق يأتي بمعنى الافتضاض، عروساً كانت أم مختطفة، برضاها أو رغماً عنها، على فراش العرس أو على أرضية قذرة في مكان خرب. هناك أهزوجة يرددها أصدقاء العريس في ليلة الزفاف تقول «الليلة كسرك يا حمامة!» في حين تجد من يقولها هامساً، سائلاً، عما إذا كُسرت فلانة المختطفة من قبل «أولئك»، كأن البكارة، ذلك الغشاء الرقيق والهش عبارة عن زجاجة في الحقيقة، والدم الذي ينضح ليعلن عن عذرية الفتاة ليس دم الحمامة المكسورة، إنما هو عائد لبطل الفيلم الجنسي، القضيب الذي عاد من المعركة مصاباً بجروح في رأسه.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

تذكرني إعادة تأهيل غلوريا بمرحلة إعادة التأهيل، النفسية والبدنية والطبية، التي مررنا بها أنا وعبير، بعد انتقالنا إلى لندن. وعلى العكس مني، لم يكن من الصعوبة على عبير التكيّف مع الوضع الجديد، صحيح أنها ظلت تعاني من حبسة الكلام، لكنها تعافت بشكل، لا يبدو لمن يراها عليه، كما صورتها الصحف ووسائل الإعلام البريطانية، التي ركزت على موضوع قتل النساء المغتصبات، وفي المقابل أغفلت ذكر أي شيء آخر يتعلق بمسألة التلوث الإشعاعي، الذي ساهمت بريطانيا بانتشاره في البيئة العراقية. أغاضني الأمر كثيراً، وحاولت لفت الانتباه إلى ما يحدث للناس هناك، بسبب هذه الإشعاعات، من خلال مقالات، وخطابات ألقيتها في عدة مناسبات، في لندن ومدن أخرى، خلال السنوات الخمس الأولى. أتذكر اللغط الذي كان يدور في حينها، فهناك من تعاطف مع القضية، البعض اتهمني باستمالة المشاعر من أجل مكاسب تعويضية، وآخرين عدّوا الأمر مجرد هراء، إذ لم يثبت بالدليل القاطع، أن الأسلحة التي استخدمتها أمريكا وبريطانيا هي السبب في انتشار التلوث الإشعاعي في العراق. وعدا ذلك، كانت «قضية عبير» تسرق الأضواء في كل مرة، ناهيك عن التكتم الإعلامي بشأن هذا الأمر، فلا تجد جهة إعلامية هنا أو هناك تتحدث بها، إلا ويهيمن على الحديث موضوع اغتصاب الأطفال في الشرق الأوسط. الموضوع الذي يبدو، وهم يتكلمون عنه، كأنه لا يحدث في بريطانيا، في تلفورد، وروثرهام وأكسفوردشير مثلاً، ومن قبل في المستعمرات البريطانية، عندما أُرسل إلى هناك مائة وخمسون ألفاً من الأطفال الوحيدين واليتامى والفقراء، نسبة كبيرة منهم تعرضوا لانتهاكات جنسية. وغير ذلك،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

فإن نسبة تتراوح من ألف وخمسمائة إلى ثلاثة آلاف طفل دون سن الثالثة عشرة، يتعرضون للاغتصاب سنوياً في المملكة المتحدة، منها جريمة اغتصاب طفل يبلغ من العمر شهراً واحداً، في جرافسيند.

من ناحية أخرى، على الرغم مما تعرضتُ له، كانت قضيتي تتضاءل منذ وصولنا إلى لندن، مقابل تنامي الاهتمام بقضية عبير. شعرت حينذاك أني منسية، وكأنهم يقولون لي: أنتِ فرس كبيرة وقوية بما يكفي لاحتمال أكثر من كسر، لكن هذه المسكينة، هذه الصغيرة المسكينة.. أوه! كم هذا فظيع يا إلهي! إذ كان حمل عبير وإجهاضها وهي في مثل هذا السن حدثاً كارثياً، قياساً بما يحدث للأكبر سناً، ففي فترة قصيرة، ربما خلال أسبوع، أصبحت عبير من المشاهير. خيّل لي أن ما يحدث من تنامي شهرتها كان يروق لها، ورغم أنها لم تكن شهرة فنية، كما يحدث مع الممثلات الصاعدات، لكني شعرت أنها متآلفة معها. لم يكن ذلك ليزعجني، أو يسرق مني الأضواء، فأنا في النهاية لست أليسا ميلانو أو أنجلينا جولي أو ليدي غاغا، لكي أثير الانتباه إذا ما فكرت أن أضع اسمي ضمن وسم Me too.

لم أجد في دخول المصح فكرة عادلة. كانوا يريدون التأكد ما إذا كنت أريد الانتحار، الفكرة التي قاومتها طيلة أشهر، حتى تلاشت أخيراً لصالح الرغبة بالعيش من أجل عبير، ومحاولة البدء من جديد، على أرض جديدة ومجتمع مختلف، لا ينظر إلى المرأة المغتصبة نظرة تمتزج فيها الشفقة مع الشعور بالعار، ولا يزوجها بالمغتصب دفعاً للفضيحة، كما يحصل في بلداننا. وطيلة فترة التأهيل وما بعدها،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

خضعت لأكثر من عملية تجميلية لوجهي، الذي تغير عما كان عليه في السابق، ومع أن الكثير من التشوهات لم يعد لها وجود، لكني وفي كثير من الأحيان، أُذهل عندما أنظر إلى وجهي في المرآة، فيتراءى لي وجهاً آخر لا أعرفه تماماً. وكحال العديد، من النساء المنتهكات، لم أنجُ من متلازمة صدمة الاغتصاب، خصوصاً في الأسابيع الخمسة أو الستة الأولى، حينما كنت ما أزال في القاعدة البريطانية. أصبح النوم لساعتين متواصلتين أمنية بالنسبة لي، تبلدت أحاسيسي، وتضاءلت عاطفتي، وتشتت ذاكرتي، ولم أعد قادرة على تنظيم أفكاري، في ما يخص الكثير من الأشياء، التي ظننت حينئذ، أنها أضحت من دون جدوى، كالتخطيط لمستقبل جديد، في أرض بعيدة. بتّ أتذكر الآن، كيف أن يوماً، من تلك الأسابيع البائسة وأسوأ أيام حياتي، لا يمر من دون التقيؤ فيه، أو الشعور، في أقل الظروف ضراوة، بالغثيان. كنت أحس في كثير من الأوقات، بعدم القدرة على الحركة، قلقة دائماً، وأرتعش، وحساسة إزاء أي نوع من اللمس، أو ردود أفعال الآخرين، ولا أحتمل حتى ثقل كفّ تطبطب على كتفي. أصبحت وسواسية بشأن النظافة، شاردة الذهن، حائرة، وأفكر بإنهاء حياتي، مع إدراكي أن فكرة كهذه، سيكون من الصعب تنفيذها، وعبير موجودة، على قيد الحياة، وبحاجة إلى عنايتي، أنا التي كنت أحوج إلى من يعتني بي. حاولت، في لندن، بمساعدة اخصائية نفسية انكليزية، العودة الى التكيّف مع العالم الخارجي، الذي كنت أشعر حياله بالخوف، إلا أن اضطرابات داخلية عميقة ومضنية، كانت تحد من رغبتي في اجتراح اسلوب حياتي جديد. احتجت إلى أشهر عديدة، لأتأقلم مع وضع ما بعد الانتهاك، وبما أني صرت أعيش على أرض جديدة،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وبين أناس آخرين، كنت أميل أحياناً إلى التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، وفي أحياناً أخرى أجدني لا أكف عن الحديث بشأن الاعتداء. وعلى العكس، في أوقات معينة، أرفض مناقشة الأمر مع آخرين، بمن فيهم الاختصاصية النفسية، أنطوي على نفسي، وأرغب في السفر، وتغيير الأماكن التي لا أشعر فيها بالأمان، حتى عندما صرت ألتقي مارك، كنت لا أزال أعاني من اعتلال صحتي، القلق، الشعور بالعجز، الاحباط، الأرق، الخوف، فرط العصبية التي بدأته مع عبير، الاكتئاب، تقلب المزاج، اضطراب النوم، أحلام اليقظة والكوابيس المتكررة، السهر والذعر الليلي ونوبات الهلع وعذاب ذكريات الماضي، وشعوري المريع بالفصام، والانفصال، انفصال الروح عن الجسد، ونشوء الأوهام المتعلقة بالانتقام. كل هذا، حاولت إخفاءه، لكي تبقى عبير في عهدتي، فكثيراً ما كان يخيفني احتمال الفصل بيني وبينها، بسبب تفاقم حالتي النفسية، وكنت أنجح دائماً، وأحاول الثقة بقدراتي على التكيّف بمرور الوقت، وهو ما أزعم أنه حصل في النهاية، لكن الحقيقة هي أني استمررت في التظاهر، حتى أمام نفسي، وأمام الكاميرات، بأن كل شيء يسير نحو الاستقرار. هناك العديد من الأشياء كانت تذكرني بالانتهاك، حتى قراءة روايات فيها ذكر للخيول، أو رؤية لوحات، أو مشاهدة أفلام، مثلما حدث في إحدى الأمسيات حين كنا نشاهد، أنا ومارك، فيلم المافيا The godfather في المنزل، ذُعرت من مشهد رأس الحصان المقطوع، الذي وجده الممثل جون مارلي في فراشه، وكان رأساً حقيقياً، جلبه مساعدو المخرج من أحد مصانع طعام الكلاب، تخيلته رأسي ودماءه دمائي. وكما لو أن هذا حدث من دون وعي مني، وجدتني

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أتشبث بمارك وأهزّه، بينما أنا أصرخ وأطلب منه إطفاء التلفاز. كانت هيستيريا مخيفة، نوبة جنون، من تلك التي لا أتمالك فيها نفسي، وأتحول إلى كتلة من الأعصاب المنهارة. عندما نمت، كانت هناك الكثير من الكوابيس المروّعة، رأيت خلالها رأسي يتدلى من حافة مقصلة، كان رأس حصان بدماغ مهشمة، وشعر امرأة يقطر دماً، وكنت كلما أفقت، وأنا في غاية الفزع، أتحسس يديَّ، لأرى إن كانتا ما تزالان لزجتين، كما ظهرتا في المشاهد الكابوسية، التي لا أعرف من يبتكرها لترويع النيام. وفي مرة ثانية، تمنيت لو أني فرس برية جامحة، مثل سبيريت، الذي رفض الترويض والعبودية، لكني أدركت متأخرة، بعد جولات خيالية عديدة، أن شيئاً كهذا، لا يحصل إلا في أفلام الرسوم المتحركة، إذ تُصطاد الخيول البرية في نهاية المطاف، لتُستخدم لحومها في إطعام الكلاب، كما في فيلم The misfits، أما في ما يخصّ ترك عدوان نزاعهما جانباً، من أجل تحرير فرس جريحة، وعالقة وسط الأسلاك الشائكة، فمثل هذا المشهد لا يدور إلا في مخيلة ستيفن سبيلبرغ.

كنا قد أقمنا في البداية، وعلى مدى عام، في شقة ضمن عمارة قديمة، تقع في شارع هادئ، وسط حي ماريليبون. قابلنا الكثير من الشخصيات هناك، مدنية وسياسية وفنية، وأخرى معنية بحقوق الإنسان والطفولة وضحايا الحروب والكوارث، وبعض اللوردات، والأسماء الحكومية، وكُتّاب سير أبدوا رغبتهم في الكتابة عن عبير. تلقينا رعاية خاصة، سواء من قبل الحكومة البريطانية أو المنظمات المجتمعية، صرنا مدللين فجأة، ومحط اهتمام الجميع. لم يكن ما

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يحدث في حينها مبعث رضا أو راحة بالنسبة لي، كنا نريد الهروب إلى مكان آمن فحسب، لا أن نغدو من أشهر المغتصبات في العالم. نعم، ربما أشعرني ذلك بشيء من الأمان، لكني بدأت أحسّ، مع الوقت، أننا تركنا أنفسنا عرضة للفرجة، مثل حيوان نادر، يأتي كل هؤلاء لمشاهدته والتقاط الصور معه، قبل أن ينقرض. لم أواجه صعوبة كبيرة في دراسة اللغة الانكليزية، فكما قلت سابقاً، كنت أعرف الكثير من هذه اللغة، وطوّرتها خلال فترة عملي في القاعدة البريطانية. كانت الانكليزية أحب الدروس إلى نفسي، كنت أمني نفسي بالدارسة في كلية الآداب، قسم اللغة الانكليزية، واحتراف الترجمة، وهذا أقل ما كنت أتمناه، وترى مدرّستي أنه المجال الأقرب لي، مع أني لا أقل كفاءة في دروس أخرى، كالفيزياء والكيمياء والرياضيات واللغة العربية. كنت متفوقة بما يكفي، لجعلي موضع حسد بنات المدينة المترفات، اللائي ما زلن، حتى ذلك العمر، عاجزات عن تغطية أنفسهن عند النوم، ويمارسن الجنس الالكتروني في انتصاف الليالي. كثيراً ما كان أبي يتباهى بتفوّقي، لكن يحبطه توبيخ أولئك الذين يرون في المرأة المتعلمة، حطّاً من رجولتهم، وأن مكان النساء، في نظرهم، في الحجرات المعتمة والأقبية الرطبة، التي تسمى غرف نوم ومطابخ. اكتشفت، بعد فترة، أن ما تعلمته ليست هي الانكليزية نفسها، التي يمكن سماع شاب وفتاة يتحدثان بها، أثناء تبادلهما القُبل في المترو، أعني بذلك طريقة الانكليز باللفظ. كنت قد كففت عن القراءة بالعربية، واتجهت إلى تقوية انكليزيتي بقراءة الكتب بلغة أهل البلد، حتى تمكنت منها. كانت القراءة واحدة من عدة خيارات وجدت فيها شيئاً مما أضعته عبر السنين الماضية، وإن لبعض الوقت،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

قد يمتد لساعات. كنت قد بدأت أقرأ فعلياً في منزل الخالة ماري، حيث كانت هناك، في الطبقة العلوية، مكتبة عائدة إلى والد إيفان المتوفى، قالت لي مرة، أنه كان كاتباً مسرحياً، لا يحب الظهور، وعلاقاته بالوسط الثقافي ضئيلة جداً، بحدود ما يسمح له مزاجه النخبوي المعقد، من إمكانية التواصل مع الآخرين، بالكاد ظهر له عمل واحد على خشبة المسرح، في سبعينيات القرن الماضي، أمسك بعدها عن الكتابة، مع صعود صدام حسين إلى السلطة وانهيار تحالف الشيوعيين مع البعثيين أو ما يسمى بالجبهة الوطنية، قبل موته متأثراً بجراح أصيب بها، أثناء إحدى نوبات القصف المدفعي الإيراني، على البصرة، في بداية الحرب. هناك، في منزل الخالة ماري، وقعت يدي على رواية إنهم يقتلون الجياد أليس كذلك، وعلمت في حينها أن ساق الفرس تشبه أرواح النساء، إذ عليها أن تكون قوية وصلبة، في الآن نفسه، بما يكفي لتحتمل وزنها ووزن الراكب، وناعمة وخفيفة ورشيقة، بما يضمن لها الجري بأقصى سرعة، والويل، كل الويل لمن تُكسر ساقها، أو روحها، فروح الأنثى تُكسر هي الأخرى، مثلما تُكسر عينها، ويُكسر أنفها، ورأسها.

الروح تعرجُ أيضاً، وعوق الروح في انكسارها.

أما عبير، فلم تنفع معها محاولات الاختصاصيين في مساعدتها على استعادة النطق. لقد تحسنت كثيراً بفضل العلاجات النفسية والطبية والطبيعية، وأصبحت أكثر إقبالاً على الحياة، ولا تبدو مكترثة كثيراً بكونها ضحية. لم يحدث خلال عام التأهيل، ولا العام الذي تلاه، شيء يستأهل مني إمضاء الوقت في الحديث عنه،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

باستثناء انتقالنا إلى سكن جديد واللقاء بمارك مرتين. كانت فترة نقاهة وعلاج. ببساطة، كنا نأكل ونشرب وننام، وقلما نخرج للنزهة، والتنقل بين المتاحف والمزارات القريبة، كمتحف مجموعة والاس، ومتحف شرلوك هولمز، هايد بارك، شارع إدجار رود، حيث توجد عشرات المطاعم والمقاهي والمتاجر العربية، التي كنت أتحاشى الدخول إليها، أو الالتقاء بروادها، خصوصاً العراقيين. كنا نحاول الاعتياد على الحياة الانكليزية قدر الإمكان، والتكيّف مع مجتمعها الذي يبدو جاداً في احتضاننا، رغم جفائه. كنت سأكون أكثر سعادة بذلك، لولا النظرة التي أشعرتني بالوخز أكثر من الشفقة، كنا نجري لقاءات وحوارات اشترط فيها البقاء محتجبة عن الأنظار، فلا يظهر مني شيء سوى صوتي، يأتي من وراء ستار، يُضرب بيني وبين المحاور. لكني، ما أن بدأ وجهي باستعادة ملامحه، بفضل العمليات التجميلية، حتى بدأت بالظهور أمام الكاميرا مباشرة. لهذا، سأنتقل إلى عام 2009، بعد عامين وثلاثة أشهر على وصولنا إلى لندن، لأبلغ النقطة المحورية التي غيّرت حياتي وحياة عبير أيضاً، وهي التقائي بمارك للمرة الثالثة.

كانت المرة الأولى في نهاية عام 2007، حين زارنا أثناء إجازته السنوية، وكانت عبير أكثر سعادة بلقائه. بدأت على الفور إرسال إشارتها القلبية له، بينما كان هو يلاطفها، وينكش شعرها، ويفتح معها هدايا كان قد جلبها معه. لم نتحدث كثيراً، كان يسألني اسئلة عادية مثل: هل أنتما بخير؟ هل تشعران بالأمان؟ ماذا تخططان؟ كنت أجيبه باقتضاب وكأن الأمر لا يعنيني. شعرت بالفظاظة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ونكران الجميل، قبل أن أدرك أني عاملته بشكل طبيعي، وفق ما يريد هو أو حسب نموذجه المدني المختلف، الذي أظهره كأي زائر جاء ليطمئن إن كنا نفكر بالانتحار، فرحت أبادله المجاملات التي كان يسبغها بين الحين والآخر، أو بعد كل فترة صمت لا يجد فيها كلانا ما يقوله، وكنتُ أشعر خلالها أنه يبذل جهداً كبيراً في عدم الالتفات إلى الوراء، وتذكيري بحادثة الاعتداء. لكنه، وهذا ما ظننته، فشل في التعامل معي بشكل عادي، كأي امرأة لم تتلق الطعنات والكسور. كان مصطنعاً، ولم يرق لي هروبه من حقيقة أن شيئاً في هذا العالم، لن يساعدني في استعادة نفسي، لأكون بالتالي امرأة طبيعية، متصالحة مع نفسها.

المرة الثانية، التقيته عن طريق الصدفة، في العام الذي تلاه، في شارع أكسفورد، على مقربة من متجر سلفردج، واحد من أكبر المتاجر العالمية. كان يتفحص ساعات مزيفة يبيعها باعة متجولين، على الرصيف المزدحم هناك. حدث ذلك في وقت كنا قد انتقلنا للعيش في وايت تشابل، ذات الأكثرية البنغالية المسلمة. المنطقة هادئة، وملائمة للعيش، وأليفة نوعاً ما، رغم ارتباطها التاريخي بسلسة من جرائم القتل ارتكبت ضد عدد من بائعات الهوى، في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر، نفذها قاتل مجهول صار يُعرف فيما بعد بجاك السفاح. كان اللقاءان عاديين، أو هكذا خلتهما من خلال ما لاحظته على مارك. كان مختلفاً في الحياة المدنية، عما هو عليه في الحياة العسكرية، أكثر هدوء، وأقل حماساً، وثمة سمة طرأت عليه وأمكنني التقاطها حينئذ، وهي الخجل، أو، لا أعرف

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بالضبط ماذا يعني أن يشيح أحدهم بنظره ناحية أخرى، لكي يتلافى النظر إلى محدثه، بطريقة لا يمكن معها، عدم ملاحظة شعوره بالخجل، سمة اكتشفت، فيما بعد، أنها لم تكن خجلاً، بقدر ما كانت هروباً من انعكاس غضبي منه وحنقي عليه.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(2)

كنت قد أعطيت مارك عنوان سكننا الجديد، في المرة الثانية، لكنه لم يفكر بزيارتنا، ولم أعد إلى رؤيته إلا بعد مضي عام تقريباً، في عام 2009، عن طريق الصدفة أيضاً، أثناء اعتصامات رمزية قام بها مجموعة من دعاة السلام ومناهضة الحروب، في حديقة هايد بارك، مساء التاسع عشر من آب/ أغسطس، الذي يصادف عيد ميلاد عبير قاسم حمزة. كنت في حينها ضمن أعضاء منظمة نسوية تُدعى منظمة إرادة المرأة، انضممت إلى نشاطاتها قبل عام، تهتم بقضايا وشؤون المرأة العراقية وحقوقها في مجالات التعليم والعمل والوضع الاجتماعي والقوانين، وتدافع عن حقوق السجينات واللاجئات. كان مارك يحمل، كبقية المتظاهرين، شمعة وصورة لعبير، الفتاة العراقية، التي افترسها اليانكي الأربعة في جنوب بغداد. اندهشت لهذا التغير المفاجئ، فمن ضابط مشارك في حرب شُنّت رغم أنف الجميع، إلى مناوئ لها. ماذا حدث في النهاية، وجعله يرفض فجأة هذه الحرب؟ هذا السؤال وغيره طرحتها على مارك، في يوم أحد، بعد خمسة أيام، في الحديقة نفسها، على مقربة من ركن الخطباء أو ما يسميه الانكليز سبيكرز كورنر، حيث يعتلي بعض المعتوهين هناك صناديق خشبية، ويتجادلون في قضايا دينية

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وسياسية. قال أنه استقال من الجيش قبل أربعة أشهر، بعد ادراكه المتأخر بعدم عدالة الحرب.

«وهل هناك حرب عادلة أصلاً؟» سألته.

«لا أظن» أجابني وهو يشرد بنظرته بعيداً، ثم يعود لينظر إليّ قائلاً: «ربما قصدت أنها حرب غير مبررة، حرب طائشة، ارتكبت فيها الكثير من الفظائع، وتسببت في حدوث الآلاف غيرها!»

«وتظن أنك متأخر في موقفك هذا؟» سألته، وأجابني بأحد الأمثال الانكليزية الجاهزة، التي دائماً ما يعتمدها في حال وجد نفسه محاصراً.

«أن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً!»

قالها وهو يبتسم، وبدا كمن يعبر من خلالها عن دهشته، بعدما أخطأته رصاصة في الرأس. كنا قد تركنا ركن الخطباء، ورحنا نتمشى عبر ممرٍّ مائيٍ بيضوي الشكل، يمثل النصب التذكاري للأميرة ديانا، التي اعتبرها هي الأخرى فرساً مكسورة الساق، لكن من نوع خاص، طراز ملكيّ رفيع على الأرجح. كان مارك يستوقفني كل ثلاث أو أربع خطوات، في حال كان هناك تركيز على عبارة ما، أو نقطة يرى أنها من الأهمية ما يستدعي قولها في حالة سكون. بدا أكثر شباباً، عما كان عليه وهو يرتدي الثياب العسكرية، قبل ثلاث سنوات، عينان صغيرتان، بالكاد تظهر زرقتها تحت سماء لندن الغائمة، زرقة كانت تبدو أكثر إبهاراً ووضوحاً، تحت شمس البصرة الساطعة، التي تزيدها لمعاناً. تذكرت مرات سابقة تحدثنا فيها معاً، وقد تراءى لي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كأنه ليس هو الضابط الذي أنقذ حياتي. لا أعرف لماذا كنت حانقة عليه، ربما لأنه لم يتركني للموت، لكن، هل يحنق المرء حقاً على أحد، لمجرد أنه انتشله من ميتة لا تختلف كثيراً عن ميتة الكلاب السائبة في العراق؟ كنت أدرك، إلى أيّ مدى، أن مثله لا يُلام، لعل الكثير ممن لو صادف وجودهم، في موقع المسؤولية، حيث كان هو، سيتصرف بمثل ما فعله، لكني دائماً ما كنت أجد لي عذراً بشأن غضبي منه، وعادة ما أبرر جفافي تجاهه، بداعي أنه أنقذ حياتي، حين لم أكن أرغب وقتها بمواصلة العيش في هذا العالم، بطريقة لا أحد يزعم أنها تحصل في المناطق العربية والشرق أوسطية فحسب، فهذه ناتالي، المغتصبة ثلاث مرات في ساعة واحدة، المرة الأخيرة كانت من قبل مجموعة من الرجال المسعورين. في أوربا، كما في العديد من البقع على هذه الأرض، تجد من يضحي بحياته، من أجل إنقاذ بطة برية، وفي ناحية أخرى، تجد من يرتكب أفظع الجرائم. في أحد روايات كونديرا، ولا أعرف إن كان ذلك ما قرأته حقاً، ينقذ أحد المارة شخصاً كان يروم إغراق نفسه في النهر، فيعمد الغريق إلى إغراق المنقذ، ويفعل ذلك بتشفٍّ، ثم ينصرف بعدها إلى شؤونه بغير اكتراث. هكذا كان يخطر لي أحياناً، حينما كنت أعيش الأوهام المتعلقة بالانتقام، وهو أن أجعل شخصاً مثل مارك ضمن خطة ثأر، لن تطال في النهاية أياً ممن وردت أسماؤهم فيها، ما عداه هو، نظراً لقربه مني ووقوعه في متناول اليد. وعلى قدر ما كان يحتويه ضم مارك إلى قائمة الثأر خاصتي، كونه أعادني إلى الحياة عنوة، من غرابة وربما نوعٌ سافرٌ من نكران الجميل، إلا أن هناك شخصاً آخر يبدو وجوده، في القائمة نفسها، لطخة سوداء من المفترض أنها تعمل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على وخز ضميري، كلما صحوت أو استعدت نفسي، خصوصاً إذا كان هذا الشخص هو أمي. لكن لماذا أمي؟ طالما تقت إلى معرفة جدوى شعور المرء، برغبة الانتقام، من شخص تربطه معه علاقة فيها من القرب، ما يجعل الدم ينكر أيّ احتمال في خيانة ذلك الشخص، وتورطه في ما يُعدّ، على أقل تقدير، تخلياً، وتنكراً، وتصرفاً نابعاً من أنانية وانتهازية فظة. وهل يستوجب تخلي أمي عنا، بأن أجعلها ضمن خطة الانتقام الوهمية الناتجة عن إفرازات مرضيّة، الانتقام من كل «أولئك» الذين أظنهم سعوا إلى إيذائنا أنا وشقيقتي؟ وما هو نوع هذا الانتقام، الذي أزعم تنفيذه بحقها؟ بالطبع لن يكون انتقاماً جسدياً، لعل أبعد ما سأذهب إليه في مسعاي هذا، فيما لو تحولت الأوهام إلى حقائق ملموسة، هو سعيي إلى نسيانها، كما فعلت هي حين نسيت أن لها ابنتين. لكني أعود لأتساءل: هل تخلت أمّنا عنا حقاً؟ ألم نهرب نحن من تلقاء أنفسنا، وتركناها وراءنا؟ وما الذي بوسع امرأة ضعيفة مثلها، وأحياناً منقادة لما يتبادر في أذهان الرجال حين سماعهم بفرس كُسرت ساقها، فعله لنا؟ ألم تكن بقرة حلوباً، بالنسبة لها، خير من فتاة مغتصبة، عاطلة عن الزواج، مخترقة، ولا تصلح حتى لتربية الدجاج، وتثير النعرات، ويستنكف الرجال من أن يحلفوا بشرفها المهان في الخرائب، وأبراج الطيور، وعلى أسرة أجهزة الأشعة المقطعية؟ في خضم هذه الأسئلة، أدركت حقيقة تلك المشاعر التي توهمت، وأنا في غمرة تدهور حالتي النفسية، أنها رغبة بالانتقام، ثم شعرت بما هو أكبر من كونه احساساً بتخلي الآخرين عنا، لكني أجهل ما هو، وقررت تناسيه، وكان سيتلاشى إلى الأبد، لولا زيارتي إلى البصرة، بعد عشرة أعوام من لجوئنا إلى بريطانيا.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بالتالي، قد لا أكون حانقة على مارك، بل عاجزة عن شكره، بشكل يظهرني كما لو كنت سعيدة بإنقاذه لي. ربما يشبه الأمر قصة كان يرويها لي والدي، قصة صغيرة ما زالت أحداثها راسخة في ذاكرتي، ولا أظنني سأنساها يوماً، تروي عن صياد يعمل في إنقاذ الغرقى وانتشالهم من شط العرب في البصرة. فلهذا الرجل طريقة خاصة في الإنقاذ، يتلافى بواسطتها احتمال إغراقه هو الآخر من قبل الغريق وجذبه معه إلى القاع، في حال كان المنقذ غير محترف. كان ينطح رؤوس الغرقى ويفقدهم الوعي، حتى يتمكن من إجلائهم إلى اليابسة بسهولة، من دون متاعب أو معوقات، إلا أن أحداً من عشرات الذين أنقذهم من الموت لم يتوجه إليه بالشكر والعرفان. حتى عندما مات، لم يتذكره أحد منهم، ليس لأنهم ناكرون لصنيعه، إنما ببساطة، لأنهم فقدوا ذاكراتهم بسبب نطحاته. أعتقد أني فقدت جزء مهماً مني، ما كنت لأحمل عبء فقدانه لو كنت ميتة، شيء أشبه بما حدث للغرقى الناجين على يد الصياد، الغرقى الذين لم يعد بوسع أحدهم التعبير عن امتنانه للمنقذ. لم يكن الشيء المفقود ذاكرتي، ولا حتى عِرضي، أو عذريتي، فقد انتُهكت قبل ذلك منذ فترة طويلة، حين ولدت في بيئة رثة وجاهلة، تضطهد النساء، وتزوّج الفتيات الصغيرات إلى غيلان وبعابع، ولأني فقدت هذا الشيء بإنقاذي، لم تعد حياتي بفقدانه مهمة إلى درجة تجعلني أفكر بتوجيه الشكر إلى من أنقذني، بل على العكس، عبرت عن احتجاجي على ذلك بالصراخ وترديد: لماذا لم تتركوني أموت؟! لم يكن هذا ليزعج مارك أو يشعره بالإحباط، بدا أنه ليس من أولئك الذين يفعلون الجميل لأحدهم وينتظرون منه الثناء. وكحال الكثير من الانكليز،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حتى عندما يغضب لا يظهر عليه الغضب، يخشى على مشاعري، ويوصل الرسالة بطريقة مهذبة، تحسسني بالخجل والندم في نفس اللحظة، لا يثق أو يفتح قلبه للآخر قبل أخذه الوقت الكافي، وقد تكون فترة طويلة ومملة لمن ينتظر.

أعتقد أننا مشينا كثيراً، خلال الفترة التي قضيناها في الحديقة، من الساعة الثالثة حتى الساعة السادسة مساء، وهي أوقات شائعة تبلغ فيها الحركة ذروتها هناك. مررنا بعدد من النافورات، وإلى جوار البحيرة، وبين الأشجار العتيقة المقلوبة رأساً على عقب، كما تظهر في قصص وأفلام الساحرات، قبل انتهائنا على مقربة من قوس النصر، في القسم الشمالي الشرقي. كانت تمر بنا فترات صمت، لا يجد أحدنا ما يتحدث به مع الآخر، تبدأ ملامح الارتباك واضحة، والحركات التي تنتج عن إيعازات خارجة عن الوعي، سبق أن درسها خبراء الجسد، وحددوا ما الذي يجري في داخل الانسان، وتعبر هي عنه، بتلك الصورة الممتزجة بين تفاصيلها أشياء تعجز عن قولها الألسن، في حين نفسرها نحن، على أنها ارتباك، تخبّط، او نوعٌ من الخجل. هنا، وعند بلوغنا هذا الموضع، يعمد مارك إلى كسر الجليد، الذي أحسه يغلف المسافة غير المرئية بيني وبينه، لحظة انبثاق الصمت، بالتطرق إلى أحاديث عن تاريخ المدينة، في حالة يكون خلالها أشبه بدليل سياحي، تنقصه الخبرة، رغم أنه في كل مرة يفعل هذا، يحاول تبيان درجة معرفته بلندن التي خبرتها جيداً، بطريقة بعيدة عن المنحى السياحي للأدلاء، بعمق التوغل بين طياتها، وتاريخ حافل لا يوجد في كتيبات الفنادق، التي تلفت انتباه الزائر إلى الجانب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الترفيهي والثقافي فقط، المتاحف، الحدائق، المسارح، الغاليريات، المطاعم، دور السينما، المقاهي، الأسواق، الكنائس التي أضحت أماكن تُستأجر لإقامة معارض الرسم وغيرها. ثم سرعان ما يعود مارك، ليوجه لي اسئلة، كان قد طرحها من قبل، لكن بصيغة مختلفة، بعضها يتعلق بحياتي الماضية في العراق، والبعض الآخر من قبيل: هل أنتِ سعيدة؟ كم بلغتِ من العمر؟ هل وجدتِ الفرصة لتكوين صداقات؟ ألم تفكري بالحب؟ كنت استشف من أسئلته تلميحات أُجبر على التظاهر بعدم فهمها، حتى لا يجد متسعاً يفضي من خلاله، بأشياء جاهدت قدر الإمكان، بعدم التفكير بها، كالحب مثلاً، وكان هو يشعر بكل هذا، فيعقب على أسئلته باستفاضة حول كلمة معينة سبق وأن أرفقها أثناء ما كان يدبج تلك الأسئلة. فحينما سألني إن كنت سعيدة أم لا، راح يفلسف كلامه عن السعادة، ثم عن التقدم بالعمر، والصداقة، والحب، أما عن هذا الأخير، فلم يختلف حديثه عما يدور في كتب التنمية البشرية من ترهات، وعن قدرة الحب على صنع المعجزات. قلت له أني لم أرَ في حياتي معجزة صنعها الحب بين اثنين. أتذكر أيضاً سؤاله عما إذا كنت أشعر بالغربة، أكثر إحساس يمكن أن ينتاب اللاجئ، بينما هو يعيش على مسافة تقدر بآلاف الأميال، عن بلده. الغربة، ربما لم يسعني الوقت لأشعر بها، أجبته، على الأقل، خلال السنوات الأولى، بسبب انشغالي بتداعيات حالتي النفسية أولاً، وبسبب ما أرجّح أن يكون نوعاً من الكراهية، يمارسها بعض اللاجئين والمهاجرين ضد أوطانهم ثانياً، الكراهية، التي تعني في أحد تفسيراتها: أنا أحب وطني الأم لكني أكره العيش فيه! نعم، ربما كرهت العيش في العراق، لكني، ويحدث ذلك غالباً ورغماً عني

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في أكثر الأحيان، أشعر بعاطفة هائلة تجاه بلدي البعيد، المضطرب، والملعون ربما. لا أعلم ما الذي يدفعني إلى هذه العاطفة تجاهه، بعد كل ما حدث لي ولشقيقتي فيه، غير أني أعلم، من جهة أخرى، أن عاطفة غير مسيطر عليها كهذه، تختلف عن الشعور بالغربة، وهو ما يثير فينا الحنين، هذه الآفة النفسية، ويثير معها سؤالاً، ما انفككت وأنا أبحث له عن إجابة: أليس الحنين هو الشعور بالغربة؟ أو، أليس الحنين هو ما يجعل الانسان ،شعر بالغربة؟ وإلا لماذا يسمى اغتراباً؟

بعد لقاءنا الطويل نوعا ما والمختلف، في هايد بارك، ظننت في البداية أني لن أرى مارك، قبل مرور ستة أشهر على الأقل، فرغم خروجه من الجيش، فلا بد أن يكون له مشاغله وحياته الخاصة. غير أنه فاجأني بزيارته لنا في الشقة بعد يومين، ثم توالت بعدها زيارته، حتى أصبح صديق العائلة الصغيرة. منذ ذلك الحين، ونحن نلتقي بين فترة وأخرى، بعيداً عن وايت تشابل، نتواعد في أحد المقاهي اللندنية، أو في الحدائق، مثل ريجنت بارك بعد زيارة قصيرة لمتحف الشمع، وسانت جيمس بارك بالقرب من قصر باكنجهام، وهولاند بارك، أو في أحد الميادين كميدان الطرف الأغر، وميدان بيكاديللي، حيث يجتمع الكلبيون. في أغلب الأوقات لا أصطحب عبير، وأتركها بصحبة المدبرة في الشقة، أو قد يرافقها مارك معه للنزهة في الحدائق والمتاحف ومدن الملاهي، أو للتفرج على تغيير الحرس الملكي، واطعام الحمام في ساحة ترفلجارد. كنت أصحبهما أحياناً إلى السينما، أو لتناول العشاء في أحد مطاعم شارع إدجار رود، أو شارع العرب كما تسميه الجالية العربية، لتناول الطعام اللبناني، أو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

للتجوال على ضفاف التيمز، وزيارة معارض الفنون والمكتبات، وحضور حفلات الأوبرا والعروض المسرحية. وخلال عدد من اللقاءات المنفردة، عرفت كل شيء تقريباً عن مارك، فتح الرجل قلبه لي على مصراعيه، وراح يتحدث عن أسرته الصغيرة، التي لم يتبق منها سواه ووالده الذي يرقد في إحدى دور الرعاية، في حين توفيت أمه منذ فترة طويلة، ثم شقيقته بعد معاناة لم تستمر طويلاً مع المرض. تكلم كثيراً عن نفسه، بشكل لم ألمح فيه شيئاً من الرياء، كما ابتعد عن إضفاء أي نوع من التحفظ على خصوصياته، وما يتعلق بحياته الماضية، كما لو أنه يفعل ذلك، حتى لا ألومه على شيء لا أعلمه في المستقبل. لم يحاول استمالتي، رغم التماع عينيه بالرغبة في أكثر من مناسبة. كان يكن لي الاحترام المبالغ فيه نوعاً ما، كوني، كما يرى هو، قد حافظت على هويتي الأصيلة، فيما يخص المأكل والملبس والتقاليد والديانة. بدا شخصاً كعامة الشعب الانكليزي، يحب الشاي والسمك والشبس وكرة القدم، يمشي كثيراً، ويعيش مع كلبه في منزل صغير يقع في نايتس بريدج، حيث بنوك الأثرياء، والمطاعم الشهيرة، ومستحضرات التجميل، التحف والآثار والحانات والنوادي الراقية، وموطن أحد أشهر المزادات في لندن. كان بسيطاً في ملبسه، رغم أنه يسكن ليس بعيداً عن متاجر الماركات العالمية، مثل هارودز، هارفي نيكولز، جيمي تشو، وبرادا. يتناول عشاءه في السابعة مساء ويخلد إلى النوم في الساعة العاشرة، ويردد كلمة «آسف» كثيراً، حتى في حال نزول المطر أو اصطدام أحدهم به متعمداً، ويكاد أن يكون واحداً من ثمانية بريطانيين يعتذرون عشرون مرة في اليوم الواحد. وكما علمت منه، ليس لاسمه علاقة بمهنته

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

السابقة كضابط عسكري، فحتى بعد انخراطه في الجيش، لم تكن لديه فكرة واضحة عن أصل الاسم العائد إلى مارس، إله الحرب عند الرومان، فقد تسمى به، من قبل والدته، تيمناً باسم مرقس، أحد كتبة الانجيل الأربعة، ورغم ذلك انتهى إلى اللادينية. كان مسرفاً في التدخين، ويشرب الكحول بمعدل متوسط، ملتزم بآداب السلوك الاجتماعي، المتمثلة بالأدب، الكياسة، والتهذيب، الموروثة منذ عصر النهضة. فهو على سبيل المثال، وكما هو سائد في مجتمعاتنا، يسمح للنساء الحوامل، وكبار السن، والعجزة بأخذ دوره في الطابور، أو شغل مقعده في الباص. يسأل ضيفه ماذا يشرب، ويعتمد على كلبه في كثير من الأمور. كان جلداً، ويحتمل إلى حدّ اكتسبه أثناء خدمته العسكرية. لم تثر دهشته صفاتي أو تصرفاتي الانفعالية السريعة، لمعرفه الجيدة بالدم العربي الساخن، الذي قد يدفع المرء إلى التهور وتعكر المزاج والغضب، بالسرعة نفسها، التي يستدعي الأمر منه أن يكون في حالة من الصفاء والهدوء والمرح. بالإضافة إلى إحاطته بظروفي، وما واجهته قبل اللجوء إلى بريطانيا، وما يترتب عليه من حدة المزاج أحياناً، وربما التهور، وانتكاس الحالة النفسية، ونوبات الاكتئاب، وسوء تقدير الأمور. كنت بحاجة إلى وقت طويل، لأفهم دعاباته الانكليزية، والأسباب التي تحمله على الضحك من أمور، كنت أظن أنها في غاية السخف، قبل ادراكي مع الوقت، أن العكس هو الصحيح. وفي المقابل، دائماً ما كان يقابل هو دعاباتي ذات الطابع العربي بنظرات حائرة، ملؤها الدهشة وسوء الفهم. لقد بدا لي مارك صادقاً، وواقعياً في كل ما يقوله، حتى وهو يطلبني للزواج، بعد ثمانية أشهر، فإنه أوضح الأمر على نحو، بدا من الجليّ كم بذل من

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الجهد، حتى يبرهن بطريقة غير مباشرة، أن لا علاقة لرغبة الاقتران بي، بتوقه إلى التكفير عن خطأ مشاركته في الحرب على العراق.

كانت تلك إحدى المناسبات القليلة، التي لمحت فيها التماع عيني مارك بالرغبة. ظننت أنه سيسألني ما إذا كنت راغبة بمرافقته إلى الفراش مع علمي أن شيئاً كهذا لا يحدث، ما لم يحصل ما يدعونه بالتوافق الهارموني بين شخصين، رجل وامرأة، إذ يتوجب على مارك، في مثل هذا الظرف، استشفاف رغبتي في البداية، لكي يتجرأ بعدها على سؤالي إن كنت أرغب بمرافقته. لكن، حتى في حال حدث هذا، وكنت راغبة به أنا الأخرى، تبقى أشياء مثل الذهاب مع أحدهم إلى سريره، أو تناول لحوم الخنزير، أو احتساء كأساً من الواين، غير مستساغة بالنسبة لي، ليس لأن الامتناع عنها تقليد اسلامي بحت، بل لنوازع نفسية باطنية، كتلك التي تنتاب بعض اللادينيين العرب، وهم يسألون عن الوجهة إلى شارع إدجار رود، حيث تتوفر الأطعمة الإسلامية الحلال، كما نسميها. كان انطباعي وقتها، بشأن الوميض الشهواني في عينه، سيئاً، فقد رأيت فيه وميضاً لنزوة أكثر منه حين يتعلق الأمر برغبة رجل بامرأة. نزوة النوم مع امرأة سبق وأن انتُهكت بطريقة وحشية. لم أستغرب، فهناك من يشتهي مضاجعة امرأة مشوهة، أو بدون قدمين، أو عمياء، أو مصابة بالسرطان، أو بدينة، أو معضّلة، أو عجوز هرمة، أو ثملة وغارقة بالبول والبراز والقيء. هناك من يشتهي ممارسة الجنس مع حائض، لا لأجل شيء سوى سماع صوت لزوجة الدم، أو يستعيض عن عضوه التناسلي بيده المبتورة، أو يفرشخ امرأة جريحة، مبضعة،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بسبب حادث اصطدام، ويلجها بين الدماء، والنهود الممزقة، والحلمات المقطعة، الأعضاء التناسلية المشوّهة، الفروج المحززة، الخصيات المسحوقة، كما حدث في رواية كراش لجيمس غراهام بالار، التي قرأتها بالانكليزية، وتقيأت بعدها، وكرهت لفترة الالتحام الغبي والمرضي والوحشي أحياناً، الذي يسمى مضاجعة. رحت أبحث عن الدافع وراء كتابة هذه الرواية الملعونة، ووجدت ناشراً قد سبقني إلى وصف الكاتب بقوله: هذا الكاتب بحاجة إلى علاج في التحليل النفسي، لا تنسوا هذا! الكثير من الرجال مرضى بشكل أو بآخر، لعل الأغلب منهم تنتابهم نزوات مثلية، رغم أنهم ليسوا مثليين، ولو تسنى للبعض مضاجعة الحيوانات، القردة والكلاب والدلافين، كما يحدث في أفلام الحيوانات الجنسية المنزلية القذرة، لفعلوا ذلك دون تردد. لكن دائماً ما يكون ثمة وازعٍ من شيء يقض مضاجعهم، ويوخز طبيعتهم الانسانية طيلة الوقت، ويشعرهم بالخزي، لأنهم ببساطة ليسوا مثليين، أو بهيميين، أو ساديين، أو مازوشيين، بالمعنى المرضي المحض، بل تقودهم النسبة الضئيلة من اللاطبيعي في عاداتهم، أو المضمر الذي يظل خبيئاً في نفوس العديد من الناس، ويُدفن مع جثامينهم في القبور. على العكس ممن تحولت النزوة لديهم إلى عادة، دودة تثير الحكة، عظايا صغيرة تنمّل تحت الجلد، فدرجوا على ممارستها باستمرار. فأنا مثلاً، لا أصدق قصص الحب، التي تجمع بين امرأة مسنّة ورجل شاب، واعتبرها مجرد نزوة تحولت بمرور الزمن إلى عادة، ثم إلى وهم، ثم إلى حالة مرضية، نزوة شاب يتوق لمضاجعة كومة من العظام البليدة واللحم المترهل. ربما كان على مارغريت دوراس، التي قرأت سيرتها قبل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أعوام من الآن، أن تصمد أمام خطابات إعجاب يان أندريا، لكي لا تشعر أنها اسفنجة، جدة عجوز مدللة بداعي الحب. لكنها تماهت مع نزوته وهوسه المرضي الثقافي، اللذين استمرا نحو ستة عشر عاماً، ولم ينتهيا بموتها، وخلود اندريا (اتضح فيما بعد أنه مثلي الميول) في عالم الأدب، ليس بوصفه كاتباً مرموقاً، إنما كشخصية طفيلية تعتاش على هامش شخصية مشهورة، كما هو الحال بالنسبة لعلاقة غوته مع بيتينا، وإلا، من سيعبأ بأندريا في النهاية؟ لا بد أنه سيكون أحد آلاف الكُتاب المغمورين، ممن تطبع دور النشر الفرنسية كتبهم، وسرعان ما تجد طريقها إلى أقبية الكتب المنسية والمهملات.

لقد فاجأني مارك في ذلك اليوم، وطلبني للزواج منه، بطريقة لا تنقصها رومانسية أفلام الحب، لكن ليس على النحو الذي يقدم فيه الخاطب، في الشارع تحت المطر أو في مكان عام أو حتى أثناء القصف في حرب ما، على البروك بإزاء إحداهن، شابكاً يديه إلى صدره، بينما هو ينظر إليها (نظرة كهذه عادة ما تكون بلهاء تكشف إلى اي حد هو يجهل، أن مؤسسة اجتماعية كالزواج، هي أكبر مطرقة لتحطيم علاقات الحب) ويطلب منها القبول به زوجاً. سيكون المشهد أكثر سخفاً، إذا ما تجرأت المرأة على صفع الرجل، لا لأجل شيء سوى أنه تأخر كثيراً ليتقدم لخطبتها، قد تكون حاملاً أو مصابة برهاب التقدم بالسن، وفي النهاية تصيح بعلو صوتها، تشكّل كوة بيديها حول فمها وتصرخ، هكذا، كما لو أنها تنادي أحداً لتسمع صدى صوتها وهو يتردد في الوادي السحيق: نعم، موافقة طبعاً! فيضج من حولهم بالزعيق والصفير،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ويصطنعون الفرح، ويبدأ التصفيق البليد والنفاق العاطفي. بالطبع لم تحدث مثل هذه المهزلة الغرامية بيني وبين مارك، لكن، كما قلت، لم تكن تعوزه الرومانسية ليضفي على عرضه هذا بعض السحر، كأن يأخذ بيدي، ويمهد لطلبه بكلام لم أسمعه من أحد سابقاً، لا بالعربية ولا بالإنكليزية، مثل: أنت تعجبينني، أعتقد أننا منسجمان، أظن أن بإمكاننا أن نعيش حياة سوية وسعيدة. لم يقل أنه يحبني، فقد كان صادقاً حتى في التلميح، من خلال كلامه، إلى أن ليس من الضرورة ارتباط شخصين، تجمعهما قصة حب، فمثل هذه الأمور لم تعد تحدث منذ روميو وجوليت، وأغلب الانكليز في الوقت الحاضر يتزوجون بهذه الطريقة. كنت ما أزال أعاني من بقايا رهاب اللمس، إلا أن الطريقة التي سحبت فيها يدي، عندما لمسها مارك، لم تكن خرقاء، إنما كانت خجولة، مرتبكة، رافقتها ارتعاشة وشعور بالضيق، وربما احمرارُ في وجنتيَّ:

«لكني لست انكليزية يا حضرة الضابط!»

قلت له وشعرت بالندم، أحسست أن مخاطبته بهذه اللهجة الجافة، أمر غير محبب، ونادراً ما يصدر من امرأة يُقدَّمُ لها عرضٌ للزواج، وليس طلباً لاصطحابها إلى السرير.

«أنا امرأة عربية يا مارك» قلت له بلهجة هادئة، فبدوت كما لو أني أقدم اعتذاراً: «ولا تنس أني ما زلت مسلمة رغم كل شيء، وديني لا يسمح بذلك، أظنك تفهم هذا الأمر، أليس كذلك؟»

وبينما هو يردد كلمة «آسف» للمرة العاشرة أو أكثر، كنت أنا أفرك يدي، ليس بسبب التوتر، لكن ثمة برودة ما تزال عالقة بهما من يده،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أو هكذا تخيلت، كأني أفلتهما للتو من بين يدي جثة. استغربت، كيف أمكن ليده أن تكون باردة إلى هذا الحد، في حين يقتضي الأمر العكس تماماً، بسبب الضغط، ربما، وسخونة الدم. تساءلتُ عما إذا كنت مسلمة حقاً، أو بمعنى أقرب: هل ما زلت مسلمة فعلاً بعد كل ما حدث؟ أحياناً، أشعر أني لم أعد كذلك، ربما بسبب غضبي وحنقي المستمر، وتوقي للتشفي بأي شيء له علاقة بما جرى عليّ وأنا في العراق، رغم معرفتي أن ديني لا يحل دم المغتصبة، بل يدعو إلى الرأفة بها ورعايتها. ومع ذلك، يعتقد الرجال أن أفضل صنيع يمكن تقديمه للمغتصبة هو رصاصة في الرأس، وفق العرف القبلي السائد، الذي يتحدى الدين ويتفوق عليه في أكثر الأحيان، كحبس المرأة عن الزواج خارج إطار العمومة، ووقف التعليم للفتيات، تزويج الفتيات الصغيرات، وتعويض الأضرار الناجمة عن المعارك بين العشائر بالنساء، أو ما يُعرف بـ«الفصلية» وغيرها الكثير.

ألقى مارك نظرة ساهمة، واغتصب ابتسامة أظهرت خيبة أمله أكثر مما أراد هو اظهاره من تحليه بالروح الرياضية، التي عادة ما تكون مطلوبة ممن يُمنون بالهزيمة. لم يعقب، أو يقل مثلا: ما الضير في كوني لست مسلماً؟ لم يحاول مجدداً، أو يطلب مني أخذ كفايتي من التفكير، بدا متيقناً من فشله، وها هو الآن يستعد لبداية جديدة، ملتمساً مني نسيان عرضه، والبقاء كصديقين مقربين. أقلني بسيارته، وإلى أن وصلنا الشقة، كان كل شيء بالنسبة له طبيعياً، حتى ظننت أني لو سألته وقتها عن حديثنا، سيجيبني قائلاً: أوه، لا عليك يا عزيزتي، لقد حدث هذا منذ زمن طويل!

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(3)

حينما وصلت إلى الشقة، وجدت عبير نائمة، والمدبرة التي استخدمها للعناية بها منذ انتقالنا إلى وايت تشابل تستعد للمغادرة. دسست نفسي في فراشي ولم أستبدل ثيابي بعد، رحت أفكر بما دار بيننا أنا ومارك. أحسست أن كل شيء يحدث بسرعة جنونية. الأيام تتسارع كالخيول، كثيراً ما قرأت هذه العبارة في الروايات، الزمن يركض كالخيول في مضمار الحياة، الأمر الذي يعده رجال الدين من علامات الساعة، وقرب نهاية العالم، ويوم القيامة والحساب. الزمن يركض بنا، ومن لم يمت في الطريق إلى حيث لا نعلم، سينتهي به الأمر إلى الشيخوخة، الزهايمر والعجز الجنسي، إلى الشلل والأمراض المستعصية، عجز القلب وتصلب الشرايين والجلطات الدماغية وسرطان الرحم أو البروستات، حفاظات البالغين، الطعام السائل من الأفواه الغائرة، الأثداء المستأصلة، الألسنة المدلوعة والأعين الذاهلة التي تحدق في العدم، روائح البراز والبول وتقرحات الظهر والجلد الذابل على الهياكل العظمية الركيكة، والأوراك المهشمة. الزمن حصان يركض بنا، مهما بلغت أصالته وأرومته وشجرة نسبه، قوته وجلادته وخيلاؤه، فلا بد من أن يأتي الوقت الذي تُكسر فيه ساقه، ذلك لأن لكل انسان زمنه، حصانه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الذي ستلتوي ساقه، ويهوي بفارسه أرضاً، يغرس حوافره في لحمه، قبل أن يجد هو الآخر من يقتله، كما فعل الحصان ولفهانت بفارسه الاميركي جي سي غونزاليس.

تُرى هل سيأتي يوم تُكسر فيه ساق حصان الزمن، الزمن بمعناه العام السرمدي، ليضع هذه الحياة على مفترق طرق، كلها تفضي إلى نهاية التاريخ؟

قضيت ثلثي الليل وأنا أفكر بعرض مارك. يقول إني أعجبه، ولا أعرف بالضبط ما الذي أثار اعجابه بي، وهل هو إعجاب حقاً؟ لقد تلقيت، على مدى السنوات الماضية، الكثير من مشاعر الشفقة، صرت أعرفها جيداً، لهذا، لا يمكن أن تكون مشاعر مارك، في حينها، مجرد شفقة، أو سعي منه لتصحيح خطأ غزو العراق، بالنيابة عن توني بلير. لكن، ولتكن مرة أخرى: ما الذي أثار إعجابه بي؟ الإعجاب بامرأة ما عادة، يصاحبه الاشتهاء، فهل حقاً اشتهاني مارك؟ تذكرني المفردة اشتهاء، على العكس من رديفتها الرغبة، بالطعام والنهم والتوحش الغذائي، مع أنها مفردة لا تقتصر على استخدام واحد، فهناك، بالطبع، من يشتهي طعاماً، وهناك من يشتهي جسداً أو جزءاً منه، أصابع القدمين مثلاً (لا بد أن يكون فتشيّاً) وهناك من يشتهي حتى الخراء، أو البصق في وجه أحدهم. هناك من يشتهي أن يسافر، أو يغني، أو يركض، أو يقتل ويشن حرباً غير مبررة ويمتص فيها الدماء. غير أني، ولسبب أجهله، لا يكون بمقدوري تذكر شيء، حين يذكر أحدهم الاشتهاء، سوى الطعام. لهذا، أخال نفسي، كلما تذكرت اشتهاء مارك لي، شريحة لحم،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

شريحة لحم مقتطعة من فخذ فرس مكسورة الساق في طنجرة. يا للخيال اللعين الشره! لا يغيب عن ذهني أبداً، مشهد النهم الذي تخيلته يوماً، وكان أبطاله يابانيين ناجين من القنابل النووية، وفرنسيين يحتفلون بانتصار الثورة الفرنسية، وهم ينبشون أسنانهم بالعيدان، ليتخلصوا من بقايا لحومنا، لحوم الأفراس الكسيحة، سواء في إحدى ضواحي هيروشيما أو في باريس.

لقد عشت حياتي متبلدة الأحاسيس، ولم يسبق لأحد أن وضعني هدفاً أمامه، إلا وكان ذلك بنية التحرش. تحرش بي كثيرون، لكني أتذكر، على وجه الخصوص، حين دسّ أحد الركاب يده تحت إليتيّ، في الباص. كنت في الثامنة أو التاسعة حينذاك، وكان بإمكاني أن أصرخ، أو أخبر أمي، أو حتى أعضّ يد المتحرش. لم أفعل شيئاً، ولو تسنى له اغتصابي، لكنت كحال بقية الأطفال، مصابة بحبسة الكلام، ولا أملك إجابة محددة. أتذكر أني التفت ورائي، حيث يجلس على أحد المقاعد، بينما كنتُ أنا واقفة، لعدم توفر مقعد شاغر، تخيلته بأبشع صورة يمكن لفتاة صغيرة، ممسوسة بالتخيّل، رسمها لوحوش ومسوخ وغيلان ومفترسين، يكشرون عن أنياب يقطر منها لعاب الخسة، وانعدام شيء يُدعى المروءة، وفي صورة ثانية الانسانية. لكني وجدته خلاف ذلك، شخصاً عادياً في منتصف العمر، لا يبدو عليه أيّ من مظاهر الشبق الرخيص، كان ينظر صوب النافذة ويصفر، أو يدندن بأغنية، وكأن شيئاً مما فعله لم يكن. لم يثر ذعري أنه دسّ يده بين إليتيّ الصغيرتين، النحيلتين، على نحو ما أثاره شم أصابع يده التي اقترفت الفعل. لم أفهم أبداً، حتى هذه اللحظة،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

معنى أن يفعل أحدهم مثل هذا الشيء المقزز، ولماذا؟ كما لم أفهم من قبل الكثير من أشياء تحصل للفتيات الصغيرات، والأطفال، بما في ذلك جواز دسّ قضيب لرجل بالغ بين فخذي طفلة رضيعة.

حين سمعت شخصاً مثل مارك وهو يبدي أعجابه بي، أحسست لأول مرة بالاعتداد بالنفس، ها أنا أُعجب أحدهم أخيراً! قلت في نفسي، واتضح الأمر بعدها بشكل جليّ، عندما اكتشفتُ، أن المشكلة ليس في عدم وجود أحد أعجبه، إنما في عدم توفر فرصة حقيقية لأكون موضع الإعجاب. وكما لو أحيا الضابط البريطاني المتقاعد في داخلي شيئاً ميتاً، وحرك فيه المياه الراكدة، قذفه بحجر، وجعلني أتخبط في لا وعيي، وهو يسمعني كلمات الإطراء تلك، أحسست بدفق غريب لعاطفة افتقدتها منذ فترة طويلة، وبشيء يجري في عروقي، كاسحة أو قاشطة سحرية، تفتح ثغرات في كتل الدم المتجلطة، تاركة المجال لدماء جديدة بالمرور، دماء نقية بدأ القلب بضخها مؤخراً، كما يفعل ذلك فلاح سعيد يسقي أرضه ماء حلواً، بعد طول جدب وخواء. لم انتبه إلى أنها كانت كلمات تشجيعية أكثر منها مديحاً، إلا بعد أمد طويل، امتد لأعوام من العيش المشترك، كلمات أشبه بحقن تُعطى لتحفيز غدة عاطلة عن العمل، صدمات كهربائية من أجل إعادة قلب ميّت إلى الخفقان، كلمات أقرب ما تكون لتلك التي أقولها لغلوريا، وأنا أحثها، دونما فائدة، على عدم الاستسلام، كلمات اختُرعت لإقناع اليائسين والمحبطين والعدميين بجدوى هذه الحياة. لا أتذكر أنه قال لي أنتِ جميلة مثلاً، أو أسمعني كلاماً متملقاً، متكلفاً، يقوله الجميع، إلا أن شيئاً من هذا القبيل لم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يحبطني، كوني أعرف، في الحين نفسه، أني لست بشعة أيضاً. لم أكن أسمح للناس برؤيتي بشعة، مع إمكانية أن يكون لديّ القدرة على الظهور عكس هذه الصورة، مظهري، هو الشيء الوحيد الذي لم أتعمد إهماله، ولم أفعل هذا لغرض دعائي، إن جاز لي التعبير عن نماذج لبضاعة سيئة، مختومة بماركة الجودة العالية، فأنا في النهاية لست سلعة، ولم تكن غايتي الاستدراج وإيقاع الآخرين في حبائلي، فقد كنت محتشمة دائماً. الكثير من الانكليزيات مهتمات بمظهرهن، مع إضفاء طابع الحشمة الأنيق، لعل أكثرهن شهرة إديل، مغنيتي المفضلة. باختصار، كنت أحاول، وعادة ما أتظاهر، أن أكون امرأة طبيعية، اجتازت محنة صدمة الاغتصاب، وأصبحت خالية من اليورانيوم، والسفلس والجراثيم المعدية. كنت كمن يلعق ألمه ويمضي، أو يدوس على جرحه لكي لا يصرخ، أو يعرج، أو يترنح، أو يظهر كشيء من مخلفات الحرب، في البلد الغازي، كياباني أو ألماني في أميركا بعد الحرب العالمية الثانية. قطعة مشوّهة وملوثة، تستدر العطف والاشمئزاز في آن معاً، وهي صورة حاول الإعلام البريطاني أن يظهر عبير في إطارها، لينا مدينا عراقية حبلى وعارية.

ومن خلال أحاديثنا، عرفت أن مارك لم يكن مؤمناً. قال لي مرة، أنه يؤمن بنظرية والد كريستي براون، التي قرأها في رواية قدمي اليسرى، تقول أن من قام ببناء هذا العالم وتطويره هم العمال والبناؤون، فكرة ماركسية بحتة، لكن هذا لا يعطي انطباعاً عن ميوله الأيديولوجية، إذ لم يكن مارك يتبع تياراً فكرياً بعينه. كانت أفكاره حرة، مع شيء من غرابة الأطوار، التي يحاول ألا تلقي بتأثيرها على

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من حوله، والغموض الذي يكتنف بعضاً من شخصيته. تخيلت كم سأكون تقليدية، وربما غير منصفة بالنسبة له، إن اشترطت عليه اعتناق ديانتي، لا بد أن شيئاً ما سيبقى مجهولاً، أو غير مفهوم، إلى درجة تجعله لا يعي معنى وضع امرأة مثل هذا الشرط، رغم أن الكثير من الأجانب اعتنقوا الإسلام، ليتم زواجهم من مسلمات. لاحظت أثناء ذلك أني، وحتى تلك اللحظة، لم أرفض مارك تماماً، أحالني الأمر إلى إمكانية التفكير بجدوى الارتباط به، بجدوى أن يكون لي رجل أخيراً، رجل اعتمد عليه ويعتمد عليّ لا على كلبه. وعندما راجعت حياتي السابقة، اكتشفت خلّوها من رجل إلى جانبي، سواء كان أباً أو أخاً أو زوجاً أو حبيباً. كنت لوحدي دائماً، والفراغ الذي إلى جانبي لم يشغله أحد أبداً. عدم وجود رجل في حياتي لم يقلقني كثيراً، فقد واجهت المصاعب بمفردي، وحاربت بأسناني وأظفاري كي أعيش، كما لم أكن بحاجة إلى من يشعر بالقلق لأجلي، أو يخشى عليّ، ويحسسني باستمرار الحياة، وأن ثمة بقايا، أشبه ببيوض أسماك ترقد تحت التربة منذ فترة طويلة، بإمكانها العودة إلى الحياة، ما أن تتدفق المياه في الأنهار الجافة، كما يتدفق الماء الحليبي اللزج، في المهابل الجدباء، حتى جاء مارك، ليوضح لي، ببساطة، أهمية هبوط سوبر مان لامرأة وحيدة وغريبة، عارضاً عليها الارتباط الرسمي والحماية. ومنذ عرضه عليّ الزواج وأنا أفكر بالندم، الذي قد ينتابني، في حال رفضته، ورحت أنتظر شهماً آخر لن يأتي، رجلاً من أبناء جلدتي مستعداً للاقتران بامرأة مغتصبة، من دون تخيّله لعضويّ الرجلين اللذين انتهكاها قبله، بينما هو يعاشرها.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بعد شهرين، لم ينقطع خلالهما مارك عن التواصل معنا، هاتفته في مساء أحد الأيام، لأسأله ما إذا كان عرضه ما زال قائماً. قلت له ذلك، ربما على استحياء، إذ لم أتبين نوع المشاعر، التي كانت تستحوذ عليّ حينئذ. كنت مشوشة، إلى درجة كبيرة، مع إدراكي لما كنت بصدد الإقبال عليه، لم أفكر وقتها كثيراً بكوني امرأة مسلمة تقترن برجل غير مسلم، فالكثير من النساء فعلنها، في بريطانيا وأوروبا. ثمة رجل هنا يُدعى تاج هيرجي، وهو رئيس مركز أكسفورد لتعليم المسلمين، زوّج حتى الآن العشرات من النساء المسلمات من رجال غير مسلمين، لا دينيين، أو يهود أو مسيحيين، وهي الظاهرة التي نشأت في الفترة الأخيرة، مع تزايد ونمو الهجرة العربية إلى الخارج، واستقرارها بشكل نهائي. كما أن هناك، من العوائل المسلمة، من يرضخ لإرادة الفتاة ورغبتها بالزواج من غير المسلم، تجنباً للوقوع في وحل علاقة غير شرعية. ثمة العديد من نتاج الزواج المختلط، مثل سارة مابل، التي جابت العالم بعباءة ضد الاغتصاب، كانت بذرة لزواج أمها المسلمة من أبيها غير المسلم، مما قادها إلى محاولة المزج بين هويتين مختلفتين بصورة فنية. فكرتُ، وبعمق، بإمكانية اقتران الانسان بالإنسان، من دون أن يحط ذلك من قدر الإيمان في داخلي. كنت أفكر بمفردي، وليس مع الجميع، ولم يكن مارك أقل مني تلكؤاً، تركته يأخذ كفايته من الصمت، الذي لم يثر توجسي أو تساؤلي، عما إذا كان الأوان فات على سماعي إجابة متوقعة منه. لم أكن خائفة حيال أمر كهذا، فقد وضعت في تفكيري مسبقاً، أن مارك ربما يكون قد غيّر رأيه، أو أُغرم بامرأة أخرى. لكنه، وبعد دقائق من الصمت، أخبرني أنه ما زال راغباً بالارتباط بي. لم ألمس التردد في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

نبرته، لكنّ شيئاً أقرب إلى اللامبالاة كان يطغى عليها، اللامبالاة الناتجة عن إدراك مسبق، بأني سأوافق عليه في نهاية الأمر.

لعل أكثر ما شغل تفكيري حينذاك، هو ردة فعل عبير إزاء ارتباطي بمارك، كيف ستكون، وما هو شعورها وهي ترى شقيقتها الوحيدة، المهر الكبرى، تُزف إلى أحدهم. ظننت أنها ستكون سعيدة، خلاف ما لاحظته عليها في خطوبتي السابقة من حمدان، فعندما خُطبت لحمدان، ومع أنها كانت ما تزال صغيرة، أحسست بعدم قناعة عبير بهذه الزيجة. لا أعرف إن كانت قد رأت حقاً، أن حمدان لا يناسبني كزوج، إذ لم أستخلص، من موقفها الرافض هذا، أي تواطئ مع عدم قناعتي به. لم تخبرني بذلك، أو حتى تعمد إلى التلميح بشيء، يفسر وقوفها إلى جانبي في هذه المحنة على أنه تعاطف أخويّ. ازداد فجأة سعارها الصبياني، الذي حاولت خلاله، تبيان أن لا علاقة تربط بينه وبين مشروع زواجي من ابن الخالة، كما لم أستطع ربط كل هذا، بشيء يتعلق بالغيرة، فبعض الفتيات الشريرات، وإن يكن صغيرات، يراودهن الشعور بالغيرة من الأخت الكبرى، في هكذا مناسبات. لم أستطع، لأن عبير كانت شبه ذكر، في مشاعرها، ونزعاتها، وتصرفاتها، متناسية أن ذلك لا يشمل أعضاءها التي ظلت أنثوية، وبإمكانها الانتصاب هي الأخرى، كحلمتي ثدييها، إذا ما حاول أحد مثل حمدان استثارتها جنسياً.

إلا أن ظني بشأن سعادة عبير بزواجي من مارك لم يكن في محله، أو أن شيئاً لم يظهر عليها بشكل واضح، أو بالشكل الذي دائماً ما تتخذه من هنّ في سنها، عندما تسمع إحداهنّ أن حفلاً للزفاف سيقام

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عما قريب. أتذكر سعاداتها الصغيرة بزفات الأعراس والأعياد، حينما كانت صغيرة. كانت ترتدي، بحكم اضطراب الهوية الجنسية المرافق لها منذ الصغر، ثياباً ولّادية، وتركب باصات وعربات تجرها الأحصنة مع الأولاد. كانت أمي ما تزال مأخوذة بوهم الطفل الذكر الذي لم تنجبه، وتتواطأ مع رغباتها، وتصرفاتها الذكورية، لكنها ترسلني وراءها خشية أن تتعرض للأذى. وفعلاً، لولا وجودي معها في أحدى الزفات، لمزق الأولاد المسعورين ثيابها واغتصبوها، عضضت البعض منهم، وجرحت وجوه البعض الآخر بأظفاري، وهكذا كنت دائماً، أصل في الوقت المناسب، لأمنع التحرش بها، من قبل «أولئك» صغاراً ومتوحشين. أما في لندن، في تلك الفترة، وقد بلغت سن المراهقة، وتقترب من عمر الثالثة عشرة، ومصابة بحبسة الكلام اللعينة، لا تبدو عبير عابئة كثيراً بالخبر، بعدما نقلته إليها بحضور مارك. راحت تنقل بصرها بيننا نحن الاثنان لدقيقة، ثم ابتسمت فجأة، الأفضل قول أنها ابتسمت لمارك فحسب. لم يغظني الامر، أحسست أنها فرحت لشيء آخر لا يمت بصلة لما سيطرأ على حياتي من تغيير، لم تفرح لي ولا حتى لمارك الذي ابتسمت له، وبادلها هو بابتسامة أفصحت عن الكثير من ألفة هذا الرجل ورده بأفضل مما يتلقاه، سواء كان تحية، أو ابتسامة، أو إيماءة، أو إشارة، أو غمزة من طرف. شعرت أنها فرحت لشيء ما، مجهول، في أعماقها، في سريرتها المنطوية أغلب الوقت. وكما لو أن ليس ثمة من بمقدوره تحمل الأعباء والمسؤولية، ويكون واجهة للعائلة وعموداً لخيمتها سوى الذكور، وجدت عبير تائقة، هي أيضاً، لوجود رجل إلى جانبنا، كما هو في الصورة التي التقطت لنا يوم الزفاف، وكان من المفترض

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أن تتوسطنا فيها، لكنها آثرت الوقوف إلى جانب مارك، بفستانها الأبيض، من دون أكمام، وقد أرسلت إشارتها القلبية، التي لاحظت بعد فترة طويلة، أنها خالفت المألوف، فقد كانت تضع يديها اللتين شكلتا القلب المفترض، على الجهة اليمنى من الصدر، حيث يقف مارك ثم أنا بعده. لم أفهم فحوى ذلك في حينها، ظننت أنها أخطأت، إذ دائماً ما كانت ترتبك، أثناء اللحظات التي تسبق التقاط صورة ما. لم أعبأ للأمر، وأصررت على تكبير الصورة وبروزتها، وتعليقها على أحد الجدران في الصالة، رغم اعتراض مارك اللطيف والشفاف، فقد كان كأغلب الانكليز، حين يشعر أحدهم أن أمراً ليس على ما يرام، يقول بلهجة مهذبة، مجردة من فعل الأمر: ألا ترين يا عزيزتي أن من الأفضل تأجيل نزهتنا اليوم، يبدو الطقس غير ملائم في الخارج!

كان زفافاً متواضعاً، تماماً كما طلبت، اقتصر على حضور بعض أصدقاء ومعارف مارك. أما أنا، فلم أكن أعرف أحداً بعد، أو بمعنى أقرب، لم أعقد الكثير من الصداقات، خلال السنوات الثلاث الماضية، باستثناء علاقتي الطيبة مع ناتالي التي تعرفت عليها عن قرب، بعد فترة من تبادل الرسائل الالكترونية بيننا. كانت قد سمعت، كأغلب الانكليز، بقضيتنا وتعاطفت معها، ومن بين عشرات الرسائل كانت تصلني، تبقى رسائلها الأكثر ودية وصدقاً، وخلواً من النفاق والتحايل، الذي عادة ما يبطن خطابات المرسلين، الذين يقرأون مقالات كنت أدبجها، وأنشرها في أحد المواقع المهتمة بحقوق النساء، وكانت المدبرة الملمة بلغة بلادها أكثر مني، تصوبها وتحررها أحياناً، قبل حلول مارك بدلاً عنها.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وإلى ناتالي يعود الفضل في تخطي الكثير من الصعوبات، فهي من حرضتني على مواصلة الدراسة وكتابة هذا الكتاب، ساعدتني كثيراً، ووقفت إلى جانبي في أحلك الظروف، ولا أعرف ما الذي كان سيحصل لي، لو أنها لم تكن معي في ذلك اليوم، في مكتبة الجامعة. كانت فرساً مكسورة الساق أيضاً، تعرضت لاغتصاب وحشي حين كانت في السابعة عشرة من عمرها. كانت عائدة من أحد الملاهي الليلية إلى منزلها، عندما اعترض أحد «أولئك» طريقها، وقام بسحبها ثم دفعها بعنف داخل غرفة مهجورة، حيث قام هناك بانتهاكها. ثم طاردها رجل آخر بعد دقائق مضت على الاعتداء الأول، في الشارع نفسه، واقتادها إلى إحدى الزوايا المعتمة، فعل فعلته ولاذ بالفرار. كانت ناتالي قد نهضت وتابعت سيرها، وحيدة، مستلبة، منهكة القوى، بثياب ممزقة، حتى عثر عليها ثلاثة أشخاص آخرين، فتناوبوا على اغتصابها، واحداً تلو الآخر، إلى أن فقدت الوعي، ودخلت في غيبوبة، مثلي تماماً، لكنها لم تتوقع، حين أفاقت، أن تجد من يطلق عليها النار.

عندما حدثتني ناتالي عما حدث لها، قبل سنوات، عاودني فجأة الشعور باللاأمان. قلت لها، وربما أكون بالغت في قولي، أن أمراً كهذا قلما يحدث في العراق، أي أن تُغتصب فتاة في شارع، حتى وإن كان خلفياً ويؤمه المتشردون. فعلى ما هو بيّن، أن مثل هذه الأماكن تكون في لندن، بالعادة، ميادين مناسبة للصيد وقنص النساء. نعم، يحدث كثيراً، وبشكل خطير، اغتصاب النساء والأطفال في العراق، خصوصاً بعد عام 2003، لكنه يتم بعد

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اختطافهن أو استدراجهن واقتيادهن بالقوة إلى أماكن خربة نائية ومجهولة. لكن، أن يحدث هذا في شارع، ولثلاث مرات متتالية في غضون ساعة، فهذا ما لم أجد له مثيلاً في بلدي الأم. لقد أوضحت لي قصة ناتالي، والنسب المئوية المرعبة التي يعلن عنها المعهد الاحصائي الوطني البريطاني، ومئات الآلاف من حالات الانتهاك الجنسي المسجلة في الجمعيات الانسانية المهتمة بمساعدة أشخاص تعرضوا لاعتداءات جنسية خلال الطفولة، والمنظمات المتخصصة بمكافحة الاغتصاب في بريطانيا، أوضحت لي أنك إذا كنت تعيش في لندن، المدينة التاريخية العظيمة والجميلة، وبين الانكليز، شعب الكياسة والهدوء والتقاليد الاجتماعية الموروثة من عصر النهضة، فلا يعني هذا بالضرورة أنك تعيش في مأمن من الأخطار، والاعتداءات التي لا تختلف كثيراً، عما يحدث في بلدان يعتبرها الغربيين متخلفة، مثل العراق، افغانستان، المغرب العربي، وفي أماكن أخرى تفتقر إلى أبسط وسائل حماية المرأة من الفظائع الجنسية. فتسجيل أكثر من خمسمائة ألف حالة اغتصاب واعتداء وشكوى وتهمة جنسية خلال عام واحد، في بريطانيا، يعني أن هناك خللاً نفسياً، واجتماعياً، واقتصادياً في الموضوع.

حسناً، ها أنا ذا أعود إلى يوم زفافي، فكما أسلفت، كان زفافاً هادئاً، خالياً من الخمور، إذ كان مارك يظن أن فقرة الشراب ستزعجني، وهو ما دعاه إلى مرافقة عدد من زملائه المحاربين المتقاعدين، ليحتفلوا في أحد البارات القريبة. عاد بعدها في ساعة متأخرة من الليل، كان نصف مخمور، متورد الوجه، وسعيداً للغاية، عانقني بقوة، وأراد

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حملي إلى السرير كما يفعل الفرسان، لكنه فقد توازنه ووقع أرضاً، وكاد أن يكسر ساقي، ليتحول المجاز إلى واقع.

لم يتعامل مارك معي على الطريقة الاوربية، واحترم رغبتي بعدم لمسه اياي قبل موعد الزفاف، الذي جاء بعد ثلاثة أشهر، في ليلة من ليالي بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 2010، وكأن أحداً لم يلمسني قبله، وكأن ثمة بقايا من عذرية، تركها لي أبناء البلد المتوحشون، لا أريد لأحد المساس بها، قبل ليلة الزفاف. تحافظ المرأة العربية، قدر الإمكان، على عذريتها، ولتأكلها جهنم الحمراء إن فُقدت، في حين، تفرط بها المرأة الغربية في السادسة عشرة، وأحياناً في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ولتكن مستعدة لنظرات الاستهجان، وعبارات التهكم والسخرية، ومطالبتها بالذهاب إلى مصح نفسي، إن بلغت الثامنة عشرة، ولم تدع قضيب أحدهم يخترقها.

كانت ليلة ماطرة، ذكرتني بالحزن السيابي العتيد، الذي ربطه الشاعر، ببراعته الاستثنائية، بالمطر، حتى صار أحد المقاطع الشعرية الحزينة في قصيدة أنشودة المطر، شعاراً يردده المحزونون. لعله من حسن الحظ انتهائي إلى الإقامة في مدينة مثل لندن، لا يكف فيها المطر عن النزول في أي وقت، أو متى ما فكر الإله في تنقيع هذه البقعة العجوز، الجميلة والبشعة على حدٍّ سواء، من أوروبا، إذ كثيراً ما تسيطر عليّ الرغبة بالبكاء ما أن تمطر، وكأن لا شيء يبكيني سوى السماء، التي عادة ما تواسيني بدموعها المطرية. يخيل لي أحياناً، أن ثمة ملائكة عمالقة، يتوارون خلف الغمام، مهمتهم البكاء، وليست هذه الأمطار إلا دموعهم الأبدية. لا بد أن هناك أمراً جللاً، حزينا، بل فائق الحزن،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يحدث فوق، حتى يرسل اللّه الملائكة لتذرف الدموع فوق الأرض. كذلك بكيت في لية الزفاف، يحدث أن تبكي النساء خلال ليلة كهذه، بعضهن يفعلن ذلك لفراق ذويهن، والبعض الآخر يبكين من ألم اختراق غشاء البكارة، وهناك من تقتاد إلى فراش أحدهم مجبرة، لهذا هي تبكي، في حين تفضل نساء أخريات البكاء دونما سبب واضح، ربما لافتقادهنّ، مدى الحياة، لشيء كالعذرية، كان يضفي عليهن لمسة من قداسة. فعلى الرغم من رضاها، وأحياناً هوسها بليلة كهذه، إلا أن ثمة شعور بالفقد، يجتاح المرأة في ليلة دخلتها. بعض النسوة يبقى مشكوك في عفتها، حتى تتلطخ الخرقة البيضاء بدم بكارتها، حتى لو كانت محل ثقة عمياء، ومتزوجة عن حب وطيب خاطر، فلا بد من رؤية البقعة الحمراء، التي تختلف درجة احمرارها من امرأة إلى أخرى. تقليد بالٍ، رغم استنكاري له، لكني افتقدته إلى الأبد، وبدلاً من أن أكشف لأمي بقع الدماء القليلة في قطعة قماش العفّة، لتزغرد بعدها، كان هناك الكثير من الدماء، ملأت شرشف سرير جهاز الكشف بالأشعة المقطعية، وألف ذئب يعوي في الجوار. تمنيت لو كان هناك من يهزج على مقربة مني: الليلة كسرك يا حمامة! لكنّ شيئاً من هذا لن يحصل في لندن، فقد كُسرت الحمامة قبل هذا التاريخ بفترة طويلة، وآه، ما أعظمه من كسر.

كانت ليلة أبعد من وصفها بالسعيدة، أفسدها مارك بعنفه الجنسي، ورغم إرجائي السبب في تصرفه الأخرق هذا إلى حالة السكر، في البداية، لكني اكتشفت فيما بعد أن العنف على السرير هي سمة مشتركة، ومتأصلة، في الكثير من الرجال. هناك من يحب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

سماع المرأة وهي تصرخ تحته من الألم لا من اللذة، غير مكترث إلى وجود فرق بين الاثنين، وأن امرأة تتمتع بالألم، إنما هي بحاجة إلى من ينقذها من عاهة نفسية تُسمى المازوشية، إذ ما اللذة من محاولة أحدهم إيصال المرأة إلى أبعد مما ينبغي، وهو الإثارة أو الاستجابة، ثم الاستمتاع بذروة مثالية من دون جلبة. لكني لم أصرخ، حتى وهو يعضّني، ويطبق بكفه على عنقي، لم يخرج صوتي كما ينبغي لامرأة تُعضّ وتُخنق. هناك نوع من المداعبة، أو الوحشية الناعمة، تمارسها الحيوانات والبشر في الوقت نفسه، وهي العضعضة، صيغة تصغير للعض بمعناه المؤلم. يمسك الهرّ بعنق القطة، بواسطة أنيابه، بطريقة يجعلها لا تشعر بالألم، يفعل هذا بغريزته الحيوانية، وليس كنوع من المداعبة، بما أنه لا يستطيع امساكها بيديه. كذلك يفعل الرجل، وهو يمارس مداعبته الافتراسية الناعمة، يعضعض عنق المرأة، لتزداد إثارتها، ولا أحد يزعم أن هناك امرأة لا تود هذا النوع من الإثارة. لكن، أن يفعل كما فعل مارك في ليلة الزفاف، حينما عضني من كتفيَّ وزنديَّ بقوة، أحسست معها بأسنانه وهي تُغرز في لحمي، فهذا ما يمكن إرجاءه إلى شيء خارج عن الطبيعة الانسانية. كان مارك قد بدأ فعلاً بالعضعضة، وحين لم أستجب، ازداد سعاره الجنسي السادي، حتى بدا كأنه يتصارع معي، وصارت عضّاته مؤلمة، وأمضّ من السابق. لم أكن أعلم حينها، أنهم يقتلون الخيول في بريطانيا، ليصنعوا من لحومها غذاء للبشر وللكلاب، أرعبني احساسي أن ثمة من بدأ فعلياً بالتهامي، إنه بلا شك احساس المغتصبة. كنت أشبه جثة، بعينين مصوبتين صوب السقف، حيث يمكنني رؤية شاشة خيالية، يُعرض عليها أحد أفلام العنف الجنسي الواقعية، شقيقتي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عبير وهي تُعنّف جنسياً من قبل أحد «أولئك» المجهولين، عبير قاسم، لينا مدينا، ناتالي، وأنا. العض والخنق، صوت لزوجة الدماء الغزيرة أثناء الإيلاج العنيف والوحشي، وارتطام خصيتي مارك بين الفخذين، والأنفاس اللاهبة، الرطبة، والمثقلة بروائح الكحول ذكرتني بتلك الليلة، ليلة الطعن بالخناجر اللحمية، ليلة الهجوم بالنتوءات الجرثومية. لم أحبل، لكنهم نقلوا إليّ عدوى سيلانية، كما نقلوا لناتالي من قبلي عدوى الهربس، في وقت أصيبت شقيقتي عبير بالإنتانات والالتهابات والتقرحات. كان منيّ أحدهم يحتوي على نسبة من الهيرويين، كما علمت من التحاليل الطبية التي أُجريت لي. كرهت وجه مارك في حينها، انبعاج وجهه، وانقباض ملامحه أثناء عملية الافراغ الحيواني. لا أشك أن جميع الرجال، حينذاك، يبدون بوجوه حمقاء، بشعة، وتثير الضحك احيانا، الضحك الذي عادة ما يأتي في مناسبة تافهة كالجماع. مشهد شعرت خلاله أني متجردة من طبيعتي، من وعيي وعقلي. يتوقف العالم كله، وتنهش الحواس بعضها البعض، في معركة هلامية، لعابية، من أجل رشقة حليبية دافئة تلسع المبيض من دون جدوى، ومزعجة، إلى حد تخال إحدانا أن ثمة من تبرز في داخلها. تُرى، لماذا يكون أغلب «أولئك» ثملين دائماً، أو مخدّرين، أو مرضى نفسيين، سواء كانوا من «أولئك» الذين يغتصبون البلدان، أو من الذين ينتهكون طفلاً أو امرأة أو مجتمعاً بأسره؟ جورج بوش، جورج دبليو بوش، توني بلير، بول كورتيز وجيسي سبيلمان وجيمس باركر ووداييل غرين، حمدان، راهي، والمفترسون الصغار الأربعة، في حي الحرية.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ترى، هل كان مارك أحد «أولئك» حقاً؟ لقد اقترنت به بموافقتي، ولم يجبرني أحد، لا يحدث مثل هذا في بريطانيا العظمى. لكنه، من جانب آخر، عاشرني بالقوة، وعندما يفعل أحدهم ذلك مع امرأة، حتى وإن كانت زوجته، فلا بد من إدراج فعله تحت طائلة الاغتصاب. كنت ما أزال أحمل طابع الحياء لدى الزوجات العراقيات، حين يتعلق الأمر بالدورة الشهرية، فدائماً ما تكون هناك رسائل وإشارات وإيحاءات، ترافقها النبرة الخجولة وتورد الخدين، يمكن للزوج أن يفهمها على الفور، من دون اضطرار الزوجة إلى إخباره أنها تمر بالتغيرات الفيزيولوجية، لكي يمتنع ولا يقترب منها. لهذا، لم أخبر مارك في وقتها، فاتني أنه انكليزي ويمكن اطلاعه على وضعي بإخباره مباشرة. أخبرته بعدم استطاعتي فحسب، لكن من دون جدوى، ربما ظنني أقاوم رغبته بي، أو أتميّع، أو أتغنّج، وافتعل الدلال، رغم أن شيئاً من هذا لم يكن من سمات شخصيتي المنطوية، والمحبطة. حاولت، قبلها، الحيلولة دون حدوث النزيف، بواسطة أقراص لتأخير الدورة الشهرية، لكن تلك الدماء الغامقة، كانت عنيدة بما يكفي لتنضح وتفسد كل شيء. وقت كان مارك يداعبني، كررت عبارة النهي: لا أستطيع! مرات عديدة وحاولت منعه، قبل إخباره أني في طور التغيرات الشهرية المعتادة، وإلى ذلك الحين، كان الأوان قد فات، وطار عقل الرجل بسبب الشهوة والسكْر، واختلطت الدماء الحمراء والبيضاء معاً في القناة الجوفاء المدنسة. بدا كأنه خارج الوعي، لا يسمع سوى زمجرته الوحشية، ولبرهة ظننت انه نعتني بالعاهرة، إذ يحدث أن ينطق بعضهم بكلمات مشابهة أثناء الممارسة الجنسية، حين لا يكون هناك ما يثير أو يشبع الشهوة سوى الألفاظ

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

البذيئة، كما يحدث في حالات الاغتصاب والأفلام البورنوغرافية. الأمر الذي أردت التأكد ما إذا كان سيتكرر في المرات التالية، لكنه لم يحدث أبداً، لأن مارك، وببساطة، لم يعد يعاشرني وهو فاقد عقله، إذا سلمنا بأن الخمرة تفقد العقل وتدفع للتفوه بالقذارات. أعرف أن المرء عندما يفقد عقله يفعل اشياء مخزية وكارثية، فقد جاك السفاح عقله وقتل دزينة من النساء في وايت تشابل، فقد هتلر عقله ودمر نصف العالم، وفقد ستالين عقله وحصد أرواح ملايين الناس، وفقدت أمريكا عقلها وألقت القنابل النووية على اليابان، وفقد صدام عقله وغزا الكويت، وفقد آل بوش عقولهم ودمروا العراق، وأعادوه إلى العصور المظلمة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(4)

ما حدث في ليلة الزفاف، كان أول سلوك ذي طابع سلبي وعنيف يصدر من مارك، ومع انه لم يتكرر طيلة السنوات اللاحقة التي عشتها معه، لكني دائماً ما اتذكره واشعر بالغضب. لم أحدثه بالأمر في اليوم التالي، وأظنه علم بما قام بفعله، عندما رأى آثار أسنانه على رقبتي وكتفي، ولم يسألني، عما إذا تعرضت لهجوم من قبل كلاب مسعورة. كنت أحسّ أني نجوت من شيء ما قُدّر حدوثه لي بين فترة وأخرى، وبررت، من دون قناعة، لمارك فعله، فالرجل كان ثملاً، فاقداً لوعيه، وكبقية الرجال، لا يمكن التكهن بتصرفاته حينما تكون امرأة ما تحته. من جهة أخرى، قد أتحمل نصف مسؤولية ما حصل، إذ توجب عليَّ تأجيل الزفاف إلى ما بعد الموعد المقرر بأسبوع، أو على الأقل إخبار مارك بشأن الدورة الشهرية. لكني، ولم أكن أعرف في حينها السبب وراء هذا، كنت أتطلع إلى أن أكون زوجة في أقرب فرصة، وكأن ذلك سيجعلني بمأمن من شعوري الدائم بكوني عرضة للاغتصاب، وكأن الزواج من أحدهم سينقذني مما أعيشه من عراك مستمر مع الأفكار السوداوية الماحقة للروح والبدن. فجأة، وحصل هذا يوماً ما في هايد بارك، عند رؤيتي عدداً من الأمهات، وهن يتنزهن إما مع كلابهن أو أطفالهن، قررت أن أكون من الصنف

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الثاني، بعد أعوام قليلة، حين سيكون عمر طفلي ثلاثة أعوام أو أكثر. لكن هذا الطفل لم يأتِ، ولن يأتي أبداً. ربما حاولت خلال السنتين الأولى، وبذلت جهداً في سبيل الامساك بتلك القشة، التي دائماً ما يتعلق بها الغرقى مثلي. بعد ذلك، صرفت النظر عن هذه الفكرة، ضمن خطة وضعتها لنفسي، تقضي بترك الأمور تحدث، لعّلي أتخفف من فوبيا المستقبل. باختصار، كنت أدع نفسي أغرق، لا لكوني يائسة، بل لأعرف إن كان هناك قاع يمكن الوصول إليه، غير القيعان التي لامستها من قبل، ونجوت منها بطريقة دائماً ما تجد من يعقب بعدها قائلاً: نجى فلان بأعجوبة. وفي نهاية المطاف، لم يقدني عدم الانجاب إلى تربية الكلاب، والتنزه معها في الحدائق، بل آويت فرساً مكسورة الساق. وفي الحقيقة، لم أكن أعرف كيف يدع المرء الأشياء تحدث، مع ظنّي أني كنت أفعل هذا، من خلال عدم الاكتراث أو الالتفات إلى الخيبات، صغيرة كانت أم كبيرة، ومنها صعوبة إخصاب بويضة من بويضاتي التي عادة ما تتنزه خارج الرحم، أو من خلال عدم أخذ الأمور على محمل الجد، كتهديدات بعض جيراني المتطرفين (من المسلمين الباكستانيين والبنغاليين، الذين ما زالوا حانقين على سلمان رشدي) حين خلعت الحجاب في السنة الثانية بعد الزواج. فإن تترك الأشياء تحدث، يعني ألا تعبأ بالكثير مما يحدث، ويبدو بعضه عادياً وغامضاً في الوقت نفسه، كالإشارة القلبية التي تفتعلها الفتيات بمناسبة أو بدون مناسبة. أمر في غاية الصعوبة، لم أنجح في خوضه حتى النهاية، إذ توجب عليَّ عدم ترك بعض الأمور تحدث، مثل انزلاق شقيقتي في تقاليد الحياة الانكليزية. وباستثناء السنتين الأولى بعد الزواج، تلك التي كنت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أتوق فيها إلى أن أصبح أماً، مما جعل ملاحظتي لتغيرات كانت تحدث من حولي ضئيلة، عشت فترة مليئة بالمشاكل أغلبها مع عبير الفتاة المراهقة. ورغم كل شيء، لم تخلو حياتنا وقتذاك من مسرات يمكن أن تحصل لأي انسان آخر مهما كان بؤسه، كالتخرج من الجامعة والخوض في تجربة نيل الماجستير، السفرات الخارجية، ممارسة النشاطات الانسانية، وادارة واحدة من المنظمات المعنية بحقوق المرأة العراقية والطفل.

كانت عبير، وحتى عام 2012، تدرس في إحدى مدارس لغة الإشارة البريطانية في لندن، وفي حالة معنوية ممتازة. كنت ما أزال اهتم بها كما لو أنها طفلة صغيرة، وقد أزعجها ذلك مؤخراً. بدأت ترى أني أبالغ في رعايتها، وفي أحياناً كثيرة، كانت توصل لي فكرة ما زالت مخيفة بالنسبة لي، وهي فكرة أنها لم تعد صغيرة، بل فتاة بالغة، بجسم كمثري، وصدر بارز، وأرادف عريضة. بدأ الأمر بعد عامين من ارتباطي بمارك، حين كانت عبير على مشارف السادسة عشرة، سن البلوغ المقرر للفتاة في القانون البريطاني. جن جنوني عندما رأيتها ترتدي ميكرو جوب، وتي شيرت شفاف من دون أكمام، يظهر ذراعيها وزنديها، وجزء من صدرها الناهد بشكل يلفت الانتباه. لم أتجاوب مع رأي مارك المؤيد لفكرة أنها كبرت. نعم، هي لم تعد صغيرة، لكن يحدث هذا في البيت، وهي تؤدي الأعمال المنزلية وتعتمد على نفسها في الكثير من الأمور، وليس في الشارع. على هذا النحو كنت أرد على زوجي، فينبهني إلى أنها على أعتاب السادسة عشرة، وعليَّ الالتفات إلى ضرورة أن فتاة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في سنها، وإن كانت بكماء، أصبح لها اهتماماتها، وقد حان الوقت لتتمتع بخصوصيتها، وبشيء من الاستقلالية، لا أن تُعامل كما لو أنها ما زالت طفلة صغيرة، وأن ثمة من يترصدها في الخارج. كان يعرف أني ما زلت أرى فيها، تلك الطفلة الضحية، المنتهكة، التي دائماً ما تكون بحاجة إلى من يرعاها، ويعطيها يداً تتوكأ عليها، لا أن تدفعها إلى أحضان مدمني المخدرات، لينفخوا بطنها، فرس مكسورة الساق، دائمة التعثر، لا تطمح إلى أكثر من الحصول على نافذة، لتطل من خلالها على العالم الخارجي، وليس على شارع خلفي مليء بالمغتصبين. ومنذ ذلك الحين، وأنا في جدال مستمر مع عبير بشأن اختياراتها، وأي الأشياء أصلح لها. لم تعد تحبذ، وهي في هذا العمر، لعبي دور الأم المتزمتة، التي تختار لها حتى ثيابها. أحسست أنه كان من السهولة عليها نسيان ما حدث لها، لتبدو في مثل هذا الإقبال على الحياة، ربما لأنها كانت صغيرة في حينها، وظلت بكماء من ناحية أخرى، لم تضطر يوماً إلى الحديث عما تعرضت له. ولأن الأطفال يعتادون مع الوقت، بدأت شخصيتها بالتكون مجدداً، في ظل حياة كانت ستمضي في بؤسها، في حال كنا ما نزال نعيش في العراق. كما لو أن لندن، وأجواءها، منحاها شخصية أخرى، كما لو أنها ولدت هنا، وعليها التطبع بعادات وتقاليد مجتمع وجدت نفسها في وسطه. العناد والتمرد، ما زالا متغلغلين في ذاتها منذ الصغر، فهي على سبيل المثال، لا تجد مانعاً من ارتداء ثياب تفتقر إلى مظاهر الحشمة، بالنسبة لفتاة يُفترض أنها مسلمة، مثل الميني جوب وتوأمه الميكرو جوب، الذي لن يعوز فتاة ترتديه، سوى الانحناء قليلاً، حتى يظهر لباسها الداخلي. وهو ما جعلني استشيط غضباً، وأدخل معها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في معارك شرسة، ربما أظهرت ما يمكن أن يرى فيه مارك الجانب السيء في شخصيتي، وهو التزمت، رغم أني لم أكن كذلك طيلة حياتي، إذ كان من قبيل التناقض، بالنسبة له، وربما الازدواجية، أو حتى الأنانية، السماح لنفسي بالزواج من رجل غير مسلم، في حين أسعى إلى منع شقيقتي من التطبع بروح العصر، كارتداء الثياب التي تعجبها، وحضور الحفلات، والخروج من أصدقاء من بينهم شبان. كنت أتخيلها الأقرب إلى الانتهاك الجنسي، وهي ترتدي تلك الثياب، ثم سرعان ما صرت أخشى عليها من أمر آخر، هو موضوع حرية الشريك الجنسي، أو البوي فريند.

أزعجني الأمر وشعرت بالحنق، وأنا أتخيل عبير حبلى ببطن منتفخة يرقد بين أحشائها جنين بملامح خلاسية. كانت فكرة تزويج الفتيات في بلداننا وهن صغيرات، تفزعني، وأعده انتهاكاً، وها أنا الآن، بعد سنوات، اصطدم بقوانين تسلّم المراهقات إلى أحضان الرجال بسهولة. وهي فكرة لم تخفني كثيراً، بقدر ما أخافتني صورة الأم المراهقة العازبة، التي تجهل أبسط متطلبات رعاية الطفل، وهو الكابوس الذي يقض مضاجع الجاليات المسلمة في أوربا. تدفع الكثير من الأسر في العراق الفتيات المراهقات إلى الجنس، تحت غطاء الزواج والشرعية الدينية، في حين يدفعهن القانون البريطاني إلى الجهة نفسها، تحت طائلة الحريات الشخصية. وكأن الفتاة في كلا الحالتين ستموت إن لم يطأها أحد في مثل هذا العمر، وكأن المسألة مسألة إباحة فحسب، أي ما يبيحه الدين أو العرف أو قوانين الحريات الشخصية، وهو الجنس، سواء كان وفق ضوابط وشروط،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كعقد النكاح الإسلامي الدائم، بموافقة الفتاة، أو من دون شروط، باستثناء حدوث الثقة والتوافق بين طالبة انكليزية بعمر السادسة عشرة، واستاذها الذي يكبرها بعشرين عاماً، وهي ظاهرة شاعت مؤخراً في المدارس البريطانية. وبالتالي، فإن الرابح الأكبر من كل هذا، هو القضيب الذكري.

مرة، تناقشت مع مارك في هذا الأمر، ورفض المقارنة بين ما تسمح به القوانين الأوربية للفتيات تحت سن الثامنة عشرة، من حرية ممارسة الجنس، وبين ما يبيحه الدين في البلدان المسلمة بشأن تزويج المراهقات الصغيرات.

قال:

«بعض تلك الزيجات تتم بالإكراه، وهذا بحد ذاته أمر لا إنساني، حيث يتم تزويج الفتيات قسراً، إلى رجال بالغين، غلاظ، ومتوحشين أحياناً!»

«ها أنت قلتها.. البعض!» قلت له وليس في نيتي الانحياز إلى مصدر تشريع بعينه، سواء كان دينياً أو مدنياً: «هذا يعني أن الوضع تغير عما كان عليه في الزمن الغابر يا سيد شيتل، كما تغير الحال لديكم هنا في أوروبا، قياساً بما كان يحدث في العصور الوسطى حتى بداية القرن العشرين. ليس كل فتاة مراهقة تتزوج يعني أنها ذهبت إلى حضن أحدهم قسراً، نعم، قد تذهب مدفوعة برهاب العنوسة الذي يغرسه الأهل في ذاتها، بعد رفضها أول خاطب يطرق الباب. المشكلة أنكم هنا في بريطانيا، وفي كثير من الدول الغربية، تدينون تزويج الفتيات المراهقات المسلمات، وتعتبرونهن ضحايا

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

القوانين العرفية، وتظهر إحداهن في وسائل الإعلام وهي تقف إلى جانب غول وفي يدها دمية، لكن هذه الدمية لا تظهر حين تحبل فتاة مراهقة هنا في لندن، أو مانشستر، أو ليفربول. أمر كهذا يتبع العديد من العوامل التربوية والبيئية ونمط العادات والتقاليد والقوانين، أما الرجال القساة، الغلاظ، والمتوحشين كما وصفتهم، فلا أظن أن واحداً من عدد الشبان والرجال الذين ترافقهم الفتاة هنا، طيلة فترة عنوستها، ابتداء من سن الثانية عشرة، لن يكون فظاً، ومتوحشاً، ومريضاً نفسياً، يتعاطى المخدرات، ويجبرها على فعل الأشياء المقززة، والاستجابة إلى نزواته الجنسية الفظيعة، وقد يقتلها في نهاية المطاف. أنتم هنا، تدربون الفتاة الصغيرة، وتثقفونها جنسياً، وتهيئونها لاستقبال حياة جنسية مبكرة، تجرب فيها عدداً من الاعضاء التناسلية، حتى قبل بلوغها السن القانونية بسنتين او ثلاثة. أما هناك، في بلداننا الشرق اوسطية، فتعلّم الامهات والنساء المتزوجات ذوات الخبرة، الفتاة المراهقة، على كيفية استقبال عضو واحد، يظل يلجها طيلة العمر. انا لا ألمح الى أن ثمة حالة أفضل من الأخرى، فكل أمر يتبع طريقة محددة، بما يتوافق مع سمات وقوانين كل مجتمع»

قلت له أيضاً، أني لن أنتظر اليوم الذي تأتيني فيه عبير، حاملة معها جهاز كشف الحمل وتبكي، قائلة أنها حبلى. وعليه، لا يسعني سوى التصرف معها كما لو كنت ما أزال في العراق، فاعترض مارك قائلاً:

«أنتِ هكذا تكبتين الفتاة!»

كنت أعرف لحظتها أنه لا يقصد بقوله هذا، افساح المجال لها كي تنشأ علاقاتها الجنسية مع من تراه مناسباً، إنما اعترض على

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أسلوب المراقبة والمعاقبة ضد فتاة راشدة، في نظره، الاسلوب الذي قررت التعامل من خلاله مع عبير. ومع معرفتي بذلك، جاء ردي عليه أشبه بالهجوم:

«حقاً؟! وماذا تريدني أفعل يا سيد مارك؟ أترك الفتاة عرضة لمن هب ودب، بيض، سود، بنغاليين، هنود، آسيويين، لاتينيين، لكي يعبثوا بها وينفخوا أحشاءها؟ لا يا عزيزي، أنا لست انكليزية، الأحرى نحن الاثنتان لسنا انكليزيتين، وقوانينكم هذه أضرب بها عرض الحائط!»

كنا في الشقة حينها، وكانت عبير في غرفتها، لهذا لا أشك أنها سمعت نقاشنا الحاد. نهضتُ لأنصرف إلى غرفة النوم، لكني عدت إلى الصالة مجدداً، لأحيط مارك علماً، أن الفتاة ليست ابنته، وعليه ترك أمر تربيتها لي، أنا شقيقتها الكبرى، وبمثابة أمها، وأعرف بمصلحتها أكثر منه، هو الرجل الانكليزي، الذي يرى الأشياء بعين طبعه، وطبع مجتمع ينظر إلى فتاة في الثامنة عشرة، ما زالت عذراء، بعين الاستهجان. لا بد أني حزت على قدر لا بأس به من الفظاظة، لكي أتمكن من التحدث إلى مارك بهذه الطريقة. استغرب ما بدر مني دفعة واحدة، لكنه عاد ليتذكر أني امرأة مسلمة، مع أن ليس كل النساء المسلمات ملتزمات بطباعهن الشرقية، فهنا في لندن، الكثير منهن متحررات، ولا يعبأن بالتقاليد الإسلامية، لكنه، مع ذلك، يرى أني أتجاوز حدودي مع الفتاة.

لقد زاد عدم إنجابي للأطفال من تعلقي بعبير، وخوفي عليها، إلى حدٍّ بت أتخيل عنده، أني أسمع صراخها المكتوم، وهو ينبعث

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من تحت يدي المطبقة على فمها. كانت تمثل كل ما تبقى لي من بلد أصبح نهباً للجميع. صرت أراها مثل قطعة أثرية لا تُقدر بثمن، وليس مجرد فرس صغيرة كسيرة. لهذا، أسعى إلى إبعادها عن متناول الأيدي، كما تُحفظ الآثار العراقية الآن، في صناديق زجاجية. وفي الواقع، كنت أخنقها من دون قصد، كما في قصة الأم التي كتمت أنفاس طفلتها حتى الموت، في حين كان القصد وراء ذلك أنها لم ترد للقتلة الذين يتتبعون أثرها سماع بكائها. كان خوفاً غير مبرر أحياناً، مثل حبل نجاة يلتف حول الرقبة مثل شناطة، لكني دائماً ما أجد، في أحيان أخرى، لنفسي عذراً مقنعاً، أتلافى من خلاله لوم مارك وغضب عبير نفسها، التي تكتفي بالتذمر.

يوماً بعد يوم، تزداد الضغوط، وتزداد معها المشاكل مع عبير، التي بدأت تضيق ذرعاً بي، وبطريقتي، فقد أصبحت أراقبها، وأتفحص هاتفها النقال، وأملي عليها نمط الثياب التي يجب ارتداءها، وأتحكم بطول وقصر التنورات وأكمام القمصان والتيشيرتات، وسعة فتحة الصدر، وما يجب أن يظهر ولا يظهر من جسدها. بل تدخلت لمنع أشياء تخص مظهرها، بعدما رأيت أنها تنحو بها منحى لا تجده إلا في مظهر فتيات الإيمو، مثل تسريحة الشعر وكمية المكياج ونوعه، ورسوم التاتو الشيطانية المؤقتة على ذراعيها وساقيها. كنت أرافقها كلما خرجت للقاء صديقاتها في الأمكنة العامة، المقاهي والساحات والحدائق، في الرحلات وأثناء مباريات كرة القدم، باستثناء البارات والمراقص، التي بدأت صديقاتها بارتيادها في سن السابعة عشرة، ولا بد أنهن أقنعنها بمرافقتهن، ويبدو ذلك واضحاً من محاولات

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

تهربها مني واحتيالها عليَّ، كما حدث ذات مرة، حين أفلتت من مراقبتي، وخرجت من دون علمي، وتأخرت بالعودة إلى الشقة. احتشدت الوساوس السوداوية في رأسي مرة واحدة، وكدت أفقد صوابي في إثرها، خصوصاً وأن مارك لم يكن متواجداً، في تلك الليلة من شهر آب 2013، كان غائباً منذ يومين، خرج من دون إبلاغي عن وجهته ولم يعد إلا في اليوم الثالث. حاولت الاتصال بعبير، إلا أن هاتفها كان مغلقاً، لا بد أنها فعلت ذلك عمداً، لكي لا أزعجها، بينما هي تقضي وقتها بالمجون، في أحد بارات لندن، أو إحدى حفلات التعري في حي سوهو. هكذا كنت أتخيل، وأنا أحاول العثور بين أشياءها في الغرفة على رقم هاتف عائد لواحدة من رفيقاتها، اللائي تعرفت عليهن خلال السنوات السابقة، في ظروف ومناسبات مختلفة، ولم تكن بينهن واحدة تعاني مما أصابها هي منذ سنوات، إذ ليس من الملحّ أن يرافق الأعمى أعمى مثله، أو الأصم مثيله، فقد كانت عبير متفاهمة مع صديقاتها بشكل ممتاز، وقد ساعدها أنها كانت تسمع، وهو ما خفف في النهاية مما كانت ستواجهه من صعوبة، في التواصل مع الناس، لو أنها كانت صماء أيضاً. تذكرت فجأة أني أعرف مكان سكن إحداهنّ، في منطقة ليست بعيدة في حي تاور هامليتس، فتوجهت إلى هناك فوراً، وكلمني والد الفتاة، الذي اتضح أنه يعلم مكان السهرة، لكنه رفض بداية إرشادي إليه، وعندما أجبته عن سؤاله عما إذا كنت مسلمة، قدّر قلقي على شقيقتي، ووافق على مرافقتي بسيارته إلى مكان السهرة، وهو منزل يقع في حي غرينتش، كان غاصاً بشبان وفتيات في أعمار متقاربة. ثمة مظاهر احتفال، وقطع كعك، ومشروبات كحولية في كل مكان.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كانت عبير تجلس على كنبة، برفقة فتاتين وشاب، يحملون كؤوس الواين، إلا هي، كانت تحمل كأساً فيه عصير برتقال على ما هو بائن من لونه، وهو ما طمأنني إلى حد ما، ومنعني من التهور وتعريضها للإحراج، أمام جيل أصبح خارج السيطرة الأسرية. فقط، طلبت منها مرافقتي إلى الشقة، ففعلت هي ذلك من دون تمرد، خزتني بعينيها فحسب بينما هي تنهض. كانت نظرة حقد أكثر منها نظرة عتاب، إلا أن هذا لم يهمني. أوصلنا والد صديقتها بسيارته إلى الشقة، وهناك بدأت المشاجرة. كانت مشاجرة عنيفة على ما أتذكر، تجرأت عبير فيها، ولأول مرة منذ أن كانت في التاسعة، على مجاراتي بطريقة غير كلامية، عندما دفعتني بيديها إلى الكنبة ورائي، وانصرفت إلى غرفتها حانقة، ولم تعبأ بي، أو تكلمني بإشارة واحدة لأكثر من اسبوعين. ربما فعلت هذا ثأراً لكرامتها، فقد تعرضت بعدها إلى سخرية صديقاتها (صرن ينعتنني بالجاسوسة) من خضوعها إلى سلطة الشقيقة الكبرى.

«لن أدعك للمتوحشين مجدداً!»

قلت لها يوماً، في واحد من شجاراتنا، حينما كانت على وشك الخروج، لحضور حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها. كان من المفرح، بالنسبة لي، أن أراها انسانة جديدة، لكن أقلقني كثيراً انسلاخها شبه التام عن هويتها الأصيلة، أو بمعنى أقرب، مما أردته لها وكنت أرى فيه النموذج الأمثل للاجئة عراقية عربية مسلمة، من ذوي الاحتياجات الخاصة. كان هذا هو ما جعل العلاقة بيننا تتضاءل، وتتأزم الأمور لتصل بالتالي إلى الشجار، وكيل الشتائم والاتهامات. في إحدى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المرات، أشهرت اصبعها الوسطى في وجهي، الإشارة نفسها تقريباً، كانت تفتعلها في صغرها، لكن الفرق بين الإشارة العراقية البذيئة، وقرينتها الانكليزية التي لا تقل بذاءة، أن العراقية... حسناً، كيف عليّ أن أشرح هذا؟ ربما هكذا: تبسط إحداهن يدها، ويحدث ذلك عادة أثناء الشجارات النسائية، وتفرد أصابعها باستثناء إصبع الوسطى، الذي يظل يتحرك، أثناء هز اليد صعوداً ونزولاً، في حركة تحاكي إلى حدٍ ما، عملية الإيلاج. دائماً ما يرافق هذا كله صيحات من دون معنى، لكنها مستفزة، مثل: هوي! هوي! حتى هذه نسيتها عبير، واستبدلتها بالإشارة الانكليزية النابية المعروفة، حيث ينتصب الذراع، وتُضم الاصابع، عدا اصبع الوسطى، الى باطن الكف، الذي يكون ظاهره بمواجهة الشخص متلقي ردة الفعل البذيئة هذه. ولأنها بكماء، سبق وأن اصيبت بالافازيا، ونسيت صوتها هو الآخر، فلا يسع عبير إلا أن تشتم بواسطة الاشارات والايماءات. لهذا، لم أفهم الفحوى من تلك الإشارات، رغم معرفتي أنها شتائم ربما تعلمتها من أغاني الراب، التي أدمنت سماعها، أو قد تكون ابتكرت بعضها، أو رأتها في مكان ما، وعمدت إلى تقليدها، مثل دفع باطن خدها من الداخل بلسانها، وتحريك قبضة يدها قريباً من الفم، في محاكاة مخجلة، لحركة مص العضو الشائعة. لقد تعلمت عبير الكثير من البذاءات، وما تقليدها لهذه الحركة الخادشة، إلا دليل على أنها تشاهد الأفلام الاباحية خلسة، إذ يمكن العثور عليها في الانترنت، أو أي متجر لبيع اقراص السي دي، ومن يعلم، ربما كنت سأجد تحت وسادتها بعض آلات المتعة أو التعذيب الجنسية.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

هناك حدثان وقعا في تلك السنة، لم أشأ إغفالهما إلى أكثر من هذا الحد، لما أثاراه في حينها، من علامات التعجب والاستفهام، كنت قد دونتهما في قصاصات، ريثما يأتي وقتهما، وأظن أن هذا هو الوقت المناسب للحديث عنهما.

الحدثان، هذه المرة، بطلهما مارك. ذكرت الحدث الأول، وأنا أتحدث عن عبير، وهو حدث اختفائه ليومين متتالين. توقعت أن مكروهاً أصابه، وإلا لم يكن من عادته السفر، أو المغادرة إلى مكان يتوقع ألا يعود منه في اليوم نفسه، من دون إحاطتي علماً بذلك. حتى قبل نزوله إلى الأسفل، لشراء شيء من البقالة، كان يخبرني، كما يفعل طفل حريص على ألا يُقلق أمه، فما الذي دهى هذا الرجل يا تُرى، لكي يترك وراءه كل شيء، ويغادر هكذا، كاللصوص. هل هجرني؟ كثيراً ما كان ينط هذا السؤال في رأسي، لو كان في نيته هجري، لأخبرني مباشرة، وقدّم المبررات والأسباب اللازمة، التي دفعت باتجاه التوصل إلى هذا القرار، كما يفعل أغلب الرجال، لا أن يدير ظهره على هذا النحو ويغادر، تاركاً إياي في حالة قلق وذهول، باحثة في الآن نفسه، عن عيوب محتملة عادة ما تدفع أحدهم إلى هجر المرأة، فلم أجد سوى كوني فرس مكسورة الساق، وهو أمر قلما، بل نادراً ما تجد رجلاً غريباً يجعله موضع تفكيره، ليفبرك منه دافعاً محفزاً لإطلاق قدميه للريح. كالعادة، لجأت إلى صديقتي ناتالي، فكان انطباعها عن مارك بهذا الخصوص، لا يختلف عما تبادر إلى ذهني بشأن تحضّره من هذه الناحية. طمأنتني إلى أنه شخص واعٍ، لا يترك الأمور معلقة أو في منتصفها، وأن شيئاً لا يمنعه من مكاشفتي،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

في حال كان يريد الانفصال عني. وهو ما أجج فيَّ نوعاً آخر من الذعر، وهو ذعري من احتمال اصابته بمكروه.

إلا أن مارك عاد في اليوم الثالث، وكان على غير عادته، مرهقاً وكئيباً، ومنطوياً على نفسه بشكل لم أعهده عليه من قبل. ثم سرعان ما عاد إلى طبيعته بعد أيام، حاولت معرفة أين كان، وكيف قضى وقته خلال اليومين الماضيين، والسبب وراء كل ما سببه من قلق بغيابه المفاجئ. قال أنه كان بحاجة إلى الاختلاء مع نفسه، لفترة من الزمن، وأنه لم يتعمد إثارة قلقي، إذ امتدت الفترة إلى أبعد مما كان مخططاً له. بدا، وهو يتكلم، كأنه تأثر أخيراً بالشطر اللاهوتي من اسمه، ويحتاج إلى صليب وخلوتين أو ثلاث، حتى يعلن نبوّته. كان غريباً فعلاً، وليس على ما يرام، كان يخيفني حيناً، ويثير حنقي مرة أخرى.

«و الاتصال؟» سألته بصوت لا يُميز فيه الحنق من العتاب: «لا أظن أن من اخترع الهاتف النقال، غايته زيادة أوزان الناس، أليس كذلك؟»

«نعم» أجابني بشيء من التذمر: «بالطبع كان بمقدوري الاتصال بك»

«إذن!» سألته بالنبرة نفسها: «لماذا لم تتصل لتطمأنني، كان هاتفك مغلقاً طيلة الوقت»

«لا أعرف!» قال بنفاد صبر: «لا أعرف حقاً، لكني أعلم أيضاً أن لا قصد وراء عدم اتصالي، هكذا حدث الأمر، ولا أملك حالياً تفسيراً منطقياً لما فعلته!»

«حسناً يا سيد مارك!» قلت له، وكان الحنق بادياً هذه المرة،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ومرجحاً بشكل واضح أثار استيائه: «أرجو أن تكون قادراً على تفسير ما أقدمت عليه في الأيام القادمة، بعد تخلصك مما أنت فيه الآن!»

«وما الذي أنا فيه عزيزتي؟» سألني، وبدا كأنه عاد مارك ما قبل الاختفاء.

«تبدو بائساً عزيزي!» قلت له، وقد ازداد حنقي إلى درجة بت لا أملك السيطرة على كلماتي: «تبدو في غاية البؤس عزيزي الضابط المتقاعد!»

لم يعقب مارك على كلامي ونعتي له بالبائس. كان يكذب، وكنت غاضبة لأجل ذلك. أحسست أنه يخفي أمراً، ثمة شيء لا يريدني أعرفه. رحت أراقبه، وهو يعود تدريجياً إلى ما كان عليه قبل الاختفاء، وانتظر منه تفسيراً لي لما حدث، وحين لم يتفوه بكلمة، أو يعود إلى مناقشة الأمر، حاولت نسيان الموضوع، في محاولة لاحترام رغبته في عدم التطرق إلى الأمر، مع ضمان ألا يتكرر ثانية، فإذا ما تكرر حقاً، فإن شيئاً لن يثنيني عن معرفة، ما إذا كان ثمة امرأة أخرى في حياته. وهو آخر ما طرأ على تفكيري، وأرقني طيلة الوقت. حسناً، فليكن، قلت في نفسي، ها أنا الآن أراقب، بدل الشخص الواحد شخصين، فبالإضافة إلى مراقبتي لعبير، ها أنا ذا اقتفي أثر مارك وأتحرى عنه. صرت أخشى على شقيقتي من الإحبال مجدداً، وعلى زوجي من امرأة ثانية. تراقب الناس كلابها وقططها وأطفالها، وربما المجانين، والمعتوهين، والعميان، وأنا أراقب شخصين يفترض أنهما بالغان، لا لأجل شيء سوى منعهما من الشذوذ عن جادة الطريق، والانجراف إلى منزلق، اللّه وحده يعلم ما نهايته.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الحدث الآخر، الذي وقع لمارك في تلك السنة، كان قبيل أعياد الميلاد بثلاثة أيام، عندما حاول إلقاء نفسه في مياه نهر التيمز الباردة، من على جسر ويستمنستر. كانت محاولة انتحار فاشلة وفريدة من نوعها على أي حال. ففي الوقت، الذي كان مارك بصدد إنهاء حياته، كانت هناك حياة رجل آخر تُنقذ. ذلك أنه (و لا أعرف لماذا فعل هذا بما أنه قرر إنهاء حياته) اتصل هاتفياً بخدمات الطوارئ، ليخبر عن اعتزامه الانتحار، فأرسلت الشرطة فريقاً لإنقاذه، مع قارب نجاة. وصلوا في الوقت المناسب، وتمكنوا من الحيلولة دون إتمامه الأمر. ثم وبالصدفة، عثرت الشرطة على رجل آخر، في الثلاثينيات من عمره، كان قد ألقى بنفسه في النهر منذ بعض الوقت، وكان على وشك الغرق حين انتشلوه.

بعد يوم واحد، من نشر الخبر في صحيفة الديلي تيلغراف، أصبح مارك موضوعاً للتندر يجري على كل لسان في لندن. حسناً أنهم احترموا خصوصيته، ولم يفصحوا عن اسمه، وإلا، كان سيُشار إليّ بالأصابع: هذه زوجة المنتحر الذي أنقذ منتحراً آخر! وهو ما جرى أخيراً، في الأيام التالية، على لسان بعض الأشخاص في المصح، أثناء زياراتي له، عندما كان يرقد هناك، من أجل العلاج النفسي. إذن، هكذا تلعب المصادفة دوراً كبيراً، ليس في خيال الروائيين فحسب، بل في الواقع، في حياة الكثير من الأشخاص، ومنهم الرجل (لا أعلم إن كان ذلك من حسن حظه أم بالعكس) الذي أنقذه مارك، من دون أن يعي أنه قد يفعل هذا، عندما أقبل على الانتحار. وعلى ما يبدو، أن الأثنين لم يكونا جادين في مسألة إنهاء حياتهما، وإلا، ما الداعي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من اتصال مارك بالشرطة، ليخبر عن نيته؟ لا يفعل أغلبهم مثل هذا الشيء، إنما يذهبون إلى حتفهم بصمت، من دون جلبة، كما لو أنهم ذاهبين إلى النوم. أما المنتحر الآخر، فقد ظل يقاوم الموت، حتى انتُشل أخيراً، أي أنه لم يدع نفسه يغرق، كما هو مفترض، وخلافاً لذلك عليه تقديم التفسير المناسب لبقائه عائماً طيلة الوقت.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

(5)

رقد مارك في المصح ثمانية أشهر. كنت أزوره في الاسبوع مرتين، وأصطحب عبير معي أحياناً، لكنها، كالعادة، تلوذ بالصمت، بينما هي تبادله نظرات ملؤها التوجس وربما الخذلان. كانت مذهولة وخائفة هي الأخرى. في البداية، لم أجد تفسيراً لما أقدم مارك على فعله. كان أحد أولئك، الذين يظهرون بصحة نفسية وبدنية جيدتين، يملؤهم التفاؤل، والإقبال على الحياة، ويمارسون أنشطتهم بحيوية ومزاج، وهناك، فجأة، تسمع بخبر نعيهم في الجرائد. حين علمت بالخبر لم أصدق. مارك، الضابط السابق في الجيش البريطاني، الذي طالما ظننتُ أنه يملك من قوة إرادة الحياة، ما يجعلني أرى في وجوده عزاء لي، رغم جنوحه اللاواعي نحو الغرابة في بعض الأوقات، يظهر في النهاية، بهذه الهشاشة والبؤس؟ من أين جاء بكل طاقة اليأس هذه، ليجعل أمراً، كالانتحار، نصب عينيه؟ اعتقدت أن ليس بوسعه التبرير، بالطريقة نفسها، التي برر بواسطتها آخر مرة، لغيابه المفاجئ، قبل أربعة أشهر. إلا أن معالجته النفسية، لم تحبذ أن يتحدث إليه أحد، غيرها، في هذه المسألة، قبل انقضاء الفترة المقررة للاستشفاء. لهذا، لم أتفوه بكلمة واحدة بهذا الشأن. لكنه كان يقرأ في عينيَّ كم أنا متلهفة، وبفزع، لمعرفة ما إذا كان ثمة أمر

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

خطير وراء محاولة وضع حدٍ لحياته، المحاولة التي اتضح أنها لم تكن الأولى، فقد علمت أنه لم يستقيل إنما سُرّح، ثم حاول شنق نفسه بعد تسريحه من الجيش بفترة قليلة. ولسبب أجهله، كذب عليَّ، وأخفى هذه الحقيقة الأخيرة عني، حينما كان يحدثني عن حياته الماضية، من دون أن يلمّح حتى لشيء من هذا القبيل، مما أثار ريبتي، وجعلني شبه مصدومة لفترة من الزمن، وأرهق نفسي بالتفكير من دون طائل، حتى أخبرتني المعالجة النفسية، أنها تُرجح أن تكون خدمته في العراق أثناء الحرب هي السبب، فقد سُرّح من الجيش لأسباب تتعلق باضطرابات في الصحة العقلية، الناجمة عن تأثيرات مباشرة، خلال الحرب:

«هناك جنود يكافحون من أجل التكيّف مع الحياة المدنية، بعد سنوات يقضونها في الجيش. بعضهم يفشلون، ويُصدمون، فالمهارات التي تعلموها تعتمد على القتال، وإطلاق النار، لهذا، هم يشعرون، في الحياة المدنية، أنهم عديمو الفائدة. الكثير من حالات الانتحار وقعت بين أفراد الجيش البريطاني، المشاركين في حربي أفغانستان والعراق، ربما بالمئات، فحتى هذه اللحظة، لا تهتم وزارة الدفاع بتسجيل هذه الحالات. في حين أن هناك آخرين نجوا من الانتحار، بينهم ضابط يُدعى جونسون بيهاري. وعلى العكس من الأمريكيين، دائماً ما تكون نسبة المنتحرين في الجيش البريطاني، خلال الحرب، أو بعد تسريحهم، توازي وتفوق، في أغلب الأوقات، عدد القتلى في المعارك، مثلما حصل في حرب الفوكلاند، وحرب افغانستان، ولعل من حسن الحظ، أن زوجك لم يكن بين الضحايا في العام الماضي!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

خرج مارك من المصح، في بداية شهر أيلول/ سبتمبر 2014، بعد اطمئنان الأطباء إلى تماثله للشفاء. كان العراق، في ذلك الحين، يتعرض، قبل ثلاثة أشهر، لهجوم عنيف ومدمر، شنه تنظيم داعش، الذي أحتل الموصل وتكريت والرمادي، وأجزاء من مدن مجاورة، كديالى وكركوك وبابل وبغداد، مخلفاً المئات من الأفراس المكسورة السيقان في سنجار. حيث تم هناك اختطاف النساء الإيزيديات، واغتصابهن، واستخدامهن كجواري، ثم بيعهن كسبايا في أسواق الموصل والرقة. وحتى ذلك الوقت، كانت علاقتي بعبير قد تحسنت إلى حدٍ ما، كفت عما يثير غضبي، وقللت من نزقها، وصارت أكثر إلماماً، أو هكذا ظننت، بما ترى أنه لا يشكل خطراً عليها. كانت حزينة وخائفة من أجل مارك، ظهر عليها ذلك على مدى الأشهر الستة الفائتة، وأظنها كانت تكره رؤيته وهو في المصحّ، وترفض مرافقتي في أكثر المرات، التي كنت أذهب لزيارته. فقط، ترسل له بيدي بعض الأشياء، مثل الكعك، والحلوى التي تصنعها بنفسها. إلا أن كل شيء عاد إلى ما هو أسوأ مما كان عليه، قبل محاولة انتحار مارك. بدأت المشاكل تطفو إلى السطح مجدداً، وصرنا نتشاجر باستمرار. قد لا يمضي أسبوع واحد، من دون أن يكون ثمة شجار بيننا. كنا نتعارك لأتفه الأسباب. كان مارك قد تعافى، وعاد إلى طبيعته، حتى قبل خروجه من المصح بثلاثة أشهر، وما أن أصبح بيننا، في الشقة، حتى استأنف تضامنه مع عبير، لكن ليس في جميع مطالباتها. بدأ ينصحني بالتخفيف من حصاري عليها، ومراقبتي إياها، خصوصاً في ما يتعلق بمرافقتها خارج الشقة. كان يريدني أن أحدّ من شعورها بالخيبة والخذلان أمام رفيقاتها، وأن أحصّن علاقتي بها بالثقة. بالطبع، لم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أسمعه كلاماً فظاً، أو أطلب منه، كما في المرة السابقة، ألا يتدخل، ويترك لي مهمة تربيتها، خشيت أن يطلق النار على نفسه هذه المرة.

«التربية للأطفال عزيزتي!»

قال مرة بينما كنا نجلس في الصالة نشاهد التلفاز، نهاية شهر كانون الأول/ سبتمبر 2015 الذكرى السنوية لمحاولة انتحاره الثانية قبل سنتين مضتا، لم أستسلم فيها أو أترك عبير وشأنها، إذ كنت ما أزال أجاري ما أعده تمرداً، تركت كل شيء ورائي وتفرغت لها، وضعت قدمي على قدمها، في حلّها وترحالها.

عاد مارك ليقول لي:

«عبير لم تعد طفلة كما ترين، إنها في طريقها لبلوغ التاسعة عشرة قريباً، أصبحت امرأة، وواعية للمخاطر التي تتعرض لها الفتيات في سنها!»

لم أعبأ بكلامه، ليس كما هي العادة أثناء نقاشاتنا بشأن عبير، إنما كنت استمع إلى إحداهن في التلفاز، فرس مكسورة الساق، نادية مراد، وهي تروي قصة اختطافها ومقتل والدتها وأخوتها الستة، لأعضاء مجلس الأمن الدولي في نيويورك، وكيف تم استعبادها، وبيعها، وتأجيرها لعشرات المرات، في غضون ثلاثة أشهر. وجدتني أبكي، لكن من دون صوت. ثمة من بدأ بالبكاء فعلاً في أروقة المجلس، المجلس ذاته، الذي فرض عقوبات اقتصادية على العراق، لمدة ثلاثة عشر عاماً. كان يحاصر العراقيين من الخارج، والسلطات تحاصرهم من الداخل، ها هو الآن، مثل تمساح هائل،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عجوز، ومن دون فائدة، يبكي من أجل فرس مكسورة الساق مثلي، لكنه لم يفعل الشيء نفسه حين عمد، بقيادة اليانكي، إلى تجويع شعب بأسره، وقتل نحو مليون طفل، في فترة التسعينات المظلمة. كنت أبكي بصمت، ليس من أجل نادية فحسب، إنما من أجلي أيضاً، من أجل غلوريا، ولينا مدينا وأقرانها، من أجل كل الأفراس الصغيرة، عبير شقيقتي، وعبير قاسم حمزة، وعبير علي، وبنين حيدر، من أجل العراق، الفرس الكبير، الذي كسروا جميع قوائمه، وتركوه كسيحاً.

بعد حوالي أسبوع، أي في الاسبوع الأول، من العام الجديد 2016، حدث أمر لم يكن في الحسبان، حز في قلبي، وقادني إلى إعادة التفكير بشأن الطريقة، التي بت أتعامل بها مع عبير، عندما تلقيت من شقيقتي الصغرى، للمرة الأولى، صفعة اضطررت بعدها إلى مراجعة نفسي، لأرى إن كنتُ حقاً كما صارت تظن هي منذ فترة من الزمن. لم تكن صفعة باليد، بل على الأغلب، كانت إحدى بوادر الانفجار، الذي يولّده الضغط المتواصل، على غرار ما يزعم مارك أني أمارسه ضدها. ففي ذلك اليوم، وقت كانت على وشك الخروج لملاقاة صديقاتها، وكنت أنا، كالعادة منذ مدة ليست بالقصيرة، أستعد لمرافقتها، ضاقت البنت ذرعاً بتصرفاتي، وأصرت على الخروج من دوني. حينئذ، اضطررت إلى منعها بالقوة، فحدث بيننا شجار بالأيدي، أُجبرت خلاله على ضربها وشدها من شعرها، كما كنت أفعل في صغرها. انهارت فجأة، وصرحت علناً، بلغتها الإشارية التي صرت أفهمها منذ سنوات، أنها تكرهني، وأن في نيتها تقديم شكوى ضدي. اكتشفت نقطة ضعفي، حينما لاحظت إلى أي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

درجة، أفزعني تهديدها، وأخذته على محمل الجد. كان بإمكانها فعل ذلك بسهولة، منذ ثلاث سنوات. توقعت أن تتصل بإحدى صديقاتها النمّامات، الحقودات، اللواتي ينعتنني بالجاسوسة، لتقدم بدورها إبلاغاً إلى الشرطة. وبما أني الآن بريطانية، فقد كنت أعلم بالعواقب السيئة لمثل هذا الأمر. سارعت إلى ترضيتها، لكنها رفضت، وأبقت على باب غرفتها مقفلاً، مكررة تهديدها لي: سأزجك في السجن! هكذا كانت تقول لي، كان مارك خارج الشقة، وحين عاد تدّخل على الفور، واستطاع بحنكته المعهودة من تهدئتها، وامتصاص غضبها. وعندما جلسنا نتحدث، نحن الثلاثة، قلت لها، لحظة كنت أحاول معانقتها، أني أريد حمايتها فقط، فأجابتني بحركات من فمها ويدها ورأسها، أرسلتها على نحوٍ فهمت منه أنها تتهمني بالغيرة منها، وأن هذه الغيرة ليست بجديدة في رأيها، بل بدأت في وقت مبكر، حين كانت الأضواء مسلطة عليها، بينما كنتُ أنا متوارية خلف ضباب لندن. أي عندما كانت هي الفرس النجمة، وأنا الفرس الكسيرة، المغمورة، والمجهولة، عندما كنتُ أشعر حينها بأن ما تعرضت له من بشاعة، هو أقل ما قد يتخيله المرء، وهو يستمع إلى قصة اغتصاب وحمل طفلة صغيرة، عندما بدأ العالم ينسى قصتي، ويهتم بها، في وقت كنت أعمل ناطقاً رسمياً باسمها، بما أن المأساة عقدت لسانها، وأصرح بالنيابة عن آلامها، التي يبدو أنها تلاشت بمرور الأعوام، بينما كانت آلامي تزداد كلما رأيتها تكبر وتنسى، تماشياً مع مثل أمي المفضل: تكبرين وتنسين!

لقد كبرت عبير حقاً ونسيت كل شيء، اندملت جروحها،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وأصبحت كائناً آخر لا يمت إلى الماضي بصلة، أو يرتبط معه إلا من خلالي. سمعت مراراً أن كسر عظم الطفل يلتأم بسرعة، وأن شيئاً من الألم لن يذكّره به البرد، أو الضغط، كما يحصل مع الأكبر سناً. هل هذا هو ما كان يغيظني؟ هل حقاً أني لم أكن أرد لعبير البدء بحياة جديدة ومختلفة؟ هل حقاً أني أردت بقاءها فرساً مكسورة الساق، وكان يضايقني أنها تجري في مضمار الحياة، بينما أحجل أنا مثل سلحفاة بجانب الحاجز؟ ظننت أن عبير لم تكن عادلة في ما كانت تظنه، لكن الآن، بعد موتها، صرت أكثر جرأة على مواجهة نفسي، والاعتراف بأن ثمة ما كان يشعرني بالحيف، بالإهمال، واستسهال العالم لما عشته من نكبات، مقابل الاهتمام الواسع، والتدليل الذي حظيت به هي. لكن، هل يمكن تسمية كل هذا غيرة؟ هل يحدث هذا لإحدانا، لمجرد أن أخرى نالت اهتماماً أكبر، لا لشيء سوى أنها ضحية؟ ولماذا لا تفسّر تعاملي معها بهذه الطريقة على أنه خوف مبرر، بما أنها مرت بتجربة سابقة فظيعة؟

على أي حال، صدمتني تلميحات عبير وقتها، وجعلتني أفكر في إمكانية التحلّي بمرونة أكثر معها، من دون أن يؤدي ذلك إلى رفع يدي عنها تماماً، فإذا لم تعد هذه الفتاة فرساً مكسورة الساق، فهذا لا يعني تركها تتجول لوحدها في الشوارع الخلفية. لقد توقفت عن مراقبتها ومرافقتها في مشاويرها في الأشهر الثمانية الأخيرة، لكي أتيح الفرصة لنفسي في اثبات عدم شعوري بالغيرة منها. كان لا بد من هذا الأمر، وإلا فإن ما حدث سيضاعف تعاستي، ويضيف مرضاً جديداً إلى قائمة أمراضي النفسية، الوسواس القهري، الاضطراب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الوهامي، فوبيا المستقبل، الرعب من أسرّة الأشعة المقطعية، والشوارع الخلفية، وروائح الثوم والخمرة والمخدرات. لم يكن بمقدوري احتمال فكرة امتعاضي من تعافي عبير وعودتها الى الحياة، فكان لا بد من إقناع نفسي، حتى قبل محاولة إقناعها، بأن ما يغيظني فيها، ليس كونها أصبحت شخصية جديدة، إنما يخيفني الجانب السيء، السلبي، في هذه الشخصية الجديدة. يخيفني استعادتها لنزقها القديم، وبشكل مختلف، يخيفني لا مبالاتها واعتدادها بنفسها بطريقة فجة، يخيفني اكتشاف أنها كانت تسعى لمواعدة أحدهم، إذ ما زالت الامور تجري على نحو لا أزعم أنه كان مرضٍ، إنما خال من الخطورة او التهديد الحقيقي، حتى ظهر روميو البنغالي.

حدث هذا في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر، قبيل سفري إلى العراق بأيام، عندما قررت زيارة مسقط رأسي في البصرة، من أجل الوصول إلى بعض الحقائق التي ظلت غائبة، ولعل أكثرها إلحاحاً هو معرفة مصير أمي، ومحاولة التوصل إلى مغتصب عبير. لقد أرقني هذا الأمر كثيراً، على مدى الأعوام الماضية، كنت أتوق إلى اكتشاف هوية الفاعل، مع يأسي من إمكانية تقديمه إلى العدالة، في بلد تفتقر قوانينه إلى أبسط مظاهر الشفافية. الأمر الذي لم يخلُ من الخطورة أبداً، وربما أفقد حياتي في إثره، وهو ما حاول مارك وصديقتي ناتالي توضيحه لي، وبالتالي الضغط عليَّ، في سبيل العدول عن خوضي هذه المغامرة. لكني لم أشأ الذهاب إلى العراق، قبل معرفة الشخص الذي تنوي عبير الدخول في علاقة غرامية معه، أو أنها دخلت بالفعل، فقد اكتشفت بالصدفة أنها مغرمة بشخص ما.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كانت طباعها قد تغيرت فجأة، أصبحت تحب الطعام الحار والمتبّل بالكاري، وتأكل السمك والأرز، والحلويات الشائعة في المحلات البنغالية، روشوجولا، شومشوم، وكالوجوم، تستمع إلى الموسيقى البنغالية، وتقرأ شعراً لطاغور، وتتابع مباريات الكريكيت، وترتدي الساري بداعي مجاراة صديقات بنغاليات، تقول إنها تعرفت عليهن مؤخراً، وكنت أعلم أنها تكذب، حتى جاء اليوم، الذي لمحتها فيه، وهي تومئ للشاب البنغالي، وتُرسل إشارتها القلبية الشهيرة من خلل النافذة. كنت قد نسيت هاتفي النقال في الشقة بعد خروجي منها، وسيري لمسافة ليست بعيدة (الأحرى فعلت ذلك عمداً) فعدت لآخذه، وفجأة لاحظت عند اقترابي أن ثمة يدين صغيرتين كانتا تلوحان لشخص يقف قبالة البناية، على الجهة الأخرى، شاب أسمر البشرة، نحيل، يبدو كمتشرد أكثر منه عاشقاً ما زال مؤمناً بإمكانية انشاء العلاقات الغرامية من خلال النوافذ، على الطريقة الشكسبيرية. يبدو كأنه أحد تلك الشخصيات المغفلة، المُستَغلة، التي تظهر في الأفلام الهندية، ويقتصر عملها على إضفاء نوع من الغيرة الرجالية، والتمويه على العاشق أو الفاعل أو القاتل الحقيقي. وكما لو أنه كان يعرفني، أو ربما حذرته هي مني مسبقاً، ما أن رآني حتى أطلق ساقيه ودلف مسرعاً إلى الشارع الفرعي القريب. أما هي، فقد اختفت في غضون لحظة، وتركت النافذة مفتوحة على مصراعيها. كان الوقت صباحاً، وكان مارك كالعادة، يقضي وقته بالتمشية. دخلت إلى الشقة واتجهت فوراً إلى غرفة عبير. كان الباب مقفلاً، طرقته مرتين أو ثلاث لكن من دون استجابة. كففت بعدها عن الطرق، حين تذكرت المرة الأخيرة، التي هددتني فيها بالهرب، فربما تفعلها حقاً، ما دام

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أن ثمة روميو بنغالي دخل على المشهد وزاده تعقيداً. لكن، لماذا عليه أن يكون بنغالياً؟ تبدو صورة تفتقر إلى الكثير من الخيال، صورة نمطية، أن تقيم فتاة ما علاقة مع شاب بنغالي، فقط لأن أغلبية سكان تاور هامليتس من البنغاليين. لماذا لا يكون انكليزياً مثلاً، أو من أصول برتغالية، أو إيطالية، أو تركية، أو حتى أفريقية ما دام هناك نسبة كبيرة من السود أيضاً في انكلترا؟ لكنه بنغالي على أي حال. لم أخرج، اتصلت بناتالي واعتذرت منها، كنا سنفطر معاً في أحد المقاهي القريبة، قبل الذهاب إلى مكتبة الجامعة. جلست في الصالة بانتظار خروج عبير، كان عليها تقديم بعض التفسيرات لما شاهدته قبل قليل، لكنها لم تفعل. هذا يعني أن علاقتها مع البنغالي واقعة لا محالة، وأنها بتصرفها هذا تريد اغاظتي، وإلا، ما الذي يمنعها من الخروج والإجابة على أسئلتي؟ هذه القحبة الصغيرة، كما كانت تنعتها أمي، ما الذي دهاها لتفعل بي كل هذا؟ هي لم تعد صغيرة، رددت مع نفسي بحنق، إنها عاهرة كبيرة الآن وتواعد الرجال الملونين. وما أدراني، لعلها أدخلته إلى الشقة يوماً ما، وناما سوية على فراشها. ربما من الأفضل تفتيش غرفتها، وإذا ما عثرت على دليل يؤكد ذلك، فسأقتلها بيديّ هاتين. تحولت إلى كتلة من الغضب والقلق في آن معاً، ماذا يريد منها هذا البنغالي؟ هل هو مغرم بها حقاً؟ أعلم أن البنغاليين أغلبهم مسلمون هنا، من الشغيلة والأيدي العاملة، والكثير منهم ملتزمون دينياً، بل هناك من هو متطرف بينهم، وذهب للقتال مع داعش في العراق وسوريا، لكن هذا لا يعني أن ليس هناك، من البنغاليين، من هو في طريقه إلى النوم مع فتاة بكماء. لا يبدو أنه يريد الزواج منها، لو كان يريد حقاً، لأتى من الباب، كما يقال في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ديارنا، لا أن يتبصبص من خلال النوافذ. ترى هل في نيته إحبالها فقط، ثم يهرب بعدها؟ آه! سحقاً، أحدهما سيقتلني، إما الوساوس أو عبير. لن أصبر كثيراً، حتى أعود لطرق الباب، والمناداة عليها، بل شتمها، وربما كسر باب الغرفة واقتحامها، إن لم يأتِ مارك خلال بضع دقائق، وليحصل بعدها ما يحصل. لن يسعها إخبار الشرطة، لأنها ستكون فارقت الحياة في حينها، وثمة أفراد صحافة عند الباب، يحاولون الحصول على تفاصيل، من الشقيقة الكبرى، التي غرزت أظفارها في عنق الشقيقة الصغرى حتى الموت. ستنشر الصحف الخبر تحت عنوان عريض: جريمة تهز المجتمع البريطاني، أخت تقتل أختها لسبب تافه! ربما هو سبب تافه بالفعل، أن تُقتل فتاة لمجرد مواعدتها شاباً. أكتب الآن، وأتذكر إلى أي حدٍ كنت لا أختلف عن «أولئك» الذين يجدون الحل الأمثل، لمثل هذه المشاكل في إنهاء حياة الآخرين. «أولئك» الذين يغيبون في أوقات الضيق والجوع وضنك العيش، العوز والحرمان، اليتم والمرض، لكنهم يظهرون فجأة، وقت تكون الفرصة مواتية لإهراق الدماء، مشعلو الحرائق، وكأنهم حملوا على كاهلهم همّ الانفجار السكاني، فقرروا التخفيف من وطأة بني البشر على سطح الكرة الأرضية. هذه ما يسمونها، في الحروب والتناحرات الطائفية والعرقية والدينية، بحمامات الدماء. حمامات دماء في العراق، حمامات دماء في سوريا، حمامات دماء في فلسطين، في الهند، يوغسلافيا، راوندا، أفغانستان، باكستان، بورما، وكأن الحيوان المتحضر، الكبير، الهائل والواسع، المسمى عالماً، لا يروقه سوى الاستحمام بالدماء.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عاد مارك من مشواره الصباحي، وأخبرته بالأمر، وبما أنه يدرك معنى كوني عربية، عراقية، ومسلمة، فقد أخذ مخاوفي ورعبي حينها على محمل الجد. لقد عاش بيننا، واستوعب تصرفات عبير، وسلوكها، وأفكارها، إلى درجة كنت أخاله، في كثير من الأوقات، يفهمها أكثر مني. كان يعرف جيداً، حين طلبت منه الاستعلام منها، ما عليه فعله، وهو التحدث إليها لا على أساس العلاقة بين أب انكليزي، وابنته التي على وشك ممارسة حقوقها المشروعة بالنوم مع أول فتى يعجبها، لا بد أن أمراً كهذا، اطلعت عليه من قبل صديقاتها، اللائي لا يمكن وصفهن بصديقات السوء، كونها تعلمت منهن ما يجب على الفتاة فعله في مثل هذا العمر، لأنهن ببساطة، وفي قرارة أنفسهن، إنما يحرضن على نيل رفيقتهن حقوقاً كفلها القانون، بغض النظر عن اتجاهاتها الدينية، فأمام القانون الكل سواسية، من دون أو يُعبأ بدين أو عرق، أو طائفة، أو تقليد. أقطع ذراعي من العرق، كما تقول أمي حين تتشبّث بقناعتها حول أمر ما، إن لم يكن لأولاء الفتيات، صديقاتها، يدٌ في إقناعها بضرورة خوض تجربة النوم مع ذكر، بعد موجة من السخريات والتهكمات. وكأنها ما زالت تحتفظ بعذريتها، وكأن هذه العذرية، إن وجدت، هو الجدري الذي تحمله معها أينما حلّت، وبسببه يعتبرنها مريضة نفسياً، مع أن هناك العديد من الانكليزيات، ما زلن يحتفظن بين أفخاذهنَّ، بالجدري خاصتهنَّ، رغم تجاوزهنَّ سن العشرين. لكن، لماذا اختارت بنغالياً؟ هل وضعت في حسبانها أنها مسلمة مثلاً، فينبغي لمن يشاركها الفراش أن يكون مثلها؟ وما الفرق، إذا كان الدين يعتبر ذلك زنا؟ سواء كان القضيب عائداً إلى مسيحي، أو يهودي، أو بوذي، هندوسي، أو مسلم؟ فالقضيب هو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

القضيب في مثل هذا الحال، وهو خارج مؤسسة الزواج المرعبة، والدجانة البشرية المأخوذة بالتناسل، أحمراً كان أو أسوداً، أو أبيضاً، يعتمر قبعة من الجوخ، أو يرتدي عمامة، أو يلفّ رأسه بكوفية، فبماذا كانت تفكر شقيقتي يا تُرى؟

تكلم مارك مع عبير على انفراد، في غرفتها، لم أشأ التواجد معهما حينئذ، تلافياً لأي شجار قد يحدث بيننا، ويدفعها إلى التهور، خصوصاً أنها أصبحت تعرف نقطة ضعفي، المتمثلة برعبي المتجدد من تنفيذ وعيدها، إما بالهرب أو إبلاغ الشرطة عني، بتهمة تكبيل حريتها الشخصية. كنت أظنها ستعاند وتعترف بعلاقتها، وتصر على المضي بها نكاية بي، وانتقاماً لما أهدرته من أوقاتها ومتعتها بالمراقبة والمعاقبة. لكن مارك فاجأني بنكران عبير لأي علاقة حقيقية أو حميمة مع البنغالي، وأن شيئاً لم يحدث بينهما، ما عدا تلك الإشارات التي لم تكن، في الواقع، شيئاً ذا أهمية. أخبرني أنهما كانا في البداية، وأن عبير تدرك أنه ليس الشخص المناسب لها، ولم يسبق خلال الفترة المنصرمة، أن أحبته، لكن، أعجبتها محاكاته المضحكة لروميو، ووقوفه لفترات طويلة في الأسفل، بانتظار تفضّلها عليه بطلّة، أو تلويحة من يدها الصغيرة. إذن، كان روميو حقيقياً، وعنيداً، لكن بسحنة بنغالية سمراء. أما غير ذلك، فقد كان يتبعها كلما خرجت، ويسمعها كلاماً منمقاً وشعراً حلواً.

«وماذا بشأن مظاهر الثقافة البنغالية التي نقلتها إلى الشقة؟» سألته بلهجة متشككة: «وصفات الكاري البنغالية، السمك والأرز، الحلويات، الموسيقى البنغالية، شعر طاغور، مباريات الكريكيت،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لم يكن يعوزها سوى تزيين الشقة بالزخارف الاسلامية، وفرشها على طريقة بيوت البنجاب، كما يفعل بعض البنغاليين، داخل منازل قديمة من العصر الفيكتوري في لندن، والأنكى من كل ذلك، الساري، الذي تبدو فيه وكأنها فتاة مهجنة!»

أطلق مارك ضحكة، بدت لي مصطنعة، وأحسست أن ما يجول في خاطره، أبعد مما أعلمه. حاول بعدها طمأنتي قائلاً، إنها أمور تحدث ولا تعني بالضرورة أن شقيقتي مغرمة حقاً بالبنغالي. مثلهما لا يُعتبران مغرمين، ما لم يتبادلا القُبلات على الأقل، وهو ما تقسم عبير أنه لم يحصل أبداً، ويؤكده مارك، الذي أسهب في الحديث معي حول هذا الموضوع، حتى أقنعني، فقد كان يمتلك قدرة كبيرة على الاقناع، ولا أعرف كيف توصل يوماً، مع كل هذه الحذاقة، إلى قرار إنهاء حياته بتلك الطريقة الغبية، بإبلاغ الشرطة قبل انتحاره، على هذا النحو: هييي، يا أصدقائي الشرطة، ليس هناك ما هو مهم، لكني أحببت أخباركم أني سأنتحر، تعالوا وانقذوني، اجلبوا معكم ثياباً جافة لطفاً!

كانت نتيجة الاستعلام طيبة، فمارك يعرف كيف يسايرها، ويستخلص منها الزبدة كما نقول بالعراقي، يميز بين صدقها وكذبها، لذا لم أشك في قوله من أنها كانت صادقة. لكن ما أقلقني أنه بدا خائفاً عليها هو الآخر، أو متوتراً من ظهور البنغالي. صار يتعامل مع الأمر كما لو أن خطراً يحدق بعبير، فقد قضى الأيام التالية لا يخرج إلى التمشية الصباحية، وينتظرني حتى أعود. أخبرني في أحد الأيام، أن بعض هؤلاء الباكيز عنيفون، إما متطرفون أو منخرطون

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ضمن عصابات خطيرة، لكنه عاد ليؤكد أن عبير صرفت نظرها عنه تماماً، وهو ما صرت أظنه أنا أيضاً، بعد تحسن علاقتي معها كثيراً في الأيام التي سبقت سفري إلى البصرة. انزعجت من مارك، هذه أول مرة أسمعه يتلفظ بلفظة باكيز، وهو وصف عنصري، يستخدم ضد الباكستانيين وما شابههم، من البنغاليين، في حين أشفقت على البنغالي المسكين، الذي وقع ضحية تلاعب عبير، وصدّق أنه روميو حقيقي، بينما هو يرسل ويستقبل الإشارات مع فتاة بكماء. كنت أريد مقابلته والحديث معه، لكي لا يحاول مرة ثانية، لكن أحداً لم يره منذ ذلك الحين، فتركت الموضوع.

بعد خمسة أيام، حزمت حقائبي وطرت إلى العراق، لم أكن مطمئنة تماماً، رغم علمي أن عبير ستكون بخير وبأيدي أمينة، إذ ما زال مارك يكرر تطميناته بهذا الشأن، ويحدث هذا لأول مرة، بعدما كان يحاول الحؤول دون تنفيذ ما عزمت عليه حتى وقت قريب. يبدو أنه يئس من جدوى محاولاته، فهو يعلم بعنادي ومطلع على خبايا كثيرة في نفسي. أيقن أن سفري إلى العراق سيتحقق طال الوقت أم قصُر. أما عبير، فرغم علمها بنيتي هذه، قبل ذلك بأشهر، لم تصدر منها سوى ردة فعل واحدة، جاءت بعد فترة من اللامبالاة، قبيل ركوبي الطائرة، عندما عانقتني وأجهشت بالبكاء. مضت فترة طويلة منذ أن تعانقت الأختان بهذا الشكل، وبمثل هذه الحميمية. أحسست أنها متعلقة بي أكثر من أي وقت مضى، وشعرت بالندم لأني كنت فظة معها بسبب وساوسي ورهابي المزمن. ومع أنها لم تظهر ذلك علناً، لكني شعرت وكأنها تطلب مني البقاء. شيء ما في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

داخلها كان يناديني، ويرجوني بألا أتركها. أوشكت على العدول عن الذهاب، لولا تذكّري لأمي. يجب أن أعرف ماذا حل بهذه المرأة، وإلا سأعيش بقية عمري وأنا أشعر بالغصة تخنقني.

وطيلة الأيام التي سبقت السفر، كنت قد وضعت محاولة اقتفاء أثر الشخص الذي انتهك طفولة عبير ضمن خططي الفعلية. عدت بذاكرتي إلى تلك الأيام، الى حي الحرية وبقع الدماء، إلى حسابات الدورة الشهرية، وأنواع النزيف، والتمييز بين دم الحيض ودم البكارة ودماء أخرى. كل هذا من أجل الوصول إلى نتيجة أحدد بموجبها إن كانت شقيقتي قد اغتُصبت من قبل شخص واحد، أو أكثر من شخص.

في البدء، كان لا بد من توجيه الاتهام إلى شخص محدد، أو إلى عدة أشخاص، ابن خالتي حمدان، أو الأولاد الذين كانت عبير ترافقهم للعب في مقبرة الآليات المعطوبة. لم أكن أشك بأحد سوى هؤلاء. الأمر الآخر، هو تصنيف بقع الدماء، التي اكتشفتها تباعاً، على ثياب عبير الداخلية وفي فراشها، ومحاولة معرفة أسبابها ومصادرها. فهناك، على ما أعرف، ثلاثة أنواع من الدماء، ظهرت في فترات متقاربة. النوع الأول ظهر لثلاث مرات خلال ثلاثة أشهر سبقت الزمن المفترض لحدوث عملية الاغتصاب، وكانت له آثار وملامح الدورة الشهرية. النوع الثاني ظهر لمرة واحدة، على شكل بقعة، بعد أقل من أسبوع على انقطاع ما عددته نزيف الدورة الشهرية. أما النوع الثالث، فجاء بعد مضي سبعة أيام على اكتشاف البقعة الثانية.

لم أكن بتلك الحنكة، التي تمكنني من التفريق بين دم ينضح

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

نتيجة النزيف الشرجي، وبين دم الدورة الشهرية، أو الدم الناتج عن افتضاض البكارة. كنت «إسليمة» كما تنبزني أمي على الدوام، أي بلهاء وقليلة التفكّر، وكل الدماء كانت، بالنسبة لي، حمراء ولزجة فحسب. ورغم أن الدورة الشهرية أدركتني لعشرات المرات، حتى حلول ذلك الوقت، لكنها، كما قلت، كانت مجرد دماء، افرازات، لا يعني لي شيئاً كونها داكنة أو غامقة أو فاتحة أو حتى برتقالية، المهم أنها منتظمة. كنت بحاجة أن أكون ذكية لأعرف أن دم الدورة يكون إما أحمر فاتحاً، أو باهتاً، أو داكناً، أو بنياً داكناً، حسب الظروف النفسية والعوامل الهرمونية. وأن دم البكارة أحمر قانٍ وطازج، أو وردي اللون إذا ما اختلط مع إفرازات الإثارة والتفاعل الجنسي، ولا يخرج بكميات كبيرة بل على شكل قطرات، إلا إذا كانت هناك ممارسة عنيفة، تتسبب في حدوث تهتك شديد يؤدي إلى النزيف. وأن دم النزيف الشرجي بسبب جرح الجلد وتمزق عضلة مصرة الشرج، لا يختلف لونه عن لون دماء تخرج من الجروح والخدوش العادية. قرأت كثيراً في هذا الموضوع، واستشرت أحد الاختصاصيين في لندن، وحاولت الاستعانة بذاكرتي، وتحرى أنواع الدماء التي نزفتها عبير، إلا أن عشرة أعوام مضت كانت كفيلة بأن تنسيني أشياء كهذه، تحتاج إلى قوة ملاحظة ودقة عالية في استرجاع الأحداث، والمشاهد، والمواقف.

كان من المفترض، في البداية، أن الدورة الشهرية هي السبب وراء بقع الدم، قبل ظهور سبب آخر متمثلاً بالفطر الشرجي، اتضح أن عبير كانت تعاني منه سراً، كما أكدت ذلك الطبيبة في القسم الاستشاري

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لمستشفى البصرة العام، حينما رافقناها أنا وأمي إلى هناك. لكن، إذا عدت إلى مسألة الحمل، سيتضح أن ثمة مصدر آخر، وهو الجرح الذي يخلفه افتضاض البكارة، مع تقدير أنه لم يكن جرحاً عادياً، بما أنه نزف دماً أكثر مما هو معتاد في مثل هذه الحال، ففي حالات الاغتصاب، تكون الوحشية أبرز سمات المغتصب، العنف الجنسي القسري، ومحاولة إيذاء الضحية وإذلالها بأكثر كمية من القسوة. وكان من الممكن، للفطر الشرجي الدموي، أن يقود إلى اكتشاف حالة الاغتصاب، التي قد لا يكون مر عليها فترة طويلة، وبالتالي، لعل ذلك يقود بدوره إلى الفاعل، في وقت كان بالوسع الضغط على عبير، لكي تكشف عن هويته. لكن الطبيبة كانت إما غبية، من أولاء الطبيبات البليدات، اللائي يكتبن حبوب البراسيتيمول، حتى وإن كان المريض يعاني من الإيدز، فعزت السبب إلى أمر آخر وجد بالتزامن مع حدوث الاغتصاب، أو أنها أغفلت قول الحقيقة، وفبركت سبباً آخر، لتترك اكتشاف الفضيحة إلى شخص مثل راهي. أو لأنها لم تهضم إمكانية حمل طفلة بهذا العمر، مع أنها طبيبة، ومن المفترض ألا تستبعد أمراً كهذا ممكن الحدوث في ظل ظروف استثنائية. لقد نسفت فرضية الفطر الشرجي كل احتمال، بالنسبة لامرأتين بلهاوتين وجاهلتين مثلينا أنا وأمي، بأن تكون عبير إما مُغتصبة أو حائض، مع أن الاحتمال الأول لم يخطر في بال إحدانا، ولم يكشف عن حقيقة الاحتمال الثاني سوى الاجهاض الذي أكد أن مصدر الدماء الأولى كانت بسبب الدورة الشهرية المبكرة. كنت أود لو سألت الطبيبة تلك، ما إذا كان الفطر الشرجي قديماً، قبل الليلة التي نسيت فيها عبير كيف يكون الكلام بثلاثة أشهر، حين كنت أعد الأيام وأجري الحسابات،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لأتأكد إن كان ما اكتشفته من بقع الدم على ثيابها وعلى فراشها، في ذلك الحين، إنما هو بسبب الحيض، لكني لم أفعل، وكأني أردت استبعاد فرضية الدورة الشهرية، ظناً أني بذلك أحمي عبير من الزواج المبكر، أو لأني لم أرد تصديق شيئاً كهذا، إذ كانت مجرد خرافة، بالنسبة لي، إحاضة طفلة ما تزال تلعب بالدمى، وأكثر منه تخريفاً هو الحمل، وكأن استيعاب أمر كهذا سيثقل كاهلي ويجعلني أكثر بؤساً. حسناً، وكيف لي أن أعلم بإمكانية حدوث مثل هذا الأمر، الذي ما زال غامضاً، حتى جاء اليوم الذي أجهضت فيه عبير، ليؤكد أن الدماء الأولى، قبل زمن الحادثة، كانت دماء الدورة الشهرية، وأن بقع الدماء التي اكتشفتها بعد ذلك بأقل من أسبوع كانت دماء الاغتصاب، وأن بقع الدماء التي جاءت بعد أسبوع آخر كانت بسبب الفطر الشرجي. لكن، ثمة ما جعل تفكيري يأخذ منحى آخر بهذا الشأن، ويدفعني إلى التساؤل عما إذا كان الحمل حدث بعد الإصابة بالفطر الشرجي، وليس قبله، أي، بمعنى أقرب، ماذا لو أن الدماء التي عثرت عليها في المرة الثانية كانت بسبب الإصابة بالفطر الشرجي، والدماء في المرة الثالثة كانت دماء الاغتصاب؟ وهو ما ينفي، بطبيعة الحال، اتهامي لكل من حمدان والأولاد الذين كانت ترافقهم عبير، إذ لم تخرج بعدها إلى الشارع أبداً. ولو افترضت جدلاً أن هذا هو ما حدث، فما الذي أصاب الفتاة في تلك الليلة وأخرسها إلى الأبد؟ ومن هو الطرف الثالث الذي جاء، بعد أسبوع، لينفي احتمال أنها اغتُصبت قبل ذلك؟

هكذا اختلط عليّ الأمر، وتمرغت الحقيقة في بركة من الدماء.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ولكي أصل إلى تلك الحقيقة المتوارية، كان علي الذهاب إلى العراق. كانت زيارة قصيرة، بالنسبة لامرأة غابت عن بلدها لعشرة أعوام. أربعة عشر يوماً فقط، رغم قصرها لكنها مرّت عليَّ كما لو أنها أربعة عشر عاماً، بكل ما فيها من مرارة الاكتشاف.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

البصرة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الأول

الأحد 2 تشرين الأول/ اكتوبر 2016

PM 5:30

«إنه شيء صادم أن يكون الأطفال قادرون على فعل شيء كهذا!»

هذا ما قاله أحد الاستشاريين، من الذين استعنت بهم قبل سفري إلى العراق، عندما سألته إن كان بإمكان طفل بعمر التاسعة أو العاشرة اختراق فتاة بعمره أو أصغر منه:

«دائماً ما تقع مثل هذه الحوادث، لكن علينا أولاً أن نأخذ فكرة عن أعمار الجناة، لكي نحدد إن كان الأمر اغتصاباً فعلياً ناتجاً عن دوافع ونوايا مسبقة، أو مجرد حادثة جاءت نتيجة تقليد الأوضاع الحميمة للبالغين، أو إثر مشاهدة مواد إباحية. فإذا كان الطفل صبياً على سبيل المثال، بعمر الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، كما حصل داخل حافلة للنقل العام، في بلدة كليمار نوك بأسكوتلندا عام 2013، عندما اغتصب صبي فتاة تصغره بخمس سنوات، ثم حدث ذلك في العام التالي، في شروزبري، وكان الجاني صبي بعمر الرابعة عشرة، والضحية طفلة عمرها عشر سنوات، فأعتقد أن أمراً كهذا يُدرج تحت طائلة الاغتصاب العمد. لكن، المشكلة أن هناك أطفالاً أصغر عمراً

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بمقدورهم الحصول على انتصاب كافٍ للاختراق، إذ يبدأ التطور الجنسي لدى الأطفال من السنة الأولى، وهناك أطفال ذكور يولدون مع الانتصاب!»

توقف الطبيب عن الكلام لبرهة، وراح يبحث في درج المكتب، عن شيء، مجلة أو صحيفة على الأرجح، يبدو أنه يريد أن يريني إياها، تأسف قائلاً بينما هو يواصل البحث:

«ثمة طفل ماليزي يُرجح أن يكون أصغر مفترس في العالم، عمره ستة أعوام، قام باغتصاب ابنة عمه ذات السنوات الخمس. حدث هذا أثناء ما كانا يلعبان لعبة شائعة بين الأطفال: أب وأم، فضبطتهما الجدة وهما عاريان تماماً في منزل العائلة. نعم، اعتقد أني وجدتها، ها هي، تفضلي!»

ناولني صحيفة الديلي ميل، بعد أن فتحها على الصفحة التي ورد فيها الخبر، تاركاً لي الفرصة لأقرأ. استأذنته بعدها لتصوير الصفحة، وفعلت ذلك بكاميرا هاتفي النقال، ثم شكرته وأنا أهم بالمغادرة، قائلة:

«حسناً.. أعتقد أن عليّ العثور على أطفال مفترسين آخرين، لكن ليس في ماليزيا أو لندن على أي حال!»

«عفواً!»

رد الطبيب وقد أعطاني أذنه ليسمع ما قلته جيداً، لكني لم أُعد العبارة نفسها، بل كررت شكري وغادرت.

ها أنا ذا الآن، أستعيد كل هذا في البصرة، التي وصلت إليها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

منذ أكثر من ثلاث ساعات، قضيت أول ساعتين منها لا أفعل شيئاً، باستثناء التحديق من نافذة الغرفة التي استأجرتها في فندق البصرة شيراتون. كان المنظر أمامي يبدو مألوفاً، رغم مرور سنوات طويلة على آخر مرة ألقيت فيها نظرة على النهر، شط العرب، أو شط البصرة كما كان يُطلق عليه قبل عقود كثيرة، حين كانت تسمية البصرة تشمل الخليج أيضاً، والأقاليم المجاورة، صعوداً نحو البحرين، خلال الاحتلال العثماني.

لا أعرف عدد المرات، التي زرت فيها هذا المكان، لكن أتذكر أننا كنا نرافق أبي في مناسبات الأعياد، الفطر، الأضحى، نوروز، حيث يكتظ الكورنيش المحاذي بالناس، الذين لا يفعلون شيئاً سوى التسكع هنا وهناك، وسط الزحام، فتأخذ النساء، أثناء ذلك، نصيبهنّ من التحرشات، على أيدي شبان غير عابئين، كالذباب، بذؤاباتهم الممرغة بزيت الطبخ، يطنون في إثر الروائح العطرية الرخيصة، التي تفوح من ثياب العيد النسائية. لا أتذكر بهذا الشأن، أن أحداً تحرش بي، أو غازلني، أو حتى غمزني بطرفه، خلال المرات التي ارتدنا فيها الشط، إما لوجود رجل معنا، كأبي، أو لأننا، نحن سكان المناطق الرثة، مفضوحون، ويمكن تمييزنا بسهولة، من خلال ثيابنا ذات الألوان الصارخة، غير المتناسقة، وأحذيتنا العتيقة، وألوان جواربنا، وخصلات الشعر التي لوّحتها الشمس وأصبحت أقرب إلى الشقرة.

لم أزر المكان بعد حرب عام 2003، كان أبي قد مات قبل الحرب بفترة قصيرة، ولم تكن أمي مهتمة بمسألة الترفيه، وتعدها نوعاً من البطر العائلي، بالنسبة لمن يسكنون أطراف المدينة، في مناطق شبه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

معزولة. كان هناك تماثيل برونزية لضباط عراقيين قضوا في الحرب، يشيرون بسباباتهم نحو الجهة الإيرانية. يبدو أن أمراً كهذا أزعج الإيرانيين فترة طويلة، لهذا لم يمهل أتباعهم تلك التماثيل الكثير من الوقت، حتى قاموا بإزالتها، ليتم بيع مادتها في السوق السوداء. لم يتبق سوى الشرفات المدرّجة المطلة على الشاطئ، والتي كانت تنتصب في وسطها قواعد التماثيل، وقد تحولت إلى أماكن للراحة تحتوي على مقاعد للجلوس، تحت سقائف مغلفة بالقرميد الأحمر.

غادرت غرفتي وخرجت من الفندق لأقصد إحدى تلك الشرفات، كان الوقت عصراً. بعض الناس بدأوا بالتوافد على شارع الكورنيش، ثمة عوائل تتجول هناك، وصبية وفتيات صغار يبيعون الورود الاصطناعية على عشاق متنكرين، خجولين، يولون وجوههم ناحية الشط. وعلى طول الساحل، تصطف عربات اللبلبي والفول وعرانيص الذرى واللفّت، والمكسرات، والمياه المعدنية والغازية، وسندويتشات الفلافل والهامبرغر والشاورما، شبان سمر في مقاه على الهواء الطلق يعدون أركيلات الحشيشة، أو يقفون أمام ماكنات قلي الفنكَر وتحميص بذور عباد الشمس والفُشار.

كانت المراكب الراسية، في الفسحة النهرية بإزاء الفندق، تحول دون رؤية الضفة الأخرى من النهر. عبرت الشارع إلى الرصيف المحاذي للضفة، وانعطفت يساراً باتجاه تمثال بدر شاكر السياب. بالطبع أنا لم أنس أن مكانه هناك قبالة البنك المركزي، عند مصب نهر العشار، الذي يجري في عمق المدينة، ويفصل الكورنيش عن منطقة الداكير، التي انشأها البريطانيون، واتخذوها حوضاً لسفنهم أثناء

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الاحتلال الأول في العقد الثاني من القرن العشرين. وددت لو اركب أحد قوارب الترفيه النهرية، التي كانت تجوب الشط في تلك الأثناء، لكن تذكرت أني لم آتي من أجل السياحة، وأرجأت الأمر إلى وقت آخر. لم ألبث في ذلك الجانب من الشارع سوى بضع دقائق، تخيلت خلالها، ولسبب دائماً ما أجهله، اختفاء تمثال السياب، المشهد الذي دائماً ما ملأ ذهني، كلما مررت من أمامه، قبل أكثر من عشر سنوات، وأنا في طريق العودة من عملي في القاعدة البريطانية المتمركزة في مجمع القصور الرئاسية، في نهاية شارع الكورنيش، والذي علمت مسبقاً أنه صار تحت سلطة الإدارة المحلية، ثم الأجنحة العسكرية لبعض الأحزاب الحاكمة، منذ انسحاب القوات البريطانية في عام 2009، خطرت لي فكرة الوصول إلى هناك لإلقاء نظرة، لكني لم أشأ المجازفة. ليس من الشائع تجول امرأة لوحدها على الشاطئ، سيجلب لي ذلك المزيد من النظرات المرتابة التي بدأت فعلاً فور خروجي من الفندق، وقد أتعرض للخطر. إلا أن هذا لم يمنعني من التجوال على طول الشاطئ، وصولاً إلى قناة الخورة، بعد اجتيازي عدداً من المطاعم والكافيهات العائمة، التي لم يكن لها وجود قبل الحرب. قفلت بعدها عائدة إلى الفندق، لأكتب هذه اليوميات.

الفندق كلفته عالية، رغم ان شركة شيراتون سحبت علامتها منه، بعد رفض السلطة المحلية العمل بنظام الشركة، الذي يحتم وجود قاعة ديسكو وبار ومشروبات كحولية، بما يتنافى مع الاتجاه الديني المتشدد للحكومات المحلية بعد الحرب. لكنه فندق آمن، واكثر حماية، وهو محل اقامة الكثير من الوفود الأجنبية، ورجال الأعمال،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ومندوبي الشركات، ومقر للعديد من مكاتب الشركات النفطية والخطوط الجوية العالمية. كان بمقدوري، وأنا أرتقي السلم الذي فضّلته على المصعد لرعبي من الأماكن المغلقة، سماع لحن لأغنية عراقية، ينبعث من آلة عود يعزف عليها أحدهم في لوبي الفندق، حيث يمكن للمرء أن يطل عليه من الدرابزين الفاصل بين الغرف والفضاء، الذي تصعد إليه تلك الألحان، ممزوجة بلغط النزلاء في الأسفل، وأحاديثهم، وصدى ضحكات البعض. سماع موسيقى كهذه، بعث في نفسي شيئاً، رفضت في البداية الاعتراف بأنه حنين. لعله ليس الحنين إلى الماضي، فالموسيقى، أحياناً، تثير فينا الشعور بالحنين إلى أشياء غير موجودة أو أننا لم نعشها، لكنها أثيرة إلى النفس، قريبة منها، وطالما كانت موضع تمنياتنا يوماً ما، لكن حال بيننا وبينها بُعد المنال. مضت فترة طويلة لم أسمع خلالها موسيقى أو أغان عراقية، ولم أقابل سوى قلة من العراقيين في بريطانيا، وغيرها من البقاع التي زرتها، ربما تعمدت ذلك، في حين كنت بأمسّ الحاجة لشيء من المحلية العراقية هناك، لكني قاومت، أو كابرت، وكل ظني أني قد أنجح في الانسلاخ مما شكل عقدة نفسية بالنسبة لي، وهو الوطن.

حسناً، لا أرغب بالدخول في الشكليات ودراما العاطفة الوطنية، وما يمكن أن تثيره الزيارة الأولى، في نفس مغترب فارق بلده لأكثر من عشرة أعوام. لكن هناك بعض التفاصيل الصغيرة، أشعر بعجزي عن التنكر لها، مثلاً، حين رأيت أشعة الشمس الغاربة وهي تستلقي على وجه المياه الهادئة في شط العرب، انتابني شعور غريب، وأنا أفكر إلى أي حدٍ يمكن للأنهار أن تكون قبوراً، مثلها مثل اليابسة؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يتوق البحارة إلى أن تكون نهايتهم في المياه، ليس كونهم قضوا وقتاً طويلاً في البحر فحسب، إنما لشعورهم بوجود ما يشدهم إلى تلك الأعماق القصية. شيء لا يقل غموضاً وجاذبية في الوقت نفسه، عما يشدّ البدوي إلى الهيام في الصحارى القاحلة، والحضري إلى الضياع في المدن المأهولة، والريفي إلى الانغراس في المساحات الخضراء، والطيار إلى العوم في الفضاءات اللامتناهية. لم أعرف حقاً، حينئذ، لماذا وددت إلقاء نفسي في مياه ذلك الشط الكبير، وما الذي يمكن أن يشدني إلى عمقه هكذا؟ ربما هو أحد الأسرار القابعة بين حطام المراكب، وهياكل الجنود والصيادين الغرقى، أو هي تلك الرائحة، تشمها ولا تعرف مصدرها، كما لو أن ثمة من يتعمد تركها على هذا النحو، ويريد منك تتبّعها. لعل التراب هو أكثر ما يعبر به المغترب عن فرط حنينه واشتياقه إلى بلده، يأخذ حفنة منه ويشمها، يقبلها ويمرغها بدموعه، لكني لم أشعر في حينها إلى أكثر من رغبتي بالغطس في مياه الشط، وكأني أردت بذلك التطهر من أوساخ حياتي الماضية، من دنسٍ كان ما يزال يغلفني.

المياه والتراب، مادتا التطهير الاساسيتان في الدين الاسلامي، فالميت يُغسل بالمياه قبل دفنه في الأرض، لكن، الفرق بين الاثنين، أن الأرض لا تلفظ الموتى، بينما تجد العكس في المياه، التي ترفع الغرقى إلى السطح، ليس لأن العمق يرفضهم، لكن يحدث هذا عادة بعد انتهاء فترة المعمودية، أو شيء كهذا.

أعتقد أني ثرثرت بما فيه الكفاية لأشعر بالتعب وأخلد للراحة، فغداً يوم عمل شاق، أو هذا ما أتوقعه، وأنا أبحث عن المفترسين

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الصغار. لا بد أنهم كبروا الآن، وازدادوا طولاً بمقدار ثمانين أو سبعين سنتمتراً، إذا كانت معدلات أعمارهم في ذلك الزمن بين التاسعة والعاشرة، فمن المفترض أن يكونوا الآن في التاسعة عشرة أو في العشرين من العمر. أصبحوا رجالاً، وربما ازدادوا افتراساً، واخترقوا عذرية فتيات أخريات، وحولوهن إلى أفراس مكسورة السيقان، وانتهى بهم الأمر إلى رجال عصابات خطف وسطو وابتزاز، أو مروّجي مخدرات وحبوب هلوسة، أو قادة ميليشيات، أو غاسلي أموال، أو مزوري نقود، أو إرهابيين، أو في لائحة المطلوبين للحكومة بتهمة القتل العمد، أو لعلّ بعضهم يعتمر العمامة الآن، ويُحاضر دينياً في أحد المساجد، عن أكثر سكان جهنم: النساء.

أول ما تبادر في ذهني، قبل اسم حمدان، حين أجهضت عبير، هم أولئك الأولاد، فحفظت اسماءهم قبل أن يأكلها النسيان. كانوا أربعة ممن يسكن ذويهم في الشارع الذي كنا نقطن فيه. أعرف آباءهم وأمهاتهم وأخوتهم، أعرف أشكالهم، وصفات وعيوب بعضهم. كانت عبير تدعوهم إلى اللعب في باحة بيتنا أحياناً. كان أحدهم يلثغ، اسمه سيف، يلفظ الراء غيناً، والثاني أعرج بسبب إعاقة ولادية اسمه جاسم، ويمكن تمييزه بسهولة، وكان موضع سخرية الآخرين، وهدفاً لمقالبهم، خصوصاً عبير. الاثنان المتبقيان توأمان، يحملان إسمين من تلك الاسماء التي، كما لو أنها استُلت من نشرة للأنواء الجوية، فالأول اسمه رعد والآخر اسمه مطر. هؤلاء الأربعة علي العثور عليهم، لكن، في البداية، وقبل كل شيء، سأتحرى مصير أمي، آخذة ما يمكن مواجهته، من خطورة حينما سأذهب غداً إلى

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حي الحرية، على محمل الجد. فكرت كثيراً بما قد يحدث لي هناك، كان حمدان أحد «أولئك» الذين يشكلون خطراً على حياتي، أثناء هذه المغامرة، بالإضافة إلى عمومة أبي، الذين لن أكون في حينها، بالنسبة لهم، سوى عارٍ لطّخَ جباههم، لهذا، كنت ما أزال أضع احتمال فشل المهمة، وتوقفها عند حدّ يحتم عليَّ العودة من حيث أتيت، مكتفية بما أحصل عليه من معلومات بشأن مصير أمي.

إلى الغد إذن.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الثاني

الأثنين

3 تشرين الأول/ اكتوبر 2016

PM 11:42

جالسة في غرفتي المطلة على الشط، في الطابق الرابع، أستعيد ذكرى أبي، وقوله الذي طالما ردده، وكان أشبه بالحكمة بالنسبة له: دوام الحال من المحال. كان يروي لنا بهذا الشأن، حكاية من تلك الحكايات، التي تُستخلص منها العبرة الدالة على زوال الأشياء، وعدم استمرارها. حكاية عن النسبية، وأن كل شيء في هذا العالم له نسبة ومقدار ينتهي بمرور الوقت، الوقت الذي هو آفة كل شيء، والغول السائر في طريقه، غير عابئ لا بولادة ولا بموت، رافعاً شعار: الحياة مستمرة! حتى الحياة هي الأخرى نسبية، وستنتهي يوماً ما، وهو ما يخرج به علينا الملاحدة والمؤمنون على حد سواء، بين فترة وأخرى، وكلٌ منهما يرى الظاهرة حسب فهمه، فمن جانب، خلق اللّه العالم في ستة أيام، وسينهيها برمشة عين، ومن جانب آخر، ولدت الأرض من رحم الانفجار الكوني الكبير، وسيدمرها انفجار آخر، أو نيزك طائش في وقت ما.

تقول الحكاية باختصار، إن هناك رجلا يؤمن أشد الإيمان بأن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كل شيء زائل في هذه الحياة، وأن شيئاً لن يبقى على ما هو عليه، وكان يعقّب على كل موقف يعيشه، أو ظرف، أو حادث يمر به، أو ظاهرة تحدث بقوله: ما تظل هيج! أي لن يستمر الأمر إلى الأبد، في الحرب، في السلم، أثناء الكوارث، وفي أوقات الشدة والرخاء، عندما يجوع، أو يعرى، أو يمرض، عندما يفرح أو يحزن، يضحك أو يبكي، وهكذا إلى آخر المطاف. حتى جاء اليوم الذي أصابه مرض الموت وصار يحتضر، وكان آخر ما قاله هي هذه العبارة: ما تظل هيج! التي وجدت مكتوبة، في النهاية، على رخامة فوق قبره.

نعم، دوام الحال من المحال، كما يردد أبي دائماً، وبتعبير آخر أكثر عامية: ما تظل هيج! ولعل أقرب دليل ملموس شهدته شخصياً، ومثالاً حياً على ذلك هو ما رأيته بعينيّ في حي الحرية، إذ إن كل شيء في هذا المكان استحال إلى خراب. ليس الخراب بمعناه المشهدي، أي أن ترى المنازل مدمرة، والحياة معدومة، والشوارع مهجورة، والجثث المتفسخة تملأ الطرقات، كما في أفلام الرعب والكوابيس، كلا. ليس الأمر بهذه الطريقة، إنما كان هناك ما هو أشبه بوباء مرّ بقرية ما، وترك فيها أثراً بليغاً، يمكن ملاحظته من خلال أطفال كالضفادع، من دون أعناق.

كنت قد استيقظت في الساعة السادسة صباحاً، الأحرى نهضت من الفراش، لأني لم أنم طيلة ليلة أمس. كنت قلقة، ومترددة، وربما خائفة. لن أتحدث طبعاً عن تفاصيل مثل الاستحمام، تناول الفطور، القهوة، ارتداء الثياب، وغيرها من الأمور العادية، إنما سأذكر الأشياء المهمة، أو الجوهرية على طريقة ميلان كونديرا.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

غادرت الفندق بعد ساعة تقريبا على استيقاظي، استأجرت تاكسي أقلتني إلى حي الحرية في الطرف الجنوبي من المدينة. كان السائق مهذاراً كعادة سوّاق سيارات الأجرة، وقال أنه لم يسمع من قبل بهذا الحي، وصدقته، فحي الحرية غير مسجل في سجلات البلدية. لكن، بما أني ما زلت أحفظ الطريق، وافق على نقلي. انطلقت السيارة من أمام الفندق في شارع الكورنيش، مارة بسوق العشار المزدحم بمحاذاة نهره المتفرع من شط العرب، الذي ينتهي في البصرة القديمة على مبعدة ثلاثة كيلومتر. كان ما يزال، حتى ذلك الحين، نهراً بمياه آسنة تطفو على سطحها الأزبال والقاذورات. كان الزحام شديداً، فالبصرة مدينة مأهولة، ولا بد أن سكانها ازدادوا ضعفاً في السنوات العشر الأخيرة. تغيرت كثيراً، لكن ليس إلى درجة تجعل امرأة مثلي تضيع فيها. تحولت إلى قطعة من السواد، فقد لاحظت على طول الطريق من العشار إلى ساحة سعد، الكثير من لافتات النعي، والأعلام السود والحمر والخضر المغروسة على الأرصفة، وأناس يتجمعون حول موائد طعام الإفطار، أمام سرادقات منصوبة على جانب الطريق، عندذاك، اكتشفت متأخرة أننا في موسم الحزن العراقي السنوي، عاشوراء. لكن، كيف لم أنتبه بالأمس، وأنا في طريقي من مطار البصرة إلى الفندق؟

بعد نصف ساعة من الثرثرة، عن سوء الخدمات، والانتخابات، وفساد السياسيين، والأحزاب الحاكمة، في حين كنت أنا صامتة، شغّل السائق سي دي لقصيدة رثاء عاشورائية، أو كما نطلق عليها بالعامية لطمية. سألته في أي يوم نحن من عاشوراء، فقال أنه اليوم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الأول، وكما لو أني ذكّرته بذلك، التفت نحوي حيث كنت أجلس في المقعد الخلفي، ليتأكد ما إذا كنتُ أرتدي السواد. وفعلاً، بحكم مهمتي، كنت أرتدي جبة وحجاب أسودين، في حين تركت وجهي من دون مكياج. كان صوت الناعي ينبعث من جهاز السي دي شجياً وحزيناً للغاية، كان من تلك الأصوات التي تستدر الدموع، أصوات قديمة خلدتها أشرطة التسجيل خلال فترة الستينات والسبعينات، وقُمع أصحابها وتفرقوا بين المنافي وسجون وشناطات السلطة. كنت على وشك البكاء في حينها، فقد كان المنشد ينعى على لسان امرأة تشكو لأمها ما جرى عليها من ظلم، لكني تمالكت نفسي، ورحت أفكر بأمي، وأتساءل عما إذا كنت سأعثر عليها، وما الذي سأفعله في حال وجدتها حقاً، وكيف سأتصرف. كل هذه الأمور لم أفكر بها من قبل، وكأن همي الوحيد هو معرفة ما إذا كانت على قيد الحياة أو أنها ماتت. كنت أرتجف، أحسست بالبلادة وهي تربك قدميّ كلما اقتربت من حي الحرية. يا له من اسم، لا أعرف من العبقري الذي أطلقه عليه. ناولت السائق أجرته وترجلت من السيارة، وقفت هناك قرابة خمس دقائق، أنظر إلى واجهة الحي، وبوابته التي تشبه بوابة مقبرة. أنزلت القطعة السوداء الشفافة من النقاب على وجهي. كان هناك بعض الطيور، لم أتبين نوعها، تحط على أشجار الأثل المغبرة، في بداية الحي، ذكرتني بالسفرات المدرسية إلى غابة الأثل في منطقة البرجسية. ثمة دخان يتصاعد من أماكن عدة، وأصوات نهيق ونباح، ورائحة خانقة، كريهة، يبدو أنها ناتجة عن حرق النفايات. أحسست بانقباض صدري، وألم في معدتي، وحرارة تسري في أنحاء جسدي. وحين تبادرت إلى ذهني فكرة العودة، كانت سيارة الأجرة قد

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وصلت إلى الشارع العام، وانطلقت مسرعة باتجاه المدينة. لاحظت أثناء ذلك، على مبعدة خمسمائة متر تقريباً، بناية زرقاء بسقف جمّالي، أشبه بمعمل صغير للدواجن أو مخزن، يحوطه بي آر سي بأسلاك شائكة، ويحرسه رجال مسلحون. كان بناء مستحدثاً، لم أعبأ به، ولملمت شتات نفسي، واتجهت نحو بوابة الحي. لم ألحظ وجود أحد، ربما لأن الوقت ما زال مبكراً. كان دخولي إلى هناك أشبه بمشهد فنطازي، من مشاهد عادة ما يستهل بها الكُتّاب رواياتهم الكابوسية، مشهد لم يخب ظني حين شعرت أني لن أنساه أبداً، وسيظل شاخصاً في ذاكرتي، مثل علامة دالة على الخراب.

يبدو الحي مهجوراً، مجرد أطلال لمكان كان يعج بالحركة في الماضي القريب، وأصبح الآن كأي مكان خرب تسكنه الأشباح، والكلاب الضالة. لكن، حتى هذه الأخيرة لم أرها، رغم سماعي نباحها قبل دخولي. كان نباحاً فجائعياً، كذاك الذي كنا نسمعه وهو ينبعث من كلاب مصابة بطلق ناري، وعلى وشك أن تموت. أكثر الكلاب كانت تموت دهساً، على الطرق العامة، وهي تحاول العبور، أو تُقتل من قبل البلدية، حين تتكاثر ويُصاب بعضها بالسعار، مما يشكل خطراً على السكان.

الهدوء الذي يخيم على الحي، شجعني على المضي والتوغل باتجاه مقبرة الآليات المدمرة، عبر الشارع الرئيسي. وبينما كنت أتقدم، وقد استعدت شيئاً مما بدده التوجس من إقدامي على خوض هذه المغامرة، التفت يميناً نحو مصدر صوت تناهى إلى سمعي فجأة، على نحو كاد يفقدني شجاعتي المزعومة، أو لأقل، التهور

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الذي كنت بصدد اقترافه. كان صريراً لباب أحد البيوت العشوائية التي استُحدثت بمرور الوقت وهو يُفتح. لم أتوقف، واصلت مسيري وأنا أنظر إلى تلك الجهة، فرأيت طفلاً قدرت عمره بتسعة أعوام أو عشرة، يخرج من البيت ويقف عند الباب. كان من صنف الأولاد الذين تخال، مع شيء من الخيال، أن رؤوسهم رُكبت بين أكتافهم كيفما اتفق، أو أنهم تسللوا خفية من مخزن للدمى التالفة، التي دائماً ما يكون ثمة شيء ناقص من أطرافها. لكن، ما الذي كان ينقص ذلك الطفل؟ كنت على وشك الوصول إلى مقبرة الآليات المدمرة، لأنعطف يساراً نحو شارعنا، حين انتبهت أنه كان من دون رقبة. سمعت بعدها بثوان جلبة على يساري، وباباً آخر يُفتح، ويطل من وراءه طفل آخر، وهو يدعك عينيه وينظر إليّ. كدت أصرخ: يا إلهي! عندما اكتشفت أنه طفل ضفدع آخر، أو هكذا أطلق الأطباء، في مستشفى الطفل التخصصي بالبصرة، على الأطفال المشوهين، ممن يُولدون من دون رقبة. لم أكن أعرف ما الذي يجري حينها، أصابني الدوار، وسخرت من نفسي للحظة، حين خطر لي أني ربما أعيش في حلم ما، في وقت كنت متيقنة أن كل شيء كان حقيقياً وواقعياً، بما في ذلك الطفل الضفدع الثالث، الذي صادفته في شارعنا بعدها بدقائق، وكان يحمل كيساً فيه بيض، لكن يبدو أن عمره أقل من الطفلين الآخرين. كان شيئاً بمنتهى الغرائبية، كأن الثلاثة أتفقوا على الخروج في تلك الساعة، لا لشيء سوى إفزاعي.

انتبهت أخيراً، كان عليّ تجاوز الأمر، والمضي في مهمتي، وألا أترك الفرصة لفضولي في معرفة القصة وراء كل هذا، لقد جئت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من أجل أمي، أما هؤلاء الأطفال، فلتهتم بهم مؤسسات الرعاية الاجتماعية، لن أسمح لشيء أن يلهيني عما كنت أسعى إلى معرفته، وهو مصير أمي.

كنت قد أصبحت في شارعنا في ذلك الحين. كان بيتنا يقع في المنتصف، وبيت خالتي بإزائه. وقفت بينهما، أنقل بصري هنا وهناك، كأني أعقد مقارنة بين البيتين. لاحظت أن ثمة كوة مربعة فُتحت في سياج بيت الخالة، أطل منها رأس لُفّ بكوفية، لرجل مسن راح ينظر بعينين ملمومتين، وعندما لم يتعرف عليَّ، أعاد رأسه، مثل سلحفاة، إلى داخل دكانه الصغير، الذي كان أشبه بالجحر. هذا يدل بطبيعة الحال، أن خالتي لم تعد تسكن هنا. تُرى، أين ذهبت هي وابنها؟ شعرت بشيء من الأمان، وأنا أكتشف الأمر. لم أتوقع أن يشكل أحد خطراً عليّ، باستثناء حمدان، الذي يبدو أنه لم يعد يسكن هذه البقعة. أما عمومة أبي، فما زالوا يسكنون مناطق بعيدة، على بعد عشرات الكيلومترات. ولأول مرة، منذ الصباح وفي هذا الحي الخرب، أرى شيئاً لا يبعث على التوجس، واعني بذلك البائع المسن، فقد كانت ملامحه هادئة، وليس في عينيه ما يشي بالريبة من وجودي، وهو ما دفعني إلى المبادرة بالسؤال. اقتربت من الدكان الصغير، وسألت الرجل إن كان يعلم الى أين انتقل سكنة البيت الذي يقطنه حالياً. لم يتردد هذا لحظة بالإجابة، ليرى إن كنت امرأة غريبة أم من أهل الحي، وقال بلهجة أهل القرى القادمين من المحافظات المجاورة للعمل في مزارع البصرة، أنه لا يعلم بالضبط أين ذهبوا، وأن البيت كان فارغاً قبل أن يشتريه من رجل دين.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«رجل دين؟!» سألته ولم أنتبه إلى أني رفعت صوتي أثناء ذلك: «ما اسمه؟»

دس البائع العجوز أصابع يده تحت كوفيته، وأطرق مفكراً، وهو يهرش رأسه، ثم قال أنه لم يعد يتذكر الاسم الآن، بعد مضي ما يقارب خمس سنوات. فكرت أن البيت ربما بيع أكثر من مرة، بعد أن باعه حمدان، بدليل أن هذا البائع اشتراه من رجل دين، كما يقول. كان عجوزاً ودوداً بما يكفي لأن أواصل التحري منه، وأسأله عن سكنة البيت المقابل، الذي كان بيتنا.

«عبيد!» قالها بصوت خفيض، كما لو انه لم يرد لأحد أن يسمعه، ثم عقب بعبارة شهيرة دائماً ما تلي تلك الكلمة التي ما زال الناس ينعتون بها ذوي البشرة السوداء منذ زمن العبودية: «كل احنا عبيد الله!»

تذكرت حين جئت إلى هنا، قبل عشر سنوات، كان هناك إعلان بيع مكتوب على الجدار، وتحت الاعلان ثمة رقم هاتف نقال اتضح لي، بعد الاتصال به، أنه عائد إلى راهي المضمد. لم أنسه، كان كالنقش على حجر، انحفر عميقاً على جدار الذاكرة. لكن هذا الرقم لم يعد يعمل، أو أنه أصبح بمعية مالك آخر. عرفت هذا حين اتصلت به بعد عودتي من حي الحرية بالأمس، فرد عليّ شخص لا يبدو أنه نفسه راهي، فأنا أعرف صوت هذا الرجل جيداً، رغم أني لم أسمعه كثيراً، وكان بمقدوري التعرف عليه، حتى بعد مضي ثلاثين سنة، قد يتغير اثناءها صوت المرء بعض الشيء، مع التقدم بالسن، لكن تبقى النبرة هي نفسها. أما هذا، فيبدو صوته مختلفاً، وكأنه يشكو من عاهة في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حلقه. لهذا، لم اسأله إن كان هو راهي أم لا، قلت له فقط، إني اتصلت بالرقم الخطأ على ما هو واضح. يحصل أن يهمل أحدهم استخدام رقم هاتفه لفترة طويلة، فتعمد شركة الاتصالات إلى مصادرته، ومن ثم بيعه إلى شخص آخر، وهو ما تأكدت منه اليوم، إذ ما زال هاتفي يرن حتى الآن، ويظهر على شاشته الرقم نفسه. فتحت الخط مرتين أو ثلاثة، من دون التفوّه بكلمة. عرفت في حينها أن المتصل هو أحد أولئك المتصيدين، وقد سمع صوت امرأة، فراح يعاود الاتصال كل خمس دقائق، على أمل أن يحظى ببعض المتع الحسية، التي توفرها وسائل الاتصال، لشبان شبقين ومكبوتين جنسياً.

كان الوقت ما يزال مبكراً، لأثير ريبة سكان الحي. لم أصادف بعد سوى الأطفال الضفادع الثلاثة، وهذا البائع المسن، الذي لم يدفعه الفضول، لسؤالي من أكون وماذا أريد بالضبط. شكرته، واعتذرت بلطف على دعوته لتضييفي، لأتجه بعدها إلى بيتنا (سابقاً) وأقف بإزاء بابه الحديدي المطلي باللون الأخضر، وأطرقه ثم أشعر بالندم. كدت أن أغادر، لولا احساسي أن ثمة من صار بصدد فتحه، وسمعت خطواته البطيئة، ثم صوته الذي جاء من وراء الباب، وهو يتحرى عن هوية الطارق. ترددت بداية في الإجابة، ثم قلت: أنا! رغم أن «أنا» هذه لا تلبي طموح السائل لمعرفة من هو هذا الطارق، خصوصاً إذا كان غريباً. عادةً لم يتخلص منها العراقيون أبداً، فلا الطارق يوضح من هو بعد هذه الـ«أنا» ولا السائل صاحب البيت يسأله بعدها: من أنت؟ فإذا لم يتعرف عليه من خلال الصوت، يُهرع إلى فتح الباب، من دون الأخذ في الحسبان، أنه قد يكون جاء لقتله مثلاً.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لحظات، وإذا برجل أسود طويل يقف أمامي. كان يحمل بيده كوباً من الشاي، وبين اصبعي السبابة والوسطى هناك سيجارة. يرتدي دشداشة بيضاء ناصعة، زادت من بشرته السمراء الداكنة.

«تفضلي أختي!» قال بلطف بالغ.

«عفواً» سألته رغم أني أعرف الإجابة مسبقاً: «هل هذا بيت راهي؟»

«راهي؟» سألني وهو يشرد بنظره جانباً.

«نعم» قلت له بصوت ما زلت أظن أنه ليس صوتي، منذ وطئت قدميّ أرض البصرة: «راهي المضمد»

«تقصدين استاذ راهي!» قال متذكراً: «لكنه لم يعد يسكن هنا منذ فترة طويلة، كان هذا بيت زوجته قبل أن يبيعه لي»

«زوجته؟!» نجحت في كتم صرخة وشيكة وأنا أسأله.

«نعم.. زوجته الثانية»

«ما اسمها؟»

عاد الرجل الأسود إلى نظرته الشاردة، ولا يبدو أنه يعرف اسم زوجة راهي الثانية.

لكني أعرفها، إنها أمي!

«حسناً» قلت له لأواري ارتباكي: «راهي المضمد يكون قريبي، سألت عنه، فقيل لي أنه يسكن في هذا الشارع، لم أعلم أن له بيتين، هل يمكنك اخباري إن كان ما زال يسكن في هذا الحي؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«كلا» أجابني، وقد أطل من وراءه طفل بعمر الثالثة أو أكثر، من دون رقبة أيضاً، طفل ضفدع آخر، يا للكارثة!

«لقد انتقل للعيش في المدينة، بعد أن أصبح مديراً للمعمل»

قال الرجل الأسود، وهو يشير بيده من فوق كتفي، وكان يريد بذلك البناء الأزرق، الذي رأيته قبل دخولي إلى الحي.

«مديراً للمعمل؟ أستاذ؟ كيف؟ ولماذا على شخص فاسد ومحتال مثل راهي أن يدير معملاً؟ وماذا ينتج هذا المعمل يا ترى؟

كل هذه الأسئلة لم أطرحها على ساكن بيتنا القديم، باستثناء السؤال الأخير.

«كريستال!» قال وهو يضحك.

ورغم أنه كان سلساً، ومتعاوناً، ولا يختلف كثيراً عن أقرانه من ذوي البشرة السوداء، الذين يمتازون بالمرح وخفة الدم والطيبة، لكني لم أفهم السر وراء ضحكته، التي أظهرته أسنانه المصفرة. وهل كانت ضحكة حقاً أم نوعاً من السخرية، أو التهكم، الذي يعقب دائماً الانزياحات اللغوية، أو حينما تُذكر كلمة ويُقصد بها شيئاً آخر. أردت سؤاله أين يسكن استاذ راهي هذا، في المدينة، لكني رحت اسأله، بدلاً من ذلك، عن الأولاد الأربعة، سيف وجاسم والتوأم رعد ومطر. هنا بالذات، بدأت أثير شكوك الرجل الأسود المرح. امرأة مجهولة موشحة بالسواد، ولا يظهر منها شيء سوى عينيها من وراء النقاب، جاءت لتسأل عن قريبها المزعوم، وها هي الآن تنحى منحى آخر، لا يمت بصلة لما تريد معرفته، ورغم ذلك، لم يمنعه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ارتيابه من الإجابة، فقال أنه كان يسكن خارج الحي، ليس بعيداً، ولم يمض على مجيئه إلى هنا سوى ثلاثة أعوام، لهذا هو لا يعرف أيّاً من الأسماء التي ذكرتها سوى جاسم، وهو شاب أعرج، يعمل حالياً في الحي الصناعي بمدينة الزبير.

كان عليّ التوقف عند هذا الحد، ومغادرة الحي من دون التفكير بزيارته ثانية. اسرعتُ نحو بوابة الخروج، وانتبهت، أثناء ذلك، إلى أمر لم ألاحظه عند مروري بمقبرة الآليات المدمرة، وكأن ثمة ما أغشى بصري حينئذ، ومنعني من الانتباه له، وهو أن شيئاً من هياكل تلك الدبابات والمدرعات والعجلات والمدافع الصدئة لم يعد موجوداً في تلك الساحة وسط الحي. اختفت جميعها، لتحل بدلاً منها أراجيح وزُحْلقات ودولاب هواء صغير، وألعاب أخرى. مدينة ملاهي مصغرة على أرض مشعة، موبوءة، من أجل انتاج المزيد من الأطفال الضفادع، الذين رأيت قسماً منهم، وأنا في طريقي إلى مغادرة الحي، يملؤون باصاً صغيراً، متجهاً إلى إحدى المدارس النائية.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الثالث

الثلاثاء

4 تشرين الأول/ اكتوبر 2016

PM 11:17

لأول مرة منذ يومين، أستطيع النوم. كنت قد قضيت فترة ما بعد عودتي من حي الحرية في الفندق، أفكر بالأحداث التي جرت بالأمس، والنتائج التي حصلت عليها، ولم أفكر بكتابة اليوميات إلا ليلاً، لأحظى بعدها بقسط من الراحة. كنت منهكة إلى درجة كبيرة، وأشعر بألم في أطرافي، وثمة صداع لم تنفع معه مهدئات سوى النوم. استفقت في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم، أول شيء فعلته هو قراءة ما كتبته في الليلة الماضية. بدا كل شيء كما لو أنه من وحي الخيال، فصل من رواية، أو مشاهد مقتطعة من فيلم سينمائي. ولولا أني أذيّل كتابتي بتوقيعي، وهي العادة التي دأبت عليها منذ هجرتي إلى بريطانيا، ومعرفتي بخط يدي، لظننت أن ثمة شخص آخر هو من كتب هذه الصفحات. حي غريب، كأنه يقع خارج الزمان والمكان، أطفال أشبه بالضفادع، مشوهون بسبب التلوث الإشعاعي، معمل لصناعة الكريستال، يبدو وجوده غامضاً، بالقرب من الحي. لكن لماذا الكريستال؟ في وقت تخلو مدينة كبيرة مثل البصرة من معمل صغير لصناعة المطاط، بسبب فساد الحكومات المحلية، وهل حقاً أني رأيت كل هذا؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كان من المفترض تخصيص اليوم للراحة والاستجمام، لكني ما أن أنهيت قراءة اليوميات حتى قررت الذهاب إلى وجهتي التالية، مدينة الزبير. رأيت امراً كهذا لا يحتمل التأخير، فزيارتي قصيرة، وعليّ الوصول إلى جاسم الفتى الأعرج، الذي يُفترض أنه الآن بعمر التاسعة عشرة أو العشرين، ابن ميكانيكي الدراجات الهوائية، والوحيد، بحكم مهنة أبيه، من كان يملك دراجة هوائية مستعملة، يستخدمها زملاؤه، بما فيهم عبير، أكثر منه، رغم أنه مالكها، إذ دائماً ما يكون هو المستضعف، الأبله، الخدوم وقليل التدبير بينهم، نموذج من الـ«إسليمة» الذكوري، الذي يُسهل خداعه واستغلاله من قبل الجميع.

ارتديت ثيابي نفسها، وغادرت الفندق، وأنا غير متأكدة مما سأفعله. أدركت وأنا في الطريق، أن المهمة ليست أصعب من مغامرة الذهاب إلى حي الحرية. آثرت التجول قليلاً في منطقة العشار التجارية المأهولة، قبل التوجه إلى الزبير. راودني إحساس ثقيل بالضيق، وشعرت باللزوجة في دمي، وأنا أخرج من دربونة لأدخل في أخرى. فمن شارع الكورنيش إلى شارع الوطني، حيث اختفت هناك دور السينما، لتحل مكانها المولات الضخمة. مشيت بعدها باتجاه جامع المقام، ثم منطقة الداكير، معقل الغزاة البريطانيين القديم، التي ولجت منها إلى سوق الحبال وأدوات الصيد والبحارة، خلف الجامع، مروراً بمعبد اليهود العتيق، الذي تحول إلى مخزن للحبوب. ومن سوق الحبال إلى سوق هرج الشعبي، ثم إلى سوق التجار، فسوق البنات، وصولاً إلى سوق المغايز، الهنود سابقاً،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لأنتهي عبر شارع المطاعم إلى ساحة أم البروم، التي قامت مكان مقبرة كبيرة، حيث فضلت هناك ركوب أحد الباصات المتجهة إلى الزبير، على سيارات الأجرة، ربما كنوع من التمويه، إذ شعرت، أو ربما كان وهماً، أن ثمة من يتعقب أثري بالأمس.

انطلق الباص الصغير ببطء، ماراً بسوق البصرة القديمة، ثم مستشفى البصرة الجمهوري، الذي ما أن رأيته، حتى تملكني شعور خانق، مؤلم، دفعني عنوة لاستعادة ذكرياتي الأليمة، في هذا المكان الموبوء. وإلى أن اجتاز الباص الزحام، عند مجسر ساحة سعد، كنت قد رأيت الكثير من المشاهد من خلل النافذة. المدينة كئيبة، تعمها الفوضى والعشوائية، مليئة بالمتسولين، والجو فيها ما زال حاراً، رغم أننا في شهر تشرين الأول، ومن المفترض أن يعتدل الطقس فيه. شممت العديد من الروائح الخانقة، دخان اطارات محترقة، سجائر، عوادم السيارات، النفايات المشتعلة. حتى السماء كانت ملبدة بدخان آبار النفط، في المناطق المتاخمة لمدينة الزبير، حيث تعمل هناك كبرى الشركات النفطية العملاقة، التي تمتص دماء هذه المدينة الغنية بالموارد الطبيعية، نفط، غاز، معادن، وتبث السموم في جسدها المتعب، من دون أن تكلف نفسها عناء مكافحة التلوث البيئي بسبب الأدخنة، التي تنفثها آلاتها العملاقة. تذكرت أني قرأت، منذ فترة قصيرة، عن خطر هذا التلوث على البيئة والسكان والنبات والحيوان، والذي قد تفوق قدرته على الإبادة البطيئة من خلال الأمراض المستعصية، الخطورة التي ما زالت قائمة بسبب التلوث الإشعاعي، بما أن الحكومة لم تتحمل مسؤولياتها حتى الآن. إلا أن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أكثر ما أحزنني، هو الكم الهائل من الصور، على طول الطريق من البصرة إلى الزبير. صور لشبان قضوا في الحرب مع داعش في غرب وشمال البلاد، بعضهم من لم يتجاوز السادسة عشرة بعد، يرتدون الزي العسكري، يحملون بنادق رشاشة على أكتافهم، وقاذفات، ونواظير، ويبتسمون للموت، الذي يملأ أعينهم الصغيرة. لا أعرف ما اللذة من وضع تلك الصور في الشوارع، هل من أجل تفتيت ما تبقى من مرارات الأمهات؟ أم للمباهاة؟ ومن تراه يفخر بذلك؟ ضقت ذرعاً وأنا أرى المدينة تُفرغ من شبانها، وانتابني الغضب حين رأيت أنه لم يعد هناك سوى هؤلاء المساكين، ليتم تقديمهم إلى المحرقة، وبشكل جماعي يعوزه الكثير من الفطنة.

توقف الباص في كراج الزبير الرئيسي، محطته الأخير وسط المدينة، التي أعرفها أكثر من معرفتي بمركز مدينة البصرة، فقد زرتها كثيراً برفقة أهلي، أثناء زيارتنا لمقام الإمام علي، في المكان الذي وقعت فيه معركة الجمل الشهيرة. لم تتغير المدينة كثيرا، ما زالت مغبرة، ومهملة، كما هي على الدوام، وتفتقر إلى أبسط الخدمات، على الرغم من استخراج النفط والغاز على مقربة منها، وبيعه بمليارات الدولارات. استأجرت سيارة أقلتني إلى الحي الصناعي، الذي يقع إلى جوار مقبرة الحسن البصري، حيث يرقد هناك بدر شاكر السياب منذ عام 1964، كانت الساعة التاسعة صباحاً، وكان أصحاب الورش والمحلات قد بدأوا العمل، ميكانيكيون، حدادون، سمكريون، كهربائيون، صباغون. لم أكن أعرف بالضبط أين يعمل جاسم، وليس لدي عنوان واضح يدلني على مكانه، لكن، أعتقد أن أحداً لن يضيع بالسؤال. اجتذبت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الانظار منذ الوهلة الأولى، رغم تغطيتي لوجهي بالنقاب، فوجود امرأة في الحي الصناعي، مهما كانت ثيابها محتشمة، بين أسطوات وصُناع بأعين شرهة، هو أمر غير مألوف. ربما مشيت مسافة خمسين متراً، قبل أن أسأل صاحب كشك أطعمة عن جاسم، من حسن الحظ أنه أعرج، وإلا فإن هناك العديد من الصُنّاع يحملون الاسم نفسه. ومع ذلك، لم يتعرف عليه صاحب الكشك، لكن أحد أولئك الذين سرعان ما يتضح لك أنهم يسترقون السمع، أثناء محادثتك مع الآخرين، وهو صاحب أحد محلات قطع غيار السيارات، كان يتناول فطوره، قال إنه يعرفه، ابتلع آخر لقمة، ورشف من قدح الشاي أمامه على الطاولة الصغيرة، وطلب مني أن أتبعه.

«هذه أول مرة يسأل أحد عنه» قال الرجل، وهو يتقدمني بخطوتين: «هل أنتِ قريبته؟»

«نعم» أجبته، وشعرت أني أغامر بحياتي وأنا أتبعه. فكرتُ: ماذا لو لم يكن صادقاً، وأنه بصدد استدراجي إلى مكان ما؟ افترضت أنه يفعل هذا حقاً، وتساءلت عما يمكنه فعله بي. حسناً، ما الذي يمكن حدوثه لفرس مكسورة الساق، لم تعد تملك ما تخسره؟ لم أكن واثقة من أنه يقودني إلى المكان الصحيح، بدأت أحسّ بالاشمئزاز، وأنا أتخيل الأشياء الفظيعة نفسها، التي حدثت لي قبل عشر سنوات. ستكون الروائح مختلفة هذه المرة، دهان، زيت سيارات، وهيدروليك. لكن، ليست جميع أصابع اليد متساوية، فقد توقف الرجل في منتصف الشارع الصناعي، وأشار بيده إلى ورشة لتصليح السيارات، تبعد بعض الأمتار.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«إنه هناك!»

قال الرجل ومضى في طريقه، من دون أن ينتظر مني كلمة شكر.

اتجهت بعدها صوب الورشة. اقتربت كثيراً. كانت ثمة سيارة أمامها، وشخص يرفع غطاءها ويتفحص المحرك. كان منهمكاً في العمل، إلى درجة أنه لم يسمعني حين ألقيت عليه التحية. اقتربت منه أكثر، ثمة رائحة زيت سيارات تنبعث منه. كررت تحيتي حتى انتبه أخيراً. كنت أقف إلى يمينه، نظر إليّ لثوانٍ، من دون تغيير وضع الانحناء الذي كان عليه، بينما هو يتفحص محرك سيارة كيا سوداء، قال:

«أي خدمة؟»

«أنت جاسم؟»

«نعم» قال وقد انتصب في وقفته، وراح ينظر حوله، ليتحقق إن كنت زبونة أم لا، فاكتشفت وقتها كم كان طويلاً: «تفضلي.. أنا هو!»

وقبل تفوهه بأي كلمة تعريفية، رفعت النقاب عن وجهي، ثم قلت:

«أنا سليمة، أخت عبير، ألم تعرفني؟»

بدت عيناه صغيرتين جداً، وهو ينظر إليَّ، محاولاً تخيل الموقف الذي سيكون عليه، لو اتضح أني تلك المرأة حقاً، التي لا بد أنه سمع خبر اختفائها مع شقيقتها الصغرى في ظروف غامضة. كنت أود لو أعرف ما إذا أثار اختفاؤنا المفاجئ أي ضجة بين سكان الحي، لكني أدركت أن عليَّ، في البداية، ترويض هذا الشاب، الذي بدت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

علامات التوجس تظهر عليه. لقد أربكه وجودي كثيراً، عندما أدرك الغاية وراء زيارتي للحي الصناعي. عندئذ، أجابني نافياً بأنه لا يعرف امرأة بهذا الاسم.

«لا تخف!» قلت له دفعة واحدة لكي لا أترك له مجالاً للتملص: «لن آخذ رأسك، أريد فقط معرفة ماذا حصل لشقيقتي في ذلك اليوم. اعلم أن الوقت ليس مناسباً، لكن هذا رقم هاتفي الجوال، اتصل بي في أقرب وقت، ولا تظن أن القضية عفا عليها الزمن، لدي ما يكفي من المال والإمكانات لأحييها من جديد. الوضع يختلف الآن كما ترى، وستكون أنت أول المتهمين، وربما تنتهي حياتك إلى هذا الحد. أعتقد أنك تفهمني، وأرجو أخذ كلامي على محمل الجد، وألا تتهور!»

ازداد العرق المتفصّد من جبينه العريض. كانت ملامحه قد تغيرت إلى حدٍ، قد لا يمكنني من التعرف إليه لولا اسمه وعرجه، الذي نسيته في حينها، وذكرني هو به، حين هُرع إلى الورشة، في وقت كان ثمة شخص ضخم، قاسي الملامح، خمسيني العمر، يبدو أنه صاحب الورشة، ينادي عليه. فأسرع هذا مثل عبد، وراح يهمس في أذن أستاذه شيئاً. وما هي إلا دقيقة، حتى أقبل الرجل الضخم نحوي، وتوقف على بعد خطوتين، وكما لو أنه على وشك العراك، قال بلهجة تعنيف:

«اذهبي من هنا يا امرأة، نحن على باب الله!»

شعرت بالاستفزاز من الطريقة الخرقاء، التي واجهني بها الرجل صاحب الورشة. لا أعرف ماذا قال له الشاب الأعرج، ليتصرف معي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على هذا النحو الفج. متسولة؟ لا أظن، مع أن نساء منقبات كثيرات يمتهنّ التسوّل في هذه المدينة. أظن أنه اتهمني بالفجور، هذه امرأة سيئة! ربما هكذا نعتني، أو هذه امرأة قحبة! أعتقد أنها المفردة الأكثر تداولاً هنا.

كنت أجهل ما الذي فعله الأعرج بالقصاصة الورقية، التي كتبت عليها رقم الهاتف، لم أره يرميها، أو يمزقها، كما لا أستطيع البتّ في ما إذا كان دسّها في جيبه. أنزلت النقاب على وجهي، وغادرت مسرعة. سمعت في طريقي إلى الشارع العام، بعض التحرشات من قبل أصحاب المحلات والورش، على جانبي الشارع الصناعي المأهول. عبارات من قبيل: بكم الساعة؟ هل تخرجين ليلة كاملة؟ عندي مكان قريب من هنا، هل تذهبين معي؟ بربوق! قحبة! ساقطة! أم الـ...! في المحصلة، خرجت من الحي الصناعي محملة بالعشرات من الألفاظ والألقاب النابية، البذيئة، منها أني صرت أماً لألاف من الأعضاء التناسلية، وبلاّعة لمئات أخرى، وكراجاً لبعضها، ومستنقعاً لما تقذفه من السوائل المنوية، إلى آخر الشتائم والنعوت العراقية المخترعة. ألغيت زيارة محتملة إلى قبر السياب، واستأجرت سيارة أقلتني إلى مركز المدينة مباشرة. نزلت في مكان يبعد عن الفندق أقل من ساعة. كنت بحاجة إلى التمشية، منذ أيام وأنا لا أمشي. لم أنس أننا في موسم عاشوراء الحزين، كانت نوبة الندب الصباحية، الخاصة بالنساء، قد بدأت في تلك الساعة من الضحى، وتجري عادة في البيوت. سمعت أصواتاً نسائية جماعية، وهي تردد إحدى المرثيات، على إيقاع اللطم المنظم على الصدور

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

والأفخاذ. كانت الأصوات تنبعث من أحد المنازل، في الحي الشعبي الذي مررت فيه، أثناء مسيري إلى العشار. تملكني الفضول والحنين إلى الأيام الخوالي، عندما كنت أرافق أمي إلى المآتم. دلفت إلى الدربونة الضيقة، حيث يقع ذلك المنزل. كانت الأصوات ما تزال تردد اللازمة الثابتة، بعد كل بيت في القصيدة المرثية تنشده المنشدة أو «الملاية» كما يسمونها هنا، بواسطة مكبر للصوت. كان الباب مفتوحاً، وثمة روائح لنومي بصرة ودارصيني وطبيخ تنبعث من مكان ما في الداخل.

أكملت طريقي، وولجت إلى الصالة. زججت بنفسي وسط النساء اللائي ربطن عباءاتهن حول خصورهن وشرعن باللطم. نساء منكوبات يبكين أبناءهن وأزواجهن الذين قُتلوا في حروبنا الكثيرة. يتلذذن بالألم، وتبرز في الـ«أحاه!» التي يرددنها نبرة الفجيعة، وهو ما أجج مشاعري، ودفعني إلى أن أحذو حذوهنّ، وأبدأ باللطم، من دون التفوّه بكلمة واحدة. وجودي في هذا المأتم أثار شكوك النساء المعزيات، وبث الرعب في نفوسهن، إلا أن واحدة منهن لم تنتبه، إلا بعد انتهاء هيستيريا الندب. كنت قد فقدت الاحساس، حينئذ، بالموجودات من حولي، ودخلت في نوبة جزع مخيفة، ولولا مسارعة بعض النسوة إلى تهدئتي، لكنت في طريقي إلى الإغماء. اكتشفت أني ألقيت النقاب، وقمت بخمش خديَّ، ونتف شعري، وشق أعلى عباءتي الاسلامية، وتعرية صدري، ولطمه، مما ساعد في تلاشي هواجس النسوة المعزيات بشأن احتمال كوني امرأة انتحارية، جاءت لتفجر نفسها، كما يحصل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عادة منذ عام 2003. وإلى أن عدت إلى رشدي، كانت أغلب النساء قد انصرفن إلى بيوتهن، ولم يتبق سوى صاحبة المأتم و«الملاية» أو النائحة، التي سألتني إن كنت فقدت شخصاً عزيزاً عليَّ، لأصل إلى هذه الدرجة المرعبة من الجزع. لم أجبها، كما لم أرد على تساؤلاتها عن اسمي، ومن أين أنا، وأين أسكن. كنت أحاول في حينها استعادة نفسي، ومغادرة المكان، وهو ما فعلته أخيراً، وكان أشبه بالهروب، مع أن شيئاً لم يكن مدعاة للخوف. الخوف ممن؟ لا أعرف! ربما من نفسي التي وجدتها وسط النساء الحزينات، الجزعات، كما لو أن ليس ثمة شيء، سوى الحزن، يجعلني أعيش خارج مأساتي، ويفصلني عن العالم الذي ضعت في دهاليزه.

منذ أكثر من ساعة، وهاتفي النقال يرن. كل خمس دقائق أو أقل هناك رنة. يبدو أنه المتصل المجهول، يبدو أنه لم يفقد الأمل بعد في إنشاء علاقة عابرة معي. فتحت الخط في المرة الأخيرة، كان الصوت الأخن نفسه، لم يتغير، مذ سمعته آخر مرة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الرابع

الأربعاء

5 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

PM 11:50

لم أخرج اليوم.

أشعر بالإحباط، لم أتلق اتصالاً من جاسم، الشاب الأعرج. لعل من السابق لأوانه الإحساس باليأس، لكن، لا يبدو أنه سيفكر بالاتصال قريباً. يظهر أنه عنيد، ومحتال، على العكس من صورته الهزيلة في الصغر. لم يُخفه تهديدي بالإبلاغ عنه، لا بد أنه يدرك مدى صعوبة تحقق هذا الأمر، وهو إعادة جريمة اغتصاب مضى عليها عشر سنوات إلى الواجهة، خصوصاً أن ليس هناك من الأدلة ما يكفي لإدانة أحد.

اتصل بي مارك في ساعة متأخرة من ليلة الأمس، كنت أتواصل معه ومع عبير طيلة الأيام الثلاثة الماضية، وبشتى الطرق المتاحة، سواء عن طريق البريد الالكتروني، أو من خلال تطبيقات التواصل. وكالعادة، لم تثر عباراته التشجيعية، مثل أنا فخور بكِ، أنتِ امرأة شجاعة، أنا على يقين من أنكِ ستنجحين، وغيرها من التقريضات التي يعرف جيداً كرهي لها، وأشعر أحياناً أنها نوع من النفاق

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الأسري بين زوج وزوجته، وهو أن تقول كل هذا، في حين أنك لست متأكداً من قدرات الآخر، لكنه، رغم ذلك يصر على ترديدها. لن أخفي شعوري بالاطمئنان على عبير، انحسرت تقريباً مخاوفي بشأن وضعها الأخير. سألت مارك مراراً عما إذا لاحظ شيئاً على غير العادة، وكان يطمئنني دائماً، ويطلب مني ألا أخاف، لأنه يعتني بها ويحرسها جيداً. تواصلت معها ثلاث مرات عن طريق اللايف، وفي كل مرة يتجدد شعوري بكونها سعيدة، وتقضي أوقاتاً ممتعة، أو هذا ما لمحته على وجهها وملامحها، ومن خلال إشاراتها. هي لا تعرف شيئاً عن زيارتي للعراق، قلت لها أنا ذاهبة إلى هناك لتصفية بعض الأمور، وتحصيل بعض الوثائق الشخصية المهمة، وعدا ذلك، ليس ثمة ما هو مهم، أو يدعو للقلق. لم أكن أطلع مارك على شيء مما قمت بعمله، وأرجأت ذلك حتى حين عودتي إلى لندن، وربما أترجم له هذه اليوميات، أو اقرأها عليه. كنت أكذب عليه بقولي أن كل شيء بخير.

أشعر بالكآبة، لا شيء هنا يبعث على التسلية، حتى الخروج للتجول في المدينة أصبح مملاً ومكرراً. فكرت كثيراً بأمي، واستغربت أني ما عدت راغبة في رؤيتها، ربما بسبب شعوري بالقرف حيال ارتباطها بشخص انتهازي وماكر مثل راهي، أو ربما لأنها أصبحت تعيش حياة أخرى. حاولت معرفة إن كان هذا يجعلني مطمئنة أو على العكس. العكس؟ ولماذا يحدث العكس، ما دام أنها ما زالت على قيد الحياة حتى الآن، وقد تكون سعيدة، ومتكيفة مع وضعها الجديد كامرأة متزوجة. اللّه أعلم، ربما نسيتنا في النهاية.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يحدث مثل هذا الأمر، حتى بالنسبة لامرأة مثل أمي، رضخت لرغبة أحدهم، من أجل حمايتنا، وإبعادنا عن الخطر، الذي لن يقل بشاعة عن مشهد تُراق فيه الدماء، قبل اكتشاف أن حياتها تلك أفضل بكثير عما كانت تعيشه من قبل، وتشعر بالرضا. إلا أن اعتقاداً كهذا لم يمنعني من تخيلها في حال مزرية، امرأة بائسة، مستعبدة، أشبه بخادمة معدمة، تتعاطى الأقراص المخدرة، أو يتم زرقها بحقن من قبل الزوجة الأولى.

لم أعد متأكدة من رغبتي في معرفة المزيد عنها، كما لو أني كرهتها، أو كرهت وجودها مع ذلك الشخص الدميم بهذه الطريقة، متناسية أنها لم تكن لتنتهي إلى هذا الحال، لولا خوفها علينا وحمايتها لنا.

يبدو الأمر معقداً، هل يُعقل أني أصبحت قاسية إلى هذا الحد، ولم أفكر مرة واحدة، أن هذه المرأة، ومهما حدث، هي أمي؟

حقاً أنا لا أعرف.

أما عبير، فلم تحاول أن تعرف شيئاً عن أمي، أو حتى تسأل عنها خلال الأعوام العشر الماضية، رغم تذكيري الدائم بها. كانت تصمت في أغلب الأحيان، وتشرد بذهنها ونظرتها، وكأن من أتحدث عنها شبح، أو شيء لا وجود له، وليس امرأة هي في الحقيقة أمنا كلتانا. هذه الفتاة غريبة حقاً، وبطريقة محيرة، لم يبق من جلدها شيء، سواي، إلا وانتزعته. قد تظن أنها ماتت، أو ربما يندرج عدم اكتراثها بمصيرها ضمن أعراض ما أصابها، بعد حادثة الاغتصاب، الأمر الذي لم أؤمن به أبداً، ما دام أنها تعرفني، وما زالت تتعامل معي كأخت لها، وهو أمر ينافي تضرر ذاكرتها.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

هذا الهاتف اللعين لا يكف عن الرنين. أغلقه أحياناً، لكني سرعان ما أعود لتشغيله، فمارك هو الآخر لا يكف عن الاتصال وارسال الرسائل، بين ساعة وأخرى، وقد يربكه أن رسائله تصلني ولا أفتحها. كان إلحاح المتصل المجهول عجيباً، إلى درجة دفعتني لتسجيل صوتي في مسجل الهاتف النقال، وسماعه لأرى إن كان جذاباً حقاً، بحيث يلقي سحره في آذان المتصيدين، وهو ما ألمح اليه المتصل المجهول حينما فتحت الخطّ في المرة الأخيرة. كدت أضحك من طريقة المغازلة، صوته الأخن ومخارج الحروف، وهو يلوكها، كأنه على وشك العطاس. خطرت لي فكرة مبادلته الحديث، فكلامه، رغم كل شيء، كان مفهوماً. كنت أود سؤاله عما إذا كان صوتي عذباً حقاً، لأني فشلت في معرفة ذلك، لاعتقادي أن صوت المرء عندما يسمعه الآخرون، لا يشبه الصوت نفسه حين يسمعه هو. اعجبني إصراره، لكني في الآن نفسه، رثيت لحاله. كان أشبه بمن يلقي صنارته في مياه راكدة، لا حياة فيها، ورغم اللا جدوى من كل هذا، تجده يحاول ويلحّ بلجاجة لم أر مثيلها، وكأنه لم يسمع صوت امرأة من قبل. يبدو كذلك وهو يردد كلماته الصبيانية الساذجة: «من معي؟ ممكن نتعرف؟ هل أنتِ جميلة؟ ما اسمك؟ هل يمكن أن نلتقي؟» في المرة الأخيرة سألني ماذا أرتدي، لا أعرف لماذا. هل ينوي أن يطلب مني خلع ثيابي في المرة القادمة؟ مضحك وعجيب أمر هذا المتصيّد، مثله بحاجة إلى دراسة سايكولوجية تكشف السر وراء طول الأمل، والقدرة على الاستمرار بالتفاهات، لدى هذه الشريحة من الأشخاص عديمي الفائدة. فهذه ليست طريقة للتعارف، هذه طريقة فجة من أجل التحرش فحسب.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أفكر في زيارة بيت الخالة ماري، لا يُعقل ألا أفعل ذلك، سأعتبره جحوداً مني. احتفظ برقم هاتف إيفان، لكني لا أرغب بالمزيد من المتصيدين، ستُستهلك بطارية هاتفي من كثرة الرنين ليل نهار. لذا، سأذهب لزيارة المرأتين بنفسي. لا أعرف إن كانتا لا تزالان تسكنان في البيت نفسه، سأذهب على أي حال، أنا متشوقة لأن أفعل هذا، غداً على الأرجح.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الخامس

الخميس

6 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

PM 10:15

لا يبعد بيت الخالة ماري كثيراً عن الفندق، فضلت المشي على أن استقل سيارة أجرة.

غادرت في الساعة العاشرة صباحاً. ثمة عادة سيئة لا تفارق البعض، وهي النظر، إلى النساء تحديداً، وبطريقة أقل ما يقال عنها مُفترسة، طفيلية، ومزعجة. كائنات مثل عمال المصاعد، النُدل، حاملو الحقائب، وحراس البوابات، يجب أن يكونوا على درجة كبيرة من اللياقة وحسن التعامل مع النزلاء، أما هؤلاء، فتشعر المرأة، بينما هم يحدقون بها، أنهم يأكلونها بأعينهم، التي تتحول إلى أفواه لا يعوزها الكثير من الإثارة، لكي تزبد. وفي الوقت الذي من المفترض إعطاء دروس جمالية، للعاملين من هذه الشريحة، على كيفية الابتسام للزبائن، يعمد العاملون هنا إلى تعرية المرأة بنظراتهم المختلسة.

على العموم.

رحت أسير بمحاذاة الحاجز الكونكريتي، الفاصل بين الفندق والشارع، لأكمل طريقي بعدها إلى الأمام، مارة بدائرة الهجرة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

والمهجرين، وهيئة الحج، وعدداً من المنازل الكبيرة والمقاهي، وصولاً إلى تقاطع طرق، انعطفت منه يميناً إلى شارع 14 تموز، من أكبر شوارع البصرة، الذي قطعت منه مسافة كيلو متر، ثم عبرت إلى الجهة المقابلة، ودلفت إلى شارع فرعي يفضي إلى منطقة مناوي باشا، حيث يقع منزل الخالة ماري وابنتها إيفان. عند وصولي الى هناك، فوجئت أن المنزل لم يعد يسكنه أصحابه، يظهر ذلك من السيارات الثلاث الفارهة، الحديثة، والمظللة، والأسلاك الشائكة على الحيطان، والكرفان الصغير القابع على الجانب الأيسر من الباب، والذي خرج منه شخص يرتدي زي أفراد الشركات الأمنية، ويحمل بيده جهازاً لاسلكياً، وثمة مسدس مربوط إلى فخذه. لم أفكر بسؤاله أين ذهب ساكنو البيت، كان ينظر إليّ، على نحو خلت معه أنه سيطلق النار في أيّ لحظة. وعلى ما يبدو أن المنزل أصبح مسكوناً من قبل أحد الشخصيات الحكومية. تُرى، أين ذهبت إيفان ووالدتها؟ هل هاجرتا؟ لا يترك المسيحي بيته إلا ليهاجر. فكرت وأنا أنسحب بهدوء وأغادر الشارع، وكل ظني أن الحارس الأمني سينادي عليَّ. تذكرت داليا الطبيبة التي أنقذتنا في المستشفى، لم أكن أعرف أين تسكن بالضبط، كما أجهل إن كانت قد هاجرت هي الأخرى. وجدت أمر العثور عليها أسهل مما هو الحال مع قريبتيها، ما دام أنها طبيبة، وبوسعي السؤال عنها في المستشفيات، هذا إن كانت حقاً ما تزال تعيش في البصرة. لن أنتظر كثيراً حتى أبحث عنها، بدأت من فوري، وقصدت مستشفى البصرة التعليمي، على ضفة الشط، راجلة، فهو لا يبعد كثيراً عن المكان الذي انتهيت إليه. تذكرت، وأنا أعبر جسر الخورة إليه، حادثة اغتيال مديره بعد الحرب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بفترة قصيرة، حينما كانت موجة اغتيال الأطباء، وضباط الجيش المنحل، والطيارين، والبعثيين، والنساء، منشرة في ذلك الوقت. كان لكل جهة أو ميليشيا نوع من السيارات تُستخدم في عمليات التصفية، سوبر بيضاء تُسمى محلياً بالبطة، وهي أشهر سيارات الاغتيالات، أوبل ستيشن حمراء، نيسان بيك آب، لاند كروزر، ودراجات نارية يقودها مسلحون شبان وملثمون. استطعت الدخول إلى المستشفى، بعد طول الحاح وضغط على موظفي الاستعلامات، الذين يمنعون الزيارات في مثل هذا الوقت. سألت عن الدكتورة داليا في جميع الأقسام، وفي الإدارة، لكن أحداً لم يتعرف عليها. أدركت أن المهمة لن تكون بالسهولة التي تصورتها في البداية، إذ كان عليَّ التنقل من مستشفى إلى آخر. غادرت مستشفى البصرة التعليمي، وركبت سيارة أجرة أقلتني إلى مستشفى الموانئ في منطقة المعقل. لم أعثر عليها هناك أيضاً، لكن إحدى طبيبات التوليد تعرفت عليها، فقد كانت معها في الدورة نفسها، غير أنها لم ترها منذ التخرج، ولا تعرف أين تعمل حالياً. ومن مستشفى الموانئ إلى مستشفى الشفاء في منطقة السايلو، ثم إلى مستشفى البصرة العام، في البصرة القديمة، المكان الذي لم أتوقع زيارته أبداً، ولم أكن لأفعل هذا لولا أني كنت أرغب بالعثور على داليا، لا لأجل رؤيتها فحسب، إنما كان هناك سؤالٌ طالما حيرني على مدى الأعوام الماضية، وكنت أعلم جيداً أن أحداً، سواها، لن يكون بوسعه الإجابة عليه.

كانت المستشفى، كعادتها، كئيبة، تبعث على الضيق، خانقة وقاتمة وسوداوية. قاومت اشمئزازي منها، ودخلتها لأسال عن ضالتي،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لكن من دون العثور عليها. بحثت بعدها في المستشفيات الأهلية، التي ازداد عددها بعد الحرب، وفي كل مرة لا أجد أثراً دالاً على الدكتورة داليا، أشعر باليأس، وأيقن أن المهمة مستحيلة، وتكلفني الكثير من الجهد والوقت، إذا ما خطر لي البحث في المستوصفات، والمراكز الطبية، ومستشفيات الأقضية والنواحي النائية.

فجأة، بينما كنت في غمرة احباطي، تذكرت يوم أخبرتني داليا عن اعتزامها اختيار طب الاطفال كاختصاص ثابت لها. استعدت شيئاً من الأمل، الذي كاد يتلاشى إلى الأبد، واتجهت فوراً إلى مستشفى ابن غزوان للأطفال، في منطقة الجزائر، حيث قيل لي هناك أنها انتقلت، منذ أقل من عام، إلى مستشفى الطفل التخصصي.

كانت الظهيرة قد انصرمت، فقررت العودة إلى الفندق، على أمل استئناف بحثي بعد غد، فغداً هو الجمعة، ومن غير المحتمل العثور على داليا في المستشفى.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم السابع

السبت

8 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

PM 9:49

غادرت الفندق الساعة التاسعة صباحاً.

يبعد مستشفى الطفل التخصصي مسافة أكثر من عشرة كيلو متر عن مركز المدينة. لم يكن المبنى قد أُنجز حين غادرنا البصرة إلى لندن. هناك شائعة تقول أنه أُنشأ بدايةً كعمل خيري، بتمويل من مسز بوش، زوجة بوش الأب. لا أعرف حتى الآن مدى صحة هذه المعلومة. يشبه الأمر، في حال كان صحيحاً، المثل الشعبي القائل: يقتل القتيل ويمشي في جنازته! ذلك أن أكثر من نصف الأطفال الراقدين في هذا المستشفى، إن لم يكونوا جميعهم، هم من ضحايا التلوث الإشعاعي، الناتج عن استخدام كلاً من زوج وبيبي السيدة المتبرعة الأسلحة الفتاكة والمحرمة، أثناء حربهما على العراق، في عامي 1991 و2003.

في الطريق إلى هناك، فكرت كثيراً في جدوى لقاء داليا. كنت أعرف جيداً أن لقاء كهذا لن يعود على قضية بحثي عن مغتصب عبير بالفائدة. وعلى أي حال، لم يكن هذا هو الهدف من زيارتي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لها. نعم، كان من غير اللائق أن أزور البصرة، ولا ألتقي بأي من النساء الثلاث إيفان وأمها وقريبتهما الطبيبة، أو حتى بسمان زوج الأخيرة، لأجدد امتناني لهم على مساعدتنا. لكن ثمة أمر آخر كنت بصدد معرفته، الأفضل تسميته سبباً، وهو السبب وراء انقطاع الشخصين الأخيرين عن المجيء إلى منزل الخالة ماري، وابتعادهما المفاجئ في تلك الفترة، قبل عشر سنوات. لم استطع، حتى اليوم، ألّا أربط بين هذا الأمر، والتغير المفاجئ في تعامل الخالة ماري معنا. دائماً ما أشعر أن السبب الذي أدى إلى تلك القطيعة من قبل الزوجين، هو نفسه من جعل صاحبة البيت الطيبة، تظهر بتلك الصورة من الجفاف تجاهنا أنا وعبير.

كان السائق شاباً متهوراً وبذيئاً، تحرش أكثر من مرة، وراح يقود سيارته الكيا موتورز صالون بأقصى سرعة. لهذا، وصلت إلى المستشفى بسرعة قياسية، لم يستحق السائق عليها الثناء، بقدر ما استحق العديد من الشتائم، كنت أكيلها له في سري، باستثناء واحدة بالإنكليزية ألقيتها في وجهه، بعد ترجلي من السيارة، بينما أناوله الأجرة، وأظن أنه فهمها، فهؤلاء الشبان الأميين، لا يجدون مثل هذه الألفاظ النابية سوى في الأفلام الإباحية، التي يدمنون مشاهدتها. لا شك أنه رد عليها بكلمة بذيئة، ربما قال قحبة أو شيئاً من هذا القبيل، وجعل إطارات السيارة تدور في مكانها، مثيراً بذلك الغبار، في حين ما زال يضغط على منبه السيارة، ويحدث ضجة أثارت استياء عدد من الناس كانوا واقفين بالقرب، منهم سواق سيارات الأجرة، ومراجعين، وباعة متجولين. لم ألتفت، وأكملت طريقي باتجاه بوابة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

المستشفى، وكالعادة، كانت الزيارات ممنوعة في مثل هذا الوقت، حيث يتفقد الأطباء مرضاهم في الردهات. لكني استطعت الدخول أخيراً، بعد أن قرأت إعلاناً للتبرع بالصفائح الدموية للمستشفى، فمرت الكذبة بسلام، وسمحوا لي بالمرور. سألت أول طبيب صادفته، وأنا في الطريق إلى الإدارة، قال أن داليا تعمل هنا فعلاً، لكنه لا يعرف ما إذا كانت متواجدة هذا اليوم. في المرة الثانية، سألت ممرضة، فقالت إنها تعمل في شعبة جراحة الأطفال، فاتجهت إلى هناك مباشرة. كنت أمشي بسرعة، كما لو أن ثمة وقت محدد عليّ الوصول قبل انقضائه، وإلا فات الأوان. صادفت الكثير من الأطفال، على كراس متحركة، أو يحملهم آباءهم، نحيلين، بوجوه صفر، ومن دون شعر رأس، يضعون كمامات على أفواههم وأنوفهم، وأطفال آخرين يعانون من إعاقات وتشوهات مختلفة، من بينهم عدد من الأطفال الضفادع. رأيت أيضاً أفراداً يبدو أنهم يعملون في منظمات انسانية، جاؤوا لتسلية أطفال السرطان، من خلال جلب الهدايا واللعب. عندما وصلت إلى شعبة جراحة الأطفال، سألت منظفة تعمل هناك، فأخبرتني أن الدكتورة داليا تقوم بجولتها الصباحية لتفقد المرضى. انتظرتها حتى انتهت، تماماً كما فعلت قبل عشرة أعوام بالطريقة نفسها، حين ذهبت لزيارتها في مستشفى البصرة العام، وكأن الزمن يعيد نفسه في تلك الساعة. خشيت من تكرار نفس الاستقبال البارد والباهت من قبلها، لكن هذه المرة، عزمت على ألا أغادر ما لم أتعرف على حقيقة ما جئت من أجله، حتى لو اضطرت إلى طردي.

ظهرت داليا بعد ساعة تقريباً، كانت تمشي وحيدة في الممر، على

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مهل، تعرفت إليها فوراً، فهي لم تتغير كثيراً، لكنها تبدو نحيفة، حزينة أو غير مبالية. رفعت النقاب وأنا اعترض طريقها وأحييها. لم تتوقف، رمقتني بنظرة يبدو عليها الكبرياء، وبالكاد ردت التحية واستمرت بالمشي. تلك العادة البغيضة، التي نادراً ما تجد طبيباً تخلص منها، يمشي أحد الأطباء وثمة حشود من المراجعين يلهثون وراءه، يسألونه، فيلقي هو عليهم اجاباته المقتضبة والغامضة، والباعثة على السخط. ابتسامة الطبيب في العراق مثل مخلوق نادر، لا تراها إلا في حالات استثنائية، أو عندما يسخر، يستحق الأمر إذاعته في التلفاز: طبيب عراقي يبتسم!

لم يتكرر الحوار الذي جرى مع داليا منذ آخر مرة رأيتها فيها. لم أسألها إن كانت تعرفت عليَّ أم لا، كشفت لها عن هويتي بشكل مباشر، مما أجبرها على التوقف، والالتفات نحوي. وعلى ما يبدو، أن ثمة أمر جعلني راسخة في تفكيرها طيلة السنوات الفائتة. ظننت أنها ستنكر معرفتها بي، ثم تعتذر وتمضي في طريقها غير مكترثة، لكنها، بدلاً من ذلك، راحت تنظر إليّ كما لو أنها تريد هضم حقيقة أني هي نفسها، سليمة. لم أتوقع أن تفرح لرؤيتي مجدداً، لكني أحسست بلقائنا هذا سيكون مختلفاً، إذ تبدو هي الأخرى بحاجة إلى الحديث معي. كان ترحيبها بارداً، لكن ليس إلى درجة توضح عدم رغبتها في استقبالي. قادتني إلى غرفة في بداية الممر، وبدأت تسألني عن أخباري، وأشياء أخرى عادة ما تخطر في أذهان أولئك الذين يلتقون بأحدهم بعد فترة طويلة: هل تزوجتِ؟ هل لديك أطفال؟ هل تعملين؟ هل أكملتِ دراستك؟ أين تسكنين الآن؟ وما هي أخبار

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

والدتك؟ آخر سؤال وجهته لي هو: وتلك البنت... أختك؟ أرادت تذكر اسمها ولم تفلح. أحسست أنها لم تنسه أبداً، إلا أن ثمة ما منعها من نطقه. أحياناً، ندّعي نسيان أسماء الأشخاص الذين نكرههم، وكانوا عبارة عن لطخة سوداء تلوث رقعة من ماضينا، فنستعيض عن اسمائهم بالإشارة، فنقول تلك المرأة أو ذلك الرجل. ترى، ما الذي فعلته عبير لكي تكره داليا حتى التلفظ باسمها؟ هذا ما كشفته لي اليوم، عصراً، في أحد الكافيهات العائمة، على ضفة الشط، ليس بعيداً عن الفندق.

كنت قد تحريت بدوري أخبار داليا عندما كنت في المستشفى، سألتها عن الخالة ماري وابنتها إيفان. قالت إن الأولى توفيت في أزمة قلبية، بعد عامين من مغادرتنا البصرة، والثانية باعت البيت والتحقت بأولادها في الموصل، وهم الآن لاجئون في ألمانيا، منذ اجتياح تنظيم داعش للمدينة في عام 2014. آلمني موت الخالة ماري ودمعت عيناي، كانت امرأة طيبة ومؤمنة، احاطتنا برعايتها، ولم أنسى فضلها أبداً، رغم تبدل طباعها وجفافها معنا في الفترة الأخيرة، قبل حدوث الأشياء الفظيعة. وحين سألت داليا عن زوجها، وما إذا أصبح لديهم أولاد، أطرقت برأسها ولم ترد فوراً، إنما انتظرت دقائق، شعرت خلالها أنها تحاول التخلص من غصة تعترض طريق كلمات تريد قولها، وإلى تلك اللحظة، كانت ثمة انطباعات احتشدت في رأسي، لما آل إليه وضع بسمان، ربما هو ميّت، مختطف، مختفي، مهاجر، مريض، منتحر، أو قتيل، وهي النهاية التي على كل عراقي توقعها في هذا البلد المضطرب. لم أفكر

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مثلاً في احتمال أنه أصبح زوجاً سابقاً، أو بعبارة أقرب رجلاً مطلقاً، وهو ما أخبرتني به، وشعرت في لحظتها بكمية الحزن الكبيرة التي تملؤها، وتظهر على ملامحها بشكل واضح. قالت أنهما انفصلا منذ ما يقارب عشرة أعوام، وأنها منذ أكثر من خمسة أعوام لا تعرف عنه شيئاً، سوى أنه هاجر إلى السويد.

«لماذا؟» سألتها: «كنتما سعيدين، وملائمين لبعضكما، ما الذي حصل؟»

لم ترد أيضاً.

قالت بعدها أن هناك ما تريد إخباري به، ومنذ فترة طويلة. حينئذ، تواعدنا على اللقاء في الكافيه المذكور، حيث كشفت لي هناك بعض الحقائق الصادمة وغير المتوقعة.

«رغم أن فترة طويلة جداً مضت، لكني ما زلت أشعر بالخجل، كان زوجي وكان عليَّ الشعور بذلك حقاً، وهو ما منعني من الحديث معك وقتها، لكن، هناك شيء آخر أود أن تعرفينه»

صمتت داليا قليلاً، ثم أكملت بعدها قائلة:

«لم يكن بسمان ليفعل ما فعله، لولا أن هناك استجابة من أختك»

«حقاً؟» قلت لها، وبان الاستنكار في صوتي واضحاً: «لكنها كانت طفلة!»

«نعم بالتأكيد» ردت وقد أربكتها عبارتي الأخيرة: «لكنها لم تكن طفلة كبقية الأطفال، لم تكن طفلة طبيعية، حسناً، ربما أخطأت في اعتبار ما بدر منها استجابة، لأن بسمان لم يحاول معها أصلاً»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ماذا تعنين؟» سألتها وثمة دمعة انتهت إلى طرف فمي، كانت دمعة ساخنة ومالحة كالعادة. اعتقد أني غضبت حينما أحسست أنها على وشك التبرير: «هل تظنين أن طفلة بعمرها حينذاك قادرة على اغواء رجل بالغ بهذه الطريقة؟»

«ليس إغواء!» قالت وهي تمسح جبينها بمنديل ورقي، فقد تعرقت كثيراً. كانت تنظر إلى المنديل في كل مرة، كما لو أنها تتوقع شيئاً آخر غير العرق: «من خلال الأعراض، أعتقد أن أختك كانت تعاني من الاضطراب، أو الهوس الوهامي!»

«بمعنى؟»

«بمعنى...» ترددت في الإجابة، وقد عادت إلى مسح جبينها بالمنديل والنظر إليه، ثم أكملت بكلمات متقطعة: «بمعنى أنها كانت تتوهم!»

«تتوهم ماذا يا دكتورة؟»

«تتوهم أن بسمان يحبها!» قالت، وبدت حينذاك كما لو أنها ألقت ثقلاً من على كاهلها: «قبل حدوث الأمر بفترة قصيرة، أخبرني بسمان أن عبير تظن أنه مغرم بها، حاول ألا يعبأ بالأمر، واستمر في اعطائها تلك الدروس. حتى أنا، لم أقلق بهذا الشأن، ما دام أنه رجل بالغ وعاقل، ولا يعاني من العقد، وبالإضافة إلى ذلك أنه طبيب، وبإمكانه السيطرة على مثل هذه الحالات، أو يحاول على الأقل، لكن الغريب والمؤسف في آن معاً، أنه انزلق بعيداً، وربما صدق أوهامها، أو هكذا يبدو الأمر، رغم أني لم ألاحظ عليه شيئاً منكراً، ربما لثقتي الزائدة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

به، ولولا اكتشاف الخالة ماري رحمها الله، لحدث ما هو أكبر من كونه مجرد تلامس!»

«وماذا رأت الخالة ماري بالضبط؟» سألتها

«رأت...» قالت ثم أجهشت بالبكاء: «رأتهما معاً، كانا في وضع مخز! أه، يا إلهي!»

«كيف؟!»

«كانا معاً، هذا كل ما استطيع قوله، كانا معاً، اعتقد أنك تفهمين ما أقوله!»

هززت رأسي، ثم أشحت صوب النافذة المطلة على الشط، رأيت نوارس تحط على طوافات حديدية، وزورق يمخر المياه الخضراء الصافية، يجلس تحت سقيفته، في مؤخرته، رجل وامرأة. ورغم بؤس الحال التي انتهيت إليها بعد كل هذه الاعترافات، استطعت التركيز على المشهد: كان الرجل يقبل المرأة، ربما ضاقت بهما السبل، ولم يجدا سوى هذه الطريقة، ليتبادلا القبل بحرية.

«أظن أنك كنت في العمل، وإيفان خارج الشقة، والخالة ماري خرجت للتسوق» فاجأتني داليا بقولها: «ولسبب مجهول، عادت صاحبة المنزل إلى البيت قبل الأوان المعتاد، وبما أن البيت بيتها، لم تحتج إلى طرق الباب، إنما دخلت كما يحلو لأي امرأة عائدة إلى بيتها، هناك، فوجئت بالمشهد المروع، أنا آسفة!»

وطفقت داليا تتأسف وتبكي مجدداً، لكن من دون صوت.

«أنا آسفة حقاً، ما كان على رجل بالغ، وفوق ذلك طبيب، أن يستجيب لوهم طفلة قاصر!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«هل تكرهينها؟» سألتها، ومسحت دمعة أخرى بطرفي سبابتي قبل وصولها إلى فمي: «هل تكرهين عبير حقاً؟»

«لو لم تكن موجودة لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن! هذه حقيقة»

«نعم.. لو لم تكن موجودة!» رددت بنبرة يائسة: «ميتة مثلاً!»

«أنا آسفة! ربما هو شعور كريه، لكن يحدث هذا رغماً عني»

غيمة من الصمت البليد خيمت علينا لدقائق، قبل انقشاعها بصوت داليا الباكي:

«من المؤكد أن عبير كانت ما تزال طفلة في ذلك الوقت، لكنها كانت طفلة كبيرة. كيف أشرح لك الأمر؟ على الأغلب أنها كانت تعاني من البلوغ المبكر، حتى على مستوى العواطف، ومشاعر الحب، والممارسات الحسية. إن منظر طفلة بعمر العاشرة، بنهدين بارزين، يثير الأمراض الدفينة لدى الرجال، خلايا الإثارة النائمة التي لا يوقظها سوى الممنوع والمحرم، كالعبث بنهدي طفلة. الرجل ضعيف أمام نزواته، وإغراءات غير واعية، تصدر من فتاة صغيرة تظن أنه يحبها، فتسعى هي إلى إرضائه بشتى الطرق، ومنها أن تسمح له بلمسها»

شعرت بمعدتي وهي تغلي، غثيان فظيع وكريه، أشحت بوجهي ثانية، ورحت أنظر من خلال النافذة. كان الزورق ما زال يدور في عرض الشط، الرجل والمرأة يذوبان في القُبل الرطبة والساخنة، يظهر أن السائق تواطأ معهما، مقابل أجرة مجزية. وهنا هجمت عليّ الأسئلة: تُرى لماذا يتحرش الجميع بعبير؟ أو لماذا يصر الجميع

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على فعلٍ كهذا مع طفلة؟ ماذا دهى هذه الفتاة لتكون موضع تدنيس الآخرين؟ وعلى من يقع الذنب؟ عليها، لأنها مصابة بكل هذه الأمراض، فرط البلوغ، اضطراب الهوية الجنسية، الأفازيا، وأخيراً الهوس الوهامي؟ وهل حقاً هي مصابة بكل هذه الأنواع الرهيبة من العاهات النفسية والمرضية، أم أنها فتاة خبيثة، شيطانة صغيرة، امرأة غاوية في جسد طفلة، كما صارت تظن الخالة ماري، وهو ما دفعها إلى طردنا في النهاية.

الغريب أن داليا لم تسألني كيف أصبحت عبير في لندن، وكأنها بتت في مسألة كونها فتاة غير طبيعية، وستظل تعاني من أمراضها بقية العمر. تكرار أسفها ذكرني بالإنكليز المهووسين بالاعتذار.

قبل أن نغادر الكافيه، نظرت من خلال النافذة للمرة الأخيرة، لم أر شيئاً.

لم احتمل المزيد من الغثيان، فتقيأت في منتصف الطريق الى الفندق، اسفل الضفة. رجل عجوز قدم لي عبوة ماء، وقادني الى مقعد بإزاء مرسى للقوارب. كان الغروب قد حل في تلك الساعة، اختفت النوارس، وحلّت مكانها الخفافيش.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الثامن

الأحد

9 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

PM 11:30

بعد الغروب بساعة أو ساعتين، الموعد المفضل للمتصل المجهول، لكي يبدأ إزعاجه اليومي لي. لم يسبق له الاتصال اثناء النهار، باستثناء اليوم صباحاً، أو هكذا ظننت. ظل الهاتف يرن لأكثر من خمس مرات، وبما أن أحداً في البصرة، سواه، لا يعرف رقم الهاتف الذي استخدمه، لم أشك لحظة في أنه هو، وقد صار يعاود الاتصال، على غير عادته، بعد يأسه من غاراته الليلية. كنت أعمد إلى إهماله، ولا أتفقد الهاتف، في كل مرة أسمع صوت إديل الذي استعمله كنغمة منذ وصولي إلى البصرة. تجاهلته، ونسيت أمره، بينما أنا أبحث عن شيء ما زال يثير ريبتي منذ زيارتي لحي الحرية. فتحت حاسوبي المحمول، وكتبت في مربع محرك البحث «معمل كريستال البصرة»، لم أعثر على الكثير من النتائج، فكما توقعت، لا يوجد معمل لصناعة الكريستال في المدينة، وهو ما زاد من حيرتي بشأن المعمل الأزرق على مقربة من الحي، لكني وجدت مقالة منشورة في أحد المواقع، كاتبها صحفي بصري مغمور، استخدم اسماً مستعاراً، ليتجنب المطاردة وربما التصفية الجسدية.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وفور انتهائي من قراءة المقالة، التي جاءت تحت عنوان (البصرة تنتج الكريستال!) أحسست بانتصاب شعر رأسي، كما لو أن أحدهم فرقع شيئاً في دماغي. كان احساساً انفجارياً فظيعاً، دفعني إلى اغلاق الحاسوب والدوران في الغرفة لعدة دقائق، ثم العودة إلى القراءة مجدداً. قرأت مرتين، ثلاثة، عشرة، يا إلهي! ماذا يحدث في هذه المدينة؟ يا للغباء! كيف لم انتبه إلى مثل هذا الأمر؟ تلوث إشعاعي، تلوث بيئي بسبب أدخنة الآبار والأزبال، ملايين الألغام، مخدرات، فساد حكومي، فقر، قذارة، ملوحة المياه، وميليشيات مسلحة، والآن حبوب هلوسة، فقد اتضح لي من خلال ما كتبه الصحفي، أن المعني بالكريستال هو الكريستال ميث، أو الميثامفيتامين، وهو نوع من المخدرات، يتم تصنيعه محلياً، من مواد أولية تُهرب من خارج البلاد، عبر الحدود مع إيران. سمعت من قبل، حين كنت أسكن في الحي، عن أنواع أخرى مثل فاليوم 10، آرتين، أبو الصليب، وردي، وغيرها من التسميات الشعبية لحبوب الهلوسة، التي كان الشبان يتعاطونها في الحي، ويبيعها لهم راهي المضمد خفية. لكن، هذه هي المرة الأولى، التي أسمع فيها أن هناك مادة مخدرة تُدعى كريستال ميث، فاللفظ لا يبدو دارجاً في الثقافة الشعبية الخاصة بأنواع المخدرات في العراق. ظننت، على نحو ساذج، أن المقصود هو البلور الذي يُستخدم في صناعة الثريات والأواني والاكسسوارات وغيرها من المنتجات، من أين لي معرفة أنه صنف من المخدرات انتشر أخيراً في العراق، وخصوصاً في البصرة؟ كان يعوزني بعض الحذاقة لأرتاب بهذا الشأن منذ البداية، حين علمت أن شخصاً مثل راهي المضمد، صاحب التاريخ الحافل بترويج منتجات التخدير والهلوسة، يدير

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

معملاً لتصنيعه، تحت حماية جهات متنفذة، أو هذا ما أكده الكاتب في مقاله، إذ يجري تهريب المخدرات وموادها الخام إلى الداخل، ومن ثم تصنيعها على الأرض العراقية، برعاية تلك الجهات، ابتغاء الربح السريع والطائل.

تابعت البحث على شبكة الانترنت، وعثرت على مصادر أخرى تطرقت إلى موضوع انتشار هذا النوع الخطير من المخدرات في البصرة. ثمة شخصيات من الحكومة المحلية لم تنفي حدوث مثل هذه الظاهرة، لكنها في الآن نفسه أنكرت وجود معامل لتصنيع أقراص الكريستال ميث في المدينة، أو محاولة زراعة نبات الخشخاش، الذي يُستخلص منه مادة مخدرة أخرى، الأمر الذي ما زالت تؤكد على وجوده جهات غير رسمية، ومنظمات لمكافحة المخدرات.

أثناء ذلك، عاد الرنين لينبعث من هاتفي النقال مجدداً. كنت متشنجة، وغاضبة، ومستعدة لفعل أي شيء من أجل تفريغ الشحنة السلبية الكبيرة التي سيطرت عليّ حينئذ، كفتح الخط في المرة الرابعة، وحشو أذن المتصل المجهول ببعض الشتائم المقذعة، المتصيد الليلي، الذي صار يمارس هوايته التحرشية المزعجة في وضح النهار. فتحت الخط بعد الرنة الأخيرة وفوجئت بوجود رقم آخر، وعندما عدت لأتفحص المكالمات الفائتة، اكتشفت أن جميعها من ذات المصدر. حسناً، هل هو متصيد آخر، أم أنه نفسه، بعد أن يئس من تجاوبي معه بواسطة الرقم الأول، مما حمله على الاستعانة برقم آخر؟ عرفت الجواب بعد أقل من نصف ساعة، حين

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وردت رسالة تقول: (أنا جاسم أرجو الرد!) لطمت جبيني. جاسم الشاب الأعرج لا غيره؟ كيف فاتني أنه ربما يكون هو المتصل؟ يحدث أن يستخدم الروائيون في حبكاتهم حيلاً لإنساء القارئ أشياء تقوم بفعلها الشخصيات، ويعمد إلى إيهامه بأنها أشياء تافهة وميؤوس منها، وأصبحت في عداد الأشياء المهملة، ثم يعود لإبرازها على السطح فجأة، مما يسبب إرباكاً لدى القارئ في لحظتها. أما أنا، فلم أعتمد مثل هذه التقنية أبداً، فأنا لست روائية، بقدر ما اعتبر نفسي مدونة. لم أعمد إلى جعل الآخرين ينسون إعطاء رقم هاتفي لجاسم، أنا نفسي نسيت ذلك، في ضوء ما حدث بعدها من فوضى البحث والتقصي، خصوصاً بعد معرفتي إحدى الحقائق الغائبة من قبل الطبيبة داليا، تلك الحقيقة التي صدمتني بشدة، وجعلتني أعيد التفكير في الكثير مما كنت أظنه أو متيقنة منه. هذا بالإضافة إلى يأسي من تجاوب جاسم وابدائه بعض المرونة، بسبب ما أظهره من جفاء ورفض، وتجنى عليَّ، تاركاً إياي في موقف لم يكن لأي امرأة غيري أن تحسدني عليه، وأنا أُطارد وألاحق في الحي الصناعي، من قبل شلة من العابثين ظنوا، بسببه، أني عاهرة متجولة. كنت أتساءل وقتها، كيف يمكن لأحدهم التعاون معي، في الكشف عن حقيقة حساسة كالاغتصاب، بعد أن فعل ما فعله من أجل التملص من المساءلة؟ لكن، ويا للغرابة، ها هو الشاب الأعرج يتصل بي! مفاجأة لم أكن أتوقعها، لا بد أن لديه ما يرغب في قوله، ربما يريد تبرئة نفسه بالمقام الأول، وليس خوفاً من تهديدي له، وهو ما اتضح من كلامه معي على الهاتف، قبل العودة إلى تأكيده حين قابلته عصر اليوم.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كنت قد اتصلت به بعد قراءة رسالته، ورد من المكالمة الأولى. كان صوته أجشاً، وكأنه منقوع في غالون من البلغم الكريه. كان يسعل كعجوز في السبعين، ربما بسبب التبغ. أراد التحدث بواسطة الهاتف، فألححت عليه من أجل ترتيب لقاء مباشر. بدا مرتاباً، لكني نجحت أخيراً في طمأنته وإقناعه، واقترحت عليه تحديد مكان المقابلة بنفسه، فلم يجد سوى شارع الكورنيش على ضفة الشط، التي يقع خلفها مستشفى البصرة التعليمي.

هناك، على مصطبة كونكريتية، خلف أشجار الكالبتوس والسدر، وبمواجهة الشاطئ، التقيت بجاسم.

ورغم الغضب المستشري فيّ تجاهه، بعد كل ما فعله بي في الحي الصناعي، والانطباع الذي كونته عنه، كشخص ماكر ولئيم، لكني رأيت في عصر هذا اليوم شاباً هزيلاً، بائساً، ولا يبدو أنه يخفي وراء سذاجته الظاهرة خبثاً، كالكثير من شبان هذا الزمن. كان أشبه بأولئك الأشخاص، الذين يظن المرء، من أول لحظة، أنهم خُلقوا للشقاء، وحمل الأعباء من غير طائل، أو مثل أكاكي أكاكيفيتش بطل قصة المعطف لغوغول، الذي ينطبق عليه المثل العراقي: جبر.. من رحم أمه إلى القبر! كان شخصاً فاشلاً، ليس بحكم إعاقته، إنما لسهولة استجابته لكل ما يضغط باتجاه إثباط شعوره بالمساواة، ولا أعرف أي شيطان أوحى له بفكرة رميي بالدعارة، لكي يتخلص مني بتلك الطريقة. حاولت تجاوز الأمر، والبدء معه بشكل لا يشعره بالندم، لأنه وافق على مقابلتي.

كان الكورنيش هادئاً، في تلك الجهة المنعزلة من الشط، بالقرب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

من القصور الرئاسية. ثمة أشخاص فرادى يتسكعون هنا وهناك، وشبان متهورون، يستعرضون بدراجاتهم النارية في الشارع، والمقاهي في الهواء الطلق فتحت للتو. لم يبادر جاسم إلى الكلام، حتى سألته:

«إذن، هل حقاً تريد إخباري بما تعرفه؟»

كنا نجلس على مصطبة عريضة، يفصل بيننا وبين الشط حاجز حديدي مطلي باللون الأخضر، نهضت واستندت عليه بمواجهة الفتى الذي لم يحاول النظر إليَّ لمرة واحدة. كان مرتبكاً، ومتوتراً، إلى درجة أني كنت أتوقع هروبه في أي لحظة. لم أرتد النقاب، فقط حجاب وجلباب أسود على الطراز الخليجي، فوق قميص وبنطلون جينز.

«أنا لم أفعل شيئاً!» قال الفتى بكلمات متقطعة، ثم أعقب ذلك بكلمة: «فقط...»

«فقط ماذا؟» سألته.

«كنت معهم، لكني لم أفعل شيئاً، أقسم لك!» رد مستعيداً شيئاً من جرأته، وبدا كأنه ينهر أحداً: «هم من فعلوها، أنا لم ألمسها أبداً!»

«أنت كنت تتفرج على الشريط الإباحي، تتفرج فحسب!» قلت له وحاولت ألا أبدو غاضبة قدر ما أمكنني: «دائماً هناك أحد يتفرج، واحداً من العصابة، يتنحى جانباً ويتفرج، أو يغطي على الجريمة، أو يعرقل سير التحقيق على الأقل، تماماً مثل براين هاورد!»

«من هو هاااووو....؟» سألني جاسم بكلمات متقطعة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لا عليك» أجبته: «أكمل رجاء»

«كنا ما نزال صغاراً ولا نعرف شيئاً»

قال بلهجة منكسرة وقد نكس رأسه أكثر.

«نعم.. بالطبع» قلت في ما يشبه الصياح، حين لم يعد بوسعي إلا أن أظهر غضبي. اقتربت منه وانحنيت لأسمعه ما قلت: «صغار.. صغار جداً بما يكفي لإيلاج ايورتكم في فرج طفلة وإحبالها.. أليس كذلك؟!»

«أبداً!» حاول جاسم أن يرفع رأسه وهو يردد ذلك، لكنه لم يقدر، وكأن ثمة أثقال تجذب هذا الرأس المحشو بقش التعاسة: «حتى أنهم لم...!»

«حتى أنهم ماذا؟» لم أتمالك نفسي هذه المرة، صحت به، فأجفل وراح يتلفت من حوله، كأنه ينبهني إلى أننا في مكان عام، وعليَّ ألا أنسى نفسي وأتهور. حاولت أن أهدأ، وأسمعه وهو يقول:

«كانت محاولة فاشلة، مجرد تلامس»

«وما أدراك أنت؟» سألته

«كنت هناك!» صاح، لكن ليس بعلو صوته، ثم عاد ليستطلع ما حوله.

«وكيف أمكنك أن ترى ذلك؟»

«لم تكن أظلمت بعد، حدث الأمر قبيل الغروب، وكان بوسعي رؤية ما يحدث جيداً»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«كيف استدرجتموها؟»

«لم نستدرجها، كنا نلعب الكرة، في الباحة، وسط مقبرة الآليات، ثم اقترحت هي أن نلعب لعبة الاختباء. كنت قد أغمضت عينيّ، وعددت إلى العشرة، ورحت أبحث بعدها عن المختبئين، عثرت عليهم جميعاً، بين هياكل الدبابات المعطوبة، كانوا يلتصقون بها من الخلف، الواحد تلو الآخر، طلبوا مني البقاء في مكاني، وأخبرهم إذا ما حدث طارئ»

«هل جردوها من ثيابها؟»

سألته، فأجابني وقد زاد من إطراقته أكثر:

«انزلوا سروالها»

«ألم يفتضها أحد؟»

«كلا!»

«إذن؟»

«جثت على أربع، إلا أن الأمر لم يتم»

«لماذا؟ ماذا حدث؟»

«اقتحم شخص المكان فجأة، وانتشلها من بينهم، وأوسعهم ضرباً»

«تقصد ابن خالتي حمدان؟»

«نعم هو»

«أنت تكذب!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ولم أفعل ذلك؟»

«لا أعلم.. ربما عليَّ العثور على البقية، بما أنهم الفاعلون، من المؤكد أن كل واحد منهم سيحكي القصة نفسها ويبرأ نفسه!»

«لن تعثري عليهم أبداً»

«ولماذا؟»

«لأنهم موتى!»

لا أعرف لماذا شعرت أن عليَّ التوقف عند هذا الحد، لأصدق كل ما قاله جاسم، فبمجرد أن نطق قائلاً: لأنهم موتى! حدست السبب الحقيقي، الذي قاده لمقابلتي، والاعتراف بكل ما يعرفه عن الحادثة. لقد مات الثلاثة، وهو الناجي الوحيد حتى الآن بينهم، أو على الأقل هو الشخص الأخير ما زالت فكرة الموت ترعبه، وكأنه آمن بأن هناك لعنة طاردت الجميع، بعد فعلتهم، وها هي الآن توشك على اللحاق به، فقرر في إثرها الاعتراف، لعله يشعر بالراحة ويتخلص من وخز الضمير، ويتم انعتاقه من لعنة عبير.

«كيف ماتوا؟» سألته. بدوت طبيعية في تلك الأثناء، وربما حزينة نوعاً ما، وقد زال التشنجّ، الذي سببه وجود شخص من المحتمل أنه اغتصب شقيقتي.

«سأقول لكِ» رد جاسم بلهجة مطمئنة، لكنها تقطر حزناً، حتى ظننت أنه صار يبكي: «لقد مات الثلاثة بالسرطان، الكثير من سكان الحي أصيبوا بأنواع مختلفة من هذا المرض»

أخبرني بعدها أن أغلب الأهالي غادروا الحي، ومن لم يُصب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بالمرض وبقي في مكانه تعرض أطفاله للتشوهات الخلقية. آخر واحد من بين الرفقاء الثلاثة هو مطر، توفي قبل فترة قصيرة، خرج من العراق أثناء موجة الهجرة غير الشرعية إلى أوربا، مع مجموعة من الشباب، بحثاً عن العلاج، لكنه مات بعد وصوله إلى السويد بأيام، وكان توأمه قد توفي قبله بسنتين.

«وأنت؟» سألته: «هل تظن أنك ستموت؟»

لم يجبني، وضع ذراعيه على ركبتيه، دفن وجهه وبدأ بالنشيج.

«لأجل ذلك جئت لتخبرني بالحقيقة؟» سألته

هزّ رأسه، مسح دموعه، ثم غادر من دون أن أفكر باستبقائه، ليقيني أني حصلت منه على ما أبغي من حقائق. لم أسأله عما إذا كان يعلم شيئاً عن ابن خالتي حمدان الذي، ويبدو ذلك واضحاً بشكل لا لبس فيه، أن له اليد الطولى في قضية انتهاك عبير. لا أعرف لِم لم أفعل هذا، ربما لأني لم أعد راغبة في معرفة المزيد عن هذه القضية المعقدة، واكتفيت بحقيقة واحدة اساسية، وهي أن حمدان هو الجاني، المجرم الطليق، الذي لن أجرؤ على التفكير في مقابلته، لأعرف كيف وأين فعل فعلته، لعلمي بخطورة مثل هذه الخطوة، ما دمت امرأة هاربة في نظره، والعار الذي يتوق كل رجل خطير مثله إلى غسله.

عدت إلى الفندق راجلة، وفي رأسي يرن ألف سؤال وسؤال، وليس هناك من اجابة واحدة تُطفئ غليل الغضب الذي استعر جمره في داخلي من جديد.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الهاتف يرن هو الآخر، ها هو الآن المتصل المجهول يعاود التحرش بي. استمرّ بذلك لأكثر من ساعة، حتى يئس أخيراً وكف عن إزعاجي.

لم يتصل مارك منذ يومين، خطر لي أن أكلمه، لكني أرجأت ذلك إلى الغد، أحس بالتعب وعليّ أن أخلد للنوم.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم التاسع

الأثنين

10 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

الساعة: 10:30 AM

لم أستطع النوم ليلة أمس، فما أن انتهيت من كتابة اليوميات، وصرت في فراشي، حتى انهالت عليَّ عشرات المكالمات من أرقام مختلفة، تناوشني المتصلون فيها بالسب والقذف والشتائم بالجملة، وبذاءات لم أسمع بها من قبل، حملتها رسائل أس أم أس قصيرة. فوجئت بالأمر، ولم أكن أعرف السبب وراء هذا الهجوم الفظيع، ولمّا حاولت معرفة ذلك، بالرد على بعض المكالمات، لم أستقبل سوى المزيد من عروض الفحش التي يقدمها المتصلون، من أجل الحصول على موعد. بلغ بي الغيظ حداً، لم أكن لأصبر بعده أكثر مما فعلت، لكي أنفجر بوجه أحدهم، قلته له:

«ماذا دهى عقلك لتسرق امرأة من نومها، وتسألها عن ثمن النوم معها؟ من تظنونني؟ وهل تعرف مع من تتكلم أيها الخراء؟ أنا امرأة محترمة، وسأبلغ عنك الشرطة!»

«امرأة محترمة هأ هأ!» رد المتصل بتهكم: «إذا كنتِ امرأة محترمة كما تدعين، لما تضعين رقم هاتفك في التايتل؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«أنا وضعت رقم هاتفي؟» صحت به شاتمة إياه: «أي تايتل؟ وعماذا تتحدث؟!»

«رقمك موجود في التايتل أسفل الشاشة أيتها المحترمة!»

قال المتصل، ثم أخبرني أن رقمي مدرج في تايتل إحدى قنوات الأغاني العراقية. سارعت إلى إطفاء الهاتف، وشغلت التلفاز، رحت أبحث عن تلك القناة التي أعطاني المتصل اسمها، حتى عثرت عليها بعد دقائق. شرعت أتابع الأرقام والتعليقات، حتى وقع بصري على رقم هاتفي مرفقاً مع عبارة: «أنا امرأة ثلاثينية العمر، من البصرة، وأرغب بالتعرف على شاب عشريني، وسيم وقوي!»

من الواضح أني وقعت ضحية لانتقام أحدهم، ومن يكون غيره؟ ذلك المتصل اللجوج، المتصيد الليلي اللحوح، وقد فعل ما فعل انتقاماً لكبريائه المُهان بالتجاهل، طيلة الأيام الماضية، فلم يجد أمامه، حينئذ، سوى أن يلعب لعبته القذرة هذه، وينكل بي على هذا النحو السافر.

لن أخرج اليوم، لن أفعل شيئاً، وسأعود إلى النوم

وليمت بغيضه إذن، ذلك الخنزير التافه!

الساعة: PM 8:7

على مدى ساعة، منذ أن فتحت هاتفي النقال، لم تردني أي مكالمة. توقفت أخيراً حفلة التحرش الجماعي، بعد نشر رقم هاتفي مذيلاً بعبارة بدعوة إلى الفراش، في قناة غناء ورقص عراقية. ظننت أن المتصيد الليلي لن يعاود الاتصال مجدداً، فقد أدى ما عليه من

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حقارة، ولا بد أنه سعيد الآن بما فعله. لكني كنت مخطئة بهذا الشأن، فمثل هؤلاء لا يكفون عن ارتكاب البذاءات، فما أن مضت الساعة الثانية على استيقاظي من النوم، حتى رن الهاتف:

«آلو.. من معي؟»

«احمممم.. أنا معجب!»

«معجب؟ وهل سبق أن رأيتني من قبل لتُعجب بي؟»

«كلا.. اعجبني صوتك»

«صوتي؟»

«نعم.. فالأذن تعشق قبل العين أحياناً!»

«ألا تنوي إنهاء هذه الحماقة؟ اختصر، ماذا تريد؟»

«نتعرف على بعضنا»

«وما فائدة التعرف على امرأة مجهولة لم ترها بعد؟»

«مجرد تعارف لا أكثر، ومن يدري، ربما يعجبني شكلك أيضاً»

«وماذا بعدها؟ تنام معي؟»

«ربما.. أو قد نتزوج هأ هأ!»

«هل تريد رؤيتي؟»

«بكل الأحوال نعم! من بوسعه أن يرفض؟»

«أين ومتى؟ قل بسرعة قبل أن أغلق الهاتف!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«هل أنتِ جادة؟ أم أنه كمين؟»

«بل جادة، تكلم وإلا فاتت عليك الفرصة!»

«غداً، في المطعم اللبناني، حي الجزائر، الساعة السابعة مساء، سأكون بانتظارك!»

ربما كانت مخاطرة حقيقية، أو خطوة غبية، عبثية، ولا عقلانية، لكنها من جملة الأمور الكثيرة، التي عادة ما أدعها تحدث، وأتحمل نتائجها مهما كانت، فقد شدني الفضول للتعرف على هذا الشخص الغريب، ومعرفة إن كان هناك شيء غير طبيعي يدفعه إلى الإلحاح بهذا الشكل الجنوني، الذي ينم عن هوس مرضيّ، وربما البصق في وجهه. لا يبدو خطيراً، رغم ما فعله، ولن يضرني بشيء، ما دمت سأغادر إلى لندن في النهاية، ولن يكون بمقدوره إزعاجي ثانية. لم أكن في وضع نفسي ملائم يسمح لي بخوض مثل هذه التجربة التافهة، لكني، بالإضافة إلى فضولي غير المبرر الذي ينطوي على مخاطرة كبيرة، كنت بحاجة إلى الغرق في أي فوضى أخرى متاحة، أو أي ردة فعل، حتى وإن لم يكن ثمة علاقة بينها وبين ما توصلت إليه من حقائق صادمة في الأيام الأخيرة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم العاشر

الثلاثاء

11 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

الساعة: PM 10:20

أقلتني سيارة أجرة إلى المطعم اللبناني، الذي لم يكن فيه شيء من لبنان، سوى اسمه والأطباق التي يقدمونها. أما النُدل، فجميعهم عراقيون، ولسبب ترويجي فاشل، يتحدثون اللهجة اللبنانية بطريقة مضحكة، ومفضوحة، بالنسبة لمن اعتاد ارتياد المطاعم اللبنانية في شارع إدجار رود بلندن. كان مطعماً أنيقاً، بديكور فخم وجذاب، والأجواء فيه هادئة ومحفزة للخيال، وتبعث على الشعور بالأبهة. جلست على كرسي، خلف إحدى الطاولات الفاخرة، في الصالة العلوية المخصصة للعوائل، إلى جانب نافذة مطلة على فسحة خضراء وبركة صناعية.

تأخر المتصل المجهول عن موعده عشر دقائق، كان بإمكاني التعرف عليه، رغم أنه أصبح أكبر سناً، أصلعاً، ويربي لحية مع شارب خفيف، على طريقة السياسيين المتدينين بعد عام 2003، يرتدي بدلة زرقاء يبدو أنها فُصلت لتُلائم بدانته، التي ازدادت أضعافاً عما كان عليه، قبل عشر سنوات. إذن، ها هو الاستاذ راهي، كما صار يطلق

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عليه سكان حي الحرية الجُدد، زوج الأم، ملك حبوب الهلوسة، ومدير معمل الكريستال سيء الصيت، في البصرة.

كان وقع المفاجأة سيكون أقل فزعاً، في حال كان راهي ما يزال على هيئته الأولى، الرثة، ببالطوه الأبيض القذر، والمليء بالدماء والمحاليل الكريهة.

حين رأيته من بعيد، خطرت لي فكرة الهروب من المطعم، والعودة إلى الفندق، ثم حزم حقيبتي، وركوب أول طائرة ذاهبة إلى لندن. إلا أن شيئاً ما، أقوى مني، ابقاني في مكاني، لعله فضولي في التعرف على ظروف الحياة التي تعيشها أمي معه، ما دام أن الفرصة اصبحت سانحة الآن لأفعل هذا. قضى أكثر من نصف ساعة، وهو يوجه لي أسئلته التي كانت جزء من بروتكول تعارف يبدو أنه اعتاد عليه. اسئلة تافهة مثل: ما اسمك؟ عمرك؟ مكان سكنك؟ ماذا درستِ؟ وهل أنتِ متزوجة، أم أرملة، أم مطلقة، أم زوجة شهيد؟ حتى أنه سأل عن وزني، وتبادر إلى ذهني، أنه ربما يطلب مني الوقوف، والاستعراض أمامه، ليرى ما إذا كنت طويلة بشكل مرضٍ له. كان الأمر أشبه بلعبة، صرت مأخوذة بها فجأة. كذبت عليه وكنت استمتع بحيرته. لم أعطه ولا حتى معلومة واحدة صحيحة، حتى بدأ التعرف عليَّ بنفسه. كانت ملامحه تتغير شيئاً فشيئاً، كمن يعيد شريط حياته إلى الوراء، ويظلم وجهه عند أكثر المواضع إثارة لاشمئزازه، معبراً عن ذلك من خلال حركات، لا يفعلها المرء إلا عندما يعلم أن لا مهرب من المواجهة، فتجده يضيق عينيه حيناً، أو يشيح بوجهه بينما هو ينقر بأصابعه على الطاولة حيناً آخر، أو يبدأ بالتنحنح، أو

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

قد يعبر عن رغبته بالتقيؤ. لمحت قطرات من العرق على جبينه، وعلمت من محاولته إرخاء ربطة العنق أنه على وشك النطق باسمي مذهولاً، وهو ما حصل حقاً.

قال:

«مستحيل! لا تقولي أنك....!»

«انا هي!» قلت له ببرود أثار استغرابي: «والآن، بعد تعرفك عليّ، هل تنوي قتلي؟»

لم يحر جواباً، ظل يتلفت حوله، وقد تجهم وجهه بشكل أظهر إلى أي حد هو قميء حين يكون متوتراً، خصوصاً وهو يتكلم بهذا الصوت الأخن، قلت له:

«ماذا دهى صوتك؟»

«تلف في العصب العاشر»

رد بينما هو يتصفح المنيو، وقد عاد الدم إلى وجهه، وظهرت الدمامة على طبيعتها. لم أصدق للحظات أن الشخص، الذي كنت أظنه ساهم في تدمير عائلتي الصغيرة، يجلس الآن بإزائي، ويبدو غير عابئ. أحسست بالكراهية تجاهه، ووددت لو أقتله، أغمد إحدى سكاكين التقطيع على الطاولة، أو شوكة في رقبته.

«ذلك الكلب الضال ابن خالتك!»

«حمدان؟» قلت له وأنا أضع ذراعاً على الأخرى، وأنظر إليه متسائلة، عما إذا كان ما أراه وأسمعه حقيقيا، فلمحت أثناء ذلك سماعة في أذنه اليمنى: «ما به حمدان؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«قاتل، ومجرم، كاد أن يقتلني المعتوه!»

قال، ثم سألني ماذا آكل.

«لا أشعر بالجوع»

أجبته، واستغربت أني حتى تلك اللحظة لم أسأل عن أمي، كأني انتظرت حتى يذكرها هو بها. قال:

«ذلك الحيوان، كاد أن يقضي عليّ، لولا أن اللّه ستر، أفلتُّ من بين يديه، لكن ليس بأقل الخسائر على أي حال، تغيّر في الصوت كما تسمعين، انعكاس البلعوم، خلل في الهضم، مشكلة في السمع، ومشاكل أخرى في القلب والشرايين، سلس البول.. عفواً! وصعوبة في الابتلاع!»

كان راهي يؤشر بسبابته على كل موضع يذكره، حتى عندما وصل بقائمة أمراضه التي تسبب بها تلف العصب العاشر، جراء إصابة تعرض لها من قبل حمدان، فإنه وضع يده على عضوه، وأتبعها بحركة شبقية وضيعة، قبل أن يعتذر، وفي النهاية، فإنه ترك مسافة بين حرف الواو وشكواه من صعوبة الابتلاع، وهي المشكلة التي لاحظتها عليه، حين بدأ يأكل، كان يفعل هذا وهو في ذروة اللامبالاة.

«كل هذا لأني تزوجت من أمك، على سنة اللّه ورسوله بالطبع، وبرضاها هي. بمعنى، أني لم أنهبها، أو ابتزها بشيء. كانت امرأة وحيدة، منكسرة، وتريد أن تقتل نفسها، ماذا أفعل حيال هذا الأمر؟ هاا؟ قولي لي ماذا أفعل؟ هل أقف مكتوف الأيدي كالأبله، وأنظر إليها وهي تحرق جسدها بالبنزين؟ مستحيل! ليس من شيمي أن أترك انساناً يموت بهذه الطريقة أمامي!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«هل هي بخير؟» سألته.

«من؟» رد وهو يلوك لقمة وبالكاد يبتلعها: «أمك؟»

أومأت له برأسي، فقال بعد دقيقة من الصمت أطرق خلالها برأسه، وبدا كأنه يفعل ذلك ليرى ما تبقى في طبقه من طعام:

«بأحسن حال! توفيت شريكتها، أم أولادي، المسكينة ماتت بالقلب، تاركة العرش لأمك»

لم أعقب بشيء، تركته يعالج لقمة توقفت في بلعومه بقدح من الماء، ثم أتبع ما بدأه قائلاً:

«أمك هي الملكة الآن هأ هأ!»

عاد ليقول، بعد أن بدا مرتاباً من صمتي:

«أنتِ لا تصدقين، حسناً، هل تودين زياراتها؟»

«كلا!» لم أحتج لأكثر من ثانية لأرد على سؤاله: «ليس قبل أن تموت!»

«هي أيضاً، لا أظنها ترغب في رؤيتك، ما زالت غاضبة منك حتى الآن» قال وهو يلعق شفتيه مثل هرّ سمين وقبيح، ثم عاد ليسألني: «هل أنتِ مستاءة لأنها تزوجت مني؟»

«ليس تماما» قلت له، وقد فشلت للمرة المائة بالاستمرار في النظر إليه لأكثر من دقيقة، من دون تحاشي ذلك في النهاية: «كانت مجبرة»

«أنتِ مخطئة» رد راهي وهو يثبت نظره عليَّ، كما لو أنه على وشك أن يطلق شيئاً من عينيه باتجاهي: «لم تكن أمك مجبرة على شيء، كانت امرأة حرة، وبحاجة إلى رجل، عرضت عليها الأمر فوافقت»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لقد ابتززتها!» قلت له بطريقة كانت أشبه بالنباح.

«أبداً! لماذا تظنين أني أفعل ذلك؟ وبماذا يمكن أن ابتز امك؟»

«ألم تخبرها؟»

«أخبرها بماذا؟»

صمتت للحظات، ثم قلت:

«لا شيء!»

هنا بالذات، أحسست أن شيئاً ما، أو حقيقة مضمرة على وشك الظهور، صرت حذرة أكثر، ولم أرد على سؤال راهي الأخير، فرغم دمامته، إلا أنه بدا صادقاً وهو يسألني: أخبرها بماذا؟ وهذا يعني بطبيعة الحال، جهله حقيقة ما حدث لعبير في ذلك اليوم. ثمة من راح يردد في أعماقي حينها: يا لوهمك الكبير! أوشكت على النهوض حين شعرت أن علي فعل شيء، لكن توقي لمعرفة المزيد سمّرني في مكاني.

سألت راهي:

«لماذا تظن أن أمي غاضبة منا؟»

«وماذا تريدين من أمٍّ أن تفعل حيال هروب ابنتيها بهذه الطريقة؟ قال وهو يرشف من قدح الشاي الذي طلبه بعد انتهائه من الأكل: «في الحقيقة، هي كانت غاضبة منك أنتِ، أما الأخرى، فكانت طفلة صغيرة، لا تدرك فحوى ما كانت تفعله شقيقتها الكبرى»

ثم مد رأسه مثل سلحفاة وقال بصوت هامس:

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«كانت تشعر بالخزي!»

«لماذا؟»

«كانت تظنكِ حبلى!»

اقشعر بدني، وأغمضت عينيَّ، احسست بيد راهي الخشنة وهي تطبطب على ذراعي، فأزحتها بحركة خاطفة أجفل منها، ونظرت إليه شزراً. كنت أود سؤاله عما إذا شاهدنا مرة على شاشة التلفاز، لكني أدركت أن شيئاً من هذا لم يحصل، فهذا هو الحال في المناطق الرثة والمنسية، يحترق العالم على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، ولا أحد يعلم. أتذكر قصة ايمانويل كيلي وشقيقه، الطفلان العراقيان المعاقان، اللذان عُثر عليهما بعد حرب 1991 داخل صندوق للأحذية في حديقة عامة، وتم إجلاؤهما إلى ملجأ الأيتام، حيث عاشا هناك سنواتهما الأولى، قبل أن تقوم سيدة استرالية بانتشالهما، ومن ثم تبنيهما ليعيشا معها في استراليا. لم يكن أحد في العراق يعلم شيئاً عنهما، لولا ظهور ايمانويل في أحد برامج المواهب الشهيرة ليغني. عندئذ، قام أحدهم بترجمة الفيديو ونشره بالعربية تحت عنوان: العراقي المعاق الذي أبكى الاستراليين! فكرة لم تخطر لأحد حتى الآن، ليقوم في إثرها بترجمة أحد لقاءاتنا أنا وعبير مع الإعلام، ونشره على اليوتيوب مذيلاً بعنوان مشابه: الطفلة العراقية الحبلى التي أبكت البريطانيين!

إذن، تظن أمي أني كنت حبلى.

حاولت استشفاف بعض الكذب في حديث راهي، ولم أنجح.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كان يقول الحقيقة، هكذا أحسست. فلتستمر في اعتقادها هذا إذن، قلت في نفسي، وليستمر الحال على ما هو عليه، فلن تفعل الحقيقة، في مثل هذه الظروف، شيئاً سوى جلب المزيد من الفوضى والمتاعب. كلتانا تعيش حياة جديدة الآن، أنا وأمي، كلتانا بدأت من جديد، وأي خطوة الغاية منها لم الشمل، ستعود علينا بالعناء.

سألت راهي المضمد:

«هل ستخبرها أنك رأيتني؟»

«وأنتِ؟ هل تريدين أن أخبرها؟» قال سائلاً هو الآخر.

«كلا!» قلت ونظرت إلى الساعة في يدي، لم يزل ثمة وقت لأسأله عن أشياء أخرى، ما دام أنه متعاون، ويظهر مرونة في الإجابة عن كل أسئلتي، وكأنه يفعل هذا لينال مباركة وإن تكن متأخرة على زواجه من أمي.

«هل تعرف شيئاً عن خالتي؟»

«توفيت قبل أربع سنوات»

«هل تحصل على النساء بهذه الطريقة دائماً؟» سألته بعد فترة من الصمت، أعقبت خبر وفاة خالتي.

«ليس دائماً» أجاب وهو يحك أنفه، ويتفقد السماعة في أذنه: «نادراً ما أصيب الهدف هأ هأ»

«نعم، وعندما لا تصيبه، تضع أرقام هواتف النساء في تايتل قنوات الأغاني الهابطة، وتدعو هواة المتع الجنسية من المدلّكين يتكالبون عليهن، أليس كذلك يا حضرة المدير؟!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لم أفعل هذا يوماً!»

«بل فعلتها معي!»

«أنا؟ معك؟ ليس صحيحاً!»

«أنت تكذب!»

«أبداً، لو كنت فعلتها لقلت لكِ، ما الذي يمنعني؟ أظنني كنت واضحاً معكِ بما يكفي لتعرفي إن كنت صادقاً أم كاذباً، لا بد أن شخصاً آخر قام بفعل هذا!»

شخص آخر؟! فكرتُ: اللعنة! لماذا كان عليَّ ألا أشك بجاسم الأعرج؟ فاتني أن لي تجربة مريرة معه، في الحي الصناعي، الأسلوب نفسه، لكن الطريقة تختلف هذه المرة. ترى، ما اللذة في كل ما فعله؟ ولماذا يظن دائماً أني عاهرة؟ لم أخض في المزيد من التفاصيل بهذا الشأن مع راهي، وترددت كثيراً قبل أن أقول له:

«من بائع أقراص الهلوسة إلى مدير معمل لتصنيع الكريستال ميث، تطور كبير، لا بد أنها تجارة رابحة وسريعة، لكن قل لي، هل تنوي الترشح للانتخابات البرلمانية القادمة؟»

«معلومات مذهلة!» أطلق راهي ضحكة قصيرة، فبانت اسنانه الصناعية البيضاء، قبل أن يقول:

«لا عليك من هذه الاشاعات، الناس يبحثون عن أي شيء يلوكونه بأسنانهم، شعب ربعه بطالة والربع الآخر تحت خط الفقر، ماذا يفعلون؟ بالتأكيد يشغلون وقتهم باغتياب راهي وغيره. زوج أمك رجل شريف ومحسود، وكل هذا الخير الذي ترينه حصلت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عليه بذراعي. أولئك الصحفيون الكسالى والمتعجرفون يقولون إنه معمل لتحضير المخدرات، يا إلهي! حسناً، وما شغل الحكومة إذن؟ لماذا تسمح بذلك؟ لماذا لا ترسل شرطتها للقبض عليّ وتشمع المعمل بالشمع الأحمر؟»

«الحكومات لا تقبض على تجار المخدرات» قلت له: «إنهم يعتقلون المستهلكين فحسب!»

«لا يهمني ما يقال، مجرد ترهات، بوسعك زيارة المعمل إذا أحببتِ، لتتأكدي بنفسك وتعلمي أن زوج أمك ليس شريراً كما يدعون، وأنه أنشأ معملاً لصناعة أواني البلاستك، من أجل دعم الصناعة الوطنية ورفد السوق المحلية، وإلا، قولي لي بربك، ما الذي ينقصنا حتى نعجز عن فعل مثل هذا الأمر.. ها؟»

«وحمدان؟» سألته فجأة: ماذا حل به؟»

«حمدان؟» قال وقد بانت الكراهية على وجهه، ما أن ذكرت اسمه: «أخذه اللّه بذنبه!»

«كيف؟ هل مات؟» سألته وقد أجفلت، وكدت أنهض.

«ليس بعد» قال وهو يخرج سيجارة الكترونية من جيب سترته: «أعتقد أنه يعيش أيامه الأخيرة، فمنذ اصابته بالسرطان، قبل أعوام، وهو يرتدي العمامة، ويقضي وقته بالعبادة!»

«هل قلت أنه ارتدى العمامة؟»

سألته، وتذكرت حديثي مع البائع، صاحب الكشك الصغير في حي الحرية الموبوء، عن رجل الدين الذي باعه البيت.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«نعم.. كان قد سُجن في عام 2008، بعد حملة الحكومة لبسط الأمن، ووجهت له تهم عديدة، من بينها محاولته قتلي في عام 2006، لكنه حصل على قرار بالعفو بعد ثلاثة أعوام، نظراً لإصابته بالمرض»

«هل تعرف أين يعيش الآن؟»

«في ملحق بمسجد يقع في منطقة القبلة، اسمه جامع الرحمن» رد راهي: «تصوري، لم أمنعه من زيارة خالته، لقد جاء يطلب العفو مني، وعفوت عنه، لكني لم أتخلص من كراهيتي له، فكما ترين، ما زلت أعاني من آثار محاولته النيل مني. هل تعلمين؟ صرت أشفق عليه مؤخراً، وأدعمه ببعض المال. والآن قولي لي، هل تريدين إخبار أمك بالأمر؟»

«لا أظن أن هناك جدوى من إخبارها الآن»

«حسناً كما تريدين»

قال راهي، وتوقعت أن يأخذ دوره في توجيه الاسئلة، لكنه هم بالمغادرة، من دون معرفة حتى ما الذي حدث لنا، أنا وعبير، بعد هروبنا من المستشفى، وأين نعيش، وما هي ظروفنا، إلى آخره من الأسئلة المتوقعة. بدا غير مكترث بكل ما يعني حياتنا على مدى الاعوام العشر الماضية، وأحسست أنه يوافقني في اصراري على عدم رؤية أمي. ولماذا عليه أن يهتم لأمرنا؟ رفضت عرضه بإيصالي في سيارته، اكتشفت وأنا أنظر من خلال النافذة إلى الباحة، حيث ممر الخروج، أن هناك ثلاثة حراس يرافقونه إلى الخارج، وتساءلت في نفسي، ما إذا كان كل من يدير معملاً صغيراً لصناعة البلاستك يكون على هذا القدر من البذخ.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

غادرت المطعم إلى الفندق، قطعت المسافة مشياً، وأنا أفكر بحمدان.على الأرجح لن استطيع زيارته في الغد، فغداً يوم حداد، ستكون المدينة هائجة بطقوس الندب السنوية، ففي مثل هذا اليوم، من التاريخ الهجري، قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، قُتل حفيد النبي مع من معه، من أبناء وأخوة وأقرباء وأصحاب، وسُبيت عائلته إلى بلاد الشام.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الحادي عشر

الأربعاء

12 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

PM 9:00

لم أخرج اليوم.

كان لقائي براهي شيئاً أشبه بالحلم، أو هكذا خيّل لي صباح اليوم، مما اضطرني إلى العودة لقراءة ما كتبته في الليلة الماضية، لأتأكد من الأمر. لم أتوقع العودة لمواجهته مجدداً، ووحدها الصدفة، الصدفة التافهة، هي من قادتني إليه بالأمس، على العكس من لقائي بحمدان ابن خالتي، أما هذا، فسأذهب إليه وأنا أعرف جيداً أن من سأقابله هو نفسه، وليس شخصاً آخر، أي، ليس ثمة مفاجآت، إلا إذا كان راهي يكذب بهذا الشأن.

ثمة أمر كان عليّ القيام به، قبل زيارتي المرتقبة لحمدان في الغد، أمر لم أكن أفكر به لولا أن وقع نظري، أثناء تجوالي في السوشيل ميديا، على إعلان ممول وغريب لصفحة خاصة، يعرض فيها شخص يُدعى (الدكتور الروحاني أبو حنين الصابئي) خدماته على الزبائن: علاج كل أنواع السحر، جلب الحبيب للزواج، ردّ المطلقة، حل المشاكل الزوجية، تيسير التجارة، المحبة وتهييج الحبيب،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

علاج القرين، علاج الوسواس والضعف الجنسي، علاج مس الشيطان والجن، علاج التابعة والعين والحسد، فك النحس، وكافة الأعمال الروحانية بضمان وحرفية، كما يقول الإعلان. تذكرت حين كانت أمي تأخذ عبير إلى مخدع أحد أولئك، الذين يسمون أنفسهم روحانيين، لغرض معالجتها مما كانت تظن، بإلهام من خالتي رسمية، سحراً أو عيناً حاسدة أو مساً شيطانياً أو من الجن، فخطرت لي فكرة مراسلة هذا الشخص، والاستفسار منه بشأن حقيقة ما يُشاع عن استمالة النساء، من قبل هذه الشريحة المتاجرة بأرواح الناس، لغرض الإيقاع بهنّ جنسياً، بذريعة الحصول على نتائج مضمونة، لما يطلبنه من العلاجات الروحانية وأعمال السحر.

كان «أبو حنين الصابئي» هذا قد ترك رقم هاتفه، لغرض السؤال والاستفسار عن طريق أحد التطبيقات المجانية، فأرسلت له استفساراً عن الأمر، بالإضافة إلى اسئلة أخرى تتعلق بالسحر الأسود. لم أكن آمل في تلقي جواباً منه، فعلى ما يبدو أني سألته أسئلة تتعلق بسر المهنة، وعادة، مثل هذه الاسئلة يُرد عليها باقتضاب، وبكلمات متحفظة، هذا إن لم يتم تجاهلها أساساً.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اليوم الثاني عشر

الخميس

13 تشرين الأول/ أكتوبر 2016

PM 2:25

تبعد منطقة القبلة، حيث كانت تقع مدرستي، عن الفندق عشرة كليو متر تقريباً. غادرت الساعة التاسعة صباحاً، تمشيت لبعض الوقت باتجاه منطقة العشّار. كانت آثار طقوس اليوم الماضي ما زالت منتشرة في كل مكان. سألت سائق سيارة الأجرة، في الطريق، عن مسجد الرحمن، وأين يقع بالضبط، فقال أنه لا يعرف. اضطررت إلى البحث عنه بنفسي فور نزولي على مقربة من السوق، وبعد تمشية استمرت زهاء نصف ساعة، وسؤال عدد من الأشخاص عن الموقع، عثرت عليه. كان مسجداً صغيراً، ربما أُنشأ خلال فترة هوس الميسورين ببناء دور العبادة وفورة صلاة الجمعة التي أعقبت الحرب. كان بمنارة وقُبة حديديتين، وثمة باب صغير مطلي باللون الأسود على الجانب الأيسر منه، خمنت أنه باب الملحق السكني الذي يقطنه حمدان. حاولت الحفاظ على معدل ثابت للنبض، لكن من دون جدوى، فقد كان الخفقان يزداد كلما اقتربت من الباب، واشتد على نحو ظننتُ معه أن قلبي سيتوقف إذا لم أكفّ عن الطرق. لكني واصلت رغم ذلك، كنت خائفة حقاً، مع علمي أن حمدان لم

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

يعد خطيراً، طال الإشعاع خلاياه، بسبب عمله في صهر المعادن الملوثة والمخلفات الحربية، وكسر المرض شوكته، ولا بد أنه أصبح كائناً ضئيلاً، هزيلاً، ومنكسراً، ليس بوسعه القيام بشيء أكثر من طردي، إذا لم ترق له رؤية ابنة الخالة الهاربة. وبينما كنتُ أفكر بما سيؤول إليه الأمر بعد دقائق، وإذا بالباب يُفتح، وتطل امرأة من ورائه قائلة:

«نعم تفضلي!»

«عفواً» أجبتها: «هل هذا مسكن الشيخ حمدان؟»

«نعم هو.. هل من خدمة؟» ردت المرأة.

«أنا قريبته واسمي سليمة، جئت لرؤيته، هل هو موجود؟»

ذهبت المرأة من دون أن تقول شيء، غابت لدقائق رحت أذم خلالها راهي، لأنه لم يخبرني عن زواج حمدان. لكن لا بأس، ربما رأى شيئاً كهذا ليس مهماً بالنسبة لي. سمعت بعدها المرأة وهي تكلمني وراء الباب:

«هل قلتِ أنكِ سليمة؟»

«نعم أنا هي؟» أجبتها.

«ادخلي»

قادتني عبر سلم حديدي مسقف بالألواح المعدنية، يفضي إلى شقة صغيرة مؤلفة من غرفتين وصالة. داعبت في طريقي إلى الغرفة التي يرقد فيها المريض طفلة كانت تجلس على الكنبة في الصالة،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

خمنت أنها في التاسعة من عمرها، تبدو كئيبة، متجهمة الوجه ولا تبتسم، وعلى ما هو أكيد أنها ابنة حمدان، وهذا يعني أنه متزوج قبل دخوله السجن في عام 2008.

اخترقت الرائحة أنفي فور دخولي الغرفة، وتحديداً لحظة وقع بصري على حمدان الراقد فوق سرير بجانب النافذة. رائحة لم استطع تمييزها في البداية، ظننت أنها رائحة عفونة، أو ثياب خُزنت وهي رطبة، لكنها لم تكن في الحقيقة سوى رائحة الاحتضار، التي عادة ما تفوح من جسد المحتضر، وثيابه وأشياءه وأنفاسه وعرقه. لمحت ابن خالتي المريض وهو يومئ بحركة واهنة من رأسه إلى المرأة، التي خرجت، بعدما ألقت عليَّ نظرة، لم تكن مرتابة، بقدر ما كانت متسائلة، مع شيء من الازدراء. لا بد أن حمدان حدثها عني سابقاً، وها أنا ذا أمامها، المرأة العاصية، الهاربة، والخائنة لأعرافها القبلية والمجتمعية. كان حمدان يضع كمامة على أنفه وفمه، ويعتمر طاقية اسلامية ويرتدي دشداشة سوداء، تعاطفاً مع الشهر الحزين. ثمة صوت شجيّ لناعٍ ينبعث من راديو صغير، وضع إلى جانب أدوية تكومت على دولاب يقبع عند رأسه. جلست على كرسي بلاستيكي بجانب السرير، على الجهة اليسرى، وأنا أنظر إلى حمدان، الذي كان يسند قفاه على ظهر السرير ويشبك يديه على بطنه، فوق الشرشف الأبيض الذي يغطيه، محدقاً أمامه بنظرة شاردة، ولا يبدو أنه سيتكلم ما لم أبادر أنا بالحديث، قلت:

«إذن، أنت متزوج ولديك ابنة جميلة!»

«متزوج نعم» رد من دون أن يلتفت، بصوت أبح وضعيف، لكنه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مسموع: «لكن الطفلة ليست ابنتي، إنها يتيمة، تزوجت من أمها قبل ثلاث سنوات، من أجل الإعالة»

«عبير كانت يتيمة أيضاً» قلت له، كان صوتي متردداً وبالكاد خرج، فقد بدا حمدان مخيفاً حتى وهو على هذه الحال المزرية، وعلى حافة الموت: «كان الأجدر بك أن تكفلها هي، خصوصاً وأنها قريبتك، أليس الأقرباء أولى بالمعروف كما يوصي الدين؟!»

أغمض عينيه لثوانٍ، وعاد إلى نظرته الفارغة سائلاً:

«لماذا عدتِ؟»

«لأعرف الحقيقة» أجبته: «لماذا فعلت هذا؟ كانت طفلة!»

«فعلت ماذا؟» التفت نحوي.

«أنت تعرف جيداً ماذا فعلت بعبير»

احتاج حمدان إلى دقائق، أحسست خلالها أنه تائه بين الاعتراف والإنكار، قبل أن ينطق بالإجابة بصوت باكٍ:

«أنا آسف! كان الشيطان أقوى مني!»

«ما قصتكم مع الشيطان؟» قلت له بلهجة أقرب إلى التوبيخ: «تعلم شيئاً؟ على كثرة ما جعلتم الشيطان شماعة تعلقون عليها خطاياكم، صرت أشك في وجوده، ورغم ذلك هو موجود، ولن يجرؤ على اغتصاب طفلة في التاسعة من العمر!»

التفت حمدان إليّ ثانية، وقد اتسعت عيناه، وبان فيهما الموت الوشيك، قال:

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لم أفعلها! ليس الأمر كما تظنين!»

لم أفهم ما قاله، ظننته يريد الرجوع عن اعترافه، لكن، يبدو أن ثمة ما يرغب بقوله، شيء يخص الطريقة التي انتهك من خلالها عبير.

«لم آتي لانتقم منك، انما لأعرف الحقيقة فحسب، أعرف أن حالتك صعبة، وربما... حسناً، لا أريد دفعك إلى الانتكاس، لكن بوسعك إراحة ضميرك على الاقل، صدقني، لن تندم، وسيغفر اللّه خطيئتك، والآن، قل لي كيف حدث الأمر؟»

انهمرت دموع حمدان وهو يحدثني عما جرى في غروب ذلك اليوم المشؤوم، قبل أكثر من عشر سنوات، لم يعزني الكثير من الجهد لأصدق أنه كان يقول الحقيقة:

«لا بد أنك تذكرين عندما ذهبت إلى مقبرة الآليات المعطوبة، بطلب من خالتي لأجلب عبير، التي تأخرت بالعودة إلى البيت. ما أن وصلت إلى هناك، حتى فوجئت برؤيتها وهي في وضع مخزٍ. كانت تجثو على يديها وقدميها، بينما يتناوب على الالتصاق بها أولئك الأولاد، وكانوا أربعة، من الخلف. شعرت بالغضب وفرقتهم عنها، استطعت ضرب اثنين منهم، قبل لواذهم بالفرار. وبخت عبير ورحت أعنفها، ثم صفعتها، وقدتها من يدها إلى البيت. كنا لا نزال في الطريق، عندما تذكرت مشهداً حدث قبل بيومين، فزنّ الشيطان في رأسي مثل دبور، وبدلاً من أخذها إلى بيتكم، قدتها إلى بيتنا»

عاد حمدان ليجهش بالبكاء. هذه هي المرة الأولى التي أراه يبكي فيها، لطالما تخيلت أن غدده الدمعية جافة بفعل القسوة، وها هو الآن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ينتحب بشدة، كنت قد اقتربت منه في حينها، بعد إحساسي بصوته المتعب وهو يتلاشى:

«كانت أمي خارج البيت، صعدت بعبير إلى السطح، لم تحاول الافلات مني، كانت هادئة وما تزال تضع يدها على خدها منذ أن صفعتها في مقبرة الآليات. بدت كما لو أنها تعي ما ستتعرض إليه، لكنها لم تحاول الهرب. كان البرج واسعاً، أفرغته من الحمام وأدخلتها، وهناك حدث الأمر!»

للحظات، وربما توهمت هذا، شممت رائحة الذروق نفسها التي كانت تفوح من ثياب عبير في ذلك المساء الكئيب، ما أن ذكر حمدان برج الحمام، ثم سألته:

«كيف تجرأت على انتهاك عذرية البنت المسكينة؟!»

«لم أفعل صدقيني، أعني.. أني لم اقترب من...!» أجاب متلعثماً

«من ماذا؟!» صحت به، لكن بصوت خفيض، وكدت أن أنقض عليه وأصفعه: «ادعو الأسماء بمسمياتها، أم أنك تخجل؟!»

«لم تدعني أفعلها!» قال.

«هل تعني أنها قاومت؟» سألته.

«كلا!» قال منكساً رأسه، كان بوسعي رؤية دموعه حينما يعصر عينيه ليخرجها.

«كيف؟ لم أفهم!» قلت له.

«لم أفعلها من الأمام» قال وحجب وجهه بيديه: «لم تسمح لي، حاولت أكثر من مرة، لكنها كانت تقلب نفسها على بطنها»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«هل تعني أنك....!» سألته وقد نهضت قليلاً.

هزّ حمدان رأسه ودخل في نوبة جديدة من البكاء. كان صوته وهو ينشج أشبه بحشرجة من يحتضر. حينئذ، علمت السبب الحقيقي وراء النزيف الشرجي، الذي كانت تشكو منه عبير في تلك الفترة. مضت دقائق من الصمت لم يكف اثناءها ابن الخالة المريض عن النشيج مثل طفل، لا بد أن يكون لما كانت تعاني منه في وقتها، وهو اضطراب الهوية الجنسية، والميل إلى عالم الذكور، دوراً في ما تحدث به عنها. حتى وهي في هذا الظرف، رفضت أن تُنتهك كما يحصل عادة مع بقية الإناث، وكأنها أرادت الإثبات، لنفسها على الاقل، أنها صبي، ومن عادة الصبيان أن يُنتهكوا بهذه الطريقة.

أحسست أن حمدان اعترف بكل شيء، ما عدا المشهد الذي أثاره، ويقول أنه قاده إلى فعله المشين بعبير. لم أعلم أن سؤالي عن ذلك سيشرع الباب لحقائق لم أفكر بها يوماً، من تلك التي تسبب الإغماء، شعرت حيالها بالغباء، وتمنيت لو أُحشر لحظة علمي بها في أعمق قبر في باطن الأرض.

«كنت قد رأيت عبير قبل الحادثة بيومين، في الشارع، وهي تلعب مع الصبية الأربعة لعبة قذرة» قال حمدان.

«وما هي تلك اللعبة؟» سألته.

«كانوا يتسابقون، أيهم أبعد مدى في إيصال البول. شاهدت ذلك من على السطح، كنت أطعم الطيور، ولفت انتباهي زعيقهم. كان دورها بعد أن جرب الأربعة حظوظهم، ترددت كثيراً قبل أن تنزل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

سروالها وتفعلها. سخروا منها في البداية، لأن عضوها لا يشبه ما لديهم، لكنها حينما تغلبت عليهم، امتدحوها واحتفوا بها. كانت تضع سبابتها والوسطى بين الشق وتجذبه إلى الأعلى، رافعة نفسها، منتصبة على أطراف أصابع قدميها، منذ ذلك الحين والمشهد لا يفارق مخيلتي»

«ورحت أن تتحين الفرص حتى وقعت المسكينة بين يديك وافترستها!»

«كنت مأخوذاً بوهمها بشأن جنسها، ولم أنتبه قبلها إلى أنها أنثى، حتى رأيت ذلك المشهد، بالإضافة إلى أنها كانت ترسل لي إشارة، لم أتبين معناها إلا في وقت متأخر، فقد كانت متواطئة مع ما أفعله، منقادة إلى ما كنت بصدد تنفيذه، وخاضعة إلى أبعد مما تخيلت، وهو ما شجعني على المضي بما تبادر في ذهني حين رأيتها في ظهيرة ذلك اليوم، وهي تلعب مع الصبية الثلاثة تلك اللعبة»

«أي إشارة تعني؟»

«إشارة على هيئة قلب كانت تفتعلها بأصابع يديها، بدت كأنها تريد القول إنها تحبني»

«وهل كنت تعول أنت على هذه الإشارة من اجل استمالتها واستدراجها»

«نعم!»

«هل تعلم؟» قلت له، وثمة نار أحسست باندلاعها في صدري، ووددت لو أنفثها في وجهه: «أنت كلب أجرب، ودنيء إلى درجة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

جعلتك تظن أن إشارة بريئة كهذه تصدر من طفلة هي دعوة إلى المضاجعة!»

كف حمدان عن النشيج، وازدادت نظرته ثباتاً وخواء في الوقت نفسه، وهو يردد:

«نعم، اعترف، انا كلب ودنيء ومجرم، ارتكبت الكثير من الجرائم، وليس ما فعلته بعبير أكثرها إجراماً. أنا مجرم، وبشع بطريقة وحشية وأستحق ما حل بي!» ثم عاد إلى البكاء.

قلت له:

«لو كانت متواطئة مع فعلك، لما أصيبت بحبسة الكلام، الأفازيا، هل سمعت بها من قبل؟ هل تعلم أنها لم تنطق أبداً بعد تلك الحادثة؟»

«لا أعلم.. ولا أظن أن ذلك حدث بسبب ما قلته لها»

«وماذا قلت لها؟»

«هددتها!»

«ماذا قلت؟ تكلم»

«أخبرتها أنها إذا أفشت الأمر فسوف....»

«اكمل!»

«سوف أقتلك!»

«تقتلني؟!» قلت له: «وتزعم أنك لم تقتلني؟ لا يا شيخ حمدان، سبق وأن قتلتني ولأكثر من مرة!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«كيف؟»

«أنا أقول لك.. المرة الأولى حينما أحبلتني!»

«لكننا لم نتزوج، ولم أفعل معك شيئاً قبلها!»

«بل فعلت، فلكي تحبل امرأة ما، ليس بالضرورة أن تلجها، وهذا بالضبط ما حصل معي أثناء فترة الخطوبة. بسببك، اضطررت إلى انتزاع عذريتي بيدي هذه، ولا تسألني كيف!»

لاذ حمدان بالصمت، وهو ينظر أمامه، ويظهر أن ليس هناك ما بوسعه تكذيبي بشأن ما قلته:

«لماذا لم تفعلها كما فعلها رفيقاك حينما اختطفتموني في عام 2006؟»

التفت حمدان إليّ، وقد تغيرت نظرته فجأة، ولا يبدو أنه فهم شيئاً مما قلته. بدأ يتعرق، وكان صدره يرتفع ويهبط على نحو بيّن معاناته من ضيق التنفس. وددت لو يموت في تلك اللحظة، وأرى جثته مسجاة على السرير، وأنتظرها حتى تتعفن.

قال مستغرباً:

«لماذا لم أفعل ماذا؟»

«لا تتغابى، ليس حرياً على شخص مثلك ربما تستقبله الآخرة في غضون أيام أن يبدو غبياً الى هذه الدرجة. رغم ذلك سأجيبك عن سؤالك، وأقول: قبل عشرة أعوام من الآن، اختطفتني مع اثنان مع زملائك في الميليشيا التي تنتمي إليها، والآن أود سؤالك للمرة

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الثانية، لماذا لم تقتل العاهرة الهاربة؟ الخائنة التي أمامك الآن، لماذا لم تقتلها يا شيخ؟!»

«لم أختطفكِ!» عاد إلى نظرته الخاوية والثابتة، حتى أنه لم يكن يرمش وهو يقول: «نعم، بحثتُ عنكِ، لكني لم أجدكِ، ولو كنت أنا نفسه من تعنين، لما أبقيتك على قيد الحياة!»

«أنت تكذب!» نهضت من على الكرسي ودنوت منه، لكزته في ذراعه، فمال إثر ذلك وكاد أن يسقط على جنبه: «كنت معهم، كنت أنت بلحمك ودمك!»

«ما الذي يجعلكِ تظنين أني هو؟» قال، ولاحظت وجهه وقد أصبح أكثر شحوباً. أعدت سؤاله في سري: حقاً، ما الذي دفعني إلى الاعتقاد أن الشخص الثالث هو حمدان، رغم أن شيئاً لم يكن بذلك الوضوح، ليدل على صحة ظني؟

«كنتُ الوحيد الذي يبحث عنكما» قال حمدان: «لم يعبأ أحد بهروبكما، حتى أنا، ولولا خالتي لما تحملت عناء البحث أنا الآخر»

«أمي؟!» شيء ما تهشم في داخلي: «هل ارسلتك لتقتلنا؟»

هز حمدان رأسه قائلاً:

«ليس تماماً، طلبت مني التخلص منك والعودة بالصغيرة إليها. لكني كففت عن البحث بعد مدة قصيرة، حين تزوجت من ذلك الخنزير، راهي تاجر المخدرات، الذي استولى على البيت، وكدت أقتله لو لا أنه أفلت بأعجوبة!»

لا أظن أني سمعت شيئاً بعد ذلك، رغم أن حمدان استمر بالحديث لدقيقتين أو ثلاث، أو ربما كنت أسمعه، من دون إدراك

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ما كان يقوله. كان اعترافاً أحدث تلك الرعشة البلهاء، التي تنبثق في لحظات مجنونة، غير متوازنة، داخل النفس، وتجري مع الدماء، جاعلة المشاعر والأعصاب في حالة انفلات وتوهان. أتذكر حركة الجفن في عيني اليسرى اللاارادية، وارتعاش شفتيّ، والسبابة في يدى اليمنى وقد خرجت عن السيطرة. لم أشك في صدق ما قاله حمدان، فالرجل في طريقه الى الموت، ويرحب بأي شيء يريح ضميره، حتى لو كان الاعتراف بحقن طفلة في مؤخرتها الصغيرة. ربما يظن، من حديثه، أن عدم اغتصابه عبير، كما يفعل بقية المغتصبين مع الضحايا، خفف من كونه وحشاً مفترساً، وكأن الانتهاك بالشكل الذي فعله أقل ضرراً ووحشية من غيره. كان قد انقلب على جنبه، وسحب الشرشف في حركة واهية ليتغطى بالكامل، تلميح واضح إلى انتهاء المقابلة، في وقت لم يعد ثمة ما يقال. بدا لي أنه أراد إيصال رسالة مفادها: لقد أخبرتك بكل شيء، والآن اتركيني بسلام! دخلت زوجته في تلك الاثناء، ورمقتني بالنظرة نفسها التي كانت في بداية زيارتي. شعرت انها على وشك تقريعي بقولها: ما الذي فعلتِه بالرجل؟ فتحت حقيبتي، وأخرجت كل ما كنت أحمله فيها من نقود بالعملة الاجنبية، ربما سبعمائة دولار أو أكثر، ووضعتها تحت وسادة حمدان كما يفعل العراقيين عند انتهاء زياراتهم للمرضى. عندئذ، خفّت حدة النظرة المزدرية، المتسائلة للزوجة، وتحولت إلى نظرة متملقة وراضية. ترى، بماذا حدثها حمدان عني؟ لا بد أنه أخبرها أني عاهرة هو الآخر، ولا بد أنها سمعت بالجانب الإنساني الخفي في شخصية العاهرات، وها هو ينكشف لها الآن، من خلال سبعمائة دولار دسستها تحت رأس زوجها المحتضر.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

غادرت شقة حمدان، قطعت المسافة إلى ساحة سعد مشيا، وسمعت في الطريق إلى هناك الكثير من الغزل وكلمات التحرش، ومن ساحة سعد، استأجرت سيارة إلى الفندق، بما تبقى لدي من أوراق نقدية عراقية.

لم أسأل حمدان عن السبب وراء رغبة أمي بالتخلص مني، فقد أخبرني راهي أنها تظنني حبلى، ولهذا السبب هربت، وأخذت عبير معي. أعرف نساء حرّضن الرجال على قتل بناتهن، بداعي صون الشرف، امرأة مثلها، تربت على ثقافة هدر الدماء وغسل العار، لا بد أن يكون لها موقفاً صارماً تجاه فتاتين هاربتين، بعيداً عن تأثير مشاعر الأمومة في الحد من نزعة التوحش في قضايا الشرف.

وبطبيعة الحال، وفي مثل هذه الظروف، ليس هناك فتاة تهرب، بهذه الطريقة، إلا وثمة عار تحمله معها، حتى لو حدث وهربت من جور ما تعانيه من ذويها، يبقى الهروب أمراً يعكس صورة سلبية قاتمة تتداولها الناس، على نحو فضائحي، ويتم ربطها عادة ببطن منتفخ وعاشق خفي، امرأة من هذا الطراز تُسمى في العرف القبلي «ناهبة» ومصيرها إما القتل، أو الأسر ثم الحبس طيلة حياتها. لكن أمي لم ترسل حمدان ليعيدني، فتحتجزني في غرفة وتقفل عليّ، وأكون أسيرتها إلى فترة غير معلومة، بل حرّضت على تصفيتي. قالت له: اذهب ونل من العاهرة، وأعد الصغيرة فقط!

لم تتوعدني أمي بالقتل، في المرات التي هددتها بالهروب، تحت وطأة ظروف معينة، كانت تردد جملة واحدة: سيرسلون وراءك من يقتلك! لم أتوقع يوماً أن يحدث هذا، وتكون هي من يرسل قاتلاً يتعقب

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أثري. هل صُدمت حين سمعت ذلك من حمدان؟ لا أظن، كما لو أني اعتدت على تلقي المصائب. غير أن شعوراً معتماً انتابني لحظتذاك، لم يكن بمقدوري التعبير عنه، كظلمة مرعبة، تخيم على الأرض في غير أوانها، وسط ريح ساخنة هوجاء، وكلاب تنبح وأفاعٍ تفحّ.

تلاشت فجأة رغبتي في عدم رؤية أمي، صرتُ أريد ذلك الان وبشدة، مهما كلفني الأمر. اتصلت قبل كتابتي هذه اليوميات، براهي وطلبت منه أن يحضر لمقابلة معها.

«هل أنتِ متأكدة أنك تريدين رؤيتها؟» سألني.

«نعم» أجبته: «أكثر من أي وقت مضى»

«قد تتشاجران، ويحصل ما لا تُحمد نهايته» قال راهي بنبرة تحذيرية، وبدا كأنه يتحدث عن وحش وليس امرأة: «أمك ما زالت قوية، وازدادت قوة خلال السنوات الماضية، كأنها استمدت كل هذا من معاناتها السابقة، وتحولت الى امرأة أخرى، مخيفة وصارمة، ومقبلة على الحياة في الوقت نفسه، عكس النساء اللائي يتميعن ما أن يذقن طعم الرفاهية، وتتراكم الدهون الثلاثية والسموم والكوليسترول في شرايينهنّ، ويعانين من البدانة والتصلب بسبب الشراهة. باستطاعتها خنقك حتى الموت. لقد حاولت حرق عضوي حينما سمعتني اهاتف إحداهنّ. ببساطة، المرأة التي تعرفينها من قبل، المرأة البلهاء، الخاضعة والخانعة، الضعيفة، لم تعد كذلك. أنا نفسي صرت أخشاها، لك الحق في رؤيتها طبعاً، ولن أمنعك، لكن احذري منها، أعتقد أنك آخر من تود رؤيته، أصبحتِ آخر همومها، فهي تظن أنكِ لطختِ جبينها بالعار، واختطفتِ اختك الصغيرة، التي لم تعد هي الأخرى، بمرور الزمن، تهتم لمصيرها»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لا يهمني ما سيحدث» قلت لراهي: «أريد مقابلتها فحسب، ليس لدي ما أخسره!»

استغربت أني صرت أتحدث مع راهي بتلك المرونة، وكأنه صديق أو أحد معارفي، ممن يحتاجهم المرء في قضاء حاجة ما. اختفى الانطباع الذي كونته عنه، قبل اكتشافي أنه لا يعلم بحمل عبير، ولم يعمد إلى ابتزاز أمي بالأمر، لكني ما زلت أكرهه رغم كل شيء، لا يمكن لشخص، عدا أمي، أن يحبه وهو على هذه الشاكلة من الدمامة وسوء الخلق. أضف لذلك مهنته الحقيرة، ففي الوقت الذي يموت آلاف الشبان بسببه، أو ينتحرون، أو يجنحون إلى العنف، ويقبعون في السجون، ما زال هو طليقاً، وينعم بالعيش الرغيد. أحسست أنه يتعامل معي، كوني ابنة زوجته فحسب، بمنأى عن أطماعه السابقة. لم ألحظ أدنى إشارة أو تلميح، أعرف منها أنه ما زال يرغب بي. أعرف أن شخصاً مثله، لا يعبأ بالمحرمات الدينية، لهذا لم أشعر أن ثمة وازع ديني أو حتى أخلاقي وراء اختفاء تلك الرغبة، فهو يبدو بدون أخلاق، سافل وفاسد إلى درجة عدم الاكتراث لما تخلّفه مهنته من دمار لضحاياه. ربما كنتُ نزوته المؤقتة، أو يكمن السبب في كونه أصبح زير نساء وبمقدوره الحصول عليهنّ بسهولة، لكني لم أجد بعد تفسيراً للطريقة البدائية والمبتذلة في نيل مراده بهذا الشأن، من خلال التصيّد بواسطة الهاتف النقال.

«ليكن» قال راهي بعد تفكير دام لدقيقة أو أكثر: «سآتي لأقلك إلى بيتنا عصر اليوم، الساعة الخامسة، هل أنتِ موافقة؟»

«موافقة!» أجبته، وأغلقت الهاتف.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الأحد

16 تشرين الأول/أكتوبر 2016

AM 12:10

أنا الآن على متن الطائرة المغادرة إلى لندن، أجلس على الطرف، إلى جانب راكب عراقي، عرفت من خلال حديثه معي، أنه أحد المترجمين العاملين مع القوات البريطانية، ممن تم اجلاؤهم الى المملكة المتحدة، اثناء انسحاب تلك القوات. في حين شغلت المقعد إلى جانب النافذة، صحفية ألمانية، كانت تغطي إحدى فعاليات معهد غوته في البصرة. كان الشاب متذمراً، ويشكو من سوء الوضع الخدمي في العراق، ومن ملوحة مياه المدينة، وبين عبارة وأخرى يكرر قسمه بألا يعود إلى زيارته، وأنه لولا والدته لما فكر بالأمر.

«هل ستعود إلى رؤيتها ثانية؟» سألته.

«كلا!»

«لماذا؟»

«لأنها ماتت!»

«أنا آسفة!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لا يهم!» قال الشاب ثم عاد ليسألني بعد لحظات:

«هل أمك على قيد الحياة؟»

«كلا.. ماتت أيضاً!»

«أنا آسف!»

«لا يهم أيضاً!»

ترددت دقيقة، قبل الإجابة على السؤال الأخير للشاب العراقي المتذمر، حاولت الشعور بأني أكذب لكني فشلت. ليس بالضرورة أن يتوقف الانسان عن التنفس، ويتعفن، وتُشم رائحته عن بعد، وتُدفن جثته في باطن الأرض، ليقال عنه ميّت. أحياناً، يموت الناس وهم أحياء، ولن يضيف وجودهم إلى الحياة معنى، سوى أنهم كائنات تفاقم من أزمة التلوث، وتسبب الاختناق للآخرين. ووفق هذا المنظور، لا يمكن اعتبار أمي على قيد الحياة، فهي، ببساطة وبالنسبة لي، أدركها ذلك النوع من القسوة غير المبررة، أو الموت، الذي لا تدل عليه روائح التفسخ وشاهدات القبور، إنما يحسّ به المرء، حين تكون حياته على المحك، متدلياً من علو، من صخرة ناتئة أعلى جبل شاهق، فيأتي أحدهم ليسحق يده ويرسله إلى قعر الهاوية.

كنت قد قررت ألا أكتب ما حدث قبل يومين، أثناء لقائي بأمي، لسبب كنت أظنه مجهولاً، قبل أن يتبين لي أنه العجز عن الكتابة حينذاك، شلل غير طبيعي، فقدان لكل الحواس، وشرود نحو المجهولات. كما أني أحسست باللاجدوى من كتابة تلك الفظائع، ما دمت قد انتهيت إلى نتيجة كانت أشبه بالدهليز، الذي كلما تهت

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بين جدرانه العازلة، المشتبكة مع بعضها، وظننت أنك وجدت المنفذ إلى الحقيقة، تُفاجأ بعودتك إلى مكان سبق وأن بدأت منه رحلتك للمرة الأولى، متاهة مدوّخة، أضعت فيها البوصلة إلى الحقيقة الغائبة، الحقيقة، التي لا يبدو أن أحداً يمتلك الجرأة على قولها، فضاعت بين هذا وذاك، بين ضحايا التلوث الإشعاعي من رفقاء طفولة عبير، وحمدان، وجاسم الأعرج، وراهي، وأمي، والساحر الصابئي، الذي لجأت إليه الأخيرة لمعالجة عبير، مما كانت تظنه مساً شيطانياً.

في اليوم نفسه، الذي قررت الذهاب لزيارة أمي، وقبل ساعة من مغادرتي الفندق إلى بيتها، برفقة راهي، انتبهت إلى وجود رسالة مرسلة بواسطة أحد التطبيقات المجانية، كانت قد وصلتني منذ الأمس وأهملتها، تحتوي على رابط وملاحظة تقول (كل ما تريدون معرفته موجود في الرابط المرفق، مع تحيات أخوكم الدكتور المعالج أبو حنين الصابئي) ساحر مهذب ومتجاوب! قلت في نفسي ونقرت على الرابط، ظهر لي مقالاً منشوراً على صفحة المدعو أبو حنين الصابئي، يضم حقاً العديد من الإجابات عن أسئلتي:

ما هو السحر الصابئي؟

اخوكم المعالج الروحاني وخبير الاعشاب الشيخ الدكتور ابو حنين الصابئي.

كثير من الأخوة الاعزاء يسألون عن هذا السحر وكيفيته، وهو نوع من انواع السحر الاسود وهنا في العراق نطلق عليه بما يسمى (سحر الصبّة) وهو بواقع الحال سحر قوي يعتمد على النجاسة في عمله،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لهذا يتجنبه الروحانيون المسلمون، وأكثر من يعمل به هم أصحاب الديانة الصابئية.

أما فك هذا السحر فهو من الصعوبة، بحيث يقف الكثير من الروحانيين عاجزين عن فكّه، بسبب ضعف إلمامهم بهذا العلم، وعدم قدرتهم على التحكم بخدام العالم السفلي، والتعامل مع خدام العالم السفلي له شروط كثيره لسنا الان في محل تبيانها، وسنشرحها لأخوتنا الاعزاء في وقت آخر بإذن اللّه.

الكثير من الأخوة الاعزاء يراسلوني باستمرار، ويسألون عن هذا النوع من السحر، لهذا قررت ان اكتب لهم هذه المقالة البسيطة عن السحر الصابئي وماهيته، وطريقة عمله.

نبدأ بسم الحي العظيم، فنقول:

بفضل اللّه تعالى، كنت قد جمعتُ هذه العلوم وتتبعتها، وكان من جملة ما أبحث عنه هو هذا النوع من السحر (وهو السحر الصابئي النجس) أو (سحر الجماع) وليس سحر الكواكب كما يظن بعض الأحباب، وهو منتشر في كل مكان في العالم باسم (السحر الاسود) أي السحر القديم لهاروت وماروت وهو قوي بمعنى الكلمة، وقد تعلمت بفضل اللّه سحر الصابئة من اكبر الشيوخ المندائيين في العالم، وتعلمت ما شاء اللّه ان اتعلمه في هذا الباب من السحر، لكني لا أعمل به والعياذ بالله، إنما بالضد منه، فأنا استطيع معرفة ما قام به الساحر، وأتمكن من علاج المسحور وإبطال السحر بإذن اللّه.

في بداية شبابي وطلبي لهذا العلم، بحثت عن كتبه وشيوخه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

كثيرا وتعبت الى أن وفقني اللّه تعالى إلى رجلٍ صابئي تتلمذتُ على يديه من أجل الالمام بهذا العلم وفك رموز هذا النوع من السحر الاسود والتعرف عليه، وكان من ضمن ما تعلمته ان هذا السحر يتم عمله من خلال كتابة طلاسم ورموز معلومة ومعروفة لمن يفقه ويعرف ما هو السحر الصابئي، إذ يتم كتابة هذه الطلاسم على جسد طالبة السحر، ولا يجوز كتابتها على جسد الرجل، حتى لو كان هو طالب العمل، بل يأتي بامرأة تنوب عنه، وهذه الطلاسم والرموز لها خدامها من العالم السفلي ولها أعداد وتواكيل وينقسم السحر الأسود إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: يكتب الساحر 12 طلسما على الجسد، في أماكن محددة لا يمكنه تجاوزها، أشهرها خاتم سليمان (النجمة الخماسية) وهو أقل هذه الأنواع فاعلية، ورغم ذلك فإن فكه ليس بالأمر الهين، فما بالك بما هو فوقه؟ وتنتهي فعالية هذا النوع تلقائيا بعد 6 سنوات من العمل.

النوع الثاني: يكتب الساحر 24 طلسما على الجسد، وهذا النوع أقوى من الأول، وينتهي في غضون10 سنوات.

النوع الثالث: يكتب الساحر 36 طلسماً على جميع أجزاء الجسد من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين، وهو نوع خطير جدا، وقد يؤدي الخطأ فيه إلى فقدان الطالب عقله في لحظة، وينتهي عمله عادة بعد 25 سنة.

النوع الرابع: يكتب الساحر الطلاسم الست وثلاثين في النوع الثالث نفسها، ثم يضاجع المرأة ويضع خرقة ليقع عليها منيّه، الذي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

سيستخدمه لاحقا في السحر، ولا يمكنني أو أوضح أكثر من ذلك، لكي لا يستخدم أحد هذه الطرق، وهو عمل يدوم إلى أكثر من أربعين عاماً، ولا يمكن فكه إلا إذا شاء اللّه تعالى، إذ أن هناك طريقة واحدة فقط لفكه لسنا في محل ذكرها الان.

وهناك نوع آخر يقام في ظل طقوس معينة ومختلفة، يعتمد على ربط الشخص بنجم معين حسب الطريقة والأحرف، ويحضر حيوان خاص لذلك، ويستخدم هذا النوع الصابئة الحرانيين، الذين تقوم ديانتهم على عبادة الكواكب، على العكس من صابئة العراق المندائيين.

تنبيه: أصل السحر هو شيطاني، وإن ما يقوم به بعض الدجالين، عندما يطلبون من المرأة مضاجعتهم، ما هو إلا طريقة رخيصة لإشباع شهواتهم الحيوانية فقط، وهم لا يفقهون كلمة واحدة من هذا السحر، ولا يملكون له طلسماً واحداً، والكثير من اخوتنا الاعزاء وخصوصاً النساء يذهبن الى من يسمي نفسه خبيراً في سحر الصابئة، وما هو في الحقيقة إلا نصاب، ولا يعلم شيئاً عن السحر الاسود او سحر الصابئة، علماً أن أغلب ضحايا هؤلاء من النساء الغشيمات والمغرر بهن.

مع تحياتي للجميع

اخوكم المعالج الروحاني الشيخ ابو حنين الصابئي.

ما أن أنهيت قراءة المقال، حتى تخيلتني خالة لطفل مشعوذ وفوق ذلك غير شرعي. فبعدما برّأ الجميع أنفسهم، في ما يخص

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مسألة إحبال عبير، لم يتبق أمامي سوى هذا الدجال المجهول، لكي ألصق به التهمة. قد ينفي الإفراغ الخارجي لمنيّه، لغرض استعماله في عمل السحر فيما بعد، عنه تهمة الإحبال، لكنه لا ينفي تهمة الاغتصاب، ومن يعلم، ربما نسي الساحر نفسه، وخرق القاعدة، وأفرغ فيها، وهو ما جعلني أتوق إلى معرفة الحقيقة أكثر من أي وقت مضى. الحقيقة التي ظننت أن لا أحد يعرفها، باستثناء أمي، فرحت أعد الدقائق إلى أن جاء الموعد. هاتفني راهي، الذي هو زوج أمي الآن، وقال أنه ينتظرني خارج الفندق. ركبت معه في السيارة، بدا كأنه شاب طائش، يقود بتهور، يبصق على هذا ويشتم ذاك، ويستمع إلى الأغاني الهابطة. سألني في الطريق إلى بيته إن كنت تزوجت أم لا، أومأت بالإيجاب، واستشففت من سؤاله التالي أنه يعرف بعض الأشياء عني، لكنه يتغابى:

«هل هو عربي؟»

«كلا» أجبته: «انكليزي!»

«حقاً؟» قال وضحك بمكر: «كيف هو في الفراش؟ هل هو جيد؟»

لم أرد على حماقته، قضيت المدة التي استغرقها الوصول إلى بيته بالنظر من خلال زجاج النافذة، إلى المدينة البائسة، من دون أن أفكر بالرد على أسئلة من دون معنى، كان يطرحها عليّ كل حين. ولأول مرة، انتابني الشك في نيّته، وتساءلت عما إذا كان يأخذني إلى بيته لزيارة أمي، أم أنه بصدد اختطافي. ولم يزل القلق يتعاظم في داخلي، حتى سمعته يقول:

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«ها قد وصلنا!»

ركن سيارته على جانب شارع لا يشبه بقية الشوارع القذرة في المدينة، فقد كان نظيفاً ومبلطاً بعناية. ترجلت من السيارة، ورحت أدور في مكاني، في محاولة لاستكشاف المكان، لكني لم أتعرف عليه. سمعت راهي وهو ينادي عليَّ، التفتّ إلى حيث كان يقف عند الباب، الذي فتحه ودعاني إلى الدخول، بينما هو يهمس لي قائلاً:

«أمك لا تعلم أنكِ قادمة، فلا تحاولي استفزازها!»

هززت رأسي بالإيجاب، وأنا لا أعرف إن كنت سألتزم بذلك أم لا. قادني بعدها إلى غرفة لاستقبال الضيوف. كانت غرفة واسعة، ومؤثثة بشكل باذخ، بستارة كبيرة وجميلة، تتدلى من جوانبها قطائف ملمّعة، والجدران مغلفة بورق ذي ألوان باردة. جلست على كنبة وثيرة، وانتظرت لدقائق أنظر إلى صورة راهي المعلقة على الجدار، وهو يرفع يديه بالدعاء، وخلفه الكعبة والمسجد النبوي. صورة متناقضة مع صورته وهو يشتم ويبصق ويستمع إلى أغاني الردح الهابطة. وبينما كنت أتخيل في أي قعر من جهنم سيُحشر هذا الرجل، وإذا بالباب الداخلي الذي يفضي إلى الصالة يُفتح، وتطل من وراءه امرأة، تظل تنظر إليّ لثوانٍ قبل أن تدخل، وتخطو باتجاهي مرحبة بي على طريقة النساء العراقيات. لا أعرف ماذا قال لها راهي، الذي غاب عن المشهد، لكني كنت متأكدة أنه يسترق السمع من مكان ما، من أنا؟ وماذا أُريد منها؟ كنت أخفي وجهي بالنقاب، ولم أفكر برفعه في البداية، كما لو أني أردت اختبار ما إذا كانت ستتعرف عليّ من صوتي. جلست إلى جانبي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

على الكنبة، امرأة أنيقة ونظيفة بل وجميلة في منتصف الأربعينات، لكنها تبدو أكثر شباباً، قوية فعلاً وحيوية وفي صحة ممتازة، وكأن شيئاً من سنوات البؤس والعوز لم تمر عليها، ترتدي ثوباً بيتياً مزركشاً وشالاً أخضر، وتضع بعض المساحيق الخفيفة على وجهها. بدت بشرتها نضرة وأكثر بياضاً من قبل، تتدلى من رقبتها نظارة طبية وقلادة ذهبية تحاكي شكل المصحف، تثقل أصابعها ومعصميها أربعة خواتم ودزينة من الأساور غالية الثمن. سألتني عن الخدمة التي بالإمكان تقديمها لي، وحين صمتُّ ضحكت. لم تكن أمي تضحك، أما هذه فقد ارتسمت على وجهها ضحكة صفراء، جوفاء، وماكرة بشكل لا يُحتمل، قالت:

«لا بأس عليك حبيبتي، أغلب البنات يأتينَ هنا خائفات وخجولات، لا أحد يلومهنّ، أولاد الحرام لم يبقوا لبنات الحلال شيئاً. لكن، لا عليك، اطمئني، لديّ الحل، سأساعدكِ وتعودين أفضل مما كنتِ. والآن قولي لي، بماذا تريدين أن أخدمك بالضبط؟»

لم تكن لديّ إجابة واضحة، لأني في الحقيقة، لا أعرف عما تتحدث به هذه المرأة، أو، لأقل أمي سابقاً. لعنت راهي في سري، وأنا أتساءل مجدداً ماذا أخبرها عني، وما الذي أريده منها. قال أنها الآن سيدة أعمال ناجحة، من دون توضيح طبيعة تلك الأعمال، كنت أجهل ماذا تعني من تلميحاتها، حتى أوضحت أخيراً:

«حسناً يا ابنتي، سأسهل عليك الأمر»

أخرجت ورقة كانت تخبئها تحت ثوبها من الأعلى، وراحت تقرأ. أذهلني أنها أصبحت تعرف القراءة، لا بد أن راهي علّمها

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لدواعٍ ترويجية تخص عملها على ما يبدو، ومع ذلك، يمكن ملا - ماء تلكؤها وهي تقرأ:

«إليك أسعارنا، مع التخفيضات، وضمان الجودة:

بالنسبة لترميم البكارة:

سعر الترقيع ثلاثمائة دولار

الكبس اربعمائة دولار

الكيّ خمسمائة دولار

بالنسبة لأغشية البكارة، فهناك عدة أنواع:

غشاء البكارة الصيني عشرون دولاراً

الياباني خمسون دولاراً

الامريكي والانكليزي سبعون دولاراً

عمليات الإجهاض:

سبعمائة دولار للجنين في الشهر الأول

ثمانمائة دولار للجنين في الشهر الثاني

نعتذر عن اجهاض الجنين الأكبر عمراً

أما التوليد، فألف دولار للولادة المفرد، وللتوأم ألف وخمسمائة دولار

ملاحظة: لسنا مسؤولين عن تقرير مصير الطفل»

هذه هي سيدة الأعمال، رئيسة المافيا، وهذه هي أعمالها إذن.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

تخيلت نفسي مكانها، تُرى هل كان راهي سيدفعني لأكون على شاكلتها؟ مثقلة بالذهب الذي أشتريه بالأثمان المحصلة جراء ترقيع مهابل الفتيات، وبيع البكارات الاصطناعية، واسقاط الأجنة من ضحايا العلاقات غير الشرعية. الآن عرفت السبب الذي جعل راهي بتلك المرونة، ومتعاوناً معي إلى هذا الحد، كأنه يقول لي متشفياً: انظري، لم يكن هذا ليحدث لأمك لو أنكِ قبلتِ بي زوجاً. خلت صوته وهو يثقب أذني قائلاً: تريدين معرفة الحقيقة؟ خذي، تفضلي إذن، هذه هي الحقيقة! لكن لا، ليس هذا ما أريد معرفته، ليست هذه الحقيقة، التي من أجلها قطعت آلاف الأميال، وغامرت بحياتي، وجئت إلى هنا لأعثر عليها.

«لديّ أخت صغيرة» قلت لها: «فقدت عذريتها في حادثة اغتصاب غامضة!»

«بسيطة!» قالت المرأة التي كانت أمي: «كم عمرها؟»

«صغيرة!» أجبتها: «أصغر مما تتصورين»

«يعني» قالت المرأة: «كم؟»

«تسع سنوات!» قلت.

«يا إلهي!» صاحت ووضعت يدها على قلبها: «مسكينة، عمت عيني عليها!»

«فقدت بكارتها مع أختها قبل عشر سنوات، هل سمعتِ من قبل طفلة في التاسعة تحبل؟ ربما يحدث هذا، لكن، ما لم يحدث حقاً، هو أن ترسل أمها من يعيدها إليها، لكن ليس قبل التخلص من أختها! هل تصدقين؟!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

هنا، بدأت ملامحها تتغير، وتتشنّج، وتتوحش، حتى ظننت أنها على وشك النباح بوجهي. تصنّمت في مكانها، واستمرت عيناها بالتحديق، على نحو ما تفعل وهي تنظر إلى العدم، إلى النهاية غير المتوقعة، الحضور غير المرغوب فيه، الذي لم تتوقعه أبداً. بدت كما لو أنها تمثال واجم، متحجر، يقف على حافة، وينتظر من يلكزه بمرفقه، فيقع أرضاً ويتناثر إلى قطع

«لماذا عدتِ؟!»

أخيراً نطقت سيدة الأعمال، بصوت كأنه طفا من قعر الضغينة، فرفعت أنا النقاب عن وجهي قائلة:

«نحن الاثنتان بحاجة إلى ترقيع، هل فات الأوان؟ لا أظن. أنتِ ترقعين مهابل النساء، وتسير أمورهن على ما يرام، وكأن شيئاً لم يكن. لن يحتاج الرجال الأغبياء إلى أكثر من قطرة دم على رأس القضيب، يشبعون بها كبرياءهم المزيفة، بينما هم يلوحون بالخرق البيضاء الملطخة بدماء البكارات المغشوشة. لكن ماذا عن القلوب يا ترى؟ من يضمد جروحها، ويرقع فجواتها؟ هل بإمكانك فعل ذلك؟ ماذا تقول الفاختة؟ من تنعى؟ ومن تنادي؟ ألا تعرفين؟ أم نسيتِ؟ أنا أقول لك، تقول الفاختة: ياكوكتي... يا بنتي... وين رحتي؟ شأكلتي؟ شربتي؟ وين نمتي؟ هكذا كنتِ ترددين حين أسألك ماذا تقول الفواخت في الظهيرات القائظة؟ هل تذكرتِ الآن؟ وهل تعلمين ما هو حجم قلب الفاختة؟ ربما بحجم انملة الإبهام أو أصغر، لكنه رغم ذلك، أرأف من قلب يكبره بعشرين ضعفاً أو أكثر، قلب امرأة من المفترض أنها أم، لكنها، ونادراً ما يحدث هذا، تجاوزت قوانين

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الرحمة السماوية والأرضية معاً، وسلمت ابنتها الصغيرة إلى ساحر دجال ومشعوذ، ليلج عضوه في شقّها الصغير، الذي لا يكاد يحتمل سُمْك اصبع، فما بالكِ بقضيب شخص بالغ؟ والنتيجة؟ طفلة تحبل في التاسعة من العمر! هكذا يتلقى العالم الأخبار المفجعة: انفجار سيارة مفخخة في سوق شعبي يخلف مائتي قتيل، اصطدام قطارين والضحايا بالعشرات، سقوط طائرة على متنها اربعمائة راكب ولا أنباء عن ناجين، مقتل سبعين شخصاً في قصف جوي لحفل زفاف، وأخيراً طفلة تحبل في التاسعة من العمر! ماذا قال لك قلبكِ، وأنتِ تزفين الطفلة المسكينة إلى مخدع الغول المشعوذ؟ هل تألمتْ؟ ألم تصرخ؟ لا بد أنك كنتِ في الجوار، على مقربة من وكر الخديعة ذاك، فسمعْتِها وهي تأن تحت ثقل المُغتصب، وسط دخان البخور، والعظام، والطلاسم المتدلية من السقف، على فراش ما زالت روائح من سبقنها إلى حفلات العهر والاستغلال الجنسي، عالقة فيه. لأي شيء كان هذا الثمن الباهظ؟ هل برأت عبير؟ هل شُفيت؟ أبداً! كانت النتيجة عبارة عن فرس مكسورة الساق، ويُجب أن تُقتل. في البداية كسرتِ لها ساقها، ثم قررتِ التخلص منها، فما الجدوى في النهاية من وجود طفلة صغيرة، معتوهة، بالإضافة إلى كونها خرساء، أصبحت الآن منتهكة جنسياً. الغريب أنكِ كنتِ مهووسة بفكرة معالجتها وإعادتها إلى طبيعتها، لم تفكري حين دفعتِها إلى حضن الساحر، كيف ستتزوج فيما بعد. آه، سحقاً! هل تصدقين؟ فاتني أنكِ تبيعين بكارات اصطناعية، ويمكن بسهولة دس إحداها في مهبلها، وسوقها إلى أول مدمن أقراص هلوسة يتقدم لخطبتها. حقاً، لماذا لم تفكري بهذا قبل عشرة أعوام؟ أم أنك لم تسمعي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

بعد بالبكارات الاصطناعية؟ لماذا دمرتِ حياة الصغيرة وحياتي يا امرأة؟ من المؤكد أن ليس لديك فكرة عما حدث لي، فأنا الأخرى أصبحت فرساً مكسورة الساق، لكني فرس كبيرة، احتملت إيلاج عضوين بطريقة مزدوجة، كما يحدث في أفلام البورنو، واحد في فرجي والآخر في شرجي. هل تعرفين ما هي أفلام البورنو؟ ومن أين لكِ معرفتها؟ لكني متأكدة لو أنك طلبتِ من زوجك إحضار أحدها، لفوجئتِ بوجود نصف انتاج هوليود من الأفلام الاباحية مخزون في بيتك، إنها تلك الأفلام التي يتنايك فيها الناس بطريقة وحشية، فجة، وحقيرة، شتم وبصق وشد للشعر، شقّ للحلق، ضرب على المؤخرة، صفع على الخدين، وجلد بالعصي والأحزمة، تقييد بالسلاسل إلى أسرة طبية، وتعليق بالحبال، بول، قيء، دماء، قرص الحلمات بالكلابات، وخز الأثداء بالإبر، لعق الأحذية، شرب البول، ابتلاع المني، وأكل الخراء!»

«كفى!»

صرخت سيدة الأعمال، التي كانت أمي بأعلى صوتها، وبدا أنها على وشك الانقضاض على رقبتي لتخنقني. لاحظت حينذاك أن الباب الداخل إلى الصالة فُتح قليلاً، وتُرك موارباً، لا بد أنه راهي، الثعلب الذي لا يكف عن الفضائح، ينتظر اللحظة التي أُهاجم فيها، فيهب هو لانتشالي. كانت أمي ما تزال تصرخ في وجهي، مكررة الكلمة نفسها، بالتزامن مع خمشها لخديها مرة، ولطمهما مرة أخرى، كانت تقول وتعيد أنها لم تسلم عبير إلى الساحر ليعبث بها.

«من سلّمها إذن؟ لا تقولي أنها ذهبت لوحدها لتستلقي في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

حضنه!» نهضت وصرختُ بها: «أنا أعرف جيداً ما يشترطه هؤلاء الدجلة، على النساء، لينفذوا طلباتهن، وأنتِ سلمت عبير بيد ذلك الكائن المتوحش، بعْتِها له، أجل بعْتِها!»

«لم أبعها!» قالت أمي وانهارت، مستسلمة لنوبة بكاء تخللها اعترافها الذي أكمل سلسلة اللامتوقع في هذه القصة: «بل بعت نفسي!»

ظلت تلهج بالعبارة الأخيرة، بشكل هيستيري، وقد عادت للطم وجهها، إلى أن كفت أخيراً، واكتفت بالنحيب، حاجبة وجهها بيديها، مرددة:

«لم أبعها، بل بعت نفسي!»

فجأة، تذكرت النقوش على أخمصي قدميها (الأصح أنها كانت طلاسم) حين عادت في المرة الأخيرة، من زيارة مخدع الساحر، في الزبير، واكتشفت السر وراءه.

كنت أنظر في حينها إلى الباب، كان ما يزال مواربا. شعرت بالاستياء لأن راهي سمعها تقول ذلك، وتكرر أن الساحر نام معها هي، وليس مع عبير. وددت لو أغلق فمها لكي لا تكمل اعترافها المشين هذا، لكني شعرت بالعجز، أو ربما أحسست أن ليس ثمة فرصة غير هذه، يمكنني معرفة الحقيقة من خلالها.

«هل فعلاً كنتِ تنوين التخلص مني؟» عدت لأسألها، وقد بدأت بالنشيج أنا الأخرى: «هل حقاً كنتِ تظنين أني حبلى؟ وهل كان عليَّ أن أحمل وأجهض لأجاري حمل وإجهاض نساء الحي في حينها؟ هل كنتِ ستشعرين بالرضا، لو أخبرتكِ أني حملت فعلاً،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

وأجهضت، لكن ليس بعد فسخ حمدان خطوبته مني؟ وهل كنتِ ستصدقين أن السبب في هذا الحمل هو ابن اختك؟»

هنا، حاولت أمي ضمي إليها، فأبعدتها بحركة عنيفة بمرفقي.

«تعلمين شيئاً؟» قلت لها: «لم يعرفك أحد بقدر ما عرفتك عبير، لهذا لم تفكر يوماً في معرفة مصيرك، أو حتى تعبأ بكونك حية أم ميتة!»

صمتّ قليلاً، أفكر بنوع الكلمات الأخيرة التي سأقولها قبل مغادرتي، ومدى تأثيرها في المرأة التي كانت أمي، فوجدت أن لا شيء يمكنه التأثير في امرأة مثلها، خططت للنيل من ابنتها.

«أنا أكرهكِ يا أمي، أكرهك جداً، إلى درجة أني صرت أتمنى موتك الآن، وفوراً! لم يكن لكِ الحق في تقرير مصيرنا بهذا....»

لم أكد أكمل كلامي، حتى شعرت بيدها وهي تسحبني من ردائي، وتلقيني على سجادة الكاشان في الأرض. انقضت عليّ بعدها، وانتزعت غطاء الرأس، وبدأت تسحبني من شعري نحو الباب. كنت أزحف على أربع وأصرخ، من دون أن تجدي محاولاتي نفعاً بالإفلات من يديها. كانت تجرني بقوة وتبصق عليّ وتكيل الشتائم. أخيراً ظهر الوحش الذي بداخلها، تدخل راهي في وقت متأخر، كأنه أرادني أن أنال ما يكفي من الإهانة قبل فصلي عنها، وقف حاجزاً بيني وبينها، ثم قادني إلى الخارج. أركبني السيارة، وانطلق بي مسرعاً، يشيعنا بصاق وصراخ وشتائم المرأة التي كانت تُدعى... أمي.

خلال اليومين الماضيين اللذين قضيتهما في الفندق، فكرت بأشياء كثيرة، وراجعت وتأملت كل ما حدث واكتشفته في هذه

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الرحلة. تساءلت مراراً، وكان سؤالي: من الذي اغتصب عبير؟ من بين أكثر الأسئلة إلحاحاً، والذي لم أعثر على إجابة دقيقة له. وإذا كان ثمة إجابة، فإنها تأتي مغلفة بالغموض وعسيرة على الفهم. الأصح أني كنت أتساءل: من الذي أحبل عبير؟ بما أن الجميع اشترك في انتهاكها، ومن لم يتسنى له ذلك، اكتفى بالتحرش. لم يُبرّئ أحد نفسه من التحرش بالصغيرة، لكن الكل اتفقوا على أنهم أبرياء من تهمة الإحبال، حتى الساحر، وجد من يبرئه في النهاية، وهي أمي.

وبينما أنا أفكر بكل هذه الأشياء، وأخوض في وحل الأسئلة المعقدة، وغموض الأجوبة الأكثر تعقيداً، تذكرت شيئاً لم أكن لأعره اهتماماً في السابق، فقد لاحظت متأخرة أن للإشارة القلبية التي تستعملها عبير، للتعبير عن محبتها للآخرين، دوراً في استغلالها، حتى قبل إصابتها بحبسة الكلام.

يُغرم المرء في سن مبكرة من حياته، أي في فترة الطفولة والصبا، وقد يمتلك الأطفال الجرأة في التعبير عن مشاعرهم الطفولية تجاه الآخرين، لكن الأغلب يخفون هذه المشاعر، التي تأتي مصاحبة لفترة النضوج الجنسي، فتتحول إلى نوع من الشبق الصبياني والاشتهاء البدائي. كثير من الأولاد الصغار يُغرمون بمعلماتهم، فيرافقن مخيلاتهم الاستمنائية طيلة الوقت. فتجد الصبي من عمر العاشرة إلى الثانية عشرة، يُغرم بامرأة، عادة ما تكون أكبر منه بعقدين، وتتلاشى مشاعره، أو تنتقل إلى امرأة أخرى بسرية تامة ومن دون أن يعلم به أحد، نسبة ضئيلة من هؤلاء، من يتحدون خجلهم، وهاجس العقوبة، ويظهرون مشاعرهم الصبيانية، سواء

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عن إدراك بما يفعلونه أو من خلال افرازاتهم اللاواعية، عبير مثالاً، عندما اعتمدت الإشارة القلبية تلك، من أجل إيصال ما تشعر به من حب لشخص معين. تكوّن من أصابعها العشرة شكلاً يحاكي القلب، وترفقه بابتسامة، وأحياناً بغمزة من عينها. لم أفكر يوماً أن تكون هذه الإشارة غير بريئة، أو تحمل دلالة على ما تحسّه الفتاة، أو تظن في إثره أنها مغرمة، أو تتوهم أن هناك من هو مغرم بها، كما حصل مع بسمان الطبيب. في الحقيقة، وكما قلت سابقاً، ربما هي ليست مغرمة بالمعنى الحرفي للكلمة، إنما كانت تشعر بالانجذاب، بالرغبة، حتى وهي تظن أنها ذكراً. لقد عانت من النضوج المبكر، من عدة نواح، من ضمنها الناحية الجنسية، تُعجب بالشخص، وتظن أنها مغرمة به، ثم فجأة تشعر بالإثارة ورغبة دفينة، تظل جاهلة كيف يمكن تحولها إلى ممارسة فعلية، إلا إذا كانت قد شاهدت من قبل كيف يلتحم رجل وامرأة ببعضهما، مع جهلها التام بالمعنى، أو الجدوى، أو الهدف من هذه الممارسة. لكنها، في كل الأحوال، تشعر أن هناك ما يجذبها إلى شخص ما، فتود لو يلمسها، أو يشبع رغبة فيها تغمرها كالسحر، وتجعلها ترتعش. عاشت مثل هذا الشعور مع حمدان بداية، ثم الطبيب بسمان زوج داليا، ومؤخراً روميو البنغالي، وربما مع مارك.

مارك؟!

أول مرة رأيتها ترسل له تلك الإشارة، كانت في القاعدة البريطانية، في البصرة، عندما جلبتها إيفان إلى هناك، بعد حادثة الاعتداء عليّ. كانت اشارة امتنان وعرفان، أكثر منها اشارة تستعمل للتعبير عن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

مشاعر الغرام، وربما الرغبة الجنسية. هكذا كنت أراها، إلا أني، وبالعودة إلى الثلاثة الذين حظوا، قبل مارك، بتلك الإشارة شعرت بالرعب، وتخيلت إلى أي مدى يمكن أن يصل تفكير زوجي، إذا ما حدث واستقبل الإشارة كالآخرين، بوصفها إشارة تبيح استغلالها؟ فجأة، وبالرغم من المأساة النفسية التي تعرضت لها بعد اللقاء بأمي، لم أعد أفكر إلا بهذا الأمر، مما دفعني إلى قطع زيارتي، والعودة إلى لندن قبل ستة أيام من انتهاء الفترة المقررة. امتلأت مخيلتي بعشرات الصور والأفكار المخزية، التي أحاول تشتيتها ومحوها، لكن من دون فائدة. فأحياناً، نحن لا نسيطر على خيالاتنا الجامحة، فتذهب بنا بعيداً، وتعزز وساوسنا، وتدعم المزيد من الشكوك، وتجعلها قابلة للحدوث، حتى تظهر على شكل شاشة تعرض مشهداً جنسياً لرجل بالغ ينتهك طفلة صغيرة، رغم أن عبير لم تعد طفلة الآن. وبخت نفسي، كوني لم انتبه إلى أن شيئاً لن يمنع زوج الأخت من إقامة علاقة غير شرعية مع شقيقة زوجته، إذا لم يكن لديه تلك الميزة، التي يدعونها مروءة، أو وازعاً أخلاقياً يمنع المرء من النوم مع أخت الزوجة، في غياب الأخيرة. هذه المرة الأولى التي أترك فيها عبير مع مارك لفترة طويلة، أقصى مدة كانت نهاراً كاملاً، فدائماً ما ترافقنا في حلّنا وترحالنا. انتابني الرعب مجدداً، وأنا أفكر بالأسباب التي منعتها من إبداء رغبتها بالذهاب معي إلى العراق، هل يُعقل أن تكون بمثل هذا الدهاء؟ أم أن مارك هو من منعها؟ ماذا؟ لماذا عليّ أن أطرح سؤالاً كهذا؟ هل بتّ أشك فعلاً في زوجي؟!

يا إلهي! تُرى ماذا يحدث في لندن؟

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

الاثنين

17 تشرين الأول/أكتوبر 2016

AM 10:33

لندن

حسناً، أعتقد أن تفكيري كان بشعاً بشكل لا يُصدق بشأن شكوكي الأخيرة حول علاقة محتملة بين زوجي وشقيقتي. أشعر بالخجل من نفسي، وأفكر بتمزيق هذه اليوميات، لا أريد لمارك العثور عليها. لكن، قبل أن أفعل أي شيء، ولرغبة لا معنى لها، ما دمت أفكر بإتلاف هذه المفكرة، أحببت تدوين ما حدث بعد وصولي إلى لندن.

هبطت الطائرة في مطار هيثرو الساعة السابعة صباحاً. كنت أحث سائق سيارة الأجرة على الاسراع، وكأني آمل حقاً في أن أمنع شيئاً خطيراً يحدث في شقتنا بين مارك وشقيقتي. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بخمس دقائق حين وصلت، بسبب الزحام، وتأخر اجراءات الدخول لأكثر من نصف ساعة. لا بد أنهما غارقان في النوم الآن، ويعانق أحدهما الآخر، بعد ليلة من الجنس المتواصل. كنت أردد مع نفسي. كلا! مارك يستفيق مبكراً، الساعة السادسة، ربما هو الآن في التمشية الصباحية المعتادة. وهي؟ هي تستحم، تضع كمادة باردة على رقبتها، وتزيل ما علق في جلدها من رائحة ولعاب. لكن

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

لماذا تظنين أنها تضع ثلجاً؟ لتزيل الازرقاق الناجم عن العضّ، كما فعل معي في ليلة الزفاف. أو ربما يكون بصدد إعداد الإفطار، يفعل مارك ذلك طيلة عمره، يخدم نفسه بنفسه. قد يحضر لها إفطاراً خاصاً، ويأخذه إلى سريرها، كما فعل معي مراراً. قد يغتاباني، الخائنان: هل تحبها؟ تسأله: تلك الشقيقة البائسة، الفرس الكبيرة المكسورة ساقها؟ أتمنى لو تُقتل في العراق! آه سحقاً، فاتني أنها بكماء منذ أن هددها حمدان بقتلي في حال إفشائها السرّ. غير أن ذلك لا يمنعها من شتمي، فهي تعرف كيف تفعل هذا بطريقة مفهومة، الحركة الفاحشة نفسها، تكوّن قبضة بيدها، وتبدو حينها كما لو أنها تمسك قضيباً وتحركه قريباً من فمها، في حين تدفع باطن خدها من الداخل بلسانها. يمكن ترجمة كل هذا إلى شتيمة، عبارة خليعة وبذيئة. أنا لا أتعمد البذاءة هنا، لكن هذا جزء مما كان يهجس في داخلي وقتها، ويسبب غلياناً، ورغبة في الموت أو قتل أحدهما، فإما مارك أو عبير. لكن، المفاجأة كانت حين لم أجدهما في الشقة، لتبدأ بعدها نوبة أخرى من الشكوك والمشاهد المتخيلة. فربما سافر الاثنان إلى دولة أخرى، إسبانيا، فرنسا، أو سويسرا. عليّ التأكد من جوازي سفرهما حين يعودان. لكن، لا، لن يجازفا إلى هذا الحد، ربما ذهبا إلى مدينة أخرى غير لندن، لينعما بمزيد من السرية في علاقتهما غير الشرعية، الخائنان! ربما إلى مانشستر أو براد فورد، برمنغهام، ليفربول. أو هما الآن يتسكعان على شاطئ العراة في خليج درورديدج. أين عليّ الذهاب؟ أين أعثر عليهما؟ طبعاً، لم أفكر بالاتصال بهما، سيفسد ذلك خطتي في اكتشاف الخيانة، خيانة عظمى! لم تعد عبير صغيرة لتُستغل، فلا تُحاسب على أفعالها التي كانت بريئة، أما الآن، فهي

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

أفعال شيطانية، ذنوب كبيرة لا يمكن غفرانها. هي الآن فتاة بالغة، وعندما تنام فتاة بهذا العمر مع زوج شقيقتها، فهي بالتأكيد خائنة، وغير بريئة.

غادرت الشقة، ورحت أسير في الشوارع دونما وجهة محددة، في رأسي ألف مطرقة تهشّم مخّي الغبي، وفي خاصرتي ألف أخرى من السكاكين تُغمد، أنا المرأة المغدورة، المطعونة في الظهر، المنتهكة، الفرس المكسورة ساقها، «تعال نجلس في الحديقة ونمارس الكراهية تجاه بعض الناس» هذه العبارة لغلوريا، غلوريا المسكينة، الحزينة والكئيبة، قرأتها حين كنت ما أزال في العراق، في بيت الخالة ماري، وحفظتها عن ظهر قلب. ليست هذه العبارة هي من قادتني إلى هايد بارك، رغم عدم استبعادي أن الاثنين يجلسان هناك ويمارسان الكراهية ضدي، إنما تذكرت عادة مارك اصطحاب عبير إلى تلك الحديقة، من أجل القراءة. كان يقرأ لها هناك، خصوصاً في الأيام النادرة التي تشرق فيها الشمس في لندن، لكن، لماذا هذا الوقت بالتحديد؟ هذا ما لم أعرفه أبداً.

وفعلاً، وجدتهما في الحديقة، كانت هي تستلقي على ظهرها، فوق العشب، وتضع يديها تحت رأسها، ولا تبدو أنها تسمع ما كان يقرأه مارك، الجالس على المقعد الخشبي الطويل، على بعد خطوة، إلى يسارها، لأنها كانت تحشر سماعتين موصولتين بهاتفها النقال، في أذنيها الصغيرتين. قد تسمع أغانٍ في تلك الأثناء، أو أن كل واحد منهما يقرأ على طريقته الخاصة، هو في كتاب ورقي، أغلب الظن أنه رواية، وهي في كتاب صوتي، قد تكون إحدى قصص الحب التافهة.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

اقتربت منهما كثيراً، إلا أنهما لم ينتبها إلى وجودي، كان مارك غارقاً في القراءة، وعبير تغمض عينيها، وهي تستمع أغنية، أو قصة من هاتفها النقال.

«هلووووو!» قلت بصوت مرتفع.

انتبه مارك أولاً. من الواضح أنه تفاجأ بحضوري، فقد نهض، ونطط عينيه، كما لو أن شبحاً تراءى له حينئذ. انتبهت عبير بعده، ونهضت هي الأخرى. قبّلني زوجي، كان مرتبكاً وهو يرحب بي، ويعرب عن اندهاشه بعودتي المفاجئة، أما هي، فقد وقفت في مكانها، وقد انتزعت السماعتين من أذنيها، وهي تنظر إليّ، من دون إبداء أدنى استغراب من رؤيتي، في حدث سابق لأوانه بستة أيام. لكني لمحت ابتسامة توردت على شفتيها، وأنا أخطو باتجاهها، وأقبلها على الطريقة العراقية التي لم أنسها، تلك التي تربو القبلات فيها على العشر، مما يسبب لها الازعاج أحياناً، فهي لم تعش في العراق سوى تسع سنوات، والبقية قضتها في لندن.

لم أطلع مارك على كل شيء حدث في رحلتي إلى العراق، أخفيت بعض الأشياء، كاعتراف أمي بنومها مع الساحر، والوساوس القهرية التي رافقتني، بسبب إشارة عبير القلبية. كان يصغي إلى حديثي باهتمام، ولم ألحظ شيئا من النفاق في إنصاته لي. بدا الرجل كأنه يستمع إلى قصة في كتاب، قصة خيالية، رغم عدم شكوكي في أنه كان يصدّق كل حرف أقوله. كان يشعر بالإثارة، بالأكشن في بعض المواضع، ويعقب بكلمات مثل واو! يا إلهي! كم هذا رهيب! أوووه هذا لا يُصدق! في وقت كنت أشعر أنا بالشفقة تجاهه وبالندم، لأني

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

جعلته هدفاً لشكوكي المبررة على نحو سخيف، بإشارة بريئة تطلقها عبير، فتُفسر بطريقة طالما جعلتها موضع ابتزاز وانتهاك الآخرين.

حسناً، أظن أن هذا آخر ما أدونه من يومياتي، ربما عليّ نسيان كل شيء، بما في ذلك ما حدث أثناء رحلتي إلى العراق، وأبدأ من جديد، اعتني بأسرتي الصغيرة، أحاول انجاب طفل، بأي طريقة، أحاول نسيان الماضي، وممارسة الحياة كما هي متوفرة، بعيداً عن الأحلام الكبيرة والمخيفة، وتتمة ما بدأته، قبل سنوات، وهو إكمال دراستي العليا.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

خاتمة

لندن

كان الوقت بعد الظهر، حين ابلغت مارك بخبر القاء القبض على روميو البنغالي، وبنتيجة تحليل الدي إن أي، التي أثبتت أنه الفاعل. كنا نجلس إلى مائدة الغداء، حين أخبرته. فجأة، كف عن الأكل، وظل منكساً رأسه لبعض الوقت، قبل أن يبادر بالاعتذار. لم يكن اعتذاراً عادياً، من تلك التي يرددها الانكليز بمناسبة أو من دون مناسبة، وبشكل مفرط، فقد بدت عبارة الـتأسف، وهو يقولها، كأنها آتية من مكان ما في أعماقه، ظلت محبوسة في عتمته، منذ فترة طويلة. ظننت أنه يتأسف لمعاودة ذكرى عبير، بما أن الشرطة عثرت على المتسبب في حملها، البنغالي الذي قد يكون، الآن، في طريقه إلى الاعتراف بقتلها، لكني أحسست أن ثمة شيء آخر، مختلف، ولم يخطر على بال أحد، كان وراء اعتذاره.

سألته: «عماذا تعتذر عزيزي؟»

وبدلاً من أن يجيبني قائلاً: «بشأن ما حدث لعبير على يد ذلك البنغالي!»

قال: «لا بد أنه بصدد الاعتراف الآن، لهذا أود أن أعلمك بكل شيء، قد تأتي الشرطة في أي لحظة!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«تخبرني بماذا؟» سألته.

«بما تجهلينه في قضية عبير» أجابني.

«وما الذي أجهله تحديداً؟» سألته.

«بأني القاتل!»

شيء ما حدث لي في حينها، ليس دي جافو، إنما من تلك الأشياء التي قد تحدث، بما أن كل شيء جائز في هذه الحياة كما ثبت لي لاحقاً، لكننا نظلّ لا نتوقع حدوثها، رغم أنها خطرت في أذهاننا سابقاً، وأثارت فينا القلق والشكوك. لم أكن انتظر من مارك اعترافاً من العيار الثقيل، الذي يود المرء بعده، لو أنه مات منذ مدّة، لكي لا يسمع شيئاً مما استجدّ أو يراه. لكني تمالكت نفسي بما يكفي، لأكمل الحوار معه، بعد صمت دام لدقيقة أو أكثر، أشحت بوجهي خلالها ناحية أخرى:

«أنت تهلوس عزيزي! الفاعل في قبضة الشرطة الآن، وأنت تقول لي إنك الفاعل! أرجوك، لا ينقصني مثل هذا الأمر، لكي أجري إلى أقرب نافذة وأُلقي بنفسي منها أنا الأخرى»

كنت أضرب الطاولة برأس الشوكة وأنا أكرر، بطريقة غاضبة:

«كما قلت لك، الفاعل في قبضة الشرطة، أما أنت، فجد لك شيئاً تلهو به، بدلاً من إفزاعي بهذه الترهات، أنا أرتعش يا رجل، ماذا حدث لك؟!»

«هناك فرق بين الفاعل والقاتل في هذه القضية!» قال مارك، وقد رفع رأسه أخيراً، فلمحت ثمة حمرة في عينيه: «البنغالي لم يقتل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

عبير، بل كان المتسبب في حملها فقط، أنا من قتلها، دفعتها بهاتين اليدين وألقيتها من النافذة!»

مرت فترة صمت أخرى، ثقيلة، وثمة نظرة أخرى ساهمة، ضبّبتها دموع بدأت أذرفها أخيراً، ثم سألته:

«هل كنت على علاقة معها؟»

هزّ رأسه متأسفاً، خيّل لي أنه كان يحرك لسانه باضطراب أعلى وأسفل شفتيه من الداخل.

«لماذا قتلتها إذن؟» سألته وتذكرت غلوريا وهي تطلب من روبرت إطلاق النار عليها من المسدس الذي ناولته إياه: «هل طلبت منك ذلك؟»

«كلا!» أجاب متردداً: «في أغلب الأحيان، لا تكون لدينا القدرة بالسيطرة على نزواتنا، وهذا ما حدث لي، قاومت بشدة في البداية، لكني استسلمت بعد سنتين، عندما بلغت هي الرابعة عشرة. كانت مغرية وجذابة بطريقة مجنونة ومدمرة، تشبه السحر، خصوصاً وهي على تلك الحال، بكماء ولا تنطق، لكني اكتشفت، بمرور الوقت، أنها كانت تتظاهر!»

«تتظاهر بماذا؟!»

«بالبكم!»

«عبير كانت تتظاهر بالبكم؟!»

«نعم!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«هل تعني أنها كانت تنطق؟» سألته متذكرة ما قاله حمدان عن تهديده لعبير إن هي أفشت السر.

«كانت تتكلم في لا وعيها، أثناء الممارسة!»

«ممارسة؟!» صرخت بوجهه، وأنا أصفعه، بالكاد فعلت هذا بأطراف أصابعي، فقد كانت طاولة الطعام تفصل بيننا، ثم عدت إلى مكاني، مشتتة، مصدومة، ولا أعرف ما أقول. دار بيني وبين مارك حواراً، تخللته فترات صمت ونشيج بين سؤال أطرحه وآخر.

«أنت نذل يا مارك ووقح إلى درجة لا تُحتمل!»

«أنا آسف!»

«لا قدرة لي على سماع ما تقوله يا رجل.. هل جننت؟!»

«أنا آسف حقاً!»

«أنت لا تستحق العيش، حقاً أنك لا تستحق العيش يا مارك!»

«أعرف.. حاولت إنهاء حياتي وفشلت كما ترين!»

«ماذا كانت تقول؟ ماذا كانت تقول وأنتما... آه، يا إلهي!»

«كلمات بذيئة!»

«وهل تحدثت معك بشكل طبيعي في أوقات أخرى؟»

«مراراً... منذ ستة أعوام، لكني، طيلة هذه الفترة، كان ضميري يؤنبني، وأشعر بالخزي، بالعار، وفي كل مرة أنهي العلاقة تجبرني هي على العودة إليها»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«تجبرك؟»

«نعم.. كانت تبتزني!»

«بماذا؟»

«بكشف العلاقة بيننا. كانت جميلة، وجذابة بشكل شيطاني، وهو ما دفعني للتمادي معها في هذه العلاقة. في المرة قبل الأخيرة التي تركتها، وكانت قبل مغادرتك إلى العراق، استخدمت أسلوباً آخر، أوقعت البنغالي تحت تأثيرها، وكانت الغاية من ذلك إثارة غيرتي والعودة إليها، وقد نجحت في مسعاها. هل تتذكرين مظاهر التأثر بكل ما هو بنغالي وقتها؟ كل ذلك من أجل إيصال رسالتها إليَّ وإغاظتي. عدت اليها مرغماً، إذ خشيت أن تذهب إليه فعلاً. استمرت العلاقة على خير ما يرام، طيلة فترة وجودك في العراق، لكنها سرعان ما عادت إلى التوتر بعد عودتك مباشرة، في واحدة من نوبات ندمي وتأنيب الضمير، هجرتها مجدداً، أردت أن أضع حداً لكل ما يحدث بهذا الخصوص، لأكتشف بعد ثلاثة أيام أنها عادت فعلاً لمواعدة البنغالي. أسهل طريقة للفتاة بالانتقام من حبيب هجرها، هو النوم مع رجل آخر، بغض النظر عما إذا كانت تحبه أو لا. وكما في المرة السابقة، ظننت أنها علاقة الهدف منها إثارة غيرتي، وإرغامي على العودة إليها. لكني فوجئت بتعنّتها ورفضها، قالت أنها بدأت تُغرم بالبنغالي، مما أثار جنوني، وجعلني أتصرف معها بعنف، في سبيل الوقوف حائلاً دون استمرارها بالأمر. اضطررت إلى تهديد البنغالي، الذي لم يكن أقل عناداً منها، ومن ثم تهديدها هي أيضاً»

«هددتها بالقتل؟»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لم أكن جاداً في هذه المسألة، حتى جاء ذلك اليوم من شهر نوفمبر، بعد حوالي ثلاثة أسابيع، حين قطعت تمشيتي الصباحية وعدت إلى الشقة، ودخلت إلى غرفتها، لأكلمها، تشاجرنا، وحدثت مشادة كلامية بيننا. كانت تقف أمام النافذة المفتوحة، وتدير ظهرها لي، ولا يبدو أنها عابئة، وأنا أحثها على هجر البنغالي. حاولت تقبيلها فصفعتني، استفزتني وأشعرتني بأقصى درجات الغضب والعته، اللذين قاداني، ومن دون تفكير بعاقبة هكذا أمر، إلى دفعها نحو النافذة، بعنف وبكل قوة، ثم أكملت ما بدأته عندما حملتها من ساقيها وألقيتها من أعلى إلى الأرض. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ، وحين أطللت لأرى المشهد في الأسفل، رأيت البنغالي واقفاً هناك. خرجت من الشقة، ثم من البناية عبر البوابة الجانبية، لكني لم أجده، فقد لاذ بالفرار. كنت قد أخذت هاتفها النقال، وألقيته في دورة مياه على الطريق، ولم أعد إلا بعد ساعة. إلى ذلك الوقت، كانت الشرطة أمام البناية.

منذ ذلك الحين، وأنا أحاول استدراج البنغالي، لكن من دون فائدة»

«هل كنت تريد قتله هو الآخر؟» كان صوتي يرتجف وأنا اسأله.

«لم يكن أمامي خيار آخر، لكنه كان ذكياً بشكل وفّر له الفرصة ليستشف نيّتي. عندئذ، حاولت إغراءه بالمال، أعطيته مبلغاً جيداً، وحثثته على السفر إلى بينغلادش، لكنه لم يفعل، أوهمني أنه غادر، لكنه في الحقيقة كان يحوم على مقربة من هنا، ليخبرك بما رآه. لم يذهب إلى الشرطة، خصوصاً أني أخبرته بمسألة الحمل، بعد علمي بها من المحقق، كنت متأكداً أني لست المتسبب به، كنت حذراً جداً بهذا الشأن»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«لماذا تعترف لي بكل هذا الآن؟» سألته: «لماذا لم تهرب حتى؟»

«لا أظن أن هناك فائدة من هروبي، سيُقبض عليّ عاجلاً أم آجلاً، أين يمكن أن أذهب؟ أشعر بالذنب، بالندم، وأريد للعدالة أن تأخذ مجراها. حاولت كثيراً، ومنذ فترة طويلة، مكاشفتك بالأمر، والذهاب بعدها إلى السجن. حاولت الرحيل، ثم الانتحار، لا بد أنكِ تتذكرين المرة التي غبت فيها من دون إخطارك، كانت تلك محاولة للهروب، والخروج من حياتكما إلى الأبد. وفي مرة ثانية، عندما حاولت أن أضع حداً لحياتي بتلك الطريقة المضحكة»

«ليتك فعلت!» صحت به، وأنا أحاول أن أطول بيدي وجهه ثانية: «ليتك متّ ولم أسمع منك كل هذا!»

«للأسف، لم أفعل، كنت واقع تحت تأثيرها المباشر، وكنت كلما أهجرها، أعود إليها بقوة وشغف أكبر. أغوتني بالكامل، منذ أن كانت في الثانية عشرة، استحوذت على جميع حواسي، إلى درجة أني كنت أظن، في أوقات معينة، بعدم قدرتي على العيش من دونها، هل تصدقين؟ قد تشكين في مصداقية كلامي، وتظنيني اتبرأ من نزواتي ودناءتي، محاولاً لعب دور الضحية الكبير، الذي تغويه شيطانة صغيرة، لكن هذا لا يهم الآن، ما دمت قد اعترفت لك، وسأعترف للشرطة أيضاً، حين ستعتقلني اليوم، بعد ساعة أو أكثر على الأرجح. حسناً، كانت أمامي طيلة الوقت، تتحرك، تأكل وتشرب، تنام وتمارس حياتها على بعد أمتار قليلة مني، وهو ما جعلني دائم التماس بها. لكن، وعلى الرغم من كل هذه الفظائع، لم يكف ضميري عن وخزي، كنت أجهش بالبكاء، كما أفعل الآن،

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

ما أن يتلاشى سحرها، بعد كل معاشرة، ثم سرعان ما يذهب عقلي مجدداً في اليوم التالي، حين أكون في شوق جارف إلى اليها...»

«كفى!» صرخت بوجهه، بعد أن نهضت، لم أكن أملك من القوة، ما يمكّنني من قلب المائدة عليه، لكني حركتها فقط: «أصمت وإلا قتلتك!»

كنت أود لو أقتله بالفعل، لكن لا أعرف كيف. لم يسبق لي أن فعلت هذا من قبل. لن أحاول خنقه بالطبع، إنه رجل، أقوى مني، وسيقاومني حتى لو وصل شعوره بالندم حد الاستسلام، لا أظنه يتركني أقضي عليه بهذه الطريقة. لو كان يريد الموت حتماً، لأغرق نفسه في مياه النهر، قبل أقل من ثلاث سنوات. كان مهزوزاً، خائفاً، ولا يكاد يتحرك إلا ليبكي، لا يجب الوثوق بشخص مهزوز، ويبدو ساكناً، يمكنه التحول إلى وحش مفترس في أي لحظة، وإلا كيف قُتلت عبير؟ لم أفكر يوماً بالوقوف هذا الموقف، إزاء مارك، فمثل هذه المواقف، تجعلني لا أميز ما أشعر به في حينها. كان من الصعب عليّ الشعور بالحزن والغضب والخوف والرغبة بالانتقام، بالغبن والظلم والخذلان والخيانة، مرة واحدة، ذلك يفقدني تركيزي، ويدفعني إلى اللواذ بالصمت، وهو ما حصل حينما استأنف مارك حديثه. كنت قد تركت غرفة الطعام وهرعت إلى غرفة النوم، فتحت النافذة، وقفت على بعد خطوات منها، وكأني أتيح بذلك الفرصة له بإلقائي، كما فعل مع عبير. كانت الشمس ما تزال مشرقة في ذلك الوقت من النهار، لا غيوم ولا مطر يبعث على الحزن والبكاء. ثمة أطفال بنغاليون سمر، يلعبون في الأسفل، وامرأة تنشر غسيلها في

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

إحدى بلكونات البناية المقابلة، كانت الحياة في الخارج مستمرة كما يجب، والمدينة تنبض بنشاط وحيوية. أحسست بخطى مارك وهو يدخل الغرفة في إثري، ويتوجه إلى حيث أقف، كانت خطواته بطيئة، وثقيلة. لم أتحرك من مكاني، أو التفت نحوه، كنت مستسلمة تقريباً، وأردد مع نفسي: إذا كان مصرع الأفراس مكسورة السيقان يجري على هذا النحو، فليكن إذن، ماذا ينتظر؟ لفحت أنفاسه الرطبة العبقة برائحة التبغ جانب وجهي الأيمن، نظرت إلى الأسفل، حيث موضع سقوطي المفترض، على الأرض العشبية، وتخيلت شكلي وأنا ميتة، وجدته قريباً من الشكل الجنيني الذي اتخذه جسد شقيقتي عبير، لكن، الفرق سيكون في حجم الضرر، وعدد الكسور في كلٍ من جسدينا، إذ تطل نافذتها على الشارع، حيث الأرضية الصلبة، في حين تطل نافذتي على مساحة خضراء فيها أشجار، كانت ستضفي شيئاً من الواقعية الشكسبيرية، لو فكر روميو البنغالي أن يجعلها مسرحاً لمواعيده مع عبير، لكنها كانت نافذتي على أي حال.

سمعت بعدها جرس باب الشقة يرن، ثم خطوات مارك وهو ينسحب إلى مصيره بهدوء واستسلام.

***

حزمت أمتعتي، وغادرت مساء إلى منزل ناتالي.

لم يمضِ الكثير من الوقت، حتى عثرت على غلوريا، في ذلك اليوم، بعد حوالي ثلاثة أسابيع من إلقاء القبض على مارك. عاشت معنا، في الحديقة الخلفية، إلى ما بعد أعياد الميلاد، ثم نقلناها إلى حديقة منزل آخر، كنت قد استأجرته، ولا يبعد كثيراً عن منزل

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

صديقتي، هناك، حيث أصبحت أكثر حزناً وكآبة من ذي قبل، ممددة أغلب الوقت، لا تأكل كثيراً، وقلما تبرح مخدعها في الأيام الأخيرة. كانت كسيرة الروح، وليس الساق فحسب، كنت أحسّ، من نظراتها، كأنها تقول لي معاتبة: لماذا لم تتركيني للموت؟ أعرف هذا الشعور، شعور الكسر، جيداً، فقد جربته حين أفقت من غيبوبتي، في القاعدة البريطانية، في البصرة، الحنق على المنقذ، وكراهيته، والشعور بلا جدوى هذه الحياة.

جلبت لغلوريا طبيبة بيطرية، قالت أن الخيول، التي تعيش بعد الإصابة، تكون حياتها تعيسة للغاية، لأنها، بطبيعتها، حيوانات نشطة، تحب الحركة والجري، وحتى عندما تنام، فإنها تنام واقفة، لهذا، فإن من النادر بقاء الفرس على قيد الحياة، بعد إصابتها:

«يزعم المربون، أنهم يريحون الحصان المصاب إصابة بالغة كهذه بقتله، وربما لا أختلف معهم، إلا في الطريقة، لأنهم يستخدمون أساليب بشعة في قتل الخيول، وهو ما يتنافى مع ميثاق حقوق الحيوان»

«إذن!» سألتها: «هل ترين أن من الإنصاف إنهاء حياتها؟»

ردت الطبيبة متأسفة: «أخشى أن يكون هذا هو الحل الأمثل، لأن الأمر لا يتعلق بعاطفتنا إزاء هكذا حالات فقط، ففضلاً عن شعوره العميق بالتعاسة، يصبح الحصان عالة على صاحبه، إن أبقاه على قيد الحياة، فهناك تكاليف إطعامه، وتطعيمه، والاعتناء به، وبيطرته، ما عدا رؤيته وهو على هذا الحال، كسيحاً، وتعيساً، وعديم الفائدة، وما يسببه كل ذلك من ألم نفسي لمربيه»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

«قلتِ أن المربين يقتلون الخيول بطريقة بشعة؟»

«يفعلون ذلك، يطلقون الرصاص على رأسها، أو يبيعونها إلى المجزرة، وتُقتل هناك»

«لا أريد إطلاق الرصاص عليها، سأكون مثل روبرت، وسيبقى صوت الرصاصة يرنّ في أذنيَّ مدى الحياة، وأتعذب بسببه، كما لا أريد إرسالها إلى المجزرة. باختصار، لا أريد قتلها كما يفعل هؤلاء!» رددت في نفسي، ثم سمعت الطبيبة البيطرية تقول، وكأنها قرأت أفكاري:

«هناك طريقة مريحة نوعاً ما»

«ما هي؟»

«الموت الرحيم»

«كيف»

«بواسطة حقنة!»

«هل تسمين هذا موتاً رحيماً؟»

«نوعاً ما»

«من رصاصة الرحمة إلى حقنة الرحمة!»

«شيء من هذا القبيل» ردت الطبيبة، ثم تابعت بعبارة تشبه كثيراً، ما قاله جد روبرت، بعد أن قتل الفرس نيلي: «هذا هو الشيء الرحيم والوحيد الذي يمكننا تقديمه لها!»

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

نظرت إلى الفرس البائسة، وتذكرت قول غلوريا الفتاة، غلوريا الحزينة: تلك هي الطريقة الوحيدة لتنقذني من بؤسي!

«حسناً، دعيني أفكر!» قلت للطبيبة البيطرية.

اتصلت بناتالي ليلاً، وأخبرتها أني قد أسمح بإعطاء غلوريا حقنة الرحمة، لأنها تعاني كثيراً، بسبب إصابتها وعجزها منذ فترة. ثم تكلمنا في الموضوع نفسه في اليوم التالي، عندما جاءت لزيارتي. كان كلامها مقارباً لما قالته الطبيبة البيطرية، وحدثتني عن الموت الرحيم، الذي ساد بين البشر هذه الأيام، وكيف صار بإمكان المرء، اليائس، أن يسمح بإنهاء حياته، بشكل يوفر عليه ألم الموت، وعناء الاحتضار الطويل، وتمنيت لو أستطيع فعل الشيء ذاته يوماً مع نفسي.

بعد ثلاثة أيام، حين بلغت غلوريا مرحلة متقدمة من البؤس والمرض، والحالة النفسية المتردية، ولا يبدو أنها ستموت عما قريب، اتصلت بالطبيبة البيطرية، أخبرتها بموافقتي على حقنها، فجاءت في اليوم التالي، ومعها مساعدان. ناتالي حضرت أيضاً. طمأنتني الطبيبة إلى أن غلوريا ستموت بسلام، وأنها ستنام في البداية، قبل سريان مفعول المادة المميتة في جسدها، ويتوقف قلبها.

***

بينما كانت غلوريا تموت، كنت أنا أمسّد بيديّ على عنقها، وأبكي.

ودفنتها في الحديقة الخلفية، كما يفعل فقراء الانكليز مع موتاهم.

مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://t.me/BookLover8

"قد يُجن أحدنا بشكل مؤقت، وتدخل حواسه في دوامة الفلتان، يكف عن إدراك ما حوله، يفقد فهمه للعالم و الأشياء، و يتصرف بطيش، و من دون وعي بما يفعله من حماقات، أو يرتكبه من عنف، أليس الوعي هو العقل؟

ربما من وجهة نظري على الأقل، حين يفقد الناس وعيهم يصبحوا مجانين، و أعتقد أني أصبحت مجنونة لبعض الوقت، فقدت فيه القدرة على التواصل، مع أداء غريزي و فطري كالبكاء و من يعلم، ربما بكيت فعلاً، ربما لم تُطفأ عيني، إنما جزء حيويٌ في داخلي هو من أصبح مظلماً و مهجوراً، قلبي مثلاً، فانعكس تأثيره على عين، في حين ضلّ طريقه إلى العين الأخرى، لكي أرى من خلالها جثة عبير، التي كانت ما تزال في مكانها على الأرض الاسمنتية حين وصلت، كانت ملقاة هناك، في وضع جنيني لم تألفه حوادث إلقاء الناس بأنفسهم من النوافذ و الشرفات و لولا بقعة الدم الشبيهة بهالة حمراء غامقة حول رأسها، ذكرتني بلوحات القديسين، لبدت كأنها نائمة بشكل طبيعي طالما رأيتها بهذا الوضع، الشكل الأكثر براءة للأطفال أثناء النوم ..."

من الرواية

9789966636790

دار الفراشة للنشر والتوزيع
DAR AL FARASHA PUBLISHING AND DISTRIBUTION
ضاحية عبد الله السالم ص.ب: 153، الرمز البريدي 72262 الكويت
Alfarasha_q8 Alfarashaq8
alfarashapublishing@gmail.com